قسطنطين زريق

عربيٌّ للقرنِ العشرين

عزيز العظمة



مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة عربية مستقلة تأسست عام ١٩٦٣ غايتها البحث العلمي حول مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي ـ الصهيوني. وليس للمؤسسة أي ارتباط حكومي أو تنظيمي، وهي هيئة لا تتوخى الربح التجاري.

وتعبّر دراسات المؤسسة عن آراء مؤلفيها، وهي لا تعكس بالضرورة رأي المؤسسة أو وجهة نظرها.

شارع أنيس النصولي ـ متفرع من شارع فردان
ص. ب: ٧١٦٤ ـ ١١
الرمز البريدي: ١١٠٧٢٢٣٠
بيروت ـ لبنان
هاتف: ٨٠٤٩٥٩. فاكس: ٨١٤١٩٣
هاتف/ فاكس: ٨٦٨٣٨٧
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

INSTITUTE FOR PALESTINE STUDIES
Anis Nsouli Street, Verdun
P.O.Box: 11-7164
Postal Code: 11072230
Beirut, Lebanon
Tel. 804959. Fax: 814193
Tel. & Fax: 868387
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

قسطنطين زريق

عربيٌّ للقرنِ العشرين

قسطنطين زريق

عربيٌّ للقرن العشرين

عزيز العظمة

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

Qusṭanṭīn Zurayq: ʻarabiyyun lil-qarn al-ʻishrīn
ʻAzīz al-ʻAẓmeh

Constantine Zurayk: An Arab for the Twentieth Century
Aziz al-Azmeh

ISBN 9953-9013-8-4

الطبعة الأولى – بيروت
أيار/مايو ٢٠٠٣

تَنَبّهوا واستفيقوا أيّها العَرَبُ
فَقَدْ طَمى الخَطْبُ حتّى غاصَتِ الرُّكَبُ

إبراهيم اليازجي

"...ihm doch schien, als ob irgendwo inmitten zwischen den strittigen Unleidlichkeit, zwischen rednerischem Humanismus und unalphabetischer Barbarei das gelegen sein müsse, was man als das Menschliche oder Humane ... aussprechen durfte"

Thomas Mann

["بدا له أنه في مكان ما، داخل لجّة ما لا يحتمل، بين مذهب إنساني ثرثار وهمجية أمّية، لا بد من وجود ما قد يُفصَح عنه على أنه شأن بشري أو إنساني"]

توماس مان

المحتويات

قائمة الصور XIII

تمهيد وشكر ١

سجل حياة قسطنطين زريق (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٠) ٥

الفصل الأول: حياة في نسيج العصر ٧

دمشق ١٢

بيروت ١٩

شيكاغو/ نيويورك/ برنستون ٢٥

بيروت: الأخلاق والتربية ٢٨

بيروت: القومية العربية ٣٩

بيروت، دمشق، العالم ٥٩

الفصل الثاني: العقيدة القومية ٩٧

ملحق: نص الكتاب الأحمر ١٢٠

الفصل الثالث: القومية في معركة الحضارة ١٣٩

الفصل الرابع: مطالب الصناعة التأريخية ١٦٥

الفصل الخامس: الراهن من قسطنطين زريق: خلاصات تحليلية وتركيبية ... ١٨٣

المصادر ٢٠٥

دراسات في زريق ٢١٥

فهرست أعمال قسطنطين زريق ٢٢٩

قائمة الصور

١) قسطنطين زريق مع والديه وأخته فومية ١٣

٢) في المدرسة الآسية في دمشق ١٧

٣) قسطنطين زريق في شبابه (طالباً جامعياً) ٢١

٤) قسطنطين زريق، أوائل الثلاثينات ٣٠

٥) الهيئة الإدارية لعام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ لجمعية العروة الوثقى ٤٥

٦) مع عقيلته دبلوماسياً في واشنطن ٦٤

٧) قسطنطين زريق في الخمسينات ٦٧

٨) في مجلس اليونسكو سنة ١٩٥١ .... ٦٨

٩) رئيساً للجامعة السورية ٦٩

١٠) مع أسرته، بيروت ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ .... ٧٤

١١) زريق وعقيلته مع والدي مؤلف الكتاب، سلمى نابلسي وملك العظمة، في مناسبة اجتماعية، بيروت ١٩٥٤ .... ٧٧

١٢) جامعة ميشيغن ـ الدكتوراه الفخرية ٩٣

١٣) قسطنطين زريق، أواخر السبعينات وأول الثمانينات ٩٤

١٤) الحبيب بورقيبة مستقبلاً مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تونس ١٩٨١ .... ٩٥

١٥) قسطنطين زريق بعد تلقيه جائزة الثقافة العربية، شتاء ١٩٩٩ .... ٩٦

تمهيد وشكر

بين يدي القارئ مؤلف يتناول حياة وفكر الراحل الدكتور قسطنطين زريق. ولقد كنت أقدمت على وضع هذا الكتاب بشيء من الوجل بعد أن شرفتني أُسرته بارتضائي مؤلِّفاً له وباقتراحهم لي القيام عليه. فقد ربطتني بزريق علاقة طويلة، اجتماعية أُسرية في أول أمرها، تطورت على مر الزمن إلى تلمذة بعيدة بعض الشيء انطوت على تقدير واحترام كبيرين، شأني في هذا الأمر شأن غيري، إلى أن كرمني من سنيه الأخيرة بما دعاه البنوّة الروحية. ولذلك فإن إقدامي الوجل على وضع هذا المؤلَّف جاء نتيجة لشعوري بمسؤولية جسيمة وبوفاء في آن واحد، تجاه شخصية قدّرت وما زلتُ أقدر موقعها في الفكر العربي أكبر تقدير، ولرغبتي في إيفاء حق ومحبة ليس الإيفاء بهما يسيراً.

كان قسطنطين زريق مفكراً حراً، يرعى العقل التاريخي النقدي الفاحص، وما رغب، على عكس كثير من كبار العرب الآخرين، في طلب واستدراج فروض الطاعة، بل ما فتئ يشجع الفكر الحر ويرعى التناول التاريخي السابر للأمور المتعلقة بحاضر العرب وماضيهم ومستقبلهم. وعلى ذلك فقد جاءت هذه الدراسة محاولة لمجاراة ما قام عليه طوال حياته من أمانة وتحرٍّ وتحوط في الفكر. جاءت هذه الدراسة دراسة تحليلية وتركيبية وتاريخية لحياة زريق وفكره، تجعل من هذه الحياة ومن ذلك الفكر أمرين متموضعين في سياق أعرض من شخص زريق، هو سياق التاريخ والفكر العربيين الحديثين، بحيث تتبدى لنا الشخصية والفكر معاً بوصفهما نتاجاً لعصر هو القرن العشرين من حياة العرب ومن حياة المشرقيين منهم على وجه التعيين، وبحيث ينتجان من هذا القرن ويعودان إليه.

جاء هذا الكتاب إذاً مزيجاً من المساقات السردية والمتون التحليلية، مع الحرص على عدم تبسيط الأمور، وعدم الإخلال بروابطها بين بعضها البعض، ومع العناية بإيلاء موقع المركز للأمور الجوهرية من دون الأمور الجانبية أو العارضة، خلا ما ارتبط منها بالأساسي والجوهري أو ما دل عليه. فجاء الابتداء بفصل طويل تناول نشاط زريق في حياته المديدة، راصداً المشاغل الأساسية الفكرية وغير الفكرية التي أولاها اهتمامه وطاقته. يتناول الكتاب بعد ذلك العناصر الأساسية التي عالجها في أعماله، وعلى رأسها قضية العقيدة القومية والقضية التاريخية والحضارية، مع تناول

تحليلي للروابط التي نسجها فكره بين العناوين الأساسية لمشاغله. وينتهي الكتاب بفصل حاولت فيه لملمة جملة من الخيوط الجامعة لمسارات فكره مما وجدت فيه تجاوزاً لعصره واندراجاً في مستقبل طالما حاول تلمس معالمه.

وقد استند هذا الكتاب إلى المنشور من كتب زريق ومقالاته، وعضد ذلك بالأكوام الكبيرة من الأوراق التي تركها والتي تضمنت مقالاته ومحاضراته غير المنشورة، والمذكرات التي كتبها في أواخر حياته والتي سجل فيها ما شاء من سيرته حتى سنة ١٩٤٧، فضلاً عن مراسلات ووثائق شتى سيشار إليها في مواضعها من حواشي الكتاب، ومحفوظات جامعة دمشق والجامعة الأميركية في بيروت. كما أنني أجريت عدة مقابلات مع عدد من الأشخاص الذين عرفوه. وسيجد القارئ في نهاية الكتاب فهرساً شاملاً ـ ضمن حدود الاستطاعة ـ بأعماله المنشورة وغير المنشورة، وبما كتب عنه، إضافة إلى فهرس يتضمن ما استخدم في هذا الكتاب من مراجع مطبوعة وغير مطبوعة وشفهية. وتتعين عليّ الإشارة هنا إلى أنني أشرت في حواشي الكتاب إلى أعمال زريق المنشورة وغير المنشورة على صورة مختصرة مقصورة على العنوان والتاريخ، وعلى القارئ المهتم تتبع تفصيلات ذلك في الفهرست. ولمّا كانت أوراقه وأعماله غير المنشورة والمحفوظة لدى أُسرته مضمومة في ملفات مرتبة على التواريخ والموضوعات من دون ترقيم، فلن يجد القارئ إشارات إلى أرقام الأوراق والوثائق المشار إليها. كلمة أخيرة بخصوص ترتيب فهرست أعمال زريق: وجدنا أنه من العسير بناء أبواب موضوعية خاصة تصنَّف على أساسها مقالاته، وذلك لتداخل الموضوعات والمناهج وأشكال الكتابة لديه بين العلمي والتثقيفي والسياسي. وبعد النظر في جملة من التصنيفات الممكنة، آثرنا في النهاية اتباع التسلسل الزماني لكتاباته ولنصوصه المنشورة وغير المنشورة، عدا المواد التي صنّفتْ نفسها تلقائياً كالكتب ومراجعات الكتب. ووجدنا أن هذا الترتيب ييسر للقارئ الانتقال من الإحالات المختصرة في حواشي الكتاب والمحتوية على العنوان والتاريخ إلى البيانات الكاملة المدونة في الفهرست. كما أنه يتيح للباحث متابعة تطور اهتمامات زريق على نحو متسلسل.

* * *

أود أن أتقدم بالشكر في المقام الأول إلى أفراد أسرة زريق الذين أولوني ثقتهم وفتحوا لي منزلهم وأتاحوا لي الاطلاع على أوراقه وسبرها في مكتبه الخاص. كما أنني أود أن أعبر عن امتناني وتقديري للسيد رفعت النمر، الذي بادر إلى اقتراح هذه الدراسة، بل أصر على الرغبة في رؤيتها منشورة بأسرع وقت ممكن. وقد أتاح لي

الدعم المادي من الطرفين السفر وجمع المادة المطلوبة للدراسة وإنشاء ما يشبه الورشة البحثية على الصورة المتعارف عليها في تكليفات البحث العلمي العالمية. كما مكنني هذا الدعم من الاستفادة من معاونة السيد شادي ناصر، الذي ساعدني بدقة وحماسة وأخلاقية، والذي يعود إليه الفضل في إطلاعي على أمور فاتتني، وفي إعداد وتدقيق الفهارس تدقيقاً محكماً، وأخيراً على رقم نص الكتاب على الحاسوب. كما وأن للدكتورة نادية البغدادي عليّ فضلاً كبيراً في المساعدة على ترتيب فهارس هذا الكتاب وضبطها. وأود أخيراً أن أتقدم بالشكر إلى السيدات والسادة الذين تكرموا بمطالعة مسوّدة الدراسة ومناقشتها معي في اجتماع تفضلت مؤسسة الدراسات الفلسطينية مشكورة برعاية تنظيمه وإقامته: السيدة نجلاء زريق، والدكتورة هدى زريق، والآنسة حنان زريق، والدكتورة فهمية شرف الدين، والسيد محمود سويد، والسيد رفعت النمر، والسيد غسان تويني، والدكتور خير الدين حسيب، والدكتور نديم دمشقية، والدكتور الطاهر لبيب، والسيد شادي ناصر. كما أنني ممتن للذين قرأوا الكتاب ووافوني بملاحظات مكتوبة: الدكتور عبد العزيز الدوري، والسيد هاني الهندي، والدكتور نديم دمشقية، والدكتورة خيرية قاسمية، والدكتورة ثريا التركي، والدكتور هشام نشّابة، والدكتور فواز طرابلسي، والسيدة ماجدة العساف. إنني أشكر الجميع على إرشادي إلى مواضع النقص والخلل وتمكيني من استدراكها، كما أنني أشكر لجميع هؤلاء الرأي والنصيحة والمشورة، التي أخذت ببعضها وصرّفت بعضها الآخر على الاختلاف في وجهات النظر.

سجل حياة قسطنطين زريق

(١٩٠٩ - ٢٠٠٠)

الأحوال الشخصية

قسطنطين زريق: والده قيصر زريق، والدته عفيفة خوري.

ولد في: دمشق، ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٠٩، توفي في بيروت في ١٢ آب/أغسطس ٢٠٠٠.

متزوج: نجلاء قرطاس.

بناته: إلهام، هدى، عفاف، حنان.

الدرجات الجامعية

- بكالوريوس في الآداب، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٢٨.
- ماجستير في الآداب، جامعة شيكاغو، ١٩٢٩.
- دكتوراه في الآداب، جامعة برنستون، ١٩٣٠.
- دكتوراه فخرية في الآداب، جامعة ميشيغن، ١٩٦٧.

المناصب العلمية

- أستاذ مساعد، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٣٠ - ١٩٤٢.
- أستاذ مشارك، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٤٢ - ١٩٤٧.
- أستاذ، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٤٧ - ١٩٥٦.
- أستاذ ممتاز، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٥٧ - ١٩٧٧.
- أستاذ ممتاز متقاعد، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٧٧ - ٢٠٠٠.
- أستاذ زائر، جامعة كولومبيا، ١٩٦٥.
- أستاذ زائر، جامعة جورجتاون، ١٩٧٧.
- أستاذ زائر، جامعة يوتا، ١٩٧٧.

المناصب الإدارية

- نائب الرئيس، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٤٧ - ١٩٤٩، ١٩٥٢ - ١٩٥٤.
- رئيس الجامعة السورية، دمشق، ١٩٤٩ - ١٩٥٢.
- عميد الكليات، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٥٢ - ١٩٥٤.
- رئيس الجامعة بالوكالة، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٥٤ - ١٩٥٧.

- عضو المجلس التنفيذي لليونسكو، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤.
- عضو اللجنة العالمية للتاريخ العلمي والثقافي للإنسانية، اليونسكو، ١٩٥٠ ـ ١٩٦٩.
- عضو المجلس الإداري للهيئة العالمية للجامعات، ١٩٥٥ ـ ١٩٦٥.
- رئيس جمعية أصدقاء الكتاب، بيروت، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٥.
- رئيس مجلس الأمناء، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٣ ـ ١٩٨٤.
- رئيس الهيئة العالمية للجامعات، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠.
- رئيس فخري مدى الحياة للهيئة العالمية للجامعات، ١٩٧٠ ـ ٢٠٠٠.
- رئيس فخري لمجلس الأمناء، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤ ـ ٢٠٠٠.

عضوية المجامع العلمية

- عضو مراسل، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٥٤ ـ ٢٠٠٠.
- عضو مؤازر، المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٩ ـ ٢٠٠٠.
- عضو فخري، الجمعية التاريخية الأميركية.

المناصب السياسية

- المستشار الأول، المفوضية السورية، واشنطن، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦.
- الوزير المفوض للجمهورية السورية، واشنطن، ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧.
- عضو مناوب في مجلس الأمن، نيويورك، ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧.

الأوسمة والجوائز

- وسام الاستحقاق السوري، الدرجة الأولى، ١٩٥٢.
- وسام الاستحقاق السوري، الدرجة الممتازة، ١٩٥٦.
- وسام الأرز الوطني برتبة قومندور، لبنان، ١٩٥٦.
- مواطن فخري في مدينة قارطاخينا، كولومبيا، ١٩٦٧.
- وسام المعارف، لبنان.
- وسام المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٩٣.
- وسام القديسين بطرس وبولس برتبة قومندور، بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأورثوذكس، دمشق، ١٩٩٣.
- وسام الاستقلال من الدرجة الأولى، المملكة الأردنية الهاشمية، ١٩٩٤.
- الجائزة التقديرية في الثقافة العربية، الألكسو، ١٩٩٩.
- وسام الأرز الوطني برتبة ضابط أكبر، لبنان، ١٩٩٩.

الفصل الأول

حياة في نسيج العصر

لا أخالني مبالغاً إن قلتُ إن الدكتور قسطنطين زريق شخصية ما زالت مجهولة على الرغم من ذياع الصيت ووفرة الاحترام والمهابة والتقدير الشخصي والفكري التي حظيت بها، والتي كانت جديرة بها منتهى الجدارة. وإن لقلة المعرفة هذه بواعثَ، ليس أقلها كون المعرفة بهذه الشخصية من قبل المهتمين معرفة تقريبية وإجمالية، وأنها كانت ـ أي هذه المعرفة ـ معرفة برمز للاستقامة وللاتزان الشخصيين، وبرمز من رموز الفكر القومي العربي. وإن مناط المعرفة بالرمز ليس الدقة أو الدراية، وإنما التقريظ والتدليل على ما قد يتمناه العارف أو ما يرتجيه من المناقب. وهذا أمر بيّن مما يقوله العارفون على وجه العموم، ومما يكتب عن زريق، مع استثناءات ليست عصية على الحصر، وخصوصاً أن عموم المثقفين العرب، على معرفتهم بالاسم وبالشخصية وبالرمز، لم يتجشموا عناء القراءة المتأنية والمتسلسلة لأعماله، وذلك على صورة ليست غريبة عن سجية الثقافة العربية المعاصرة.

ثم إن شخصية زريق كانت شخصية عامة ورسمية، نادراً ما تراءت فيها دواخل الذات، بل ربما ما كانت المسافة بين الذاتي والموضوعي لديه مسافة بعيدة، بحيث دلت المظاهر على أن الحياة الخاصة تماهت مع الحياة العامة، باجتماعهما في بوتقة انتظام مبدئي وأخلاقي عماده موضوعية وعقلانية السلوك، تماهياً نادراً ما نراه في الشرق. ثم إن زريق نفسه لا يساعدنا كثيراً في هذا الشأن، فهو لم يكن بوّاحاً، وإنما كانت شخصيته مطبوعة على الكتمان، حتى في بيته وبين ذويه. ولا يبدو أن علاقاته الاجتماعية عرفت طائفة الأصحاب المتوسطة بين الأُسرة والأصدقاء الخلّص من جهة، والعلاقات والمعارف الرسمية من جهة أُخرى،[1] ولو كان مجالساً أنيساً يستمتع بمجالس الانبساط في حلقته الاجتماعية الخاصة[2] حتى سنة ١٩٧٠، عندما دفع به المرض والقنوط من السياسة العربية إلى شيء من الانقباض والإقلال من الاختلاط بالناس.[3] وهو رسم لنفسه مساراً ذا صبغة رسمية آثر ألاّ يحيد عنها في كلامه. فهو قد كتب في مذكراته، التي دوّنها في الأعوام الأخيرة من عمره، بخصوص الفترة ١٩٣٠ ـ ١٩٤٥: «لن أستطيع ـ ولا أنا أريد ـ أن أسجل تفصيلات

---

(١) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١؛ مقابلة مع الدكتورة هدى زريق، ٢٤/١١/٢٠٠١.

(٢) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١؛ مقابلة مع السيدة عفاف زريق، ٦/٧/٢٠٠١؛ جبرائيل سليمان جبور، من أيام العمر (بيروت: جمعية أصدقاء الكتاب، ١٩٩١)، ص ٩١.

(٣) مقابلة مع السيدة عفاف زريق، ٦/٧/٢٠٠١.

ذكرياتي عن هذه الفترة من حياتي... بل أوثر أن أرسم الخطوط الرئيسية لتوجهاتي الفكرية والعملية.»[٤] وهو الذي أجاب عن سؤال دار حول ما قد يحرجه من الأسئلة قائلاً: إن ما يحرجه هو السؤال الشخصي، وإنه يفضل الإجابة عن أسئلة تتناول أموراً عامة تهم الجميع.[٥]

وعلى ذلك، فإن ما يتبقى لدينا شخصية عامة، فكرية وسياسية وتربوية، حظيت بمحبة القريبين وباحترام البعيدين وتقديرهم. لا شك في أن ذلك عائد إلى الجدية البالغة التي طبعته، وإلى المواظبة على العمل، وإلى الانضباط في العمل والسلوك جميعاً، الأمر الذي جعل منه أباً ربى بناته عن طريق المثال والنقاش العقلاني، لا الوعظ والزجر والضغط والصوت المرتفع،[٦] بل إنه آثر ألاّ يفرض آراءه السياسية القومية على منزله ـ ولو كان جو البيت عروبياً من دون شك.[٧] ولم يكن هذا الطبع مقصوراً على زريق الناضج، بل ما كان غريباً عن زريق اليافع والشاب، فهو قال عن نفسه أنه نادراً ما مارس نشاطاً مدرسياً خارج قاعات الدراسة في الجامعة الأميركية، فلم تكن له نشاطات رياضية، ولا اشترك اشتراكاً ملحوظاً في الجمعيات الطلابية.[٨] وقد انتقلت هذه الخصال إلى أدوار نضجه، حين كانت حياته اليومية بالغة الانتظام، تبدأ بالاستيقاظ المبكر والحمام والفطور، ثم تستمر في صفوفه الجامعية التي اختار لها الساعة السابعة والنصف صباحاً توقيتاً منتظماً، التي كان يعود بعدها إلى البيت ويجلس في مكتبه للعمل حتى وقت الغداء، الذي تبعته راحة قصيرة يعود بعدها إلى مكتبه في الجامعة. وقد واظب على ذلك طوال حياته.[٩]

ولعل هذا الانضباط وهذه المواظبة، والتقدير للوقت، والحفاظ على مسافة ومساحة خاصة في البيت وخارجه ـ وما عرف عنه من التحفظ فيما يتعلق بما يقال ولا يقال، والإعراض التام عن اللغو والنميمة، والموضوعية والعقلانية، والاقتصاد في التعامل مع الناس بدءاً بالأُسرة وانتهاء بعامة المعارف، وإيثار الآخرين والانشغال بهم عن نفسه، والانصباب على موضوعية العلاقة مع غيره ـ أمور كلها حدت الكثيرين على تقريظه وعلى تقديره. ولعل من أفضل الأمثلة لهذا التقدير العام له، ما

(٤) المذكرات، ص ٥٨ (أوراق الدكتور زريق).

(٥) مقابلة في السفير، ١٩/٥/١٩٩٤.

(٦) مقابلة مع السيدة عفاف زريق، ٦/٧/٢٠٠١؛ مقابلة مع الدكتورة هدى زريق، ٢٤/١١/٢٠٠١.

(٧) مقابلة مع الدكتورة هدى زريق، ٢٤/١١/٢٠٠١.

(٨) المذكرات، ص ٣٤ (أوراق الدكتور زريق).

(٩) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١؛ مقابلة مع الدكتورة هدى زريق، ٢٤/١١/٢٠٠١.

قاله عنه غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، من أنه اعتبره أباً ومرشداً حقيقياً، على كونه شخصية أنيسة حكيمة صادقة متمتعة بروح رفيعة للخدمة العامة، بل لم يجد غبطته إنساناً «ممسكاً بحياته» مثله، فلم تعبر كلمات زريق إلاّ عن الصدق والموضوعية، وما حملت الكلمة التي قالها أكثر من معناها ولا أقل.[١٠]

ولا شك في أنه كان لتلك الموضوعية والاستقامة، ولذلك الانضباط في السلوك وفي الفكر، وأنه كان في ذلك الانصراف عن الشأن الخاص إلى الشأن العام، وفي الإنتاج الفكري الضخم الذي يشهد عليه فهرست أعمال زريق، وفي الإجماع الذي يكاد يكون عاماً على هذه الأمور، بواعث ذاتية سحيقة عملت على صقل شخصية زريق منذ وقت مبكر. ولعل أكثر هذه البواعث أهمية، عصامية صارمة نتجت من طفولة ويفاعة اتسمتا بقلة ذات اليد، وبالاقتصاد والتقشف والإعراض عن الهدر والاهتمام بالمظاهر الاجتماعية، وبالسعي الحثيث لتكوين ذاته كي يتسنى له الانصراف إلى إعالة أُسرة غاب عنها الأب في وقت مبكر، كما سنرى في الفقرات اللاحقة.[١١] وثمة حوادث كثيرة دالة على مزيج الذاتي والموضوعي ومزيج الموضوعية والتواضع في التعامل، جديرة بالذكر، منها تنازله عن جزء لا يستهان به من راتبه عندما كان رئيساً للجامعة السورية (٥٠٠ ليرة من ٢٣٠٠ ليرة شهرياً) بسبب سوء أحوال الزملاء من أساتذة الجامعة، وبسبب التقشف في ميزانية الدولة آنذاك.[١٢] ومن هذه الحوادث، استئذانه رئيس جامعة الكويت الغياب عن الكويت يومين لحضور اجتماع مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية في سنة ١٩٧٩ عندما كان مستشاراً للجامعة،[١٣] واستئذانه عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية ـ حيث كان أستاذاً زائراً سنة ١٩٧٨ـ الغياب عن بيروت بضعة أيام، مع التعهد باستكمال ما فات من دروس وتعويض طلابه ما فاتهم منها.[١٤] وفي ذلك كله دلالة على موضوعية وتواضع العلاقة بالعمل على نحو نادراً ما نراه لدى الكبار في العالم العربي.

* * *

(١٠) مقابلة مع غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم، ٢٤/٦/٢٠٠١.

(١١) مقابلة مع الدكتورة هدى زريق، ٢٤/١١/٢٠٠١؛ مقابلة مع الدكتور نبيل خوري، ١٤/٢/٢٠٠١.

(١٢) رسالة من زريق إلى وزير المعارف السوري، ٤/١/١٩٥٠ (أوراق الدكتور زريق).

(١٣) رسالة من زريق إلى الدكتور حسن الإبراهيم، ٥/٢/١٩٧٩ (أوراق الدكتور زريق).

(١٤) رسالة إلى الدكتور أحمد مكي، ٣/٤/١٩٧٨ (أوراق الدكتور زريق).

اقترحنا أن شخصية زريق تكونت في معالمها الأساسية تكوناً مبكراً، ونضيف أنه ثبت طوال حياته على جملة أفكار وتطلعات تكونت باكراً، بحيث كان في نهاية عمره «شاباً في التسعين».(١٥) والحال إن حياة زريق امتدت على ما يقارب مجمل القرن العشرين، واستقت أفكارها من ضحى النهضة العربية، كما أنها مثلت هذا الدور من أدوار التاريخ الثقافي والسياسي العربي أوضح تمثيل، وآثرت البقاء في هذا الضحى والثبات عليه، وهو الضحى الذي ظل في طور التصور والوعد، وانتكس ـ بفعل عوامل شتى ـ عندما كانت له قابلية الانتقال من طور التصور هذا إلى طور التحقق. فجاء نتاج زريق الفكري ممثلاً ثابتاً للوعد العربي ولقصور هذا الوعد في آن واحد، على الصورة التي سنرسمها في سياق هذا الكتاب. فكأننا بكتابتنا تأريخ زريق نكتب تأريخ الفكرة العربية بما فيها من صلاح ومن قصور. ونحن قلنا إن زريقاً قد تكوّن مبكراً، وإن الصفحات اللاحقة ستكون شاهدة على ما نذهب إليه من أن ثباته على الأفكار التي اقترنت بضحى العروبة كان نتاجاً لهذا النضج المبكر في زمن مضى، وحملاً لهذا الزمان إلى أزمنة لاحقة قاصرة عنه. فلئن شهدت له براءة وثيقة الدكتوراه الفخرية من جامعة ميشيغن سنة ١٩٦٧ على أنه «رجل عالمي لدولة الثقافة» وعلى أنه «ممثل التنوير»،(١٦) فإن ذلك يجعل منه منتمياً إلى عصر عالمي ـ وعربي ـ راقب زريق انتكاساته العربية والعالمية عن كثب وسجّلها، من دون أن يواكب هذه الانتكاسة، ومن دون أن يحاول أن يستمسك منها بوسائل التعامل معها، على ثبات جعل منه معايشاً لعصرين من عصور النهضة العربية الحديثة، عصر النشأة وعصر الأفول، ملازماً للأول ومبتعداً عن الثاني، بل متأملاً له بحيثيات الأول ومعاييره.

ننتقل الآن إلى محطات ومجارات حياة وفكر زريق التأسيسية واللاحقة، ونبتدئ بما تكوّن في البداية مما لاصق فكره طوال حياته.

دمشق

ولد قسطنطين (كوستي) زريق في ٥ نيسان شرقي ١٩٠٩، الموافق في ١٨/٤/١٩٠٩، في منزل الأُسرة بحي القيمرية في دمشق القديمة. ولد في كنف أُسرة أورثوذكسية من الطبقة الوسطى، ولم يكن كل أورثوذكسيي دمشق سواسية ـ كما لم يكن المسلمون سواسية ـ بل إن أورثوذكس دمشق القديمة، كجيرانهم المسلمين،

(١٥) كريم مروة، «ظاهرة قسطنطين زريق في أفكاره وفي تحولاته»، الطريق، ٦٠/٤ (٢٠٠١)، ص ٨١.

(١٦) نص وثيقة البراءة (أوراق الدكتور زريق).



قسطنطين زريق (واقفاً) مع والديه وأخته فومية

تفاخروا اجتماعياً على أورثوذكس ـ ومسلمي ـ حيٍّ كالميدان[17] (حيث ولد ميشيل عفلق) الذين كانوا ينعتون بالميل إلى البلطجة واستعراض العضلات الذي كثر ما عُلِّل استناداً إلى علاقتهم بالبادية وحوران واختلاطهم بأهليهما، وبقيامهم على تجارة الأغنام والجلود وما شابه. وككل الأُسر المنتمية إلى الطبقة الوسطى، تفاوت أفراد آل زريق في أوضاعهم، فكان بينهم الموسر والمتوسط الحال والمعوز، وربطت بينهم وبين أُسر الأعيان (مثل آل شامية، أُسرة جدّة زريق لأبيه) روابط مصاهرة. والحال أن الأُسرة ـ كمعظم الأُسر المنتمية إلى هذه الطبقة ـ لم تكن سحيقة النسب، ولم يوفق زريق، على الرغم من المحاولات المستمرة، إلى تتبع أصول أُسرته. فإن أحداً من أسلافه لم يضع شجرة للعائلة، كما أنه لا يصح من منظور تاريخي الركون إلى ما لدى مسيحيي الشام من نزوع إلى إرجاع أنسابهم إلى قبائل حوران وشرق الأردن، ومن ثم إلى الغساسنة[18] ـ وهو نزوع يبدو أن أول من بعث عليه كان اختراع جرجي زيدان له ـ وإرجاع كل مسيحيي الشام إليه، ومنهم مسيحيو دمشق الذين انتمى كثير منهم إلى أسر هاجرت إلى دمشق وإلى حمص من لبنان ـ وخصوصاً من مدينة زحلة ـ بعد حروب لبنان الطائفية في القرن التاسع عشر.

ومهما يكن الأمر، فإن أول من يُسمع به من أسلاف زريق في دمشق كان جد والده، حنا زريق. وللأسرة فروع كثيرة: في بيروت (ومنهم غندور وشاكر زريق القبضايان الشهيران في أواخر العهد العثماني)، وفي قرى جنوب لبنان، وفي الإسكندرون وأنطاكية وعكا (وهم من المسلمين)، واللاذقية (وهم أيضاً من المسلمين). لم يعرف زريق جده قسطون؛ أمّا والده قيصر فتزوج في دمشق في أسرة حبيب خوري عبد الأحد، الذي لم يعمر طويلاً، فكان أن نشأت والدته في منزل أخيها إسكندر، أحد كبار تجار سوق الحميدية. ولمّا كانت تجارة آل زريق قد بارت في أواخر القرن التاسع عشر ـ على المألوف في هذا العهد المضطرب والمتقلب ـ اضطر قيصر وأخواه، توفيق وإلياس، إلى الهجرة إلى كولومبيا، التي رجع منها قيصر، كعادة غيره، إلى دمشق ليتزوج من عفيفة خوري سنة ١٩٠٧. واضطر إلى البقاء في دمشق خلال الحرب العالمية الأولى ـ التي اتسمت بالشح والبؤس وانقطاع موارد الرزق ـ ومات في طريق عودته إلى كولومبيا سنة ١٩٢٤. فكان أن يفاعة زريق أمضاها في رعاية أخواله ـ وخصوصاً منهم التاجر فؤاد خوري ـ الذين أنفقوا على أختهم وأولادها وعلموهم. وإن قسطنطين الابن البكر ظل، طوال حياته، على علاقة

(١٧) مقابلة مع الدكتور جورج طعمه، ٢٠/٤/٢٠٠١.

(١٨) المذكرات، ص ٤ (أوراق الدكتور زريق)؛ مقابلة مع المطران جورج خضر، ١١/٤/٢٠٠١.

وفاء ومحبة وقرب شديدة بآل خوري، بعد أن رد الدَين إليهم.[19] ولقد كان هذا الاعتماد المبكر على الأخوال ما بعثه على العمل الدؤوب الهادف، وعلى الشعور بالمسؤولية منذ سن مبكرة. ولا شك في أن لصفاء الجو العائلي الذي نشأ فيه، جو التعاون و«مخافة الله»[20] ـ بالعبارة الدارجة الشديدة الإيحاء ـ أثراً تكوينياً في الشخصية التي عرف بها، والتي صقلتها المسؤولية العائلية التي واجهها وهو في الرابعة عشرة من العمر، عندما وجد نفسه، وقد رحل والده، مسؤولاً عن أخيه وأختيه.

والمعروف عن دمشق القديمة أن مساكن المسلمين والمسيحيين اختلطت فيها وتداخلت، كالتجاور والتشارك في أماكن العمل. ولئن كان لدى مسيحيي دمشق لذلك العهد بعض مشاعر التوجس التي رفدتها أخبار الأجداد عن أحداث سنة ١٨٦٠ البشعة، وعمقتها الأوضاع الاقتصادية الصعبة خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، إلاّ إن الانغلاق الاجتماعي النسبي للأُسر المسيحية ـ كالأُسر المسلمة ـ لم يجد لنفسه ترجمة سياسية طوائفية. فكان نسيب زريق، توفيق شامية، أحد أكبر وجهاء المدينة ومدير الشعبة السياسية في عهد الملك فيصل الأول. كما كان غريغوريوس حداد، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق (المتوفى سنة ١٩٢٤)، عروبياً فيصلياً، ثم من أركان الوجهاء الوطنيين في دمشق، وكان من القلائل الموجودين لدى وداع الملك فيصل عند مغادرته دمشق بعد الاحتلال الفرنسي، وعلى عكس كبار رجال الدين المسلمين الذين آثروا السلامة بالغياب.[21] والحال أن أورثوذكس دمشق وبلاد الشام على العموم كانوا قد انقلبوا على الكنيسة اليونانية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، عندما فرضوا انتخاب بطريرك عربي وليس يونانياً، وعربوا الشعائر الكنسية، ونشروا داخل الطائفة جواً وطنياً استقلالياً نأى بهم عن الانخراط في السياسات الانتدابية الفرنسية (على عكس كثير من المسلمين وبعض من انتمى إلى الطوائف المسيحية اللاتينية في حلب وفي لبنان)، وعن الانجرار إلى أجواء التعصب والتقوقع والشحناء والاستعلاء على الجو الوطني.[22]

(١٩) المذكرات، ص ٤ ـ ٨ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٢١) مقابلة مع المطران جورج خضر، ١١/٤/٢٠٠١ و١٦/٥/٢٠٠٢؛ وانظر أيضاً: محمد بهجة البيطار، مجلة المجمع العلمي العربي، ٣٧ (١٩٦٢)، ص ٥١٢.

(٢٢) المذكرات، ص ٣ ـ ٤، ١٠ ـ ١١ (أوراق الدكتور زريق)؛ مقابلة مع الدكتور جورج طعمه، ٢٠/٤/٢٠٠١؛ جورج خضر، «الأرثوذكسية في الكراسي الشرقية في السنين المئة الأخيرة»، في: الله والإنسان في الفكر المسيحي المعاصر، تحرير شارل مالك (بيروت: الجامعة الأميركية، =

وقد تمثل هذا الجو في المدرسة الآسية (نسبة إلى حارة الآسية التي قامت فيها، بالقرب من الباب الشرقي لمدينة دمشق القديمة) التي درس فيها زريق (مع فترة انقطاع قصيرة عندما أغلقت خلال الحرب)، والتي تبعت الكنيسة الأورثوذكسية، ودرس فيها كثير من الفتية المسلمين، على عادة المدارس المسيحية في تلك الفترة وما تبعها. وقد كان مشهوداً لهذه المدرسة بالتفوق من حيث المنهج والمستوى العلمي والتهذيب الأخلاقي والعناية باللغة العربية، مع الاهتمام بالفرنسية، وبالإنكليزية إلى درجة أقل. ويذكر زريق كيف أن إدارة المدرسة نقلت الطلاب إلى شارع جمال باشا (شارع النصر اليوم) لتحية موكب الملك فيصل لدى دخوله دمشق، كما يذكر تلقين المدرسة التلامذةَ المبادئ الوطنية العربية. فلا غرو من أن يكون القيّمون على المدرسة قد اختاروا إبراهيم الداذا مديراً لها، بعيد الحرب العالمية الأولى، وهو خريج الكلية البروتستانتية السورية في بيروت (التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية في بيروت بعدما تعلمنت سنة ١٩٢٤)، وكان أحد الأعضاء المؤسسين والرئيس الأول لجمعية «العروة الوثقى» فيها[٢٣] ـ تلك الجمعية التي سيكون لنا حديث عنها في غير موضع من فقرات لاحقة. كما أنه اعتقل من قبل سلطات الانتداب لاتصالاته بعبد الرحمن الشهبندر وبالمستر كرين، واضطر إلى الهجرة.[٢٤] ولا غرو ـ في ضوء الجو العائلي والمدرسي هذا ـ من أن يكون زريق منذ سن مبكرة قد اقتصر من الدين على الأخلاق، وعلى الإعجاب الجمالي والأخلاقي بالطقس واللاهوت والموسيقى، بينما اتخذ الانتماء الوطني والسياسي لديه مساحة أُخرى، مساحة ارتبطت بدمشق مساجدَ وكنائسَ وشوارعَ وأزقة وخضرة ونهراً: «فأينما تجولت فيها شعرت بعبقها الحضاري وسحرها الأخاذ، وبالآلام والآمال المختزنة في أعماقها.»[٢٥] واستمر زريق على ارتباطه بدمشق بلهجته الدمشقية

= ١٩٧٠)، ص ٥ ـ ٧. نحيل القارئ على الدراسة التالية التي تتناول أورثوذكس لبنان تمثيلاً لما نريد:

Tarek Mitri, *Conscience de soi et rapport à autrui chez les orthodoxes au Liban (1942-1975)*, Thése de doctorat, Université Paris X-Nanterre, 2 vol. (Paris, 1985).

(٢٣) أمجد ذيب غنما، جمعية العروة الوثقى، نشأتها ونشاطاتها (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٢)، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢٤) المذكرات، ص ١١، ١٤ ـ ١٥ (أوراق الدكتور زريق)؛ غنما، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢٥) المذكرات، ص ١٥ ـ ١٦ (أوراق الدكتور زريق).



في المدرسة الآسية في دمشق، قسطنطين زريق جالساً إلى يمين الصورة

العتيقة التي استمر عليها طوال عمره، على الرغم مما يقال عن أهلها من أن مرونتهم ونزوعهم إلى المسايرة يؤديان بهم إلى التحول السريع والتام إلى لهجات الديار التي يرتحلون إليها.[٢٦] لا نعتقد أن زريقاً كان غافلاً عن أن لا دمشق ولا غير دمشق، أمكنة بلغت الكمال في الجمال والوئام والتاريخ؛ لكن المهم بالنسبة إلى هذه الصفحات، هو أن زريقاً آثر أن يستبقي من ذكرى دمشق لديه ما يحفز، لا ما يثبط، ما يحفز على البناء والاستمرار لا ما قد يدعو إلى الرفض والنبذ. وإن ما يتعلق بدمشق من تصور رومانسي، مشوب ببعض القلق والتوتر لديه، ينسحب على مجمل تصوره للتاريخ والتراث العربيين.

برّز زريق في الدراسة في المدرسة الآسية، في جميع الموضوعات الأكاديمية من عربية وفرنسية ورياضيات وعلوم وتاريخ وجغرافيا وتربية مدنية، وتميز خصوصاً في مقررات السلوك الدالة على خصال ما فارقته طوال حياته. وحاز باستمرار ١٠٠٪ في المواظبة، و٩٥٪ في السلوك، و١٠٠٪ في الخطابة.[٢٧] وكان صادف أن الدكتور فيليب حِتّي، أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت آنذاك، قد زار دمشق في ربيع سنة ١٩٢٢، أو صيفها، بدعوة من النادي الأدبي، وأن إحدى خالات زريق (نجيبة خوري، التي كانت قد درست التمريض في بيروت، على الرغم من معارضة الأهل الذين لم يهن عليهم أن تغادر فتاة دمشقية البيت وحدها) قدمت الواحد إلى الآخر، وعرضت على الدكتور حتي علامات زريق في المدرسة. فما كان من حتي إلاّ أن أمر لزريق بمنحة قدرها ٦٠ ليرة سورية من صندوق جمعية تهذيب الشبيبة السورية التي كان من أعضائها، لإتمام الدراسة في القسم الاستعدادي التابع للجامعة الأميركية في بيروت. فأعد زريق نفسه لذلك بدراسة اللغة الإنكليزية دراسة مكثفة خلال صيف سنة ١٩٢٣، ثم تقدم بنجاح إلى امتحان الدخول إلى الصف الاستعدادي الأول في الجامعة الأميركية. وهكذا شاءت الصدف ألاّ ينتسب زريق إلى كلية الحقوق في الجامعة السورية، وألاّ يلتحق بوظيفة حكومية أو حرة بعد إتمامه المرحلة الثانية من دراسته، كما فعل زملاؤه.[٢٨]

(٢٦) شفيق جبري، «مرونة دمشق»، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد ٥٥ (١٩٨٠)، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٩.

(٢٧) التقارير الشهرية لمدرسة الروم الأورثوذكسية للأعوام الدراسية ١٩١٩ ـ ١٩٢٣ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٨) المذكرات، ص ١٧ ـ ٢٠ (أوراق الدكتور زريق).

بيروت

حمل زريق معه إلى بيروت من دمشق الأجواء الوطنية الدمشقية التي لم تختلف كثيراً عن أجواء بيروت في ذلك الزمن، وخصوصاً الطرف الغربي منها الذي احتوى على الجامعة الأميركية.[٢٩] وكانت الجامعة قد أصبحت في ذلك الوقت تحت رئاسة بايارد دودج. ولئن كانت الكلية السورية البروتستانتية قد أُسست في أول أمرها (١٨٦٦) في سياق الصراع بين التربية اليسوعية ـ الفرنسية التوجّه ـ والتربية البروتستانتية، إلاّ إنها كانت من بداياتها كلية انتمى إليها الطلبة من مذاهب متعددة، وما تشددت في أمور الديانة إلاّ لفترة وجيزة تلت الصراع فيها بشأن الداروينية في الثمانينات من القرن التاسع عشر.[٣٠] وقد اتسمت إدارة دودج بجملة من التطورات المهمة، منها انتساب ٧ فتيات إلى الجامعة للمرة الأولى سنة ١٩٢٤ و١٣ فتاة في السنة التي تلتها، بينهن اثنتان من المسلمات ـ ولو أنه خصصت للبنات معاً أماكن منفصلة للجلوس، ومنعن من التمثيل ومن ممارسة الرياضة بوجود الرجال؛ ومنها بداية المساواة في شروط العمل بين أعضاء هيئة التدريس من الأجانب البروتستانت وغيرهم ـ ولو بقيت للأجانب، ولفترة، امتيازات في الرواتب وغيرها من المخصصات.[٣١] كما كانت هذه الفترة فترة نمو وتشعب في المساقات التعليمية وفي انتساب الطلبة.[٣٢]

لكن، على الرغم من ذلك، كانت الجامعة في عهد طلب زريق جامعة صغيرة محدودة الإمكانات والتخصصات التي لم تتشعب، فعلاً، إلاّ بعد سنة ١٩٢٩.[٣٣] لكنها كانت على ذلك موقعاً ممتازاً استمرت عليه من القرن السابق لإنتاج الخريجين

(٢٩) مقابلة مع زريق في الخليج، ١٠/١٢/١٩٩٩.

(٣٠) A.L. Tibawi, «The Genesis and Early History of the Syrian Protestant College,» in *American University of Beirut Festival Book (Festschrift)*, Fuad Sarruf and Suha Tamim, eds. (Beirut: American University of Beirut, 1967), pp. 265-271, 287 ff.

أمّا بالنسبة إلى المعركة بشأن الداروينية، أنظر: شفيق جحا، دارون وأزمة ١٨٨٢ بالدائرة الطبية وأول ثورة طلابية في العالم العربي (بيروت: د. ن.، ١٩٩١).

(٣١) B. Dodge, *The American University of Beirut* (Beirut: American University of Beirut, 1958), pp. 56-60; S. Penrose, *That They May Have Life: The Story of the American University of Beirut, 1866-1941* (Beirut: American University of Beirut, 1970), p. 99.

(٣٢) Dodge, op. cit., p. 63 ff.

(٣٣) Penrose, op. cit., p. 245 ff.

الموسومين بالابتعاد عن الصراعات والنزاعات الطائفية المحلية. فقد قدمت التربية البروتستانتية نفسها على أنها موضع إعراض عن الاتجاهات الموالية لهذه الجهة الأجنبية أو تلك، ولم تكن الولايات المتحدة اتخذت لنفسها الموقع الإمبريالي الذي صار لها بعد الحرب العالمية الثانية، وبدءاً بعهد هاري ترومان وبدايات الحرب الباردة بالتحديد. وهكذا نرى أن دودج قال في خطبته التي افتتح بها إدارته للجامعة سنة ١٩٢٣: إن التربية تروم إنشاء الشخصية العارفة، وإن المذهب البروتستانتي لا يروم التبشير، وإنما الحث على الفكر الحر، وإن الدين والتعصب لهذا المذهب أو ذاك ليسا الهدف المرجو من التربية، فما الدين لديه إلاّ «طاقة روحية»، وما الكنيسة أو المسجد إلاّ مظاهر لا تنفذ بالضرورة إلى الجوهر الذي يكمن في وعي الألوهية وفي الرغبة في الحياة تبعاً «لقانون أخلاقي يعم الأديان جميعاً.»[٣٤] ولعلنا لا نرى فوارق تذكر بين هذا التصور للدين والتصور للدين على أنه الأخلاق الشخصية والمعاملة، الذي حمله معه زريق مما استبقاه من أورثوذكسية دمشق.

استفاد زريق - على صغر سنه قياساً بأترابه، فقد كان ما زال في الرابعة عشرة من العمر - مما قدمته له الجامعة الأميركية، بقسميها الاستعدادي والجامعي، من معرفة ومن تربية أخلاقية ومدنية. ولئن واجه بعض الصعوبات المالية، إذ لم تكن الستون ليرة سورية كافية لتغطية كل النفقات في الفصلين اللذين أمضاهما في القسم الاستعدادي، فقد حال حياؤه دون التماسه منحة جديدة من الدكتور حتّي: «وظل الحياء الغريزي مصاحباً لي في حياتي مسبباً لي أنواعاً من المشكلات، ومضيعاً عليّ كثيراً من حقوقي.»[٣٥] فاضطر ذووه إلى التقتير على أنفسهم من أجل إعانته، بل اضطرت والدته إلى بيع قرطها الألماس الذي كان آخر ما تبقى لديها من هدايا عرسها من الجوهر.[٣٦] لكنه نجح في أن يتخرج من القسم الاستعدادي بمرتبة الشرف العالية، إذ كانت أدنى علاماته ٨٥٪ (في التاريخ) ومعدله العام ٩١,٥٪.[٣٧] ولم ينافسه في بلوغ المرتبة الأولى على صفّه إلاّ عمر فروخ وصبحي المحمصاني (وكان معدله العام ٩٢,٥٪)، واختير الثلاثة لإلقاء خطب الطلاب المتخرجين، بالإنكليزية (محمصاني)، وبالعربية (فروخ)، وبالفرنسية (زريق).[٣٨]

(٣٤) Ibid., p. 292.

(٣٥) المذكرات، ص ٢٤ (أوراق الدكتور زريق).

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٣٧) سجل العلامات (أوراق الدكتور زريق).

(٣٨) المذكرات، ص ٢٤ (أوراق الدكتور زريق)؛ عمر فروخ، غبار السنين (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٨٥)، ص ٢٥٣.



قسطنطين زريق في شبابه (طالباً جامعياً)

ليس غريباً أن تكون علامة زريق في التاريخ أدنى علاماته، فلم يكن في أول أمره شديد الاهتمام بهذه المادة، وإنما كان طموحه دراسة الهندسة، ولم يكن احترافه التاريخ إلاّ وليد الصدفة التي ولدتها استقالة الدكتور حتّي من الجامعة الأميركية بعد تعيينه أستاذاً في جامعة برنستون، ورغبة الجامعة في إعداد أستاذ بديل. فاستقر الرأي على زريق الذي قبل ذلك بعد طول تفكر وتردد، متسلحاً بمنحة دراسية قدمها أحد كبار المهاجرين السوريين في نيويورك، السيد سليم ملوك.(٣٩) فتحول زريق في عامه الدراسي الأخير في الجامعة الأميركية من الرياضيات والفيزياء إلى التاريخ (تحت رعاية الدكتور أسد رستم، الذي كان قد تخرج من الكلية السورية البروتستانتية سنة ١٩١٦)، وإلى العربية (تحت رعاية الدكتور أنيس الخوري المقدسي، الذي كان قد تخرج من الكلية سنة ١٩٠٦)، وغيرهما من أساتذة الإنسانيات، وتخرج سنة ١٩٢٨ مع شهادة الأولية على صفه في العامين الأخيرين من الدراسة.(٤٠)

قرّظ زريق مطولاً الدكتور أسد رستم في عدة مناسبات، باعتبار أنه كان من دربه على دقة المنهج التاريخي.(٤١) وكان الدكتور رستم من رعى ترشيح زريق لتدريس التاريخ في الجامعة الأميركية، وفي طليعة المدافعين عنه بالقول: إن خلفيته في الرياضيات دربته على الدقة والموضوعية والاستقامة في التتبع والاستنتاج، وهي صفات قلما ينميها التدريس التاريخي المألوف.(٤٢) وقد تدرب زريق على رستم بمعان كثيرة. فقد اكتسب منه دربة ودراية بمعالجة المصادر التاريخية طبّقها في نقد أحد منشورات أستاذه في ورقة بحث جامعية أنجزها في عامه الدراسي الأخير (وهي ورقة نرى من المفيد نشرها لقيمتها العلمية الباقية). فنحن نرى أنه في ورقة كتبها في المدرسة الاستعدادية تناولت رواية أوليفر تويست لشارلز ديكنز، عبر فيها عن إعجابه بالواقعية الفوتوغرافية للمؤلف على وجه الخصوص،(٤٣) جرياً على دأب الثقافة العربية الخاضعة للتحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر، التي رأت في الواقعية الفوتوغرافية صنواً أساسياً للموضوعية. ونحن نراه أيضاً يتحرى الموضوعية الوثائقية التي استخدمها أستاذه في تحقيقه لمخطوطة تناولت تأريخ حرب إبراهيم باشا المصري في لبنان، من نقد داخلي وخارجي للمخطوطة ولتأليفها وتأريخها وأوجه

(٣٩) المذكرات، ص ٢٤ ـ ٢٥ (أوراق الدكتور زريق).

(٤٠) سجل العلامات، ٢٦/ ١٠/ ١٩٣٢ (أوراق الدكتور زريق).

(٤١) المذكرات، ص ٣٤ (أوراق الدكتور زريق)؛ قسطنطين زريق، «أسد رستم»، نص محاضرة ألقيت في ذكرى الدكتور أسد رستم، بيروت، ١٩٦٧.

(٤٢) المذكرات، ص ٣٢ (أوراق الدكتور زريق).

(٤٣) «Oliver Twist,» 1924.

قراءاتها المتعددة.(٤٤) ويبدو بذلك أن زريقاً اكتسب منذ فترة مبكرة (في التاسعة عشرة من العمر) تلك المبادئ الخاصة بالبحث التاريخي التي تتعلق على الخصوص بالنواحي الميكانيكية المهنية لهذه الصناعة، تلك النواحي التي تتطلب الصبر والدقة والأناة والاستقامة، أي النواحي المعنوية التي تتطلبها المعرفة التاريخية المنضبطة.

كما أن خصالاً أُخرى تتعلق بموضوعية الصلة المعرفية بين الذات الباحثة وموضوع بحثها، بادية على نحو جلي في أعمال أُخرى من أعمال الصبا. ففي بحثين جامعيين كتبهما زريق في عامه الدراسي الأخير، عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز،(٤٥) نجد أنه قد حاول الإحاطة الشاملة بالمصادر الأساسية، كالطبري وابن سعد وابن الأثير والسيوطي وابن الجوزي وابن الوردي، إضافة إلى الدراسات التاريخية التي كانت متداولة في ذلك الحين، كأعمال رفيق العظم وهنري لامنس ومالكوم موير وألفرد فون كريمر. لكن، توخياً للموضوعية المستقاة من المصادر غير الخاضعة للنقد والتتبع الدقيق لها، نرى في هاتين الورقتين نفساً مناقبياً في النظر إلى التاريخ يستعيد الرواية التقليدية والرواية الحديثة التمجيدية لتاريخ العرب والإسلام معاً، ما زالت سائدة إلى اليوم حتى في كتابات بعض المدققين من المؤرخين العرب. فنرى في هذه الصورة تاريخاً للإسلام وكأنه تاريخ فضائل أخلاقية تمثلت في شخصيتي العمرين، كان أولهما واضع بذور النهضة القومية العربية، التي ـ بحسب المؤلف ـ ظهرت أيام الأمويين، وكان ثانيهما سالكاً مسلك الخلفاء الراشدين في تغليب البساطة والتقوى والعمل بالكتاب والسنّة (وما كانت الأخيرة هذه قد نشأت بعد، في واقع التاريخ، على نحو متبلور). فنجد في هذين البحثين استعادة شبه فوتوغرافية لرواية المصادر القديمة لتاريخ العرب، مع نفس درامي، جعلت من رواية تاريخ العرب رواية مناقبية لتضاد الخير والشر، بمعزل عن تحكيم العقل النقدي في تقصي مظان المعرفة التاريخية وإعادة روايتها.

ولقد كان هذا النفس الدرامي والأخلاقي في رواية التاريخ أمراً وثيق الارتباط، ليس بالتاريخ القومي العربي الاستنهاضي لتاريخ العرب فحسب، بل أيضاً بنظرة أخلاقية، بل روحية، إلى هذا التاريخ وإلى التاريخ بعامة، ما فارقت زريقاً على امتداد السنين. فلقد كان ألقى خطبة في الكلية التحضيرية سنة ١٩٢٤ شدد فيها على أهمية الخطابة في استنهاض الشعوب كي يتسنى لها التشبه بالأمم المتمدنة، ذلك بأن «التشبه بالكِرام فَلاح».(٤٦) وهاجم في خطبة أُخرى، ألقيت في السنة التالية،

(٤٤) «حروب إبراهيم باشا»، ١٩٢٨.

(٤٥) «عمر بن عبد العزيز»، ١٩٢٨؛ «عمر بن الخطاب»، ١٩٢٧.

(٤٦) «الخطابة ـ فائدتها في العالم العملي المادي»، ١٩٢٤.

التشاؤم وندب الذات وتفشي الجهل، وأسف فيها على أن معاصريه «شعب جمد في عروقه دم العرب الكرام»،[٤٧] ودعا دعوة ما انفك عنها طوال عمره إلى الاعتصام بـ «عروة الوطن المقدسة»، عن طريق العمل القومي والفكر التجديدي ونبذ التفرق الديني والتعصب الأعمى واقتطاف ثمار التمدن الكاذب، كي يتسنى للعرب الإصلاح من أنفسهم والتعامل مع ناموس العصر، الذي وجده في تنازع البقاء بين الأمم والبقاء للأنسب منها.

يتضح مما سبق أن زريقاً ما أنهى دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت إلاّ وقد اكتسب عناصر تأسيسية من تكوين الفكر والشخصية ـ شكلاً ومحتوى ـ التي عرف بها بعد ذلك بسبعين عاماً. فمن البيّن أنه اكتسب مبكراً وعياً حاداً بقصور معاصريه العرب عن متطلبات الرقي، وبجمالية عناصر من تاريخنا تحفز على العمل النهضوي، مع الاستدراك على ذلك بوعي أن ليس كل ما تبقى منه جديراً بالاستبقاء، وذلك جرياً على سوية التأريخ القومي بعامة، لدى العرب كما لدى غيرهم، التي ترى في التاريخ بدايات ناصعة تبعها انحطاط يتطلب النقض الفكري والعملي في سبيل السير نحو الترقي ونحو استعادة المجد. أمّا السبيل إلى ذلك فهو إصلاح النفوس وتربيتها. وليس غريباً أن يكون زريق قد أشار إلى الوعظ كإحدى المهن التي حلم بها في يقظته في استمارة ملأها في الولايات المتحدة سنة ١٩٢٩.[٤٨] فما كانت الخطابة، أي النمط المنبري لإيصال المعرفة والحماسة معاً، بالشأن الغريب عن أي عمل قومي، ولا كانت غريبة عن أساليب التربية في الجامعة الأميركية في بيروت. فقد رمت هذه المؤسسة ليس إلى التعليم فحسب، بل إلى «صنع الرجال»،[٤٩] والعمل على بناء الشخصية واكتساب حس التفاني في العمل وفي السلوك عامة. إذ فرضت على طلابها حضور اجتماع ديني أو لاديني كل صباح (خفضت إلى ثلاثة اجتماعات أسبوعية)، هدفت، ليس إلى التبشير، بل إلى تنمية الحس الاجتماعي والأخلاقي لدى الطلبة بعدما تعلمنت الجامعة، وجمع الطلبة للاستماع إلى خطب ألقاها الرئيس والأساتذة (ودأب زريق على إلقائها عندما أصبح عضواً في هيئة التدريس فيها) في موضوعات أخلاقية وفي معالجات أخلاقية للمفاهيم الدينية.[٥٠]

(٤٧) «الشبيبة»، ١٩٢٥.

(٤٨) «Vocational Interest Blank,» 19/6/1929 (أوراق الدكتور زريق).

(٤٩) Outline of Address to the Brotherhood Society, 1934; المذكرات، ص ٢٦ (أوراق الدكتور زريق).

(٥٠) Penrose, op. cit., p. 294; المذكرات، ص ٢٧ (أوراق الدكتور زريق).

شيكاغو/ نيويورك/ برنستون

غادر زريق بيروت في حزيران/يونيو ١٩٢٨ بحراً إلى الولايات المتحدة، مروراً بيافا وكونستانزا على البحر الأسود، ثم إستنبول وبيرايوس (ميناء أثينا) حيث ساح، وبالرمو في صقلية، ووصل إلى بروفيدنس شمالي نيويورك بعد ٢٨ يوماً في البحر. وبعد جملة صدف طريفة ومزعجة، منها احتجازه من قبل سلطات الهجرة الأميركية، ونزوله غافلاً في بيت سيىء السمعة في نيويورك، وصل أخيراً بالقطار إلى شيكاغو وهو وجل من سمعة العصابات والإجرام في تلك المدينة، ومضطرب من تجارب صغيرة شتى في بلد ما كان يعرفه ولا خبره كثيراً خلال إقامته، إذ كان مستعجلاً، منكباً على الدراسة، ساعياً للانتهاء من إعداد الدكتوراه بأسرع وقت ممكن كي لا يتجاوز منحة السنتين التي حظي بها من الجامعة الأميركية (١٢٠٠ دولار في السنة) وما خصصه له سليم ملوك، الذي زاره شاكراً في نيويورك.[٥١] ولذلك فمن الحري بنا أن نتكلم عن جامعات شيكاغو ونيويورك وبرنستون، من دون الكلام عن أي تجربة خارج النطاق الأكاديمي البحت للعالم الجامعي الضيق الذي انتمى إليه.

لم يهدر زريق لحظة واحدة منذ وصوله إلى الولايات المتحدة حتى غادرها بعد عامين على التمام من وصوله إليها، حاملاً شهادة دكتوراه في التاريخ. أمضى في جامعة شيكاغو أربعة فصول رُبعية درس فيها ١٣ مقرراً حاز فيها جميعاً مرتبة الشرف (عدا مقرر واحد في ديانات الشرق الأقصى): تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ الشرق العام والعالم الإسلامي إلى عهد الحروب الصليبية والنظريات الأخلاقية عند الإغريق واللغة اليونانية وحلقة أبحاث في التاريخ الإسلامي وكتاب سيرة أحشويروش لكزينوفون وتاريخ الفلسفة الحديثة وتاريخ الأديان الهندية ـ الأوروبية وحلقة أبحاث في الحضارة العربية والفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى وحلقة أبحاث ثانية في التاريخ الإسلامي. كما أنه اجتاز بنجاح امتحانين في اللغتين الفرنسية والألمانية، كانا وما زالا من متطلبات الدكتوراه في الجامعات الأميركية الكبرى.[٥٢]

ثم انتقل زريق إلى نيويورك وتسجل في جامعة كولومبيا للربع الصيفي في سنة ١٩٢٩، حيث أخذ مقررات في تاريخ الدول الهلنستية، وتاريخ الشرق القديم، وتاريخ أوروبا الغربية بين القرنين التاسع والخامس عشر، حاز في جميعها أعلى

(٥١) المذكرات، ص ٣٤ ـ ٤١، ٤٥ ـ ٤٦ (أوراق الدكتور زريق).

(٥٢) سجل العلامات (أوراق الدكتور زريق).

الدرجات.(٥٣) وانتقل أخيراً إلى جامعة برنستون، مقصده الأساسي، حيث تتلمذ على الدكتور فيليب حتّي في الدراسات العربية، ودرس مجدداً الحروب الصليبية، وأخذ دروساً في علوم اللغة المقارنة،(٥٤) حتى أدى الامتحان النهائي (Comprehensive، وهو على عادة الجامعات الأميركية المتأثرة، خصوصاً في ذلك العهد، بالنظام الجامعي الألماني، وهو امتحان شامل لمجالات موضوع التخصص)، ودافع عن رسالته التي كان قد ابتدأ بالاشتغال عليها منذ وصوله إلى شيكاغو، وأنجزها بإشراف الدكتور حتّي في أيار/مايو ١٩٣٠.(٥٥)

إن ذلك لإنجاز استثنائي بكل المعايير، ولا بد من أن زريقاً عمل ليلاً نهاراً كي يقلص الأربعة أو الخمسة أعوام إلى عامين. وبديّ أن زريقاً تتلمذ على أساتذة احترمهم. وتأثر على وجه الخصوص بمارتن شبرنغلنغ، أستاذ الإسلاميات في شيكاغو، ودانا كارلتون مونرو، أستاذ الحروب الصليبية في برنستون، الذي دربه على تحليل النصوص التاريخية ودراستها بدقة، وهارولد بايندر، أستاذ اللغات المقارنة في برنستون، الذي فتح أمامه مجال الدراية بالدراسات الحضارية المقارنة. وأخيراً وليس آخراً، تعلم من فيليب حتّي الدقة والتحقيق والانتظام والحياد عن التوهم والتخيل.(٥٦) ونرى جلياً عندما نطالع ما تبقى من أبحاثه في جامعات الولايات المتحدة، والسبعة وعشرين كراساً المحتوية على امتحانه النهائي في جامعة برنستون، أنه تطور ونضج بما لا يقاس بما كان عليه في الجامعة الأميركية في بيروت. ففي بحث كتبه عن مسلمة بن حبيب(٥٧) ـ المعروف في التراث الإسلامي بمسيلمة الكذاب ـ يتضح أولاً أنه ألم بالمصادر العربية القديمة إلمام من سبرها بتأنٍ وبسعة. ثم يتضح أنه تطور عما اكتسبه في بيروت، وألم، ليس بالنقد التقني والورقي للمصادر، بل بالنقد التاريخي لها أيضاً. وعلى ذلك، فقد نجح إلى حد كبير في أن يفصل سرد المثالب التي تمتلئ بها المصادر العربية عن سرد الواقع التاريخي، وأن يرجع هذه الرواية على تلك، وأن يُعمل العقل التاريخي في استقصاء الواقع وفصله عن الأسطورة، على صورةٍ ما كان قادراً على فعلها في بيروت عندما كتب عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز. ولعل الأمر كان أكثر يسراً كون مَسْلمة هذا من الشخصيات التي ذمها التراث الإسلامي. فهو ـ أي زريق ـ قد أولى تحيز

(٥٣) المصدر نفسه.

(٥٤) المصدر نفسه.

(٥٥) المذكرات، ص ٥٣ (أوراق الدكتور زريق).

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٥٠ ـ ٥٢.

(٥٧) «Musaylima and the Origins of his anti-Islamic Movement,» 1928.

الروايات الإسلامية اهتماماً، وانتهى به الأمر في هذا النقد التاريخي إلى رفض معظمها. وحاول، بنجاح لا بأس به، أن يحكم طبائع العمران البدوي في رواية مسلمة، بدلاً من خطاب المثالب والتجريح الغالب على الرواية الإسلامية المتداولة. ووافق كارل هاينرش بيكر في الرأي في أن حروب الردة لم تكن حروب «استرجاع» بقدر ما كانت حروب توسع. وينطبق الشيء نفسه على بحث كتبه عن غزوة مؤتة،(٥٨) غربل فيه الروايات، وبيّن منها الممكن والممتنع فيما يختص بهذا الخبر المتصل بسيرة الرسول.

أمّا كراريس امتحانه النهائي في برنستون،(٥٩) فالواضح منها أن زريقاً نجح، خلال فترة العامين، في الإلمام إلماماً شاملاً ودقيقاً بجملة واسعة من الموضوعات الأكاديمية بصورة نقدية عميقة. فقد عالج فيها تصنيفات اللغات والشعوب السامية، ووجد في الأنساب السامية صوراً لأوضاع سياسية وليس لتشعبات أجناسية، وذلك بتقصي النواحي التطورية والصوتية والنحوية لعلاقات اللغات السامية بعضها ببعض. كما استفاض في الكلام عن الأديان والآداب السامية، ورصد العلاقات بين الأساطير والقوانين البابلية والعبرية، وأبدى دراية واسعة بتاريخ العهد القديم وبعلاقة هذا النص بالتاريخ وبتطور الأديان التوحيدية عامة وصولاً إلى الإسلام. كما تناول الشعر الجاهلي، ونظريات مارغليوث وطه حسين فيه، وحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية، وعلاقة الرسول بالوثنية العربية، وعلاقة القرآن بالإنجيل، والإسلام بالمسيحية، والبابوية بالخلافة، والمسيح بالمهدي، وأرسطو بالمعتزلة، والعلوم والآداب العربية بعصر النهضة الأوروبي. كما أن دقته تبدت على وجه الخصوص في تحفظه من الإجابة عن سؤال على علاقة الكوميديا الإلهية لدانته بـ رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وعن سؤال آخر يتناول علاقة الإسلام بالظروف المناخية التي نشأ في ظلها.

الواضح، إذاً، أن زريقاً قد تأسس في الجامعات الأميركية الثلاث تأسيساً صلباً، رواية ودراية، في مجال الدراسات التاريخية العربية والإسلامية، وخصوصاً في حقل الدراسات الحضارية التي لم تقتصر على الحضارة العربية، وإنما تناولت التاريخ المقارن للحضارات كما كان معروفاً لذلك العهد. والواضح أيضاً أنه استكمل اكتساب تقنيات العمل العلمي الدقيق والمنضبط الذي تجلى في رسالة الدكتوراه، التي ترجم فيها إلى اللغة الإنكليزية كتاب تهذيب الأخلاق لأبي علي مسكويه ـ وهو نص كان

(٥٨) «The Expedition of Mu'ta,» 1928.

(٥٩) أوراق الدكتور زريق.

أول من جلب اهتمامه إليه الأستاذ مارتن شبرنغلنغ في شيكاغو[٦٠] - مشفوعاً بمقدمة وبشروح وافية. ويذكر القارئ أن زريقاً قد أخذ مساقاً في النظريات الأخلاقية الإغريقية عندما كان في شيكاغو، عندما وجد أن ميله إلى النواحي الفكرية في التاريخ كان أعظم من ميله إلى التاريخ السياسي والحربي.[٦١]

لكن استفادته لم تقتصر على التحصيل العلمي، وإنما تعدت ذلك إلى تبحر درايته بشأن الأخلاق. وكان شأن الأخلاق والتربية الأخلاقية والمعنوية أمراً طغا على فكره وعلى اهتماماته ونشاطه بُعيد عودته إلى دمشق عن طريق بيروت في تموز/يوليو ١٩٣٠، عن طريق عرج فيه سائحاً على لندن وباريس ومارسيليا. وما يبدو أن الاهتمام بمسكويه جاء نتيجة لفضول أكاديمي صرف بقدر كونه نتيجة تفكر في موضوع الأخلاق، وقد سبق أن ألمعنا إلى بعض مظاهره المبكرة في فترة سابقة، وهو تفكر كان عنصراً رئيسياً من عناصر فكر زريق في الأعوام التي تلت ذلك.

بيروت: الأخلاق والتربية

كثر ما قال زريق عن نفسه أنه أهمل العمل البحثي والتأليفي، وضحى به لمصلحة ما رآه أكثر إلحاحاً، وخصوصاً قضايا الإنماء القومي بما يتضمنه من العمل العام (ومنه التربوي)، والحث على مكارم الأخلاق وبناء الشخصية المستقيمة. وعلى ذلك، فقد جاء إنتاج زريق العلمي البحت قليلاً نسبياً. وكان جل مؤلفاته يتناول القضايا القومية، ومنها العلاقة بين التاريخ والإنماء القومي في سياق نظريات الحضارة التي كتب عنها في الخمسينات والستينات من القرن العشرين. وانصب اهتمامه قبل التفرغ النسبي للعمل العلمي بعد سنة ١٩٥٧ على تنشئة طلابه ومريديه، وعلى المساهمة - وتلك من أهم مكونات تَركته لنا - في صياغة الفكرة القومية العربية. أمّا في الأعوام الأولى التي تلت مغادرته الولايات المتحدة وانضمامه إلى هيئة التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت بصفة أستاذ مساعد في خريف سنة ١٩٣٠، وقد كان - بحسب ما قال - حائراً في تحديد حقل البحث والتأليف،[٦٢] فقد اقتصر عمله العلمي على مراجعة الترجمة العربية لكتاب نولدكه عن الغساسنة،[٦٣] ونشر

(٦٠) C.K. Zurayk, *Miskawayh, The Refinement of Character* (The American University of Beirut, 1968), p. xix.

(٦١) المذكرات، ص ٥٣ (أوراق الدكتور زريق).

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٦٣) ثيودور نولدكه، أمراء غسان من آل جفنة (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٣).

ترجمة كتابٍ عن اليزيدية،[٦٤] وتحقيق، بالتعاون مع نجلا أبو عز الدين، بضعة أجزاء من تاريخ ابن الفرات،[٦٥] استكمالاً لاهتمامه بتاريخ الحقبة الصليبية.

أمّا ما غلب على هذه الفترة من حياة زريق فكان، إضافة إلى تدريسه تاريخ العرب وتاريخ الفكر العربي في الجامعة الأميركية (وسيكون لنا مجال الكلام على هذا الأمر في قسم لاحق من هذا الفصل وفي غيره من الفصول)، الاجتهاد في النشاطات الجامعية غير الأكاديمية، وخصوصاً العناية بالطلاب وإرشادهم معنوياً وأخلاقياً والإشراف على جمعياتهم (ومنها العروة الوثقى التي تأسست بين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩١٩، ورابطة إنعاش القرية التي تأسست سنة ١٩٣٠)، وذلك تمشياً مع طموح الجامعة المعلن إلى التربية الشاملة للثقافة والمسؤولية الاجتماعية والوطنية[٦٦] - وإن على اهتمامات إدارة الجامعة هذه، وعلى تقويمها الإيجابي للحركات القومية العربية في ذلك الوقت، شواهد شتى.[٦٧]

كان ثمة إطار مؤسسي في الجامعة الأميركية لتواصل الإدارة مع الطلبة تواصلاً تربوياً عاماً غير أكاديمي، هو اجتماعات التوجيه الروحي التي حلت في عهد الرئيس بايارد دودج محل الاجتماعات الدينية. فقد اجتمع كل طلبة الجامعة إجبارياً ثلاث مرات في الأسبوع لحضور هذه الجلسات، وكان لهم حق اختيار حضور الاجتماعات الدينية البروتستانتية، أو الاجتماعات غير المذهبية التي كان لها طابع ديني مسكوني يغلب فيه المحتوى الأخلاقي على المحتوى العقيدي. واحتوت برامج هذه الاجتماعات[٦٨] قراءات من العهدين القديم والجديد، ومن القرآن، ومن بعض الشعراء ذوي النزعة الروحية، أمثال توماس س. إليوت، إضافة إلى العظات والمحاضرات التي ألقاها أعضاء هيئة التدريس، والصلوات غير المختصة بدين أو مذهب معينين، المتوجهة إلى مقام الأُلوهة بوجه عام. وكان لزريق دور أساسي في هذه الاجتماعات، وفي اجتماعات مماثلة في مؤسسات أُخرى، وهو دور بيّن من لائحة المحاضرات والكلمات التي ألقاها في هذه الاجتماعات وغيرها والواردة بالتفصيل في فهرست أعمال زريق المنشور في نهاية هذا الكتاب. وإن تتبع مساهماته

(٦٤) إسماعيل بك جول، اليزيدية قديماً وحديثاً (بيروت: المطبعة الأميركانية، ١٩٣٤).

(٦٥) تاريخ ابن الفرات (المجلدات ٧، ٨، ٩ في جزأين)، (بيروت: المطبعة الأميركانية، ١٩٣٦ - ١٩٤٢).

(٦٦) المذكرات، ص ٦٧ (أوراق الدكتور زريق).

(٦٧) Penrose, op. cit., p. 270 ff.; Dodge, op. cit., pp. 64-65.

(٦٨) أنظر ما تبقى من هذه البرامج العائدة لسنوات متعددة ضمن أوراق الدكتور زريق.



قسطنطين زريق، في الثلاثينات

في هذه الاجتماعات يعطينا فكرة واضحة عن أسس بعض النزعات الفكرية والاجتماعية التي اعتملت في نفسه، وبقي يعتمل فيها طوال حياته، وخصوصاً فيما يتعلق بنظرته إلى الدين.

الثقافة والأخلاق والقومية والدين والحضارة: كانت نظرة زريق إلى هذه الأمور، وبقيت، نظرة ترى بينها عروة وثقى تمنع قيام الواحد فيها على أي معنى فعلي من دون الآخر، وترى أن كلاً منها يتقوّم بالآخر ويتقوى به. وانطلق زريق في أول أمره من منطلق ثبت عنده دوماً بمثابة المسلّمة، وهو أن أزمة المجتمعات العربية أزمة أخلاقية في جوهرها، وأن القومية، أي الاستجابة الإصلاحية لهذه الأزمة، نصاب حضاري لا يتم له القيام إلاّ بإصلاح النفوس على صورة تسمح لها بالتحضر، وأن إصلاح النفوس هذا ـ إصلاح نفوس الأفراد ـ إنما يتم بتمثل واستيعاب جملة من القيم الأخلاقية الباعثة على التمدن والمقوّمة له.

كثر ما ذكر زريق في خطاباته اضطراب العصر الذي تلا الحرب العالمية الأولى، بل رأى في الاضطراب روحاً للعصر في كلمة ألقاها سنة ١٩٣١: رأى تحولات في المعتقدات والأفكار، ونزاعات في العقائد والأنظمة، وصراعات بين الرأسمالية والاشتراكية، وزوالاً للاطمئنان القديم في الحياة الروحية، وتساءل: «فمن من شبابنا أو شاباتنا يستطيع الآن أن يحدد لنا بعبارات واضحة اعتقاداته في الكون والخليقة والغاية من الحياة؟» ورأى أيضاً بعض المستقرين على الاعتقادات الدينية السالفة، وبعض من لا اعتقاد له بشيء، وعدداً كثيراً أخذ به الشك، ممثلاً على ذلك فيما يتعلق بالأخلاق بالتخبط في الآراء حول علاقة المرأة بالرجل. ثم قرر أن لدى شباب ذلك اليوم «قشرة رقيقة من العلم ومسحة طفيفة من الحكمة والأدب، أمّا في الداخل فصحراء قاحلة، وفراغ واسع، تلعب فيه أشباح الفقر الروحي والفتور النفسي... وينذر بتعاسة الفرد وشقاء المجموع.»[٦٩] إضافة إلى ذلك، وجد زريق أن ذلك كله من علامات الانحطاط وعدم الاقتدار القومي، الأمر الذي يتفاقم منه التعلق بقشور التمدن الأوروبي من فسق وخلاعة وتبذير يجب معالجته بمنع القمار، وبإقامة المشاريع الاقتصادية، وبإنشاء «مدرسة عظيمة تدرّس فيها التعاليم الوطنية الحقة لحفظ كيان الأمة.»[٧٠]

لدينا، إذاً، أزمة وهدف ودعوة إلى اعتماد الأسلوب التربوي والأخلاقي في العبور من الأولى إلى الثاني. أمّا لب هذا الأسلوب فيكمن في الإيمان. وليس

---

(٦٩) «روح العصر»، ١٩٣١.

(٧٠) «أهم ما حدث بعد الحرب العظمى»، ١٩٢٥.

الإيمان في هذا السياق إيماناً متأتياً بالضرورة عن عقيدة دينية ما، بل هو الإيمان بالقيم التي قد تتخذ صيغة دينية وقد لا تتخذها: ليس الإيمان إلاّ علاج الحيرة والتخبط. وليس الإيمان تصديقاً أبلهاً، ولا هو بالضرورة جملة من العقائد غير المتحولة، كما لا يمكن للإيمان بهذا المعنى أن يكون الاعتقاد بشيء ما بغض النظر عن حقيقة هذا الشيء أو عدمها. إن الإيمان عند زريق هو العمل من دون حساب النتائج، والطاقة الحيوية التي تعطي الحياة معنى وسحراً. ذلك هو الإيمان بالطبيعة البشرية التي برهنت عن جدارتها على مر التاريخ. أمّا الله فهو، بحسب رأيه، في موقع المنتهى من هذا الإيمان وليس في موقع البدء، الذي هو الإيمان بالنفس وبقدراتها، والإيمان بالكون الذي كون من الإنسان أفضل وأسمى ما فيه.[٧١] ثم إن لهذا الإيمان بالإنسان مستوى أكثر سمواً، وهو الإيمان بالقيم الكبرى للعالم الأخلاقي، القيم المتمثلة في الجمال والخير والحق التي تكامل فيما بينها قوة عليا ما.[٧٢] على ذلك، جاءت صلاة كتبها بالابتهال إلى «الإله العظيم! إنا نؤمن بك لما في النظام العالمي الذي أبدعته من دقة وجمال»، ولما في قلب الإنسان من طموح إلى الخير والحق، داعياً إياه إلى فتح أعيننا إلى مظاهر روحه وآثار أعماله للإيمان بالأولى والاسترشاد بالثانية، كي تتسنى لنا القدرة على مواجهة الحياة.[٧٣] أمّا المستوى الأكثر تعيّناً لهذا النظام الكوني المتمثل فيما هو سوي في الحياة البشرية فما هو إلاّ الأمة، إذ وجد زريق هدفه في عمله: «أن أقوم بقسطي في إيقاظ القوى الروحية الكامنة في أمتي العربية، لتحيا حياتها الكاملة وتؤدي نصيبها في بناء التمدن الإنساني الأسمى»، وذلك عن طريق التعليم والعلم، وبواسطة العقيدة القومية المذيبة لشخصية الفرد في الشخصية الكبرى للأمة.[٧٤]

ثمة جملة عناصر مترابطة في هذه التصورات والتشخيصات واقتراحات الحلول يجعل منها أفكاراً مألوفة لقارئ زريق الناضج والكهل والشيخ: من رصد الأزمة، وربطها بالأخلاق، وربط ضعف الروابط الأخلاقية بضعف الاقتدار، ونقد قشور التغرب. كل هذا يجعل منها بمثابة البيان الجنيني على ما توسع زريق لاحقاً في الكتابة عنه والتبشير به، وبمثابة القول الأول في العناصر التي شكلت الخيوط التي

(٧١) Chapel Talk, 1932.

(٧٢) «A Statement of My Supreme Beliefs about the Meaning of Life and the Power behind the Universe,» 20/2/1934 (أوراق الدكتور زريق).

(٧٣) صلاة في اجتماع نصف السنة الديني، ١٩٣٢.

(٧٤) هدفي في جهادي، ١٩٣٦، ص ٢٨ ـ ٢٩.

انتظمت أعماله، وهي الخيوط التي تقصاها بوضوح في أواخر عمره.[٧٥] وإن هذا ليعزز قولنا السابق إن زريقاً بقي على ثبات فكري مبكر، أمضى عمره في توسيعه وتخريجه (ومن هذا أيضاً، أفكاره الأساسية في التاريخ التي صيغت سنة ١٩٣٧،[٧٦] ثم عادت فصيغت باستفاضة في نحن والتاريخ المنشور سنة ١٩٥٩).

إلاّ إن علاقات التقدم والتأخر بين عناصر هذه الأفكار المترابطة تحولت. فقد كانت الغلبة فيها في الثلاثينات، وحتى اتضحت له أهمية تغليب الفكرة القومية على غيرها مع صدور الوعي القومي سنة ١٩٣٩، للناحية الأخلاقية من إنشاء الأفراد والجامعات، والإعلاء بها لمواكبة التحول التاريخي. وتلك هي الناحية التي سنتناولها في الفقرات التالية، بدءاً بعلاقة الإيمان الحافز بالدين وبالأخلاق وبالمجتمع، ثم انتقالاً في القسم التالي من هذا الفصل إلى الترجمة العملية في الحياة العامة لفرض أخلاقي استقر عليه زريق، وهو لزوم الفرض القومي.

اقترح زريق في خطبة ألقاها على طلبة الجامعة الأميركية سنة ١٩٣٣، أنه يجب الابتعاد عن الفهم الطقسي للدين، وعن المفاهيم العقائدية له بما تتضمنه هذه من التلاعب بالمفاهيم في المنافحة عن العقيدة. فإن الدين مفهوم ملتبس إلى حد كبير، عصي على الحد، ويجب اعتباره قوة تربط ما بين الإنسان والطبيعة بما هي حيز تتنزّل فيه القدرة الإلهية، وما بين الإنسان وأخيه الإنسان عن طريق الاشتراك في الأفكار السامية والقضايا النبيلة. إن الدين بهذا الاعتبار طاقة تحررية، تحرر الشخصية الإنسانية من الرغبات والنوازع الفردية والأنانية، وتغرز فيها نوازع الإثرة والتوحد مع الغير.[٧٧] تلك أفكار كان زريق طرحها سابقاً بشكل أقل تكاملاً على «جمعية الأخوّة» في الجامعة الأميركية،[٧٨] وأعلن فيها، كما فيما تبعها، فهماً أخلاقياً للدين يحيد الفوارق العقائدية والتمايزات الإيمانية لمصلحة مفهوم طبيعي للدين يؤخذ فيه، على طريقة الإلهيين (Deists) في عصر الأنوار، على أنه يستبطن مفهوماً للألوهة باعتبارها طاقة ناظمة كامنة في النظامين الطبيعي والبشري، عاملة فيهما على تكامل الهوية البشرية. كان هذا هو المفهوم الذي دلل عليه في تناوله لوحدة كل الأديان إن

(٧٥) أنظر البيان الجامع في «مقدمة» زريق لأعماله الكاملة: الأعمال الفكرية العامة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤)، ج١، ص٢٢ ـ ٢٥ (سنشير إلى الأعمال الفكرية العامة لاحقاً بين مزدوجين داخل النص برمز الأعمال).

(٧٦) «كيف أفهم التاريخ»، ١٩٣٧.

(٧٧) «What does Religion Mean to the Modern Man and Woman?» 1933.

(٧٨) Lecture at the Brotherhood Society, AUB, October 1931.

اعتبرت على حقيقتها الأسمى المتجاوزة للاجتهادات والمواقف المذهبية، والمتمثلة، في رأيه، في شخصية وفكر محيي الدين ابن عربي،[٧٩] على ما في هذا من تناول رمزي لهذه الشخصية ومجافاة نسبية لواقع التاريخ.

والحال كذلك، فإنه من الطبيعي أن يدعو زريق إلى التجرد عن الأغراض والأهواء في تناوله الدين، وأن يحث على النظر فيه نظراً علمياً «لا تشوبه نزعة شخصية ولا يتخلله تحامل غير نزيه على دينٍ دون دين، ولا يكون الغرض منه إثبات صحة معتقد أو إظهار فساد المعتقدات الأُخرى.»[٨٠] وتبدّى له أن الإعلاء لشأن الدين عن العقائد واختلافاتها وتبايناتها، والتجرد عن الاعتقادات القديمة فيها، أمر من شأنه أن يحول الدين من طاقة مكبلة للمجتمع، حابسة له في التقليد والتخلف، إلى متحد معنوي للمجتمع، يتجاوز هذه الفوارق والنزعات الطائفية المؤدية لها، كما يتجاوز الأعباء المعطلة للمفاهيم الدينية المتقادمة، وينأى بالمشككين في الديانات كما كانت قائمة ومُمارسة ـ عن حق كما رأى ـ وبالنابذين لاعتقادات وممارسات غير مجارية للعصر، عن الشك المطلق الذي رآه مدمراً.[٨١] وعلى ذلك، دعا إلى فتح الصدور لكل التجارب الروحية البشرية على مر عصورها.[٨٢] وعندما دعته الكنيسة الأورثوذكسية في دمشق سنة ١٩٣٥ إلى المحاضرة في موضوع «الأزمة الروحية»، نجده لا يشير إلى الدين إلاّ عرضاً، محدداً «الأزمة الروحية» بفتور الهمم في سياق اجتماعي واقتصادي وسياسي غير مؤات.[٨٣]

توخى زريق، إذاً، أن يجري نزع العقائد عن مفهوم الديانة. وإن التطرق إلى النواحي الميتافيزيائية لهذا المذهب الإلهي - في وحدة وجود الله والطبيعة والبشرية - الذي لم يتعدّ الطروحات البالغة العمومية، يبدو لنا أنه إعلاء معنوي لشأن الدين ناتج من الاعتراف بالوجود الاجتماعي والطائفي له، وجوداً لا يمكن تجاوزه على نحو كلي حتى في الدعوة إلى العلمانية، ومن النزوع إلى شيء من التسوية الميتافيزيائية للطائفية التي وجد فيها مظهراً فاقعاً من مظاهر تخلف المجتمعات العربية ومن تخلف ديانتها معها. ونحن إذا استثنينا التوجه الميتافيزيائي هذا باعتباره ما كان فاعلاً في فكر زريق على نحو مؤد إلى نتائج فعلية، لا يتبقى لنا من الدين إلاّ الطاقة المعنوية التي تُنتزع من

(٧٩) «Muslim Mysticism,» 1932.

(٨٠) «الشباب والأديان»، ١٩٣٢.

(٨١) المصدر نفسه.

(٨٢) «The Principles of Harmony in Life,» 1932.

(٨٣) «الأزمة الروحية»، ١٩٣٥.

العقائد وتُستودع في العمل التربوي والاجتماعي والسياسي، حيث تتبدى كطاقة أخلاقية، عمادها مفهوم الواجب الذي ترجمه زريق إلى الواجب القومي.

والحال أن ترجمة الدين إلى طاقة تترجم بالواجب الأخلاقي، وبالإعراض عن الفرقة الملازمة للولاءات العقيدية والفئوية الطائفية المرتبطة بالدين لمؤسسة فكرية وسياسية، وفي جعل هذا الواجب مناطاً لمتحد اجتماعي ـ قومي مرجو وموضعاً له، شأن لم يقتصر على زريق، وإنما له سوابق عربية وأجنبية شتى اتخذت أشكالاً متعددة. ففي الأوضاع التي ما زال نشوء الأحزاب السياسية فيها في فترة مبكرة، وما زال فيها التعاضد الاجتماعي، الوطني المدى، لدى الفئات المثقفة، مكبلاً بالانشطارات الأهلية الطائفية والاجتماعية (كطبقات المجتمع الفرنسي الممثلة في البرلمان في فرنسا القرن الثامن عشر قبيل ثورة ١٧٨٩، وفي طوائف لبنان وسورية وعشائرها في إبان شباب زريق)، لم يكن غريباً أن يكون الإعراض عن انتماء الولادة، والاتجاه إلى الانتماء الطوعي إلى نواد وجمعيات تتجاوز هذه الانشطارات، ولوازم هذه الانشطارات في المؤسسة الدينية، شأناً طبيعياً يتوسل الأخلاق التعاضدية مناطاً للانعتاق وللتدرب على مفهوم حديث للمواطنة يرتفع بالفرد إلى جامع وطني وقومي، أعرض وأشمل وأكثر رقياً.

كان هذا شأن زريق كما كان شأن العلمانيين على العموم من أتراك وعرب.[٨٤] ولئن كانت الأكثرية منهم لم تعر كبير اهتمام لقضايا الألوهة، إلاّ إن هذه القضية كانت طرحت على الشكل الإلهي الذي ذكرنا من قِبَل عرب كثيرين (منهم جمال الدين «الأفغاني» والشيخ محمد عبده) في سياق المحافل الماسونية التي أدت الدور نفسه، الصاهر للنخبة المثقفة في تاريخنا كما في تاريخ أوروبا،[٨٥] ومنها تاريخ روسيا التي تضافرت فيها الماسونية مع البروتستانتية على إنشاء نصاب مدني منفصل عن الديانة المؤسسية. والمعلوم أن من ماسونيي المشرق ـ على الاختلافات والصراعات السياسية بين محافلهم ـ عبد الرحمن الشهبندر، وفارس الخوري، وعادل أرسلان، وعبد الرحمن الكيالي، ومحمد جميل بيهم، وحسين الأسير، وغيرهم، فضلاً عن عبده والأفغاني.[٨٦] وليس غريباً أن انفتاح عناصر أساسية في الكنيسة

(٨٤) بشأن تفصيل ذلك، أنظر: عزيز العظمة، العلمانية من منظور مختلف (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٩٨)، ص ١٧٥ ـ ١٨٩.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٩٤ ـ ٩٧.

(٨٦) حسين عمر حمادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العرب (دمشق: صبرا للطباعة والنشر، ١٩٨٦)، الفصلان ٤ و٥.

الأورثوذكسية المشرقية على التيار الماسوني ـ ممثلاً بمطارنة وعلمانيين كثر، وبالبطريرك طحّان (١٩٣١ ـ ١٩٥٨)[٨٧] ـ تضافرت مع انفتاحها على الحركات الوطنية والقومية، الصاهرة للطوائف، ككون البطريرك معوّض (١٩٥٨ ـ) قومياً عربياً،[٨٨] والبطريرك الحالي إغناطيوس الرابع هزيم، قومياً سورياً لفترة طويلة.[٨٩]

ولعل انتماء زريق إلى طائفة الروم الأورثوذكس كان عاملاً مساعداً ـ من دون أن يكون محدداً أو مفسراً ـ لاتجاهه العلماني القائم، في ظروف بلاد الشام، على اللامذهبية. والمعروف من التاريخ أن بعض المواقع الاجتماعية يشكل استعداداً خاصاً لانتحاء اتجاهات محددة من دون أن يحتمها، كانجذاب أبناء وبنات طوائف معينة بنسب كبيرة إلى الأحزاب الشيوعية أو غيرها في العراق ولبنان على سبيل المثال، وانجذاب بروتستانت فرنسا إلى الحزب الاشتراكي. وكان زريق واعياً لعناصر داخلية قوية في الأورثوذكسية الشامية مؤازرة للاتجاه القومي في الاجتماع والسياسة[٩٠] ـ وذلك قبل إصابة بعضهم، وخصوصاً في لبنان، بلوثة الحرب الأهلية في دورها الطائفي. ولئن شئنا استخدام عبارة «الانسلاخ» في هذا المقام، علينا تحديد ذلك بالانسلاخ عن الانتماء السياسي لطائفة ما من دون الانسلاخ الاجتماعي. فقد كانت أورثوذكسية زريق اجتماعية وجمالية (خصوصاً فيما يتعلق باستساغة الأيقونات، وباستطراب الترانيم الكنسية،[٩١] كما يطرب كثير من المسلمين بالقرآن وبالأذان من دون التزام ديني فعلي). فقد أصر زريق على أن يقترن بنجلاء قرطاس البروتستانتية سنة ١٩٤٠ وفقاً للطقس الأورثوذكسي، ورفض تعميد بناته تعميداً بروتستانتياً على مذهب قرينته، بل أصر على العمادة الأورثوذكسية، ولو أنه آثر إرسال بناته إلى مدرسة أحد بروتستانتية. وهو لم يلقنهن الدين في البيت، وإنما ترك لهن مجال التفكير في هذا الشأن والتوصل إلى قناعات شخصية فيه. كما أنه لم يدخل الكنيسة إلاّ في النادر من المناسبات، ولم يختلط برجال الدين إلاّ اختلاطاً رسمياً،[٩٢] أو في سياق الواجبات الاجتماعية والتربوية، وعلى رأسها ترؤسه لمجلس أمناء كلية البشارة الأورثوذكسية منذ إنشائها سنة ١٩٥٢، حتى اضطر إلى

(٨٧) مقابلة مع المطران جورج خضر، ١٦/٥/٢٠٠٢.

(٨٨) مقابلة مع الأستاذ غسان تويني، ١٧/٤/٢٠٠٢.

(٨٩) حديث مع الدكتور علي حمية والدكتور هشام شرابي، حاصبيا، ١٦/٦/٢٠٠٢.

(٩٠) «مهمة الأرثوذكسية في الحياة القومية»، ١٩٣٩.

(٩١) مقابلة مع المطران جورج خضر، ١٦/٥/٢٠٠٢؛ مقابلة مع الدكتورة هدى زريق، ٢٤/١١/٢٠٠١.

(٩٢) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١؛ مقابلة مع السيدة عفاف زريق، ٦/٧/٢٠٠١.

الاستقالة بسبب كثرة المشاغل والأسفار سنة ١٩٦٥ ـ وهي الاستقالة التي ما قبلت حتى سنة ١٩٦٧.[٩٣] وعلى العموم، فقد كان زريق مؤمناً،[٩٤] لكن إيمانه كان متواضعاً وذاتياً وليس استعراضياً، ذاتياً لا كنسياً. كان أورثوذكسياً من دون أن يمثل الأورثوذكسية التي اعتزت به وما زالت، وسلك سلوكاً وصفه غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم، بأنه ممثل لقول المسيح، على ما روي عنه في الأناجيل، من أنه قال: «ما جئت لأدين، بل جئت لأنقذ.»[٩٥] ذلك الإيمان اليومي المشرقي، الذي شكّل فيه لبنان حالة شاذة، القليل التعصب لتفصيلات العقيدة، الاجتماعي الطابع، المشدد على المعاملة الحسنة، وعلى الاستقامة.

ولا شك في أن من العوامل المساعدة على الانتقال من العقيدة إلى الأخلاق — في الأديان جميعاً وفي الأورثوذكسية على وجه الخصوص ـ المحتوى العقائدي البسيط للديانة اليومية، التي بقيت في حدودها الدنيا متضافرة مع الممارسة الطقوسية ذات الفحوى الاجتماعي،[٩٦] وذلك قبل صعود الحركات الأصولية في الأعوام العشرين الأخيرة، ومحاولتها إلزام الناس بتفصيلات في العقائد وفي الممارسات الشاذة عن سوية المجتمع وتقدّمه.

إذا اعتبرنا الإيمان الديني عند زريق أنه نصاب أخلاقي يتسامى على العقائد ويتمثل في جعل الدين أمراً ذاتياً بحتاً يتعلق بالضمير،[٩٧] فإن ذلك يشكل محطة أساسية من محطات الحداثة في سلوك الأفراد العرب كما في سلوك الأفراد في المجتمعات الأُخرى المقبلة على الحداثة: ولعل أسطع الأمثلة وأكثرها وضوحاً وإفصاحاً ودلالة وتمثيلاً للاتجاه هذا هو نظرية إيمانويل كانط في الأخلاق الفردية، التي رأت الضمير الأخلاقي كافياً في نقل أخلاقية العمل الفردي إلى مرتبة القانون العام (وليس العكس)، وفي تحكيم أخلاقية الواجب في إقامتها على الإرادة الآيلة عن القصد الواعي. ولئن روي عن زريق أنه قال، في أواخر حياته، إن السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة إنما هو سلوك طريق دمشق الذي طرقه بولس الرسول،

(٩٣) رسالة الاستقالة إلى متروبوليت بيروت في ١٠/٨/١٩٦٥؛ رسالة من متروبوليت بيروت إلى زريق في ١٧/٣/١٩٦٧ (أوراق الدكتور زريق).

(٩٤) مقابلة مع السيدة عفاف زريق، ٦/٧/٢٠٠١؛ مقابلة مع غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم، ٢٤/٦/٢٠٠١.

(٩٥) مقابلة مع غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم، ٢٤/٦/٢٠٠١.

(٩٦) مقابلة مع المطران جورج خضر، ١٦/٥/٢٠٠٢.

(٩٧) مقابلة مع السيدة عفاف زريق، ٦/٧/٢٠٠١.

إلاّ إن ذلك قد يفسر - إضافة إلى إتيكيت وشجون الشيخوخة[٩٨] - بأنه مقاربة للرمز المحمود للفرد، من دون أن يحمل هذا الرمز محتوى عقيدياً محدداً. وقد كان لهذا الموقف سوابق، لعل أهمها قول زريق، في سنة ١٩٦٠، إن الثورية الحقيقية كامنة في عودة المسيحية إلى ذاتها. إذ إن المسيحية عنده كانت ثورة على الذات، ثورة ترتجي تحقيق أهدافها بالإنسان وبالإعلاء من شأنه.[٩٩] وبذلك فإن الدين، بعيداً عن العقيدة، نصاب أخلاقي يرتفع بالفرد عن صغر روابط الولاء لسياق الولادة إلى رحاب المواطنة القومية. وليس غريباً في هذا السياق، أن يكون الطلبة الأورثوذكس في الجامعة الأميركية في بيروت قد شاركوا أكثر من مرة في الاحتفالات بمناسبة مولد النبي العربي[١٠٠] - وقد كان زريق، كما نرى من فهرست أعماله المثبت في نهاية هذا الكتاب، قد تحدث ثلاث مرات عن هذا الموضوع في محاضرات عامة في بيروت ودمشق.

ولئن كنا تحدثنا عن أورثوذكسية زريق، وما وفرته من وضع استعدادي للإتيان بآراء كالتي أتى بها فيما يختص بالأخلاق وبالعروبة القومية وبالصلة بينهما، إلاّ إننا لا نقصد من كلامنا الإشارة إلى أن عروبة زريق كانت مجرد صورة لما قد يدعى «عروبة بطريركية أنطاكية وسائر المشرق»، عروبة التجذر التلقائي في المكان والولاء للوطن[١٠١] من دون تفكر. وعلينا التشديد في هذا المقام، مرة أُخرى، على أن المناهل الأساسية التي استقى منها زريق علمانية عروبته كانت تراث النهضة العربية في الصورة التي اتخذتها على وجه التحديد في القومية العربية الشامية المبكرة، العلمانية الطابع، المتمثلة في شخصيات مثل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، والشهيد يوسف العظمة، وعبد الغني العريسي، وإبراهيم الدادا مدير المدرسة الآسية في دمشق السالف الذكر. وإن هذا الاتجاه عضده وضع الجامعة الأميركية ذات التوجه الليبرالي، بل الروحاني واللامذهبي في الدين، والجو الذي توفر لزريق في رأس بيروت في ذلك العهد.

(٩٨) مقابلة مع الأستاذ غسان تويني، ١٧/ ٤/ ٢٠٠٢.
(٩٩) «الثورية المسيحية»، ١٩٦٠.
(١٠٠) Penrose, op. cit., pp. 295-296.
(١٠١) مقابلة مع المطران جورج خضر، ١٦/ ٥/ ٢٠٠٢.

بيروت: القومية العربية

ذكرنا التمثيل عن الدين بالأخلاق والتمثيل عن الأخلاق بالدين، وعلاقة الطاقة الحيوية الساكنة في كل منهما بمحاربة مفاسد المجتمع وبإنشاء التربية القومية - الخطابية والأكاديمية - لأفراد متجردين عن صغائر المجتمع وملتفتين إلى فروض الواجب الأخلاقي المجتمعي المرجو. وذكرنا طلبة الجامعة الأميركية الذين كانوا أول من توجهت إليهم هذه الأفكار. وإن في اللقاء بين هذا وذاك، وفي توسيع زريق مجال اتصالاته من المجتمع الجامعي الصغير إلى المجتمع العربي الأكبر، حيز قيام الفكر والممارسة القوميين اللذين وجد زريق في سياقيهما الترجمة العملية لتطلعه الأخلاقي.

وقد كانت المساحة الثقافية والاجتماعية للجامعة الأميركية في بيروت في الثلاثينات والأربعينات مجالاً مؤاتياً لجهود زريق الخطابية والاستنهاضية. فقد انزوت الجامعة آنذاك جغرافياً عن مدينة بيروت، إذ لم يكن في منطقتها من العمران، إلاّ ما امتد منه منها إلى شارع جان دارك ومنتصف شارع عبد العزيز وشارع بلسّ من محطة غراهام إلى المنارة. أمّا وراء ذلك فكان بساتين وكثوباً رملية ودروباً ترابية تحولت في الشتاء إلى دروب وحلية، وبعض الزواريب الضيقة ومنازل بعض الأُسر البروتستانتية، اللبنانية والأجنبية، المرتبطة بالجامعة[١٠٢] - إضافة إلى أُسر رأس بيروت المحلية. في هذا المقام المنعزل عن السياسات الطائفية للبنان، قامت الجامعة بطلابها وكأنها قرية مستقلة، عزز انفصالها قيام الحياة الجماعية فيها على شاكلة الحياة في المدارس الداخلية، من مداخلة ومؤاكلة ومعايشة مستمرة، ومن صلة مباشرة ومستمرة، على مدار الساعة، بين الطلبة والأساتذة، تمثلت في انضباط الاجتماعات العامة التي كثر ما خطب زريق فيها.

وإن تقصينا جنسيات ومذاهب الطلبة، وجدنا أن الأكثرية كانت من الشاميين - أي اللبنانيين والسوريين - تبعهم عددياً الفلسطينيون ثم العراقيون - وكانت الحكومة العراقية جادة في إرسال الطلبة إلى الجامعة الأميركية في بعثات حكومية[١٠٣] - وأخيراً المصريون، إضافة إلى بعض الجنسيات العربية الأُخرى بحسب ما هو مبين في الجدول التالي:

(١٠٢) المذكرات، ص ٥٥ - ٥٦ (أوراق الدكتور زريق).
(١٠٣) Penrose, op. cit., pp. 214 ff., 283.

الجدول رقم ١

الطلبة العرب في الجامعة الأميركية بحسب الجنسيات(١٠٤)

البلد/ السنة	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨	١٩٣٩	١٩٤٠
لبنان وسورية	٧٧٩	٨١٣	٩٠٢	٨٦٦	١٠٧١
فلسطين	٢٦٥	٢٩٥	٤١٩	٤١٧	٣٧٤
العراق	١١٩	١٤٥	١٦٦	٢٠٤	٢٢٣
مصر	٨٢	٧٦	٦٩	٥٠	٥٢
الأردن	١٥	١٩	٢٧	٢٣	٣٤
الحجاز	١٤	٢٣	١٩	٩	٥
الكويت	-	٣	٢	٢	١
البحرين	١	١٠	٧	٢	-
السودان	٨	٥	٧	٣	٣
تونس	-	-	١	١	١

إضافة إلى ذلك، انتمى إلى الجامعة طلبة من تركيا وإيران ومن بعض الدول الأوروبية والأميركية الشمالية والجنوبية. أمّا أعضاء هيئة التدريس، فقد كان أكثرهم من لبنان وسورية، وتبعهم عددياً الأميركيون ثم البريطانيون وأساتذة من جنسيات عربية وأوروبية أُخرى.(١٠٥) وقد انتمى الطلاب إلى مذاهب شتى، تساوى فيها المسلمون والمسيحيون، أو كادوا، مع الإشارة إلى القلة النسبية للموارنة. وإن لمن اللافت للنظر، ولمن المفصح عن الجو المنفتح للجامعة، وجود عدد من الطلبة عبر عن انتمائه المذهبي بعبارة «الإلهي» أو «الحر الفكر».

(١٠٤) مستقى من: .Ibid., pp. 331-333

(١٠٥) .Ibid., pp. 334-335

الجدول رقم ٢

طلبة الجامعة الأميركية موزعون بحسب المذهب(١٠٦)

المذهب/ السنة	١٩٣٧	١٩٣٨	١٩٣٩	١٩٤٠
المسلمون	٥٤٦	٦٤٦	٦٤٢	٧٢٧
اليهود	١٩٣	٢٢٨	٢٢٦	١٩٨
الإلهيون (Deists)	١	١	-	-
الدروز	٥٠	٥٢	٥٥	٦٢
البهائيون	٨	٦	١٠	٨
الزرادشتيون	-	١	-	-
الهندوس	٢	٣	٢	١
المفكرون الأحرار	١	-	-	-
البوذيون	-	١	-	-
الروم الأورثوذكس	٣٣٠	٣٧٩	٣٥٨	٣٧٩
الروم الكاثوليك	٤٧	٤٥	٣٩	٤٨
البروتستانت	٢٦٢	٣٠١	٢٩٧	٢٨٤
الموارنة	٧١	٧٩	٥٣	٨٤
الغريغوريون	٦١	٦٣	٥٧	٥٤
اللاتين	٧٦	٩٤	٨٤	١٠٠
الأقباط الأورثوذكس	٢٤	١٣	٢	١٢
السريان الأورثوذكس	١٤	١٣	١٠	١٢
السريان الكاثوليك	٧	٦	٤	٨
الكلدان الكاثوليك	٧	٢	٢	٤
الأرمن الكاثوليك	٤	٥	٦	٩
النساطرة	-	-	-	٢
اليعاقبة	١	-	-	-

(١٠٦) .Ibid., p. 333 ولا يتضمن هذا المصدر ـ وهو الوحيد المتوفر لنا ـ أي تقسيم للمسلمين على أساس المذهب.

وعلى قلة أعداد الموارنة في الجامعة (وهي ظاهرة قد استمرت حتى الخمسينات)،(١٠٧) لم تعرف الجامعة الأميركية اتجاهات تدعو إلى القومية اللبنانية الفينيقية المخيال التي كانت في أوجها في الثلاثينات والأربعينات.(١٠٨) ولعل هذا عاد إلى الانزواء الجغرافي للجامعة، ولإيثار النخبة المارونية تعليم أولادها وبناتها في الجامعة المذهبية الكاثوليكية الفرنسية اللسان (جامعة القديس يوسف في بيروت). فما عرفت الجامعة من صراع سياسي في تلك الفترة، إلاّ بين القوميين العرب والقوميين السوريين.(١٠٩) وبذلك فقد عززت العزلة الجغرافية النسبية للجامعة، والنظام اليومي المتكامل الذي جرت عليه، وما تضمنه هذا النظام من لامذهبية واضحة، ومن توجه إنسانوي في التربية وفي الاجتماع، إمكان قيامها ـ كالجمعيات الطوعية التي تكلمنا عنها ـ على عملية الصهر الاجتماعي والتجانس الثقافي للنخبة العربية، الذي كان، وما زال، من مقومات كل حركة قومية. ولم يكن مارون عبود بعيداً عن الحق، ولا مشطّاً في الرأي، عندما قال: إن كتاب الوعي القومي لزريق كان نتاجاً للجامعة الأميركية،(١١٠) بغض النظر عن الوجه الذي قد تفسر به العلاقة بين القومية وهذه الجامعة.

وقد وعى زريق هذا الأمر منذ وقت مبكر. فبعيد انضمامه إلى عضوية الهيئة التدريسية في الجامعة، واختصاصه بتدريس التاريخ العربي والإسلامي، مع اختصاص أسد رستم بتدريس التاريخ القديم وتاريخ العرب في الحقبة العثمانية، وروجر هنري سولتو بتدريس تاريخ أوروبا،(١١١) أصر على إلقاء دروسه باللغة العربية (وكانت الجامعة قد تحولت عن العربية إلى الإنكليزية بعد قضية الداروينية سنة ١٨٨٢) على اعتبار أنه لا يصح في جامعة قائمة في بلد عربي، أن يدرّس التاريخ العربي بلغة غير العربية، مع الاعتبار العلمي أن المادة التاريخية اللازمة لتاريخ العرب مادة عربية. وبعد مدافعة الدكتور أسد رستم عن تدريسه مادة تاريخ الحروب الصليبية بالعربية، اعترض عميد كلية الآداب والعلوم الأميركي، إلاّ إنه اقتنع في آخر الأمر بوجهة نظر

(١٠٧) American University of Beirut, *Annual Report, 1952-1953*, Appendix E.

(١٠٨) وضاح شرارة، «حوار مع قسطنطين زريق: هل يكون العرب في صناعة التاريخ من أبناء الماضي أم من أبناء المستقبل»، الفكر العربي، العدد الأول، السنة الأولى، حزيران/يونيو ١٩٧٨، ص ١٢١.

(١٠٩) المصدر نفسه.

(١١٠) مؤلفات مارون عبود (بيروت، ط٢، ١٩٨٣)، ج٤، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(١١١) شفيق جحا، «الدكتور قسطنطين زريق المؤرخ»، في: قسطنطين زريق: ٦٥ عاماً من العطاء، تحرير أنيس صايغ (بيروت: مكتبة بيسان، ١٩٩٦)، ص ٧٦.

زريق، وسمح له بذلك. فباشر هذا الأمر متحمساً، ودأب عليه لأعوام طويلة، الأمر الذي اضطره إلى إتقان ناصية اللغة، التي ما كان قد أصاب منها إلاّ مقداراً بسيطاً أيام دراسته الجامعية، وأعد محاضراته وخطبه مضيفاً إليها حركات الإعراب حتى درب نفسه(١١٢) على وجه جعل من عربيته لغة سلسة وواضحة ومتينة حازت تقريظ أحد أبرز كتّابها والضليعين فيها.(١١٣) ولئن ربح زريق هذه القضية، إلاّ إنه لم يوفق في حث الجامعة سنة ١٩٣٦ على إلزام الأساتذة والإداريين ذوي المناصب الدائمة من الأجانب بتعلم العربية، وبالاستزادة من العرب ـ من جنسيات عربية متعددة ـ في هيئة التدريس.(١١٤)

كان زريق ناشطاً في النواحي غير الأكاديمية من الحياة الجامعية، كما سبق أن قلنا. فقام بالعناية بالطلاب وبالإشراف على الجمعيات الطلابية، تمشياً مع طموح الجامعة إلى التربية الشاملة الثقافية والاجتماعية القومية بحسب قوله.(١١٥) لكنه تجاوز ما سمحت به قواعد العمل في الجامعة التي فرضت على أساتذتها عدم الانتساب إلى المنظمات السياسية، وهي القضية التي شكلت له أزمة ضمير جابهها دوماً بحسه بالمسؤولية كمواطن، وبالاعتقاد أن نشاطه كان فكرياً أكثر منه عملياً وسياسياً،(١١٦) الأمر الذي ساعده على تسويغ التكامل بين الإرشاد العقائدي العلني في الجامعة عن طريق جمعية العروة الوثقى، وبين العمل التنظيمي السري خارجها.(١١٧) لكنه ما اضطر إلى مجابهة القضية في سياق مسؤوليته عن جمعية إنعاش القرية التي حظيت، كما رأينا سابقاً، برعاية إدارة الجامعة. كانت تلك الجمعية قد أنشئت سنة ١٩٣٠، ونشط فيها عدد كبير من الطلبة، كان منهم الدكتور حليم نجار، الذي بقي على صداقة شخصية وثيقة مع زريق طوال حياة الأخير ـ تلك الجمعية التي هدفت إلى تعريف الطلاب بمشكلات مجتمعهم، ونشطت في بعض القرى في سورية ولبنان ببرامج لمكافحة الأمية والإرشادات الزراعية والصحية

(١١٢) المذكرات، ص ٥٨ ـ ٦٠ (أوراق الدكتور زريق).

(١١٣) مؤلفات مارون عبود، مصدر سبق ذكره، ج٤، ص ١٧٨ ـ ١٨٠.

(١١٤) American University of Beirut, «Report of the Preliminary Committee on Public Relations,» 1936 (أوراق الدكتور زريق).

(١١٥) المذكرات، ص ٦٧ (أوراق الدكتور زريق).

(١١٦) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(١١٧) حليم أبو عز الدين، «الدكتور قسطنطين زريق والعمل القومي العربي»، في: قسطنطين زريق: ٦٥ عاماً من العطاء، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦ ـ ٦٧.

والمحاضرات التثقيفية القومية.[١١٨] وهي ولئن زادت في الوعي الاجتماعي لأعضائها، إلاّ إنها لم تؤد إلى ما كان مرجواً لها من النتائج العملية.

فقد كانت الحركة القومية العربية، في أشكالها المبكرة هذه، حركة نخبوية ـ كما هو دأب بداية الحركات القومية كافة وكما سنرى في فصول لاحقة ـ انتضت الحماسة ديدناً أعلنت به نخبويتها وتطلعاتها الانقلابية، وعبرت بها عن تطلع سياسي ربما عبر عنه زريق بأفضل عبارة في خطبته المعنونة: «لو لم أكن ملكاً لآثرت أن أكون معلماً في أحقر قرية عراقية». وكان قد عبر في هذه الخطبة، التي اقتبس عنوانها من خطبة للملك فيصل الأول، عن حماسة بالغة للقضية الاجتماعية للتعليم،[١١٩] على وجه تبدى منه الموقع الاجتماعي لأيديولوجية القومية العربية في فترتها المبكرة هذه، التي اتسمت بنشوء فكرة متقدمة في مجتمع متخلف أمي وعى زريق صفته هذه على وجه بالغ الوضوح. فقد توسل من الاقتراب من القرى الاقتراب من «مجرى الحياة»، وتنمية «العزة القومية»، وخدمة «الطبقة الوضيعة»، والإصلاح المادي للريف العربي، وإصلاحه «الروحي» من الجهل والأمراض الاجتماعية والنزعات المحلية،[١٢٠] على اعتبار أن «العطف على الفلاح» ليس ناجماً عن كونه فلاحاً فقط، بل لأنه فلاح عربي نرتبط معه برباط المواطنة.[١٢١] لكننا سنرى أن القومية العربية ما كانت في ذلك شعبوية كحال قوميات أوروبا الشرقية في أجزاء مهمة منها، على الرغم من رومانسية مفاهيم كـ «مجرى الحياة». كما أن الحديث عن «الطبقات الوضيعة» ينم عن تمايزات اجتماعية ضاربة في مجتمعاتنا التقليدية، وهي في هذا الشأن كغيرها، لا تختلف اختلافاً بيناً عما كان في سائر أنحاء العالم قبل الخمسينات والستينات من القرن الماضي؛ وما اختلفت هذه النظرة إلى العامة عما كانت عليه لدى مثقفي بريطانيا والولايات المتحدة، وغيرهما في ذلك الوقت.

لم تشغل هذه القضية ضمير زريق كما شغلته قضية أكثر أهمية وأبعد غوراً، هي العمل السياسي السري والمباشر. وكان منطلق هذه القضية إشرافه المباشر بصفة مستشار منتدب من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة الأميركية إلى جمعية العروة

---

(١١٨) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(١١٩) «لو لم أكن ملكاً لآثرت أن أكون معلماً في أحقر قرية عراقية»، ١٩٣٢.

(١٢٠) مشروع إنعاش القرى، ملاحظات، ١٩٣٥ (أوراق الدكتور زريق).

(١٢١) زريق، الأعمال الفكرية العامة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٩٦)، ص ١١٤.



الهيئة الإدارية لعام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ لجمعية العروة الوثقى. الجلوس (من اليمين إلى اليسار): أمجد غنما، الرئيس دودج، د. قسطنطين زريق. الوقوف: نيازي كنعان، فخري الشيخ، عزت الزين، يوسف أبو ظبة، إسماعيل الخالدي، عوني الدجاني، نظيم شرابي.

الوثقى التي كانت الجمعية الطلابية الرئيسية فيها، وبصفته مديراً مسؤولاً لمجلتها منذ سنة ١٩٣٦.[١٢٢] من دون الدخول في تفصيلات بشأن التاريخ المبكر لهذه الحركة، فإن المعروف عنها أنها بذرت فكرة الحركة القومية العربية الشاملة التي نشأت عنها، في نهاية المطاف، حركة القوميين العرب، ولو كانت في أول أمرها حركة شباب عربي قومي مثقف عالج القضايا القومية الأساسية لذلك العصر، وعلى رأسها الاستقلال في ظل الانتدابين البريطاني والفرنسي في كل أرجاء المشرق، مع ازدياد في الاهتمام الخاص بالقضية الفلسطينية على مر السنين وخصوصاً في المحطتين الرئيسيتين، سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٤٧.

ما كانت جمعية العروة الوثقى في الجامعة حركة سياسية منظمة، وإنما حركة ثقافية واجتماعية متخذة من النقاش السياسي والفكري والاجتماعي مجالاً لبلورة الأفكار والاتجاهات المختلفة غير المترابطة تنظيمياً. وهي في هذا السياق، ليست بعيدة كثير البعد عن النوادي التي شكّلت مجالات لصياغة الأفكار ذات الآثار السياسية والتنظيمية: في فرنسا القرن الثامن عشر على سبيل المثال (ومنها نادي اليعاقبة)، والروابط الطلابية في ألمانيا بعد الاحتلال النابليوني، وجمعية الاتحاد والترقي التركية، ونادي المثنى في بغداد (نسبة إلى المثنّى بن حارثة الشيباني)،[١٢٣] والنادي العربي في دمشق (١٩٣٧)، ولاحقاً النادي الثقافي العربي في بيروت (١٩٤٤). كانت هذه النوادي والجمعيات أطراً لبروز القيادات ولتبلور تيارات سياسية ونوى أو تجمعات أفرزت قيادات وكوادر حزبية. وعندما نقول حزبية، نعني بالقول تنظيمات حداثية الطابع، ليست على شاكلة الأحزاب التقليدية التي قامت على روابط وتحالفات أهلية بين الأُسر والأحياء، تلك الأحزاب التقليدية التي تبادل معها العصبويون - أي أعضاء عصبة العمل القومي - الانتقادات والاتهامات، وأخذوا عليها التمسك بالأساليب القديمة البالية والاقتصار على السياسة من دون عقيدة مدروسة،[١٢٤] كما كانت حال الحزب الوطني في سورية على سبيل المثال. إننا بحديثنا هنا عن العروة الوثقى إنما نتحدث عن تنظيمات ضمت أعضاء طبقة مثقفة عربية صاعدة اتخذت من النوادي والجمعيات أطراً

(١٢٢) المذكرات، ص ٦٧ (أوراق الدكتور زريق)؛ غنما، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢.

(١٢٣) عماد أحمد الجواهري، من تاريخ الحركة العربية المعاصرة - نادي المثنى (بغداد: دار الجاحظ، ١٩٨٤).

(١٢٤) محمود سويد، العروبة وفلسطين: حوار شامل مع قسطنطين زريق (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٢، ١٩٩٧)، ص ٢٠.

للتعارف وشبكات للصلات الشخصية والفكرية والتنظيمية، وحيثاً لاستقبال الأفكار الجديدة، ومجالاً لبلورة رؤى راديكالية، بل انقلابية، على تفاوت مدى ودرجة هذه الراديكالية وهذه الانقلابية.

وقد جمعت العروة الوثقى في الأعوام الخمسة عشر الأولى من تاريخها، على غرار نظائرها، بين العاطفة القومية الاستنهاضية الشبابية العامة والساذجة بعض الشيء والمتمثلة في نشيدها الأول الذي ألفه إبراهيم الدادا

هبّوا أهل الهمم ... هبّوا نحيي البلاد

هبوا نرفع لها ... في الشرق العماد

وبين طرح بعض القضايا النهضوية غير المألوفة عموماً في ذلك الوقت. فنظمت اجتماعات خطابية تناولت قضايا علاقة الدين بالوطن، وعلل الانحطاط القومي، والرجعية، والتعليم الديني، ونفوذ أرباب الديانات، وسر تقدم الأمم المتمدنة، ومساواة الرجل بالمرأة، واقتباس الجديد، وقضية الزعامة والزعماء، إلى غير ذلك من الموضوعات النهضوية واللغوية.[١٢٥] ورفدت ذلك بقومية لغوية محافظة بعض الشيء تجلت في انتقاد تعريض سعيد عقل بالشعر العربي القديم.[١٢٦] ويبدو أن نشاط زريق بوصفه مستشاراً رسمياً للجمعية قد عمل على تطوير العاطفة الوطنية العامة إلى توجه قومي أوضح معلماً. فمع ازدياد أعضاء الجمعية من نحو ٢٠٠ في أوائل الثلاثينات إلى ٣٣٥ سنة ١٩٣٨، يبدو أن أثر زريق عمل على الانتقال من هدفها الأول (١٩١٩) الذي نص على «ممارسة الخطابة والكتابة باللغة العربية الفصحى ودراسة نظام الجمعيات وكيفية المحافظة عليه»، إلى هدفها التالي، الذي نص على «تنمية الروح الوطنية وتثقيفها بين الطلاب.»[١٢٧] وقد تمثل هذا التطور أيضاً على الصعيد الثقافي في الانتقال من نشيدها الأول، الركيك شعرياً، إلى شعر أرقى وضعه سعيد عقل سنة ١٩٣٨، انطوى على نفس رومانسي مماثل، ولو كان أكثر بلاغة وأكثر وضوحاً في اتجاهه القومي:[١٢٨]

(١٢٥) غنما، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨ - ٤٨، ٦٤ وما يليها، ٨٩.

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٤٢ - ٤٣، ١٣٥.

(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٥١.

للنسور

للنسور
ولنا الملعبُ
والجناحان الخضيبان بنور
العلى والعربُ
ولنا القولُ الأبيُّ
والسماحُ اليعربيّ
والسلاحْ
ولنا هزّ الرماحْ
في الغضوب المشمس
ولنا زرع الدنا
قبلا زرق السنا
ولنا...
صهلة الخيل من الهندِ إلى الأندلس

لا يني الدهرُ
«من كتبناه» سطوراً
يقرأ النورَ
حيث حطَّ الحافرَ المهرُ
...
والغدُ..
ركْبنا الموسوقُ عزماً ومنى
طاوياً عن جانبيه الزمنا
خذه من أملنا
أمّةً تُبنى ومُلكاً يخلدُ

وقد نجم عن هذه التجمعات ومثيلاتها تنظيمات سرية أو شبه سرية، لعل نموذجها العربي الأقدم كان جمعية العهد التي أورثت تراثها التنظيمي إلى عصبة العمل القومي التي أُسست في مؤتمر عقد في قرنايل في لبنان سنة ١٩٣٣، والتي نشطت من خلال تسريب أعضائها إلى النوادي والنقابات والأحزاب العلنية وتغلغلهم فيها (كحزب الاستقلال في فلسطين، وحزب الأهالي في العراق).[١٢٩] ومن نظائر هذا التنظيم السري المحزّب لأعضائه كان التنظيم السري الذي أسسه زريق وآخرون سنة ١٩٣٥.

ولئن شكك البعض في حقيقة هذا التنظيم، ووجد في الروايات عنه مزيجاً من «السوالف» البروتوكولية العربية،[١٣٠] ومع اعتبار واقع تشتت ذكريات مَنْ بقي مع السنين، وتلون بعضها بما حدث لاحقاً من تطورات وتحولات على الصعيدين العام والشخصي، إلاّ إن ما نشر في شهادات في العامين الأخيرين، وما ورد في مذكرات زريق غير المنشورة، وما تجمع لدينا من معلومات في سياق هذا البحث، يجعل من

(١٢٩) P. Khoury, *Syria and the French Mandate* (Princeton: Princeton University Press, 1987), p. 400 ff.

(١٣٠) مثلاً: مقابلة مع السيد منح الصلح، ١٦/١١/٢٠٠١.

وجوده حقيقة لا مجال لإنكارها. فقد أُسس هذا التنظيم سنة ١٩٣٥ بمبادرة من زريق (الذي اتخذ اسماً حركياً هو «كريم») وفؤاد مفرّج، ومن فريق آخر ضم تقي الدين الصلح وكاظم الصلح.[١٣١] وجاء هذا التأسيس نتيجة اندماج حركتين سريتين، إحداهما جمعية التحرير العربية، التي أسست في اجتماع عقد في جنيف سنة ١٩٢٩ بين فريد زين الدين (السوري من أصل لبناني ومن أوائل من كتب في القومية العربية)، ودرويش المقدادي (الفلسطيني)، ونافع شلبي (السوري)، انضم إليهم لاحقاً كاظم الصلح، وتقي الدين الصلح، وعادل عسيران، ومحمد علي حمادة، وعلي بزي (وكلهم لبنانيون)، وشوقي الدندشي (السوري). أمّا الحركة الثانية فقد كانت الحركة العربية التي أسسها زريق وفؤاد مفرّج وانضم إليها شفيق جحا (والاثنان من تلامذة زريق في الجامعة الأميركية،[١٣٢] على شاكلة كثير من الأعضاء الآخرين)، وجبران شامية، ورامز شوقي، وأنيس الصغير. وقد عقدت اجتماعاتها الأولى في منزل محمد علي حمادة في البسطة، ثم في منزل زريق في شارع جان دارك قبل زواجه وبعده، الأمر الذي دعا والدته إلى الإعلان في هذه المناسبات مازحةً أن «حرامية الليل» قد أتوا.[١٣٣] واتخذ التنظيم الجديد لنفسه اسماً جديداً هو «المجموعة القومية العربية»، ولو جرى الناس على تسميته «مجموعة القوميين العرب» أو «جماعة الكتاب الأحمر»، نسبة إلى كتيب وضعه هذا الفريق بمثابة بيان لأهداف الحركة، غلّف باللون الأحمر لكون هذا اللون الوحيد من ألوان الأغلفة المتوفرة لدى المطبعة،[١٣٤] وقد فرضت على هذا الكتاب سرية التداول.[١٣٥]

اتخذ التنظيم السري هذا شكل تسلسل هرمي للخلايا على شاكلة الأحزاب

(١٣١) بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٤٩١.

(١٣٢) لائحة الطلاب في مقرر مادة التاريخ ٣٢١ للعام الدراسي ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ (أوراق الدكتور زريق). وكان من طلبة هذا المقرر رئيف خوري، الذي انتمى إلى الحزب الشيوعي.

(١٣٣) المذكرات، ص ٧٩ (أوراق الدكتور زريق)؛ مقابلة مع شفيق جحا، ١٤/٣/٢٠٠١؛ معلومات مستقاة من السيدة نجلاء زريق، ٢٩/١٠/٢٠٠٢.

(١٣٤) كتاب القومية العربية ـ حقائق وإيضاحات ومناهج (د. م.: د. ن.، د. ت.) ـ (سنشير إليه لاحقاً بـ الكتاب الأحمر)؛ المذكرات، ص ٧٩ (أوراق الدكتور زريق)؛ صقر أبو فخر، «قسطنطين زريق: لمحات من التاريخ السري لنضاله في لبنان وفلسطين والعراق»، الطريق، ٦٠/ ٤ (٢٠٠١) ص ١٤٤؛ هاني الهندي وعبد الإله النصراوي، حركة القوميين العرب: نشأتها وتطورها عبر وثائقها، ١٩٥١ ـ ١٩٦٨، الكتاب الأول، ١٩٥١ ـ ١٩٦١ (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠١)، ص ٣٣.

(١٣٥) الحوت، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٢.

الراديكالية كافة، ولم يعرف أعضاء الخلية الواحدة أعضاء الخلايا الأُخرى، ولم يكن بينها من جامع إلاّ الجامع الأيديولوجي المتمثل في الكتاب الأحمر والجامع التنظيمي الذي عبر عن نفسه خلال «التعليمات» الآتية من مجلس الأركان. وكان المجلس هذا قد شُكّل بعد اجتماع في حيفا في أوائل صيف سنة ١٩٣٧ بمبادرة من فريد زين الدين وفؤاد مفرج،(١٣٦) ضم زريقاً وعادل عسيران وفؤاد مفرج من لبنان، وفريد السعد وواصف كمال من فلسطين، تقرر فيه ضم الحركة العربية السرية في فلسطين إلى الحركة السرية في بيروت عبر قيادة ضمت المذكورين وعز الدين الشوا ورشاد الشوا وخلوصي الخيري. انتُخب زريق رئيساً للحركة في منصب خلفه فيه درويش المقدادي سنة ١٩٣٩، ثم واصف كمال ـ واستثني من الحركة عمداً بعض الشخصيات المعروفة في السياسة العربية، على اعتبار أنها تميل إلى الثرثرة وقد لا تؤتمن على الأسرار.(١٣٧)

توزعت المهمات في مجلس الأركان، واختص كل ركن بجانب من جوانب العمل، كالشؤون الداخلية والخارجية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وأنيط ببعض الأركان الاهتمام بأقطار عربية معينة، كان المسؤول التنظيمي عن كل منها يدعى عاملاً.(١٣٨) فكان فريد السعد عامل فلسطين، ومنير الريس عامل سورية، وواصف كمال ركن الداخلية، وحمد الفرحان أو علي منكو عامل الأردن.(١٣٩) والتزمت السرية التزاماً تاماً، حتى إن أحد أعضاء التنظيم السري في نابلس لم يعلم انتماءه إلى التنظيم إلاّ بعد ذلك بأعوام، وكان على حداثة سنه مجنداً لحماسته في القيام بما كُلّف من مهمات من قِبَل أستاذه في مدرسة النجاح، واصف كمال، ومدير مدرسته، فريد زين الدين، وحاضراً حلقات القراءة ومنتمياً إلى الحركة الكشفية في المدرسة وخاضعاً للتدريب العسكري خارجها(١٤٠) ـ وهو التدريب الذي نظم أيضاً في لبنان على الساحل إلى الجنوب من بيروت،(١٤١) وفي سورية.(١٤٢) هذا وقد كان

(١٣٦) المصدر نفسه، ص ٤٩١.

(١٣٧) المذكرات، ص ٨٠ (أوراق الدكتور زريق)؛ مقابلة مع واصف كمال، ٤ و٥/٤/٢٠٠١؛ مقابلة مع رفعت النمر، ١١/٦/٢٠٠٢؛ أبو فخر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧؛ رسالة من هاني الهندي، ٣/١١/٢٠٠٢.

(١٣٨) المذكرات، ص ٨٠ (أوراق الدكتور زريق).

(١٣٩) مقابلة مع واصف كمال، ٤ و٥/٤/٢٠٠١.

(١٤٠) مقابلة مع رفعت النمر، ١١/٦/٢٠٠٢.

(١٤١) مقابلة مع شفيق جحا، ١٤/٣/٢٠٠١.

(١٤٢) مقابلة مع الدكتور جورج طعمه، ٢٠/٤/٢٠٠١.

الأعضاء الأكثر نضجاً يقسمون يمين الانتماء إلى الحركة والتقيد بتعليماتها ومبادئها والأمانة لعهدها أمام زريق.(١٤٣)

وقد كانت هذه السرية نهج التغلغل في الجمعيات والأحزاب القائمة، إذ حاول التنظيم إيصال أفراده إلى مناصب قيادية فيها، بل تداخلت عضوية التنظيم السري في عضوية عصبة العمل القومي والنادي العربي ونادي المثنى وغيرها،(١٤٤) وحزب النداء القومي في لبنان،(١٤٥) وكان لها امتداد ما إلى المغرب إذ انضم إليها علاّل الفاسي(١٤٦) (وإن كنا لا نعلم معنى أو نتائج «الانضمام» هذا). واعتبرت جمعية العروة الوثقى في الجامعة الأميركية بمثابة «مؤتمر عربي دائم»،(١٤٧) استُقي منها الأعضاء من الأقطار العربية المختلفة. فامتدت عضوية الحركة ونشط أعضاؤها سياسياً في مجالات شتى. ففي فلسطين، على سبيل المثال، كانت كلية النجاح في نابلس موضع المحور التنظيمي لها، وخصوصاً بعد استلام فريد زين الدين إدارة المدرسة سنة ١٩٣٥. ونشط الأعضاء هؤلاء في ثورة ١٩٣٦، قتالاً (مثل واصف كمال ورفعت النمر)، أو تنظيماً، أو جمعاً للتبرعات، أو تهريباً للسلاح، إضافة إلى التعبئة السياسية. أمّا العراق، فيبدو كأنه كان المختبر السياسي العملي الأوضح لتوجهات التنظيم السري، وسنتناوله في فقرات لاحقة.

لكن قبل ذلك، علينا التساؤل عما إذا كان للتنظيم فعلاً وجود مركزي في العمالات كتنظيم، أم وجود أيديولوجي في أذهان ونفوس الأعضاء العاملين في الأوضاع الخاصة في كل من هذه العمالات، أي ما إذا كان التنظيم السري هيئة محرِكة ومتابِعة متابعةً يومية، أم «مؤتمراً عربياً سرياً دائماً» على صورة شبكة من العلاقات ذات طابع مكتوم.

أصر زريق على أن التنظيم السري اتخذ السرية منهجاً لتفادي لفت نظر السلطة، وتعمد عدم اعتماد العمل السياسي المباشر كتنظيم، وإنما الالتفات إلى جمع المثقفين القوميين جمعاً طويل النفس بعيد الأمد.(١٤٨) أي أن هذا التنظيم كان في الأساس تجمعاً تعبوياً لفئة صاعدة من المثقفين العرب الذين كان أكثرهم بعيداً عن الانضمام إلى الحركات السياسية الأهلية القائمة، القومية التوجه منها أو غيرها، التي

(١٤٣) أبو عز الدين، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

(١٤٤) مقابلة مع شفيق جحا، ١٤/٣/٢٠٠١.

(١٤٥) المذكرات، ص ٨١ (أوراق الدكتور زريق).

(١٤٦) المصدر نفسه.

(١٤٧) «العروة كما عرفتها»، ١٩٤٧.

(١٤٨) المذكرات، ص ٨٠ (أوراق الدكتور زريق).

كانت غالبة على السياسة العربية في المشرق في ذلك العصر. وكان لإعجاب بعض أعضاء التنظيم بالحزب القومي السوري ـ ولنقاشات زريق مع أنطون سعادة التي ظلت من دون جدوى[149] ـ بغض النظر عن الاختلاف السياسي معه والتحفظ بشأن سوريته التي نافت العروبة الشاملة، بل عن التنافر الذي ساد بين القوميين العرب والقوميين السوريين، دلالات، ليس أقلها الإعجاب بانضباط القوميين السوريين وحزم التزامهم.[150] ويمكننا إضافة دلالات أُخرى، لعل أكبرها شأناً التناظر المفهومي في مفهوم الأمة والقومية بينهما، بغض النظر عن تعريف حدود هذه الأمة، والتناظر في المناهل الفكرية والنماذج السياسية والتاريخية التي استند إليها الاثنان. والواضح أن التنظيم السري كان جنين تنظيمات لاحقة (مثل شباب الثأر، وانتهاء بحركة القوميين العرب). وكان جنيناً رسالياً[151] كخلفه من التنظيمات القومية العربية، وكالحزب السوري القومي، راهن على إمكان الانتقال من الثقافة القومية إلى الحزبية القومية الجامعة، متأثراً بالنظريات الألمانية في القومية الثقافية، وخصوصاً بفكرة الدوائر الثقافية ذات الرسالة القومية الشاملة، وبشخصيات كبسمارك وغاريبالدي وماتزيني حركياً، وشبنغلر وبرغسون وفخته فكرياً.[152] ولهذا الكلام صدقية كبرى. فقد بلّغني زريق أنه كان يُكنّ شديد الإعجاب لشخصية غاريبالدي الرومانسية، كما بلّغ أحد من قابله ـ بكثير من الحذر، وبعد مرور عقود ـ أن كون الإنسان لا بد من أن يعيش عصره وجيله، يجعل «من الممكن» أن تكون التجربتان الألمانية والإيطالية في الثلاثينات منهلاً ونموذجاً.[153] وبلّغني أكثر من عضو من أعضاء التنظيم أن الانبهار بشخصية هتلر ومطالعة كتابه كفاحي كانا عنصراً أساسياً في التصور والتفكير السياسيين لديهم في ذلك الوقت، إضافة إلى الكتاب الأحمر.[154] وليس غريباً أن يكون واحد على الأقل من الأعضاء عضواً سابقاً في القمصان الحديدية في دمشق (نسبة إلى قمصان رمادية داكنة اعتمدوها لباساً موحداً) الذين مارسوا التمارين الرياضية والعسكرية احتذاء بنموذج كتائبي كان عالمياً في ذلك الحين. وأنهم مع كراهيتهم

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(١٥٠) مقابلة مع رفعت النمر، ١١/٦/٢٠٠٢.

(١٥١) محمد جمال باروت، حركة القوميين العرب: النشأة ـ التطور ـ المصائر (دمشق: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٧)، ص ٣٦.

(١٥٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(١٥٣) شرارة، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢.

(١٥٤) مقابلة مع شفيق جحا، ١٤/٣/٢٠٠١؛ مقابلة مع رفعت النمر، ١١/٦/٢٠٠٢؛ مقابلة مع جورج طعمه، ٢٠/٤/٢٠٠١.

لفرنسا، كانوا معجبين بأفكار موريس بارِّز، علم اليمين الفرنسي المتطرف.[155] والحال أن الأفكار والتنظيمات القومية في العشرينات والثلاثينات كانت شديدة التأثر بالتجربة الألمانية على وجه الخصوص، ونسجت علاقات مع ألمانيا ـ ومنها علاقات بمنظمة شبيبة هتلر ـ التي ارتجت منها، وهي الدولة من دون مستعمرات في المشرق، العون ضد الاستعمارين البريطاني والفرنسي. ومن هذه التجمعات نذكر مثال النادي العربي في دمشق.[156]

وكما قال زريق غير مرة، فإن الحركات السياسية وليدة عصرها، وعلينا الاحتراز من إجراء حكم سلبي على هذه التعاطفات والتناغمات والصلات القومية العربية ـ النازية من منظور ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولو أنه في إمكاننا القول إنه بغض النظر عن الحصار السياسي الذي واجهته القومية العربية، وخصوصاً خلال الحرب العالمية الثانية، والالتجاء لدى كثيرين إلى ألمانيا (وبدرجة أقل إلى إيطاليا) لكسر هذا الحصار وللمساعدة في تحرير المشرق من الانتداب، إلاّ إن القوميين العرب في ذلك العهد، ولم يكونوا جميعاً من الشباب غير المجرب، كانوا ساذجين دبلوماسياً وسياسياً في معالجة هذه الصلة. وكان مدعى ذلك ليس لأن الألمان ما كانت لهم ثقة فعلية بهذه الحركات القومية ولا بفرصها للنجاح فقط، ولا لأن ألمانيا كانت تود تقاسم النفوذ في المشرق لا تخليصه من الاستعمار، وهي التي تلكأت في دعم حركات كحركة رشيد عالي الكيلاني في العراق سنة ١٩٤١، بل أيضاً لأن النظرية العنصرية الألمانية (التي وضعت العرب درجة واحدة أرفع من اليهود في تراتب العناصر البشرية) لم ترَ في العرب فائدة فعلية إلاّ عنصرهم الصافي عرقياً، أي البدو، وما وجدت أن هؤلاء يتمتعون بحس قومي.[157]

نعود بذلك إلى العراق الذي اقترحنا وصفه بأنه كان مختبراً حياً للأفكار القومية ولنسيج الروابط الشخصية والسياسية والثقافية الناتجة من التنظيم السري، بل مناطاً لأولى البيانات العروبية التي صدرت عن حركة الجوال العربي سنة ١٩٣٥، وتالياً محكاً محورياً لتشكيلنا رأياً مبرراً في طبيعة هذا التنظيم وفي طبيعة دور زريق فيه.

(١٥٥) مقابلة مع جورج طعمه، ٢٠/٤/٢٠٠١.

(١٥٦) Khoury, op. cit., p. 564 ff.

(١٥٧) L. Hirszowicz, *The Third Reich and the Arab East* (London and Toronto: Routledge and Toronto University Press, 1966), passim and p. 186; R.S. Simon, *Iraq between Two World Wars: The Creation and Implementation of a Nationalist Ideology* (New York: Columbia University Press, 1986), p. 155 ff.

والمعروف أن العراق شهد هجرة عربية واسعة، منها أولاً هجرة بعض الضباط والسياسيين العرب مع الملك فيصل من سورية سنة ١٩٢٠، ثم بعد بداية الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص، من العناصر القومية (الانقلابية والتقليدية على حد سواء) حتّمها عليهم تشتّتهم بسبب أوضاع الحرب في سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ونتائج ثورة ١٩٣٦ في فلسطين (وقد ساهم فيها بأشكال متعددة عدد لا يستهان به من المشرقيين غير الفلسطينيين). وكان منهم بعض الشخصيات التي أُتي إلى ذكرها سابقاً، كفريد زين الدين وواصف كمال الذي يبدو أنه عمل مندوباً للتنظيم في العراق في تلك الفترة[(١٥٨)] (من دون نسيان الحاج أمين الحسيني الذي يبدو أنه كان واسطة العقد في هذه التوجهات، وصلة الوصل بين السياسيين والعسكريين العراقيين، كما كان الوجه السياسي لهذه التوجهات في فلسطين سنة ١٩٣٦).[(١٥٩)] وكان منهم أيضاً نديم دمشقية، الذي سكن في البصرة بعد أن أدخله زريق في التنظيم السري، وبقي على صلة دائمة بواصف كمال وممدوح السخن (اللذين سكنا معاً في شقة في بغداد) حتى هرب الجميع من العراق بعد هزيمة حركة رشيد عالي الكيلاني.[(١٦٠)] بل روى البعض أن قيادة التنظيم السري انتقلت كاملة إلى بغداد بعد أن شتتت الحرب أعضاءه.[(١٦١)]

وتمثل العمل الانقلابي العربي في العراق في ذلك الوقت، وخصوصاً في الفترة ١٩٣٩ ـ ١٩٤١، في عنصرين أساسيين هما: إقامة نظام تعليمي ذي شق انضباطي شبه عسكري قائم على التربية القومية، كان أبرز من قام عليه سامي شوكت (مع مساهمة سابقة بالغة الأهمية من طرف آخر هو ساطع الحصري)، والعمل السياسي القومي في الأوساط المثقفة وفي الجيش. وتشير كل الدلائل إلى أن الملك غازي كان متعاطفاً مع هذين التوجهين، وحاضناً لنادي المثنى، ومناهضاً للسياسة البريطانية في مملكته.[(١٦٢)] كما تشير الدلائل إلى اهتمام خاص بالعراق تجلى في متابعة زريق الدؤوبة لأخباره،[(١٦٣)] وفي قيادته لوفد من جمعية العروة الوثقى زار العراق سنة ١٩٣٩ بدعوة من وزارة المعارف، قابل خلالها جملة من السياسيين على رأسهم نوري السعيد، وشارك في جنازة الملك غازي الذي كان توفي في أثناء هذه

(١٥٨) رسالة من هاني الهندي، ٣/١١/٢٠٠٢.

(١٥٩) المصدر نفسه؛ الحوت، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٣، ٧٧٧ ـ ٧٧٨.

(١٦٠) مقابلة مع السفير نديم دمشقية، بيروت، ٢٩/١٠/٢٠٠٢.

(١٦١) مقابلة مع واصف كمال، ٤ و٥/٤/٢٠٠١؛ المذكرات، ص ٨٠ (أوراق الدكتور زريق).

(١٦٢) Simon, op. cit., p. 73.

(١٦٣) مقابلة مع السفير نديم دمشقية، بيروت، ٢٩/١٠/٢٠٠٢.

الزيارة.[(١٦٤)] وفي هذا السياق، فإن لرثاء زريق الملك غازي على موجة راديو بغداد دلالة: فهو أدى في كلمته هذه التحية للنهضة العراقية من «أبناء العروة الوثقى»، وأشاد بالملك غازي علماً للنهضة العربية، ورأى في موته فجيعة للأمة العربية، مضيفاً أنه ولئن غاب بجسده فهو باق بروحه، ساهراً مع جده وأبيه على النهضة العربية.[(١٦٥)] في هذا، وفيما يلي، إشارة إلى صلة ما ليس لدينا إمكان تقصيها بالتفصيل لنقص المعلومات، غير القول: إن بعض معارف ومريدي زريق قام على تأسيس بعض المنظمات القومية الفاعلة في العراق في ذلك العهد. فقد أسس يونس السبعاوي ودرويش المقدادي (الفلسطيني) وسعيد الحاج ثابت منظمة القومي العربي، وكان الثاني قد أسس جمعية الجوال العربي سنة ١٩٢٩. وتضافرت جهود هؤلاء مع جهود فريد زين الدين وصدّيق شنشل وناجي معروف وصلاح الدين الصباغ، التي انصبت في نادي المثنى وفي لجنة الدفاع عن فلسطين وفي كتائب الشباب. وكان واصف كمال عُيِّن سنة ١٩٣٩ مدرساً في الثانوية العسكرية التي أتاحت مجالاً واسعاً للتنظيم في صفوف الجيش (ومن المنتمين إلى هذه الحلقات في ذلك الوقت عبد السلام عارف وناجي معروف). ويقول أحد الناشطين في هذه الحركات إن الحلقات العسكرية التي أنشئت في هذا الجو ـ وخصوصاً من قِبَل صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سلمان ـ ارتبطت عبر هؤلاء بالتنظيم السري (وقد كان للمفتي الحاج أمين الحسيني في هذا كله دور لا ينكر، على غموض معالمه وتفصيلاته، بل ربما كان أساسياً)، وأدت دوراً أساسياً في حركة رشيد عالي الكيلاني الانقلابية القومية[(١٦٦)] والمرتبطة على نحو ما بألمانيا، وخصوصاً عن طريق المستشار فريتز غروبّا[(١٦٧)] ـ رجل وزارة الخارجية المختص بالشرق وبتركيا، ورجل الاستخبارات الألمانية.[(١٦٨)] وتشير أكثر الدلائل إلى أن الشخصية المحورية في كل ذلك كانت يونس السبعاوي. وقد شارك في القتال التالي

(١٦٤) غنما، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

(١٦٥) كلمة في تأبين الملك غازي، ١٩٣٩.

(١٦٦) الحوت، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧٧ ـ ٧٧٨ (نص مراسلات بين الحاج أمين الحسيني وناجي شوكت).

(١٦٧) مقابلة مع واصف كمال، ٤ و٥/٤/٢٠٠١؛ واصف كمال: شاهد على قضية فلسطين وقضايا عربية، إعداد هالة سليمان الأسعد (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١)، ص ١٢١ وما يليها؛ أبو فخر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦.

(١٦٨) F. Grobba, *Männer und Mächte im Orient: 25 Jahre diplomatischer Tätigkeit im Orient* (Göttingen: Musterschmitt, 1967).

لهذه الحركة أعداد كثيرة من القوميين ممن ذكرت أسماؤهم أو لم تذكر، بل سافر إلى العراق بعض الشبيبة خصيصاً لهذا الغرض، ومنهم بعض طلبة زريق كالأستاذ منير البعلبكي،[١٦٩] مؤسس دار العلم للملايين التي نشر زريق لاحقاً معظم كتبه لديها، ونديم دمشقية كما ذكر من قبل. والجدير بالذكر أنه بعد فشل حركة الكيلاني وتشتت القوميين الانقلابيين (ومنهم الحاج أمين الحسيني) وهربهم إلى خارج العراق، ثم هجرة بعضهم، وخصوصاً إلى ألمانيا وإيطاليا،[١٧٠] تم إعدام جملة من الناشطين المذكورين وغيرهم من الضباط ممن كانوا على صلة بحزب الاستقلال المنتمي بدوره إلى الجو نفسه: صلاح الدين الصباغ، ومحمود حسن سلمان، وفهمي سعيد، وكامل شبيب، إضافة إلى يونس السبعاوي الذي كان تسلم وزارة الاقتصاد في وزارة الكيلاني.

ولئن دلت التجربة العراقية السياسية المباشرة هذه على التوجهات الانقلابية والعروبية، المعادية للاستعمار والانتداب والقوى المحلية المرتبطة بهما، وعلى نزوع أعضاء التنظيم السري إلى العمل السياسي المباشر بهدف استلام السلطة، فإن النواحي الأخرى من أنشطتهم تدل على نزوعاتهم المتعلقة بشكل الدولة والسلطة المرجوة منهم. ولا شك في أنه كان لأفكار زريق موقع مهم في البث الأيديولوجي لهذه السلطة العراقية القومية العربية الجنينية، إذ كان لوزارة المعارف العراقية فضل تشجيع كتابه الوعي القومي، الصادر سنة ١٩٣٩، الذي قُرّر على دار المعلمين العراقية، ووضعت نسخة عنه في كل مدرسة ومكتبة (الأعمال، ص ٥٧). كما عُمل على مراجعة مناهج تدريس التاريخ بحيث جعلت متوافقة مع التوجه القومي، استناداً إلى موقف رأى في دراسة التاريخ التمجيدي للعرب عنصراً تعبوياً أساسياً. ووضعت لهذا الغرض كتب مدرسية من قِبَل معلمين قوميين من غير المؤرخين (وهذا نهج الحركات القومية كافة) مهاجرين إلى العراق ـ وقد صير إلى تعديل مناهج التاريخ بعد هزيمة حركة رشيد عالي الكيلاني.[١٧١] وكان زريق كتب إلى طالب مشتاق، لدى تعيين الأخير مديراً للدعاية والنشر في العراق سنة ١٩٣٩، أن المهمة الأولى التي ينبغي له

(١٦٩) معلومات مستقاة من الدكتور رمزي البعلبكي، بيروت، ١٨/٦/٢٠٠٢؛ سجل طلبة زريق ـ مقرر التاريخ ٤٢٥ ـ ٤٢٦ (١٩٣٦ ـ ١٩٣٧)، التاريخ ٤٢٥ ـ ٤٢٦ (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨)، التاريخ ٣٢١ ـ ٣٢٢ (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨). (أوراق الدكتور زريق).

(١٧٠) واصف كمال: شاهد...، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥ وما يليها.

(١٧١) درويش المقدادي وأكرم زعيتر، تاريخنا بأسلوب قصصي (بغداد، ١٩٣٩)؛ محمد عزة دروزة، دروس التاريخ العربي، من أقدم الأزمنة إلى الآن (دمشق، ١٩٣٩)؛
Simon, op. cit., pp. 96 ff., 162.

أن يضطلع بها هي إيضاح الفكرة القومية ونشرها في الكتب والمجلات والراديو، وأن عليه حسن اختيار المعلمين العرب ممن هم موضع ثقة سياسية في سورية ومصر، من أجل استقامة التنشئة القومية. كما أنه حث على التعاون مع الجيش كي تتم للطلاب التنشئة النظامية شبه العسكرية، وكي يتم تدريبهم على الجهاد القومي.[١٧٢]

كنا ذكرنا القمصان الحديدية الدمشقية، وأهمية التعبئة شبه العسكرية على النهج الألماني (بل الإيطالي والإسباني المعاصرين له)، كعنصر حركي مكوّن من عناصر الحركات القومية الناشئة في العشرينات والثلاثينات. والحال أن عسكرة التعبئة السياسية ـ وهي المقابل الجماهيري للنهج الأخلاقي والطهراني والخلاصي للحركات السرية ـ قد وجدت لها مجالاً واسعاً في العراق، وخصوصاً عند استلام سامي شوكت إدارة التربية فيه. فقد فرض على الطلاب لباساً عسكرياً موحداً (وعلى الأساتذة كذلك)، وأرسل بعض الطلبة إلى ألمانيا للتدرب مع شبيبة هتلر، وجعل من الألمانية لغة ثالثة في المدارس. كما شدد فاضل الجمالي (تحت اسمه المستعار «الحجّاج») على أهمية الصحة الجسدية والأيديولوجيا، أي على الصفاء والتفاني الأيديولوجي، بنفس مزج فيه بين مثالي هتلر وأتاتورك.[١٧٣] كما مجّد سامي شوكت الشهادة والدم في سياق الخلاص القومي.[١٧٤] وقد تماثلت هذه النزوعات الكتائبية مع حث زريق الأمة جمعاء على الأخذ بالروح العسكرية، وتأكيده الرابط بين الانضباط العقلي والانضباط الجسدي الذي تمثله الرياضة، وتشجيعه التنظيمات الكشفية العاملة على تقوية العقل والجسم معاً، وعلى اكتساب صفات الرجولة وتوحيد نزعات الشباب وتدريبهم على التكاتف.[١٧٥]

سنرى في الفصل التالي كيف اتصلت هذه النظم بالمنحى الأخلاقي والرومانسي للأفكار القومية العربية في الثلاثينات، وبتشديد زريق على أهمية التعبئة العاطفية ـ على «الإيمان» بحسب ما ورد في كتابات سبق أن ناقشناها ـ عن طريق المدرسة والصحافة والحركات الكشفية (الانضباط شبه العسكري) والرموز من أغانٍ حماسية ورموز تاريخية وحالية كالبيارق وما شابه ذلك.[١٧٦] لكن علينا العودة إلى السؤال

(١٧٢) رسالة إلى طالب مشتاق، ٧/٦/١٩٣٩ (أوراق الدكتور زريق).

(١٧٣) Simon, op. cit., pp. 87-88, 112-113.

(١٧٤) سامي شوكت، «صناعة الموت» في: هذه هي أهدافنا (بغداد: وزارة المعارف، ١٩٣٩)، ص ١ ـ ٣.

(١٧٥) الكتاب الأحمر، الفقرة ٤٠؛ الأعمال، ص ٩٩؛
«Discipline,» 1940.

(١٧٦) «التربية القومية»، ١٩٣٧.

الذي طرحناه سابقاً، والمتعلق بنسيج التنظيم السري، وبما إذا كان هذا النسيج قد أتاح للتنظيم وحدة عملانية على الصعيد السياسي وغيره من الصعد، وبالتالي التساؤل عن طبيعة الدور القيادي الذي أداه زريق. إن ما استجمع لدينا من معلومات ومؤشرات عرضناها للتو تدل على جملة أمور، أهمها، على ما يبدو، أن التنظيم كان في أساسه شبكة علاقات قامت على روابط أيديولوجية، كان على رأسها روح الصفوة الطليعية التي اتخذت من السرية مناطاً. لا يبدو لنا في ضوء ما هو متوفر من معلومات، أنه قد كان للسرية هذه أثر عملاني على صعيد مركزية القرار، وإنما كانت التحركات السياسية التي قام بها مَنْ ارتبط بالتنظيم السري محلية، وجاءت استجابة لأوضاع محلية، في فلسطين والعراق على وجه الخصوص، من دون أن يتعدى الرابط ببيروت دور الاستشارة وإتاحة المجال للصلات والاتصالات. وقد جاء في الكتاب الأحمر أن أقطار العرب ليست سواء، بل هي مختلفة في العلم والجهل، والغنى والفقر، والسيادة والاستعباد، «فلذلك جاز أن تتنوع أساليب الحركات السياسية والاجتماعية فيها وأن تختلف باختلاف القطر، على أن يقوم بينها جميعاً ضابط يؤلفها وينسقها ويوجهها توجيهاً يضمن فعلها في إيصال الأمة العربية إلى هدفها القومي العام بأقل التضحيات وأقصر الزمن.»[١٧٧]

فلا يبدو أن التنظيم أدى دور الحزب، وإنما دور نادي الصفوة القومية، وما كانت السرية لديه مناطاً عملانياً، وإنما تعبيراً أيديولوجياً عن روح طليعية نابذة للأوضاع القائمة، من دون أن تكون قادرة بعد على تشكيل حزب سياسي. ولا يبدو بالتالي أن زريقاً كان نظيراً لـ «شيخ الجبل» في العصر الصليبي، الذي أرسل مريديه إلى هنا وهناك واعداً إياهم بالجنة، بل كان دوره أقرب إلى دور الموجه والخطيب والمستنهض، لا دور الآمر، على الرغم من إبدائه الرأي في أمور تفصيلية شتى. سبق أن ذكرنا رسالة زريق إلى طالب مشتاق بخصوص إدارة الدعاية والنشر في العراق، ولا يبدو منها أنه كان للتنظيم السري ولرئيسه زريق أدوات المتابعة والتنفيذ التي رجعت للقوى المحلية. ونحن لا نعلم نتائج نصيحته لوزارة الخارجية العراقية سنة ١٩٤٠ احتذاء سياسة قومية عربية غير ما كان جارياً محلياً من عداء لبريطانيا وتنمية الروابط مع ألمانيا.[١٧٨] كما أننا لا نعلم ما الذي نتج من نصيحته لإدارة النشر والدعاية في العراق إنشاء «يد خفية» لإرشاد الوفود الصحافية، ومراقبة

(١٧٧) الكتاب الأحمر، الفقرة ٧.

(١٧٨) مسودة تقرير إلى وزارة الخارجية العراقية بشأن إنشاء قسم عربي في الوزارة، كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٠ (أوراق الدكتور زريق).

القنصليات العراقية في سورية ولبنان للمصطافين العراقيين «لردع من يكون في تصرفه شيء يسيء إلى سمعة العراق وإلى الرابطة القومية المنشودة»، وضبط الصحف في العراق وخارجه ـ إذا أمكن ـ كي لا تأتي بما قد يضر بالمصلحة القومية، على اعتبار أن تصرف الفرد لا يتعلق به وحده وإنما بقوام الجماعة القومية.[١٧٩] وغني عن القول إن هذه الروح الانضباطية الزاجرة وثيقة الصلة بعملية إنشاء الأمم والنظم السياسية الانقلابية.

ثمة مؤشرات إلى أن إدارة الجامعة الأميركية كانت على شيء من العلم بنشاط زريق السياسي، وأنها لم تكن تامة الرضى عن ذلك. فقد اتخذت الإدارة قراراً سنة ١٩٣٧ بنزع صفة مستشارية العروة الوثقى عنه، وهو القرار الذي نجح أعضاء الجمعية في الالتفاف عليه، والذي أثاره في البرلمان السوري محتجاً السيد فخري البارودي، راعي «القمصان الحديدية» في دمشق. لكن الواضح أن موقف الإدارة ما كان متماسكاً، وأنها بقيت على تأييدها للأهداف العامة للجمعية، بدليل أن رئيس الجامعة أجرى مسابقة سنة ١٩٣٧ بالتنسيق مع الجمعية موضوعها: «ما هي في نظرك الأسس التي يجب أن ترتكز عليها نهضتنا القومية؟»، جعل لها لجنة تحكيم كان زريق من أعضائها.[١٨٠]

بيروت، دمشق، العالم

تشح الوثائق والمعلومات عن زريق، أو تكاد، في الفترة الفاصلة ما بين سنة ١٩٣٩، عندما استقال من رئاسة التنظيم السري، وبين سنة ١٩٤٨، السنة التي نشر فيها معنى النكبة (وهو الكتاب الذي أدخل عبارة «النكبة» إلى القاموس السياسي العربي بصفتها عبارة اصطلاحية)، ويكاد يختفي فيها الأثر ـ ولو ثمة مؤشرات إلى نشاط سري بل جماهيري تلا تشتت قياديي مجموعة الكتاب الأحمر بعد سقوط الحكم الوطني والقومي في العراق سنة ١٩٤١ وبروز قيادات جديدة أدت إلى إنشاء حزب البعث. وقد تجلى هذا النشاط في استمرار قيامه على حلقات التثقيف القومي السرية في الأربعينات[١٨١] في مشاركته في تظاهرة قامت في بيروت سنة

(١٧٩) رسالة إلى طالب مشتاق، ٧/٦/١٩٣٩ (أوراق الدكتور زريق).

(١٨٠) غنما، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٦ ـ ١٢٩؛ أنظر أيضاً: كمال صليبي، طائر على سنديانة ـ مذكرات (عمان: دار الشروق، ٢٠٠٢)، ص ١٢٦، حيث قال: إن «الإدارة الأميركية تحبذ نشاطها [العروة الوثقى] لسبب ما.»

(١٨١) رسالة من هاني الهندي، ٣/١١/٢٠٠٢.

١٩٤٣.[١٨٢] والحال أن هذين التاريخين يؤرخان لفترتين متمايزتين في حياة زريق: الفترة التي شهدت عملاً سياسياً، والفترة اللاحقة لسنة ١٩٤٨ التي شهدت اعتزال السياسة والانخراط، أولاً في المناصب العليا والعمل المؤسسي التربوي، ثم في العمل العلمي والتربوي العام، أي بين فترة زريق الشاب الانقلابي وفترة زريق رجل المؤسسات، وهي الفترة التي ربما انصرف في بعضها إلى المساهمة في التنشئة المبكرة لبناته. ليس واضحاً القدر الذي كانت فيه هزيمة حركة رشيد عالي الكيلاني عاملاً أثر في إيمان زريق بنجاعة العمل الانقلابي، لكن لنا أن نرى أن حصول الدول العربية على استقلالها بعيد الحرب العالمية الثانية كان عنصراً في التحول من الانقلابية إلى الإصلاحية. فقد كانت انقلابية زريق سياسية واستقلالية في الدرجة الأولى. والمرجح أنه لم يعان أزمة ضمير عندما وقّع سنة ١٩٥٢ تصريحاً، طُلب من موظفي الدولة السورية (وكان آنذاك رئيساً لجامعة دمشق)، بأنه لا ينتسب إلى أي حزب أو أية جماعة، ويتعهد فيه بالامتناع من أي نشاط سياسي.[١٨٣] هذا مع أننا نعلم أن زريقاً استمر في تلك الفترة في الإشراف على مجلة العروة الوثقى، وأنه واظب على جمع الشباب الواعد في حلقات قومية تثقيفية.[١٨٤]

بالإضافة إلى ذلك، ما كان وضع الجامعة الأميركية خلال الحرب العالمية الثانية، وما شهده لبنان في إبانها من احتلالات وتغير في العلاقات الدولية من نظام فيشي ونظام ديغول إلى الاحتلال البريطاني ومن حركة استقلالية، وضعاً سهلاً. إذ اضطرت إدارة الجامعة إلى التعاون مع هذه القوى كافة. واضطر أساتذتها الأجانب إلى المغادرة إلى فلسطين سنة ١٩٤١، كما حلت خلالها كل المنظمات الطلابية وألزم الطلبة جميعاً بالتعهد بعدم ممارسة العمل السياسي.[١٨٥] ولئن ظل الكتاب الأحمر موضع نقاش من قبل البعض، إلاّ إن الأولوية أعطيت الآن لكتاب الوعي القومي، الأقل «حركية» من الأول، كما استمرت النقاشات العلنية في الشؤون القومية في إطار النادي الثقافي العربي الذي أسس سنة ١٩٤٤ بهيئة إدارية مكونة من نديم دمشقية وفؤاد السعد ورامز شحادة، وهو النادي الذي تداخل مع طلاب الجامعة الأميركية وأعضاء العروة الوثقى.[١٨٦] ويرى أعضاء مؤسسون في حركة القوميين العرب أن النادي ـ وكان موقعه في مقابل كركون حبيش في أواخر شارع بلسّ ـ كان

(١٨٢) حديث مع السيد غسان تويني، بيروت، ٢٩/١٠/٢٠٠٢.

(١٨٣) نص التعهد في أوراق الدكتور زريق.

(١٨٤) غنما، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣، ١٥٨.

(١٨٥) Dodge, op. cit., Ch. 9, passim.

(١٨٦) النادي الثقافي العربي خلال ٣٥ عاماً (بيروت: النادي الثقافي العربي، ١٩٨٠)، المقدمة.

من المواقع الأساسية التي نوقشت فيها الأفكار التي أدت إلى تأسيس هذه الحركة.[١٨٧]

أمّا ما يختص بزريق، فالمروي هو أنه كان يتجنب في هذه الفترة، وخصوصاً في أواخرها، البحث في الشؤون السياسية اليومية، ويؤثر النقاشات الفكرية في مواجهة شبان أولوا اهتمامهم للحركية والانقلابية وتدارسوا تجارب العنف السياسي في أوروبا، وخصوصاً في روسيا القيصرية، كما اهتموا بالمنظمات السرية الصهيونية كالإرغون وعصابة شتيرن.[١٨٨] كما يذكر زريق حلقات نقاش أسبوعية عقدها مع الطلاب القوميين لمناقشة الوعي القومي، وعلى رأسهم من عمل بعد ذلك على تأسيس حركة القوميين العرب.[١٨٩] وهو وإن يبدو أنه استمر على الاهتمام ببعض الشؤون السياسية الراهنة، ومنها ـ على ما تبقى من أخبار ـ نصيحته لبعض طلابه، وكان منهم وصفي التل، العمل في الجيش البريطاني في فلسطين للإفادة من الخبرة العسكرية، ولأن الصهيونيين أدخلوا الآلاف لهذا الغرض.[١٩٠] إلاّ إن زريقاً، مع نهاية الأربعينات وفي الخمسينات، أصبح أستاذاً أكثر منه داعية، ولم يستمر، كما كان، قطباً من أقطاب الحركة القومية.[١٩١] وهو بحسب قول أحد معاصري هذه الأحداث، وإن كَنّ له الجميع الاحترام، إلاّ إنه أضحى منظّراً اعتُبر يوتوبياً بعض الشيء، بعيداً عن الأمور الراهنة، من دون صدقية عملية سياسية لدى الشبيبة.[١٩٢] ولئن كان لفكره القومي أثر يبدو أنه كان مباشراً في الدكتور جورج حبش ورفاقه، إلاّ إن حبش اصطدم بالنهج الإصلاحي الذي كان زريق قد تبناه، بل يمكن القول إنه ـ أي جورج حبش ـ أصبح انقلابياً وحركياً على الرغم من التأثر بهذه الأفكار،[١٩٣] ولو أننا وجدنا أن لها آثاراً عملية حركية بالغة الوضوح.

ويعرف الجميع أن زريقاً كثر ما قال أنه ليس سياسياً مع احتفاظه بالنظرة

(١٨٧) مقابلة مع هاني الهندي، ٩/٤/٢٠٠١.

(١٨٨) الهندي والنصراوي، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.

(١٨٩) المذكرات، ص ٧٧ ـ ٧٨ (أوراق الدكتور زريق).

(١٩٠) جمال الشاعر، سياسي يتذكر (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٨٧)، ص ٢٠.

(١٩١) مقابلة مع الدكتور نقولا زيادة، ٢٧/٢/٢٠٠١.

(١٩٢) مقابلة مع الدكتور محمد يوسف نجم، ١٢/١٢/٢٠٠١.

(١٩٣) سهير السلطي التل، حركة القوميين العرب وانعطافاتها الفكرية (بيروت، ١٩٩٦)، ص ٨٤؛ فؤاد مطر، حكيم الثورة ـ قصة حياة الدكتور جورج حبش (لندن، ١٩٨٤)، ص ٣١ ـ ٣٢؛ حازم صاغية، قوميو المشرق العربي، من درايفوس إلى غارودي (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠)، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

القومية، بل إنه لا يجد لنفسه مكاناً عندما تطرح قضايا سياسية مباشرة، كقضية حلف بغداد،[١٩٤] التي سنتحدث عنها بعد قليل. بل إن بعض القوميين ـ ونخص بهم في هذا المقام أعضاء حزب البعث ـ هاجموا زريقاً خلال ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠، متهمينه بطرح أفكار قومية مناسبة للولايات المتحدة، وذلك بعد أن فكوا تحالفهم في الجامعة الأميركية مع القوميين العرب (مثّل الأولين في هذا التحالف في سياق جمعية العروة الوثقى سعدون حمّادي، والثانين جورج حبش).[١٩٥] وليس من شك في أن جو الجامعة الأميركية بعد النكبة كان جواً جياشاً بالقومية العربية (وكانت تركيبة طلابها القطرية والطائفية ما زالت على ما كانت عليه قبلاً كما رأينا) وبالقومية السورية، إلى درجة أن صحيفة العمل الكتائبية دعت الدولة سنة ١٩٤٩ إلى إغلاقها، باعتبار أنها أنتجت معظم «المرتدين» في لبنان وفي الدول المجاورة. وقد دعا ذلك الصحف المحلية المتأثرة بخريجي الجامعة الأميركية إلى الدفاع عن هؤلاء باعتبار أنهم حملة الحرية والاستقلال في العالم العربي، وهاجمت خريجي المعاهد العالية الأخرى، الفرنسية أساساً، على أنهم عبيد الاستعمار.[١٩٦] وسيكون لصلة زريق بهذا التوجه العروبي نتائج على وضعه في الجامعة في الخمسينات والستينات، كما سنرى. وكان زريق كتب سنة ١٩٥٤ ما نصه: «وبصفة خاصة أجدني عاجزاً عن أداء الناحية السياسية حقها، لأني ضعيف الاتصال بها غير واقف على خفاياها. وإنما أنظر إلى القضية العربية ككل، كمشكلة حياتنا العربية الحاضرة، بتمامها، وأحاول الكشف عن صميم هذه المشكلة ورسم الأسس التي يجب أن تقوم المعالجة عليها» (الأعمال، ص ١٦٥٠). في هذا الاستنكاف عن الناحية السياسية تعبير عن أمور شتى: دخول العقائدية الحزبية وخصوصاً العقائدية التقدمية إلى الفكر القومي وإلى الحركة القومية بعامة في الدول العربية عموماً وفي الجامعة الأميركية وعروتها الوثقى بخاصة،[١٩٧] وهو الأمر الذي ما رضي عنه زريق كما سنرى لاحقاً. هذا بالإضافة إلى علاقة قوميي الثلاثينات والأربعينات بالقوى السياسية القائمة، وجلها من القوى التقليدية، العلاقة التي كانت ذات طابع صراعي حتى نجحت القوى الوطنية المحافظة السائدة آنذاك في التغلب على من لم ينتم من القوميين الشباب هؤلاء إلى الحركات القومية

---

(١٩٤) مقابلة مع زريق في الخليج، ١٠/١٢/١٩٩٩؛ الشاعر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(١٩٥) الشاعر، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.

(١٩٦) هاني فارس، النزاعات الطائفية في تاريخ لبنان الحديث (بيروت: الدار الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠)، ص ١٣٧ الحاشية ١٥٢؛ صليبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(١٩٧) غنماء، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣؛ سويد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢ ـ ٣٣.

الراديكالية، «بالتدرج الطبيعي أو بالوسائل العنفيّة.»[١٩٨]

ومن الواضح أنه كان لانخراط زريق في الوظائف العليا أثر حاسم في تحويل تلكئه السياسي إلى قرار حاسم. وهو قد قال في جواب عن سؤال على صلة التجربة الدبلوماسية بصناعة التاريخ: إن العمل الدبلوماسي يجعل الفرد مقدراً لجدوى «العمل المنتج المنطوي على تَبِعَة»، ولضرورة الجزم المباشر، وقادراً على التفاعل الأكبر مع الحياة العملية.[١٩٩] ويبدو أن العمل الدبلوماسي البعيد عن مجال الطلاب ومشاغلهم هو العامل الأول الفاعل على بلورة نزوع زريق الجديد، الذي وصفنا للتو، على شكل موقف دائم. ففي الوقت الذي كانت الدولة السورية تسعى لبناء وزارة الخارجية، حضر الدكتور ناظم القدسي إلى بيروت ليختار من محيط الجامعة الأميركية من يعاونه على تشكيل جهاز السفارة في واشنطن، وبعد أخذ ورد، استدعي زريق إلى دمشق لمقابلة شكري القوتلي، رئيس الجمهورية آنذاك. فما كان عليه، بعد التردد في الانقطاع عن العمل الجامعي، إلاّ الخضوع للأمر الواقع، بحسب عبارته، وطلب فرصة استيداع من الجامعة. وغادر زريق بمعية زوجته وطفلتيه، وناظم القدسي، وحسني الصواف، إلى الولايات المتحدة على متن طائرة عسكرية أميركية في شباط/فبراير أو آذار/مارس ١٩٤٥. وقد كان ذلك لصعوبة المواصلات في أواخر الحرب العالمية الثانية. واضطروا إلى السفر، بحسب ما أتاحته برامج المواصلات العسكرية، عن طريق القاهرة والدار البيضاء، ثم عبر جزر الآزور وغرينلاند عبر طريق متعرج لتفادي الأجواء التي ترتادها الطائرات الألمانية، وصولاً إلى نيوفوندلاند في كندا، وانتهاء بنيويورك.[٢٠٠] وبعد انتقال زريق إلى واشنطن، والمساهمة في اجتماعات سان فرانسيسكو (رأس الوفد السوري فيها فارس الخوري) التي أقر فيها ميثاق الأمم المتحدة، استلم بعد مغادرة ناظم القدسي منصب الوزير السوري المفوض في الولايات المتحدة، وقدم أوراق اعتماده كسفير إلى الرئيس ترومان في ١٣ شباط/فبراير ١٩٤٦.

وفي هذا السياق، نشط زريق في بناء السفارة وما تطلب هذا من بناء علاقات محلية (ولم يكن في ذلك الوقت إلاّ سفارتان عربيتان في واشنطن، سفارتا مصر والعراق)، وما كانت للخارجية السورية بعدُ تقاليد دبلوماسية، فاضطر إلى التعلم من التجربة والخطأ.[٢٠١] وسعى زريق والوفد اللبناني إلى الأمم المتحدة (برئاسة

---

(١٩٨) سويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

(١٩٩) شرارة، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣.

(٢٠٠) المذكرات، ص ٨٥ ـ ٩٠ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٠١) المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ٩١.



مع عقيلته دبلوماسياً في واشنطن

الدكتور شارل مالك) لمعالجة قضية جلاء القوات الفرنسية عن سورية ولبنان بعد إعلان استقلالهما، ونجحا في استصدار قرار بهذا الشأن من مجلس الأمن في شباط/ فبراير ١٩٤٦ (وتم الجلاء عن سورية في ١٧ نيسان/أبريل ١٩٤٦ وعن لبنان في ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٦). إلاّ إن شهر العسل هذا لم يدم طويلاً، إذ إنه بعد تأسيس السفارة اللبنانية، ابتدأت النزاعات بين السوريين واللبنانيين، واستاء زريق أيما استياء من استيراد بعض المهاجرين المشرقيين وبعض الدبلوماسيين للعصبيات الصغرى من مسلم ومسيحي وسوري ولبناني وحلبي ومرجعيوني، إلى غير ذلك من هذه العصبيات.[٢٠٢]

ومع تمام قضية الاستقلال، انشغل زريق (كما انشغل فارس الخوري وفاضل الجمالي وشارل مالك) بالقضية الفلسطينية، وفعل ما بوسعه من وضعه كعضو مناوب في مجلس الأمن لتفادي كارثة التقسيم في سياق وضع عالمي ذي معالم معروفة من الجميع، ولا حاجة إلى رصدها في هذا المقام.[٢٠٣] ولم يكن زريق متفائلاً بنتيجة العمل الدبلوماسي في الأمم المتحدة، على تفانيه فيه، إذ كتب إلى وزير الخارجية السوري[٢٠٤] مشيراً إلى التباس الموقف الأميركي، وإلى تضعضع المواقف العربية، وإلى قوة اليهود السياسية والاقتصادية والإعلامية في الولايات المتحدة وميل الرئيس الأميركي هاري ترومان إليهم. وهو كان أسف لأن المواقف العربية اتسمت بالدفاع عن الحق فقط من دون الكلام بلغة المصالح،[٢٠٥] وعبر عن الرأي في أنه ليس للصراع حل عالمي وإنما حل محلي في المقام الأول: فعلى محدودية جدوى العمل الدبلوماسي، يجب تنظيم هجرة عربية إلى فلسطين، وقيام ثورة فيها، والمقاطعة الاقتصادية، واحتذاء حذو الحركة الصهيونية في سياستها المزدوجة القائمة على لغة الدبلوماسية من جهة، وعلى العمل الإرهابي داخلياً من جهة أُخرى.[٢٠٦]

وكما هو الحال في سياسات التنظيم السري، لم يكن ثمة أدوات تنفيذية مباشرة لدى زريق ذات ارتباط بابتكار السياسات، وبقيت هذه الاقتراحات حبراً على ورق، ولو كان هناك تحركات في بعض الاتجاهات التي اقترحها، أُجهضت، كما

---

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص ٩٣ ـ ١٠١.

(٢٠٣) المصدر نفسه، ص ١١٤ ـ ١٢٠.

(٢٠٤) مذكرة إلى وزير الخارجية السوري، ١٩٤٧/٥/٢٨ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٠٥) المذكرات، ص ١٢٠ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٠٦) مذكرة إلى وزير الخارجية السوري، ١٩٤٧/٥/٢٨ (أوراق الدكتور زريق).

نعلم، بسرعة بالغة وأدت إلى النكبة. لا شك في أن زريقاً اكتسب خبرة في منصبه في واشنطن، لكنها كانت على الأرجح تجربة مثبطة للعزائم، استبقى منها حساً بضرورة تغليب كلام المصالح على كلام العواطف والحق في محافل السياسة الدولية، وتغليب البناء الداخلي للأمة العربية، وشكاً بالغاً في الولايات المتحدة، التي ما استساغ الحياة فيها كثيراً،(٢٠٧) وهو الشك الذي شاركه فيه وفي نتائجه الدكتور شارل مالك في سياق مذكرة طويلة كتبت سنة ١٩٤٧ وانطوت على رواية، تكاد تكون تنبؤية، لما كانت ستؤول إليه العلاقات الأميركية ـ العربية.(٢٠٨) بل إن زريقاً اعتبر أن اعتماد اجتماعات سان فرانسيسكو نيويورك مركزاً للأمم المتحدة، كانت خسارة كبيرة للعرب.(٢٠٩)

لم يمكث زريق طويلاً في واشنطن، فلم يكن العمل الدبلوماسي موائماً لشخصيته ولطباعه، وكان راغباً في العودة إلى العمل الأكاديمي. ويبدو أنه كان عُيِّن في واشنطن لإجادته اللغة الإنكليزية، ولم يكن كثيرون من السوريين في ذلك الوقت يجيدونها، ولرغبة الدولة في وجود مسيحي في السفارة.(٢١٠) ولئن كان وجوده في هذا المنصب قد كوّن له رصيداً إدارياً ـ سياسياً، إلاّ إنه ما شاء الاستمرار في هذا الطريق، واعتذر عن تسلم وزارة الخارجية السورية عندما اقترح عليه حسني الزعيم استلام زمامها.(٢١١) لكنه ما إن عاد واستقر ببيروت نائباً لرئيس الجامعة الأميركية، حتى استدعي إلى دمشق في نيسان/أبريل ١٩٤٩ عن طريق مدير الأمن العام اللبناني لسبب كان يجهله. ولدى وصوله إلى دمشق، أخذ لمقابلة الزعيم حسني الزعيم الذي كان قد استلم السلطة في انقلاب عسكري قبل ذلك ببضعة أيام (٣٠ آذار/مارس). واضطر زريق مرة أُخرى إلى قبول «الأمر الواقع» وقبول استلام رئاسة الجامعة السورية، التي هدف حسني الزعيم ـ وكان على شذوذ سلوكه وغرابة أطواره حازماً وفاعلاً، أتاتوركي النزعة، وأعطى البلد قانوناً مدنياً متكاملاً لأول مرة في تاريخها ـ إلى إصلاحها وضخ الدماء الجديدة فيها.(٢١٢) فأصدر الزعيم مرسوماً تشريعياً يجيز

(٢٠٧) مقابلة مع الدكتورة هدى زريق، ٢٤/١١/٢٠٠١.

(٢٠٨) «في الوضع الحاضر: تقرير مرفوع إلى وزارة الخارجية اللبنانية من وزير لبنان المفوض في واشنطون في ١٩٤٩/٨/٥». وأشكر السيد غسان تويني على تزويدي بنسخة عن هذه المذكرة.

(٢٠٩) المذكرات، ص ١٢٢ (أوراق الدكتور زريق).

(٢١٠) مقابلة مع الدكتور جورج طعمه، ٢٠/٤/٢٠٠١ (وكان د. طعمه قد أصبح سفيراً لسورية في الأمم المتحدة في إبان حرب ١٩٦٧).

(٢١١) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١.

(٢١٢) الأعمال، ص ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤.



قسطنطين زريق في الخمسينات



في مجلس اليونسكو سنة ١٩٥١



قسطنطين زريق رئيساً للجامعة السورية



لمرة واحدة إسناد رئاسة الجامعة السورية إلى إحدى الشخصيات السورية الخارجة عن ملاك الدولة، ويعهد إليها بإصلاحها وإصلاح نظمها وبرامجها ومناهجها وإدارتها وماليتها وملاكها وأوضاع موظفيها، مع منح هذه الشخصية صلاحيات استثنائية.[٢١٣] وأرسل زريق في ٢ أيار/مايو ١٩٤٩ رسالة إلى وزير المعارف السوري، خليل مردم بك، أعلن فيها استلام مهماته.[٢١٤]

لا نعرف كثيراً عما قام به زريق في الجامعة السورية، إذ وجدنا أن محفوظات الجامعة لم تحتفظ إلاّ بوريقات قليلة الأهمية عائدة إلى عهد رئاسته لها. ما نعرفه هو أن زريقاً كان موضع تنازع تيارين متناقضين، خرج منه مطمئناً إلى أنه نال «أجر المجتهد» (الأعمال، ص ١٧٩٥). تبنى التيار الأول بعض أصدقائه ومعاونيه الذين آمنوا بالإصلاح السريع للجامعة وبالبت العاجل في شأن نظمها التعليمية والإدارية وشؤون الموظفين، مستغلين بذلك الظرف المؤاتي والمتمثل في الحزم المعروف عن حسني الزعيم. أمّا التيار الثاني، والألصق بطباع زريق، فقد دعا إلى التريث واستكمال الدراسات وإخضاعها للحوار والنقاش في جو - هو الجامعة - من المفترض أن يكون معقلاً للتفكير العقلاني والمتأني. وبقي زريق موضع تجاذب بين هذين التيارين لمدة أعوام ثلاثة تخللها ثلاثة انقلابات عسكرية (الأعمال، ص ١٧٩٤ - ١٧٩٥). لكننا نعلم أنه حرص على زيادة أعداد الطالبات في الجامعة (حتى صارت، سنة ١٩٥١، نسبة الإناث إلى الذكور ١:٤ مقارنة بالجامعة المصرية التي كانت النسبة فيها ١:١٣ في السنة نفسها). وشجع ورعى الروابط الطلابية، وكانت أهمها العروة الوثقى التي تأسست في الجامعة السورية سنة ١٩٤٧،[٢١٥] والندوة الثقافية، والحلقة العلمية، والحلقة الفنية. وسن أنظمة جديدة لكل من كلية الآداب وكلية العلوم، وللإيفاد إلى الدراسات والمؤتمرات والاختصاص.[٢١٦] كما أوفد البعثة الأولى من ٢٠٠ طالب إلى الخارج للحصول على الدكتوراه، وعمل ناشطاً على دعم قانون مجانية التعليم الثانوي في سورية، الذي أقر في البرلمان السوري في ٥ أيلول/سبتمبر ١٩٥٠ بعد معارضة شديدة من المحافظين. وقد تم هذان الأمران بالتنسيق مع مجلس النواب، وخصوصاً بالتعاون مع الدكتور عبد الوهاب حومد، الأستاذ في كلية الحقوق والرئيس الأعلى للجامعة وعضو مجلس

---

(٢١٣) المرسوم التشريعي رقم ٤٢ - ٢/٥/١٩٤٩ (محفوظات جامعة دمشق).

(٢١٤) أوراق الدكتور زريق.

(٢١٥) غنما، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢، ١٦٠ - ١٦١.

(٢١٦) نبذة عن أعمال الجامعة السورية خلال العام الدراسي ١٩٥٠ - ١٩٥١ (دمشق: الجامعة السورية، ١٩٥١)، ص ١٢، ١٤ - ١٥.

النواب آنذاك.[٢١٧]

استقال زريق من رئاسة الجامعة السورية في ٨ آذار/مارس ١٩٥٢، معتذراً بظروف خاصة.[٢١٨] لكن الحال، أن زريقاً كان قد عومل قبل ذلك بأيام معاملة غير لائقة لفظياً وجسدياً من قبل قوى الأمن التي تطاولت عليه عندما تصدى لها شخصياً لدى دخولها الحرم الجامعي، من دون إذن رئيس الجامعة، لملاحقة طلاب متظاهرين معترضين على سياسات أديب الشيشكلي.[٢١٩] وكانت تلك قضية ما أحب زريق ذكرها فيما بعد، ويبدو أنها أثرت فيه أيما تأثير إلى الحد أنه تفادى الكلام عن هذا الموضوع طوال حياته.[٢٢٠] وثمة دلائل أُخرى تشير إلى امتعاض زريق من عدم تجاوب الدولة معه وعدم تعاونها بخصوص الأمور المالية - وخصوصاً تحسين رواتب الأساتذة - ومن بطء التغيير الذي ارتجاه.[٢٢١] فكأنما حادثة الاصطدام بقوى الأمن كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير، في وضع ربما فاقمته الخلافات السياسية والحزبية التي اعتملت في الوسط الطلابي السوري، والمتمثلة في بيان طلابي، مغْفل التوقيع، هوجم فيه زريق، واتهم فيه بأنه أدى في الجامعة مهمة سياسية فشلت حكومة الاستعمار في القيام بها، من قتل لروح الانطلاق الفكري والتحرري لدى طلابها، وبأنه أصدر قراراً «فاشستياً» بفصل سبعة طلاب، من دون استشارة مجلس الجامعة بحسب الأصول، لإصدارهم نشرة غير مرخصة من الجامعة[٢٢٢] لا ندري محتواها. ليس واضحاً ما كانت الملابسات والأهداف السياسية المرتبطة بهذه الاتهامات التي استعسر التحقق منها. فقد شهد لزريق الاختلاط بالطلاب ورعاية شؤونهم، وإلقاء الدروس (في منهج البحث التاريخي وفي تاريخ الفكر العربي،[٢٢٣] على ما لم يكن مألوفاً من رؤساء الجامعة)، وتفقد أمورهم ومرافقهم وحضور مناسباتهم. وأقام له الطلاب حفلة وداع حارّة،[٢٢٤] كما أقامت

---

(٢١٧) عبد الوهاب حومد، «كلمة في تأبين الدكتور قسطنطين زريق كما عرفته»، مخطوط كلمة ألقيت في حفل تأبين الدكتور زريق، دمشق، ١٢/٢/٢٠٠١.

(٢١٨) رسالة الاستقالة إلى وزير المعارف السوري، ٨/٣/١٩٥١ (أوراق الدكتور زريق).

(٢١٩) أشكر الدكتورة خيرية قاسمية على وصف المشهد على السلم الرئيسي لجامعة دمشق؛ أنظر: غنما، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢.

(٢٢٠) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١.

(٢٢١) مسودة رسالة لم ترسل إلى وزير المعارف، ٦/٣/١٩٥١ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٢٢) بيان بعنوان «أيها الطلاب والطالبات»، [د. ت] (أوراق الدكتور زريق).

(٢٢٣) قرار رئيس الجامعة السورية رقم ٣٥٩ بتاريخ ١/١٢/١٩٥١ (محفوظات الجامعة السورية).

(٢٢٤) كلمة السيد محمد علي الساعي في حفل تكريم ووداع زريق في ١٢/٥/١٩٥٢ (أوراق الدكتور زريق).

له الدولة ـ التي ربما كان جزء منها شاكراً له على مغادرته بهدوء ومن دون جلبة ـ حفلة وداع حضرها العقيد الشيشكلي ورجال العلم والأدب والملحقون الثقافيون في السفارات، كرم فيها بوسام الاستحقاق.[٢٢٥]

لا شك في أن دقة عمل وتخطيط زريق[٢٢٦] جعلاه متقدماً على وضع الجامعة السورية ـ كما سنراه متقدماً على وضع الجامعة الأميركية ـ وأن عدم استعداده الدخول في شبكة العلاقات السياسية، عطل عليه كثيراً من إمكانات العمل المؤثر. ولا شك في أن فترة دمشق كانت «أحسن سنوات العمر»[٢٢٧] من الناحية الاجتماعية وتكوين الصداقات. إلاّ إن زريقاً بقي على صلة بالدولة السورية بوصفه ممثلاً لها في المجلس التنفيذي لليونسكو، بل إنه رشح لمنصب المدير العام لهذه المنظمة، إلاّ إنه لم يوفق في تموز/يوليو ١٩٥٣ عندما حصل الأميركي إيفانز (مدير مكتبة الكونغرس) على أكثرية الأصوات في الجولة الثانية من التصويت، عندما تحولت مصر إلى دعم المرشح الأميركي، لمّا رأت أن لا حظ لسورية في هذا المجال.[٢٢٨] ورفض زريق في العام التالي فكرة ترشيحه لمنصب نائب المدير العام لهذه الهيئة الدولية،[٢٢٩] وكان في هذا نهاية عهده مع المنصب السوري الرفيع.

أصبح زريق، بعد السفارة ورئاسة الجامعة، في مقام أرفع مما كان عليه سنة ١٩٤٥ اجتماعياً ووظيفياً. ولمّا عاد إلى الجامعة الأميركية نائباً لرئيسها الجديد ستيفن بنروز، الذي استلم الرئاسة سنة ١٩٤٩، عاد من موقع بالغ التميز جعله على مسافة ـ وكانت مسافة متبادلة ـ من الزملاء،[٢٣٠] وعلى مسافة من الطلاب، الذين كنوا له احتراماً كبيراً، ولو عن بعد، حددتها العلاقتان، التدريسية والإدارية معاً، إضافة إلى المقام الذي اكتسبه زريق من منصبيه الرفيعين في خدمة سورية. وانعكس هذا الوضع في تعليق له على الجامعة السورية، أشاد فيه بمساهمة الطلبة في العمل الاستقلالي،

(٢٢٥) ألف باء، ١٦/٥/١٩٥١.

(٢٢٦) حومد، مصدر سبق ذكره.

(٢٢٧) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١.

(٢٢٨) تقريران لزريق إلى وزارتي الخارجية والمعارف السوريتين في ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣ وفي تموز/يوليو ١٩٥٣ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٢٩) رسالة من وزير المعارف السوري إلى وزارة الخارجية السورية بتاريخ ٢١/١/١٩٥٤؛ رسالتان إلى زريق من شارل مالك في ٢٣/٣/١٩٥٣، وجميل صليبا في ١٩/١/١٩٥٤ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٣٠) مقابلة مع الدكتور نقولا زيادة، ٢٧/٢/٢٠٠١.

مضيفاً أن الأوان قد جاء لتعلق الطلاب بالنظام تعلقهم بالحرية.[٢٣١] وكان قد ذكّر طلبة الجامعة الأميركية، قبل انتقاله إلى الجامعة السورية، بأن الجامعة «وصيّ» عليهم، وبأن الجامعة مؤسسة تربوية لا مؤسسة سياسية.[٢٣٢] إن هذا لكلام رجل المؤسسة، وهو الذي كان قادراً، كما رأينا، على طرد الطلاب من الجامعة السورية جرياً على منطق النظام المؤسسي. وسنرى، في فقرات لاحقة، أن لهذا توابع.

استلم زريق المناصب العليا في الجامعة الأميركية (نيابة الرئاسة ثم الرئاسة بالوكالة) في فترة بالغة الاضطراب السياسي، الفترة التي تلت النكبة، ثم شهدت قيام حلف بغداد والعدوان الثلاثي على مصر. كانت تلك أموراً وعاها زريق وعياً تاماً، وتساءل في تقريره السنوي للعام الدراسي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ عن كيفية معالجة التحولات الاجتماعية والسياسية العربية في الإطار الجامعي، وخصوصاً في إطار جامعة أجنبية هي بالتالي موضع شكوك من العرب، وأخيراً عن كيفية تجنيد التيار القومي العربي لمصلحة الحاجات السياسية للمجتمعات العربية، الحاجات التي وجدها كامنة في البحث عن الحقيقة وفي رعاية القيم الخالدة.[٢٣٣]

وعلى ذلك، فإن فترة النصف الأول من الخمسينات، اتسمت بطابع سياسي، أو بالأحرى بطابع إداري ذي نتائج سياسية، هذا بالإضافة إلى بعض الأمور الأكاديمية المتعلقة برعاية زريق المستمرة لنواح من نواحي الحياة الطلابية، منها الزيادة الكبيرة في أعداد الطالبات،[٢٣٤] وإنفاق الجامعة ٦٩,٩٥٢ دولاراً على المنح، منها ١٧,٢٣٠ دولاراً منحاً لـ ١٣٤ طالباً فلسطينياً لاجئاً. ومع أن زريقاً شدد سنة ١٩٥٢ على أن الجامعة الأميركية ينبغي لها ألاّ تكون إحدى محطات النفوذ الأميركي في المنطقة، وألاّ تربط نفسها إيجاباً أو سلباً بالسياسات الأميركية في المنطقة،[٢٣٥] إلاّ إن الجامعة أضحت الآن تحت رئاسة بنروز، وهو الشخصية التي كانت قد درّست في الجامعة في الفترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣١، وكتبت تاريخاً للجامعة نشر سنة ١٩٤١،[٢٣٦] ثم عملت في جهاز المخابرات الأميركي (SOS) في مصر خلال

(٢٣١) زريق، «التعليم الجامعي في سوريا في نصف قرن»، المواهب (الأرجنتين)، ١/٧ (١٩٥١)، ص ٢٧.

(٢٣٢) «Living in Crisis,» 1948.

(٢٣٣) American University of Beirut, *Annual Report, 1955-1956* (Beirut: AUB, 1956).

(٢٣٤) American University of Beirut, *Annual Report, 1952-1953*.

(٢٣٥) «The Function of the AUB,» 1952.

(٢٣٦) Penrose, op. cit.



قسطنطين زريق مع أسرته، بيروت ١٩٥٢ - ١٩٥٣

الحرب العالمية الثانية قبل أن تتسلم منصب مستشار سري لوزير الدفاع الأميركي.(٢٣٧) وشهدت فترة رئاسة بنروز توسعاً بالغاً للجامعة، مكنته منح أميركية، وخصوصاً من الدولة ومن مؤسسة روكفلر وغيرها، إضافة إلى شركات النفط.(٢٣٨) ويبدو أن نشاط زريق كان منصباً على تنفيذ خطط التوسع الداخلي، وعلى رأس المهم منها بالنسبة إليه تأسيس برنامج للدراسات العربية الحديثة (وهو الأمر الذي حاولت الجامعة القيام به ابتداء من سنة ١٩٣٦، عندما أرسلت وفداً من الدكاترة، جبرائيل جبور، وقسطنطين زريق، وأسد رستم، وأنيس المقدسي، إلى القاهرة للاجتماع بطه حسين وغيره لمناقشة هذا الأمر وللاستئناس بخبرة جامعة فؤاد الأول بذلك).(٢٣٩) ومن عمليات التوسع الأكاديمي في تلك الفترة إقامة دورات تدريبية لموظفي وزارة الخارجية الأميركية لتعريفهم بالمنطقة تعريفاً دقيقاً، كما لم يكن أقلها أهمية إنشاء برنامج للدراسات العليا بعمادة شارل مالك(٢٤٠) ـ ولو أن الأخير ما بدا متحمساً لفكرة الدراسات العليا في الجامعة على الإطلاق.(٢٤١)

لكن تلك الفترة كانت فترة الهبّة القومية العربية، وفترة الحرب الباردة. وقد نقل عن بنروز قوله علناً أنه جاء إلى بيروت لمحاربة الشيوعية.(٢٤٢) هذا علماً بأن القومية العربية بصورتها غير الراديكالية ما كانت بعد هدفاً للعداء الأميركي. وقد كانت جمعية العروة الوثقى أقامت حفلة على شرف بنروز عند استلامه الرئاسة، عبر فيها عن احترامه لأهداف الجمعية، وذلك في سنة ١٩٤٨.(٢٤٣) ولا شك في أن زريقاً كَنّ، بدوره، ريبة شديدة تجاه الشيوعية على الرغم من توجهات سابقة لدى العروبيين والشيوعيين للتعاون في الثلاثينات توجت تالياً لمؤتمر في زحلة سنة ١٩٣٤ بإصدار

---

(٢٣٧) Dodge, op. cit., p. 92; E.N. Sayah, *The American University of Beirut and its Educational Activities in Lebanon, 1920-1967,* Ph. D. Thesis, University of North Texas, Denton, 1988, p. 172.

(٢٣٨) Ibid., ch. 11, passim.

(٢٣٩) جبور، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥.

(٢٤٠) AUB, *Annual Report, 1954-1955*; Sayah, op. cit., pp. 172-176, 182.

(٢٤١) «The AUB at the Present Juncture,» 4/12/1967 (أوراق الدكتور زريق).

(٢٤٢) مقابلة مع الدكتور محمد يوسف نجم، ١٢/١٢/٢٠٠١. بالنسبة إلى السياسات الثقافية الأميركية في فترة الحرب الباردة، أنظر الدراسة المهمة التالية:

F. Stonor Saunders, *The Cultural Cold War: The CIA and the World of Arts and Letters* (New York: The New Press, 2000).

(٢٤٣) غنما، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢.

مجلة الطليعة (التي ساهم فيها زريق)، لكن يمتنع علينا تصريف ذلك على محاباة السياسة الأميركية، التي رأت في كل حركة تحررية شبحاً للشيوعية. وكانت لريبة زريق هذه مسوغات أُخرى، تناظر العداء للشيوعية المألوفة لدى كثير من القوميين العرب والناصريين في تلك الفترة،[٢٤٤] سنأتي إلى ذكرها لاحقاً، والقائمة على تنابذ أيديولوجي، وعلى عمل بعض النزعات الاجتماعية المحافظة لدى القوميين، على الرغم من العلاقات الوطيدة بالاتحاد السوفياتي. ففي سياق الكلام عن رفض الصلح مع إسرائيل، قال زريق في النادي الثقافي العربي إنه علينا مقاومة الصهيونية من دون أن نكون أداة للشيوعية.[٢٤٥] كما رأى أن الأخطار الثلاثة التي تتهدد العرب، هي الاستعمار والصهيونية والشيوعية مجتمعة.[٢٤٦] كما قال في معرض الكلام عن «الثورية المسيحية» بوجوب مقاومة الشيوعية.[٢٤٧]

وشهدت الجامعة جملة تظاهرات، منها في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥١ تظاهرة تأييداً لإلغاء حكومة الوفد المصرية المعاهدة مع بريطانيا، فصل في إثرها بعض الطلاب، ثم أعيد تسجيلهم بعد إضرابات في كل لبنان، وخصوصاً في بيروت العاصمة، وتالياً لصلات اجتماعية قوية ربطت بعض الطلبة ببعض الأُسر المتنفذة.[٢٤٨] تشددت الجامعة بعد ذلك في لوائحها وقوانينها وشروطها السياسية على الطلاب. وتساءلت في تقريرها السنوي للعام الدراسي ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ عما إذا كان الطلاب مستفيدين فعلاً من حياة جامعية كاملة وحرة، وما إذا كانوا تشبعوا معاني التربية الليبرالية وروحيتها على نحو كاف.[٢٤٩] وتوترت العلاقة بين الجمعية والإدارة على نحو متسارع بعد سنة ١٩٥١، وتدخل زريق غير مرة لإصلاح ذات البين.[٢٥٠]

سبق أن ذكرنا آراء زريق في النشاط السياسي داخل الجامعة التي اعتبرها حرماً للفكر والتربية. لكننا لا نراه في موقع الواجهة في مواجهة الحركة الطلابية إلاّ سنة ١٩٥٤، عندما غاب بنروز في إبان سفره إلى الولايات المتحدة، وعندما اندلعت

(٢٤٤) لعل أفضل تمثيل عن هذا الموقف ما ورد لدى الحكم دروزة، الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية (بيروت: مكتبة منيمنة، ١٩٦٣).

(٢٤٥) «دروس من النكبة»، ١٦/٥/١٩٥٧.

(٢٤٦) «Why Arab Unity?» 4/4/1958.

(٢٤٧) «الثورية المسيحية»، ١٩٦٠.

(٢٤٨) الهندي والنصراوي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٩ ـ ١٩٠؛ النهار، ٢٤ و٢٦/١٠/١٩٥١.

(٢٤٩) AUB, *Annual Report, 1953-1954.*

(٢٥٠) غنما، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥ ـ ١٩٩، ٢١٠.



زريق وعقيلته مع والدي مؤلف الكتاب، سلمى نابلسي وملك العظمة، في مناسبة اجتماعية، بيروت ١٩٥٤

التظاهرات المحتجة على انضمام العراق إلى حلف بغداد بمبادرة من جمعية العروة الوثقى.[٢٥١]

دعت جمعية العروة الوثقى إلى تظاهرة، يوم السبت في ٢٧ آذار/مارس ١٩٥٤، احتجاجاً على انضمام العراق إلى حلف بغداد، وقد كان لموضوع الأحلاف التي رعتها الولايات المتحدة سوابق لدى الجمعية التي عملت على تعبئة الجسم الطلابي ضد هذه السياسة على امتداد عامين.[٢٥٢] واتخذت الحكومة اللبنانية قراراً بحظر هذه التظاهرة. وتدل الوثائق الأميركية على أن الكثيرين من بطانة رئيس الجمهورية كميل شمعون، والسفير الأميركي، وأصحاب الفكرة اللبنانية، كميشيل شيحا، اعتبروا الجامعة الأميركية وكراً للشيوعية والتخريب، وعلى أن هذه الأحداث حثت رئيس الحكومة عبد الله اليافي على طلب العون الأميركي في شؤون العمل الأمني والدعاية المناهضة للشيوعية.[٢٥٣] وعلى الرغم من محاولة زريق إقناع الجمعية بشخص رئيسها الدمشقي ثابت المهايني بالعدول عن التظاهر، وعرض عليه موقف الجامعة الذاهب إلى أن الإدارة لا تحول بين الطلاب وبين حريتهم في التعبير عن رأيهم، فإن الطلاب في هذه الحالة سيكونون مسؤولين عن نتائج أعمالهم. وكان زريق، على كل حال، قد رأى سنة ١٩٥٣ أن الانتماء إلى أنظمة الدفاع المشترك ليس بخيانة وطنية، وأن المعيار الأساسي الذي يجب أن يحكّم في هذا الشأن هو التقدير لنفع هذه المشاريع أو ضررها بالنسبة إلى درء خطر إسرائيل (الأعمال، ص ١٦٦٣). إلاّ إن التظاهرة تمت، مع وعد المهايني بعدم السماح لقوى خارجة من الجامعة بالتغلغل فيها، ولا نعلم على وجه التأكيد مقدار صدقية هذا الوعد.[٢٥٤] وأدت التظاهرة هذه إلى اشتباكات مع قوى الأمن، وخصوصاً خارج بوابة كلية الطب. تدخلت قوى الأمن تدخلاً وحشياً بخراطيم المياه وأعقاب البنادق وقطع

(٢٥١) أنظر التقارير الشاملة عن هذه الأحداث في: النهار، ٢٨ و٢٩ و٣١/٣/١٩٥٤؛ الحياة، ٢٧/٣/١٩٥٤؛ التقرير المفصل الذي أرسله زريق إلى بنروز بتاريخ ١/٤/١٩٥٤ (أوراق الدكتور زريق ومحفوظات الجامعة الأميركية في بيروت)؛ الهندي والنصراوي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥ - ١١٨؛

AUB, *Annual Report, 1953-1954.*

(٢٥٢) صليبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.

(٢٥٣) Irene L. Gendzier, *Notes from the Minefield: United States Intervention in Lebanon and the Middle East, 1945-1958* (Boulder: Westview Press, 1999), pp. 169, 192-195;

صليبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠ وما يليها.

(٢٥٤) صليبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٥.

الطريق على سيارات الإسعاف، وأطلقت النار متذرعة بإطلاق النار عليها من داخل الجامعة، الأمر الذي أدى إلى مقتل طالب متظاهر من مدرسة المقاصد ومن أعضاء الحزب التقدمي الاشتراكي (حسّان أبو إسماعيل)، وجرح نحو ٤٠ من الطلبة. فتوتر الوضع في البلد، وهوجمت الحكومة في المجلس النيابي (وخصوصاً من قبل كمال جنبلاط وحليفيه آنذاك غسان تويني وحميد فرنجية)، واصطفت القوى السياسية المؤيدة للطلبة قبل التظاهرة وبعدها مجتمعة في مركز حزب النجادة مع مشاركة طلاب اليسوعية والحكمة والمقاصد وغيرها، ومتظاهرةً في طرابلس. وفي النهاية، اعتقلت الدولة (وكان سمح لقوى الأمن بتفتيش مباني الجامعة بحثاً عن أعضاء العروة الذين تخفّوا) واحداً وخمسين من الناشطين، وجمد عدد من الطلاب وطرد بعضهم. وبعد تمييع الأمور لفترة، قرر مجلس الجامعة في ١١ أيار/مايو ١٩٥٤ إعادة السماح للعروة الوثقى باستئناف نشاطها بعد تعليقه بقرار اتخذ يوم ٢٩ آذار/مارس، لكن الجمعية أصدرت في الشهر التالي بياناً يشجب الميثاق الموقع بين العراق وتركيا، واحتجت على زيارة الرئيس التركي عدنان مندريس للبنان، خارقة بذلك الاتفاق مع الإدارة.[٢٥٥] فما كان من الجامعة بعد ذلك بعدة أشهر وفي نهاية الأمر إلاّ أن طردت خمسة عشر طالباً، واتخذت قراراً نهائياً بحل جمعية العروة الوثقى، كما اتخذ مجلس الأمناء قراراً بإلزام كل طالب بتوقيع تعهد بعدم تعاطي السياسة، وبمنع التظاهر.

كان زريق على رأس إدارة الجامعة التي حلت جمعية العروة الوثقى، ربيبته، وكان بادي الاكتئاب من ذلك، ولو أنه لم يتكلم عن الأمر جرياً على طبيعته الكتومة.[٢٥٦] وروي أنه في ترؤسه اجتماع مجلس الجامعة الذي اتخذ هذا القرار، اضطر إلى حبس دموعه لدى عملية التصويت.[٢٥٧] وقد عزا البعض موقف إدارة الجامعة المتشدد إلى نفوذ بعض الأساتذة الأميركيين، الذين اعتبروا العروة عنصر شغب، ولم يكن في مجلس الجامعة، ذي الاثنين والخمسين عضواً، إلاّ أربعة عشر أو خمسة عشر من العرب.[٢٥٨] ولا ريب أن في موقف زريق هذا أخذاً بموضوعية العلاقات والإجراءات الإدارية وانضباطها التي كثر ما شدد على أهميتها وضرورتها. وثبت على ذلك على الرغم من تدخل رفاق كثيرين له (وكان منهم فريد زين الدين

(٢٥٥) النهار، ٢٢ و٢٤ و٢٥ و٢٨ و٢٩/١/١٩٥٥؛ الحياة، ٢٧/١/١٩٥٥.

(٢٥٦) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١.

(٢٥٧) مقابلة مع الدكتور نقولا زيادة، ٢٧/٢/٢٠٠١.

(٢٥٨) المصدر نفسه؛ أنظر أيضاً: الهندي والنصراوي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥.

وواصف كمال ومحمد عزة دروزة) راجين منه العمل على إعادة النظر في السياسة القمعية لإدارة الجامعة.[٢٥٩] وكان قد حاول تربيع الدائرة في محاولاته السماح للطلبة بالتعبير عن آرائهم، لكن مع عدم خرق القوانين أو الاصطدام بالدولة، التي وجد ـ كما نرى جلياً من تقريره إلى بنروز ـ منها تعنتاً بالغاً، وخصوصاً خلال اجتماعاته مع رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة ووزير الداخلية، وهي الدولة التي كانت ـ في فترة مقدمات التقاتل الأهلي سنة ١٩٥٨ ـ قد شنت هجوماً عارماً على جمعية العروة الوثقى وعلى رئيسها «السوري ثابت المهايني». ولئن عادت الدولة عن قرارها إغلاقَ الجامعة، إلاّ إن شمعوناً اشترط حجب «الشيوعيين» عن الجامعة، ورفض طلب زريق تنظيم تحقيق قضائي حول سلوك قوى الأمن، وما نجح زريق إلاّ في الدعوة إلى مؤتمر صحافي باسم الجامعة في ٣٠ أيار/مايو ١٩٥٤، «أسف» فيه على سلوك الدولة وعلى التهجم على الطلاب.

وما كان زريق قادراً على السيطرة على هجمة الدولة على «الشيوعية»، ولا على ما يبدو أنه اتصالات جرت من دون علمه بين بعض الأساتذة (قد يكونون من الأميركيين) وبعض أجهزة الدولة،[٢٦٠] وذلك في جو غذّت فيه السفارة الأميركية والدولة معاً جو الهستيريا المعادية للشيوعية، المماهي بين الحركات الوطنية والشيوعية، في روحية وبأساليب عهدناها في السنة المنصرمة في سياق محاربة «الإرهاب».

لكن على الرغم من ذلك لام زريق، في تقريره إلى بنروز، المتغلغلين الشيوعيين في إذكاء التوتر، مدافعاً عن العروة الوثقى، واسماً أعضاءها بأنهم «قوميون مخلصون»، ولو لم يكن لديهم الحكمة، إذ كانوا مدفوعين بتقدير للأهمية الذاتية لا يسوغها الواقع. كما أنه رفض استقبال وفد طلابي من الجامعة السورية كان يحاول التدخل لمصلحة العروة، أُبعد أعضاؤه لاحقاً عن البلد.[٢٦١] إلاّ إن زريقاً في محاولته المضي في حقل الألغام السياسية واتخاذه مواقف منضبطة إدارياً إزاء قضية سياسية في أساسها ومندرجة في وضع سياسي بالغ التوتر، أصبح في وضع أدى إلى ابتعاد القوميين عنه ومقاطعتهم إياه، وخصوصاً أن حل جمعية العروة الوثقى أدى إلى نتائج سياسية كان أبرزها تعرض الجهاز التنظيمي القومي في لبنان ـ وكان لا يزال موقعاً محورياً للتنظيم على الرغم من هلاميته ـ لضربة قاسية، وانتقاله إلى مصر بعدما

---

(٢٥٩) رسالة من هاني الهندي، ٣/١١/٢٠٠٢.

(٢٦٠) النهار، ٢٥/١٠/١٩٥٤.

(٢٦١) المصدر نفسه، ٢٩/١/١٩٥٥.

قبلت الجامعات المصرية، بإيعاز من جمال عبد الناصر، كل الطلبة المطرودين من الجامعة الأميركية.[٢٦٢] وكانت هذه القطيعة، وتحفظ زريق غير المعلن بشأن الناصرية وبشأن الحركات الراديكالية اليسارية التي لا بد من أنه وجد فيها غرابة وتهوراً، إضافة إلى رأيه السلبي في الشيوعية واتخاذه مواقع وسطية لاسياسية، في وضع سياسي مفعم بالحيوية وبالصراع، مناسبات لهجوم عليه استمر طوال أعوام طويلة، على الرغم من المناعة المعنوية التي تمتع بها: من الاتهام بالرجعية واليوتوبية والوسطية والسطحية والبورجوازية،[٢٦٣] إلى كونه مروجاً للديمقراطية البورجوازية والأفكار القومية الشوفينية تحت ستار الحياد والموضوعية، من موقع استعماري هو الجامعة الأميركية في بيروت.[٢٦٤] ومن الجدير بالذكر، أن التهجم على زريق لم يكن حكراً على اليسار القومي والشيوعي فحسب، بل امتد أيضاً ليشمل الإسلاميين المرتبطين بالسعودية[٢٦٥] وبالولايات المتحدة في سياق ما ندعوه الشق الثقافي من مبدأ ترومان، الذي ارتجى من التنظيمات الدينية سدّاً في وجه الحركات التقدمية العربية في الخمسينات والستينات. والمعروف عن زريق أنه ما رد على نقد، وترفّع عن الرد على التهجم عليه، وما تكلم عن أحد سلباً.

اتخذ زريق لسان السلطة العلمية والمؤسسية في تعليقه على أحداث آذار/مارس ١٩٥٤ في حديث إلى الطلبة ردد فيه موقفه من أن الجامعة موضع للفكر وليس للعمل السياسي، من دون أن يمنع هذا الطلبة من ممارسة السياسة خارج الحرم الجامعي، وأن الحفاظ على قوام الجامعة العلمي يتطلب التشديد على سلطة أعضاء الهيئة التدريسية، إذ إن الطلاب يدخلون الجامعة من أجل أن يوَجَّهوا لا من أجل أن يوَجِّهوا، ولولا ذلك لانقلبت الحرية إلى الفوضى وإلى العدمية.[٢٦٦] وعندما استرجع ذكرياته ـ من دون الإشارة المحددة إلى أحداث آذار/مارس ١٩٥٤ ـ قال:

---

(٢٦٢) مقابلة مع هاني الهندي، ٩/٤/٢٠٠١؛ الهندي والنصراوي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٢٦٣) نديم البيطار، الفعالية الثورية في النكبة (بيروت: دار الاتحاد، ١٩٦٥)، ص ١٤٧ وما يليها؛ بسام طيبي، «الفكر والهزيمة»، مواقف، ٨ (١٩٧٠)، ص ١٦٠ ـ ١٦٥؛ ناجي علوش، المسيرة إلى فلسطين (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٤)، ص ٦٧ وما يليها.

(٢٦٤) غالي شكري، «استراتيجية الاستعمار الجديد في معركة الثقافة العربية»، الطليعة (القاهرة)، العدد ٣ (يوليو/تموز ـ ديسمبر/كانون الأول ١٩٦٧)، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢٦٥) صلاح الدين المنجد، أعمدة النكبة (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٩)، ص ٢١ وما يليها.

(٢٦٦) Chapel Talk, 12/4/1954.

إن الخلاف الأساسي كمن، وأن نقطة الصدام الأساسية كمنت، في إرادة الجامعة أن تكون جمعية العروة الوثقى رابطة ثقافية وأدبية واجتماعية، أمّا الطلبة فأرادوها رابطة قومية للطلبة العرب. ذلك بأن الجامعة الأميركية ـ كونها أجنبية ـ ما أرادت الاصطدام بالسلطة، وأنها لو ساهمت في تشجيع الطلاب على خرق القوانين، لما استطاعت حماية طلابها في حماها. على ذلك، فإن من رغب في ممارسة السياسة، عليه القيام بذلك خارج الجامعة، متحملاً التبعات كافة، غير محتم بالجامعة ولا مستجير بها. أمّا داخل الجامعة، فعلى الطالب الانصراف إلى التحصيل العلمي والإعداد للحياة العملية والإقبال على التفكير المنظم والمسؤول، واعتبار هذه الشؤون من أبواب المساهمة في الحياة السياسية والقومية.[٢٦٧] وقد استمر زريق على هذا الرأي وعبر عنه في مناسبات كثيرة عبر السنين،[٢٦٨] مضيفاً أن تكوين الطليعة القومية أمر راجع إلى الأحزاب وليس إلى الطلبة باعتبارهم طلبة، إذ إن الطلبة ليسوا حزباً ولا هم طبقة اجتماعية، وليس من مهمات الجامعات اعتبار نفسها حزباً سياسياً، ولا يجوز أن تتغلغل في الجامعة مفاسد المجتمع من غوغائية ودهمائية وعاطفية ومطامع شخصية في الزعامة وتبعية للقوى السياسية الخارجية.[٢٦٩] كما سعى زريق لتهدئة الوضع داخل الجامعة الأميركية في بيروت في إبان العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦، مشدداً على ضرورة السيطرة على الانفعال، والتفكير الواضح، والعمل على تقوية المجتمع بالعلم، وترك السياسة إلى الحكومات.[٢٧٠]

لكن الأمور لم تنته على ذلك. فبعد وفاة بنروز وتعيين مجلس أمناء الجامعة زريقاً رئيساً للجامعة بالوكالة في ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩٥٥، واجه زريق محاربة غير معلنة من طرف آخر، حديث الوجود في الجامعة الأميركية، هو اليمين الطائفي اللبناني الموالي للولايات المتحدة. فالحال أن بقايا جو سنة ١٩٥٤، وجو العدوان الثلاثي، والأحلاف العسكرية، وقتال سنة ١٩٥٨، والتنابذات الإقليمية، والصراعات بين الدول الراديكالية والدول المحافظة، والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في الخمسينات والستينات، تداخلت مع التيارات داخل الجامعة في تلك الفترة، وخصوصاً بعد سنة ١٩٥٨ ـ أي في الفترة التي شهدت نشاطاً لرابطة الطلاب اللبنانية

(٢٦٧) المذكرات، ص ٧٠ ـ ٧٢ (أوراق الدكتور زريق).
(٢٦٨) «الطالب»، ١٩٦٩؛
«Participation of AUB Students,» 1971; *Outlook*, 19/3/1965.
(٢٦٩) «الطالب»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤ ـ ٤٦، ٤٨.
(٢٧٠) «عالمية جهادنا»، ١٩٥٦؛
Chapel Talks, 30 and 31/10/1956.

التي قاد بعض نشاطاتها الدكتور كمال صليبي، المستشار الأكاديمي لها، والتي عاضدتها أجزاء من جهاز الجامعة الإداري.[٢٧١] ولئن كان تاريخ الجامعة السياسي في تلك الفترة لم يكتب بعد، إلاّ إنه بديّ أنه احتيج في هذا الوضع إلى «معارك» لإدخال مسلمين (وفلسطينيين ذوي نزوعات قومية على درجات متفاوتة) إلى هيئة التدريس، كالدكتور إحسان عباس،[٢٧٢] وتم فيه إخراج الدكتور أنطوان زحلان من هيئة التدريس.[٢٧٣] وشهدت هذه الفترة تالياً نشوء حلقات من الاستزلام الطائفي والإقطاع الإداري، اللذين لا يبدو أن الأفول تم لهما بعد الحرب الأهلية اللبنانية وكأنما تصدت رابطة الطلاب اللبنانية (وكان منها الدكتور فؤاد خوري والدكتور مارون كسرواني) لبقايا العروة الوثقى وآثارها.[٢٧٤]

وقد روي أن زريقاً كان سيعيَّن رئيساً أصيلاً للجامعة بدلاً من تعيينه رئيساً بالوكالة، لولا تدخل الدكتور شارل مالك لدى مجلس الأمناء قائلاً: إن زريقاً سيجلب القومية العربية إلى الجامعة مرة أُخرى. إلاّ إنه لم تتوفر لدينا أداة قطعية على هذا الأمر، وخصوصاً أن رسائل شارل مالك بهذا الخصوص ما زالت محفوظة مكتومة في محفوظات مجلس الأمناء في نيويورك،[٢٧٥] وما استجابت رئاسة الجامعة لطلبي توفير الوثائق المتعلقة بزريق والمحفوظة في نيويورك. ويصدق الشيء نفسه على التدخل المعزو إلى أساتذة آخرين،[٢٧٦] ولو كان هؤلاء على صلة أقل وثوقاً من الصلة الشخصية بين زريق ومالك. فقد كان الأول إشبين الثاني عند زواجه، واستمر على وده له، على الرغم من الفوارق الأيديولوجية والسياسية بينهما،[٢٧٧] وعلى الرغم مما يبدو أنه كان جنون العظمة الذي ضرب مالكاً، أو ما آثر أحد العارفين أن يدعوه «شغف الرسالة» لديه.[٢٧٨] أمّا مالك، فقد احتفظ دوماً بحس بالمنافسة مع زريق،[٢٧٩] وازدرى عروبيته على الرغم من محبة بقيت له في وجدانه.[٢٨٠]

(٢٧١) صليبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠ وما يليها.
(٢٧٢) مقابلة مع الدكتور محمد يوسف نجم، ١٢/١٢/٢٠٠١.
(٢٧٣) مقابلة مع الدكتور سمير خلف، ١٦/٢/٢٠٠١.
(٢٧٤) المصدر نفسه.
(٢٧٥) المصدر نفسه.
(٢٧٦) مقابلة مع الدكتور محمد يوسف نجم، ١٢/١٢/٢٠٠١.
(٢٧٧) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١.
(٢٧٨) ملاحظة للأستاذ غسان تويني، ٢٩/١٠/٢٠٠٢.
(٢٧٩) مقابلة مع الأستاذ غسان تويني، ١٧/٤/٢٠٠٢؛ مقابلة مع الدكتور نقولا زيادة، ٢٧/٢/٢٠٠١.
(٢٨٠) مقابلة مع الأستاذ غسان تويني، ١٧/٤/٢٠٠٢.

رشح زريق رسمياً لرئاسة الجامعة سنة ١٩٦٥، وكتب نائب رئيس الجامعة فؤاد صروف وعدد من الأساتذة (الدكاترة نقولا زيادة وإحسان عباس ونبيه أمين فارس وجبرائيل جبور وكمال اليازجي وأنطوان كرم وكمال صليبي وخليل حاوي) رسالتي تأييد لهذا الترشيح إلى مجلس الأمناء.[٢٨١] كما أن البعض الآخر كتب عريضة ضده،[٢٨٢] لم نتوفر على نصها أو على أسماء موقّعيها، عريضة يرجح أن يكون مدعاها الرغبة في محاباة الأميركيين اقتناعاً من الموقعين بأن الأميركيين لا يريدون رئيساً للجامعة إلاّ أميركياً،[٢٨٣] إضافة إلى ما أشار إليه الكثيرون مما كان في نفوس بعض الأساتذة من الغيرة والحسد تجاه زريق. ومهما يكن الأمر، فإن الرسائل المؤيدة لزريق تبيّن لنا عناصر أساسية من الطريقة التي أدار بها الجامعة عندما كان رئيساً بالوكالة، والتي أدار بها جامعة دمشق قبل ذلك. فبالإضافة إلى ذكر سمعته العالمية ومحاسن شخصيته من نزاهة وموضوعية واستقامة وجد واجتهاد، أتت هاتان الرسالتان إلى ذكر أمرين يفسران لنا كثيراً من مواقفه هما: ولاؤه للمؤسسة بغض النظر عن الانتماء السياسي، وقدرته على التعامل مع الزملاء وكسب احترامهم وولائهم، وعلى التعاطي الدبلوماسي في أوضاع ما كانت بالسهلة.

كان زريق قد «رقّيَ» ـ بعبارته ـ من منصبه الرئيس بالوكالة إلى منصب أستاذ ممتاز[٢٨٤] في حزيران/يونيو ١٩٥٧. ولا شك في أن التهكم الظاهر على هذه العبارة كان ممتزجاً بالجد وبالارتياح للقدرة على العودة إلى العمل العلمي تدريساً وبحثاً. فقد كانت كتبه الرئيسية، نحن والتاريخ (١٩٥٩) و في معركة الحضارة (١٩٦٤) و نحن والمستقبل (١٩٧٧) وغيرها، نتاجاً لهذه الفترة التي تلت فترة استلام المسؤوليات الجسام والوظائف العليا. والمرجح أن زريقاً ما كان قادراً على التأليف لو استمر في القيام بالمسؤولية الإدارية. تلك هي الفترة التي أصبح زريق شخصية متعالية على السياسة، والتي اعتُبر فيها أبرز التربويين في الساحة العربية ومن أبرزهم في الساحة العالمية، رجلاً ذا صلات متشعبة ورأي مطلوب، رجل استشارة ورجل علم، يتعالى على الانحياز ويحكّم الواجب، رجلاً أجمع على احترامه وعلى تقدير أقواله وآرائه من دون أن تكون له ـ كونه مستشاراً تجرد عن المناصب الإدارية ـ الأدوات التنفيذية لوضع هذه الآراء موضع الإجراء العملي.

(٢٨١) بتاريخ ٤/١٢/١٩٦٤ و٩/١/١٩٦٥ (محفوظات الجامعة الأميركية في بيروت).

(٢٨٢) مقابلة مع السيدة نجلاء زريق، ١٩/١٠/٢٠٠١.

(٢٨٣) المصدر نفسه.

(٢٨٤) «Why Arab Unity?» op. cit.

قلنا إن زريقاً ما انصرف كلياً إلى التدريس والبحث بعد «ترقيته»، وقد كان ـ وبقي حتى أواخر عمره ـ نشيطاً في إنشاء وفي عمل مؤسسات فكرية وتربوية شتى، من أهمها الاتحاد العالمي للجامعات المرتبط باليونسكو، الذي انتخب رئيساً له في اجتماع طوكيو في أيلول/سبتمبر ١٩٦٥، بعد أن كان انسحب من مجلسه الإداري سنة ١٩٦٠ بعد خلافات غير واضحة المعالم بين الأعضاء العرب (رئيس جامعة الخرطوم والدكتور سعيد السعيد) في المجلس والأعضاء الآخرين.[٢٨٥] وقد اهتم الاتحاد، الذي أسس سنة ١٩٥٠، بالتنسيق بين الجامعات بروحية «كوكبية»، وبقضايا استقلالية الجامعات، وبإتاحة الفرص للدراسة أمام أولاد الطبقات المحرومة، وبالمعادلات بين الشهادات، وبالبحث العلمي. وقد أخذه نشاطه في سياق الاتحاد إلى اجتماعات في كابُل وموسكو وهلسنكي ومونتريال وسيدني وبوغوتا ودلهي الجديدة وباريس والرباط وبانكوك وسنغافورة وواشنطن وستوكهولم ودوبروفينك، وإلى اجتماعات تأسيسية لاتحاد الجامعات العربية (سنة ١٩٦٩ في الإسكندرية)، واتحاد الجامعات الإفريقية (سنة ١٩٦٧ في الرباط)، وافتتاح جامعة ماكاريري في كامبالا (سنة ١٩٧٠).[٢٨٦] إلاّ إنه مع انشغاله بمشكلاته الصحية، وخصوصاً خلال ١٩٧٢ و١٩٧٨ ـ ١٩٨٠، اضطر إلى الإقلال من النشاط في سياق الاتحاد العالمي للجامعات ثم الإقلاع عنه، عندما انتخب رئيساً فخرياً للاتحاد مدى الحياة.

طبعاً، فإن أسفار زريق لم تقتصر على مسؤوليات الاتحاد، فنراه محاضراً أكاديمياً في إستنبول وأثينا وفيينا وجنيف ولاهاي ولندن وباريس وميونيخ وهايدلبرغ وأكسفورد وكمبردج بين تموز/يوليو ١٩٥٧ وشباط/فبراير ١٩٥٨، وأستاذاً زائراً في كولومبيا سنة ١٩٥٨، وبعد تقاعده، أستاذاً زائراً في جامعات أميركية، إضافة إلى الجامعة اللبنانية وجامعة دمشق. ونراه مستشاراً لحكومة الكويت للتخطيط لإنشاء جامعة الكويت (١٩٥٩، ١٩٦٥)،[٢٨٧] ومستشاراً للصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي في الكويت (١٩٧٧)،[٢٨٨] ومستشاراً لجامعة الملك سعود.[٢٨٩]

(٢٨٥) مراسلات بين زريق وسيريل جيمس رئيس جامعة ماكغيل في مونتريال (أوراق الدكتور زريق).

(٢٨٦) «Dr. Zurayk-Travel» (أوراق الدكتور زريق).

(٢٨٧) نص التقرير (١٩٦٥) ونص تقرير مجلس الخبراء (١٩٦٠)، (أوراق الدكتور زريق).

(٢٨٨) رسالة من صائب جارودي، رئيس الصندوق، إلى زريق في ١٨/١٢/١٩٧٧ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٨٩) رسالة من زريق إلى الدكتور ناصر المنقور، رئيس الجامعة بالنيابة، ٢/٣/١٩٦٠ (أوراق الدكتور زريق).

ولا شك في أن عمله الأبرز في هذا المجال المؤسسي والتربوي، كان ترؤسه لمجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، والتي تأسست سنة ١٩٦٣، ونشاطه الإداري والعلمي والتخطيطي فيها، وتيسيره الاتصالات الإدارية والعلمية والمالية؛ المؤسسة التي كان أول من دعا إلى إنشائها وأنفق أعواماً طويلة في خدمتها.[٢٩٠] وجد زريق في مؤسسة الدراسات الفلسطينية التزاوج الذي توخاه دوماً في فترة نضوجه، بين الهدف السياسي القومي والتحري العلمي لمعالم هذا الهدف ولمجرياته. فلئن كان الهدف هو النصرة الإعلامية لقضية فلسطين عربياً وعالمياً، فإن السبيل إلى هذه النصرة كان عنده البحث العلمي فيها، من إنشاء مكتبة متخصصة وتدريب الباحثين وإجراء البحوث العلمية، فضلاً عن تأهيل العاملين في هذه القضية ـ كما في غيرها ـ على العمل المؤسسي المتضامن والمتراكم.[٢٩١] وقد شهد لزريق التفاني في خدمة هذه المؤسسة، والمساهمة في محاولة الحفاظ على أوراقها وموجوداتها في إبان الاجتياح الإسرائيلي لبيروت سنة ١٩٨٢. وعلينا أيضاً في هذا المقام الإشارة إلى عمله الاستشاري الدؤوب في أحد المراكز البحثية الرئيسية في العالم العربي، وهو مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت في الأعوام العشرين الأخيرة من عمره.

لكن لم يعن كل هذا النشاط الخارجي الذي ربما عبر عن استخدام زريق لطاقاته الفائضة على العمل الأكاديمي خارجاً بعدما عجزت جامعته عن الاستفادة منها على نحو سوي، في إيثارها الارتجال على التخطيط المدروس، والمداهنة للأمزجة اليومية السياسية والشخصية على انضباط المؤسسة الموضوعي ومنطقها المؤسسي: لم يعنِ هذا أن زريقاً قد تخلى عن النشاط غير التدريسي في الجامعة الأميركية، التي يبدو أنه قد لدغ منها أكثر من مرة، بل ثابر على ولائه واهتمامه في سياق اللجان وجمعية الخريجين والاتصالات وإبداء الرأي. وفي إمكاننا القول بإجمال إنه كما كان زريق «أكبر» من الوضع في جامعة دمشق، فقد كان أكبر من الوضع في الجامعة الأميركية، التي لا بد من أنها كانت انتحت مجريات أُخرى لو تم له القيام على رئاستها (هذا لو كان حظي بمجلس أمناء مؤيد ومعين). ولعل من أبرز مساهمات زريق في هذا المجال ترؤسه للجنة التي وضعت تقريراً عن مستقبل الجامعة سنة ١٩٦١، حث فيه على التشديد على المستويات، والتشدد في سياسة قبول الطلبة، والدعم الجدي للدراسات العليا ولو على حساب الدراسة في المرحلة الجامعية

(٢٩٠) «اقتراح بإنشاء مركز لبحث قضية فلسطين»، بيروت المساء، ٣/٨/١٩٦٠.

(٢٩١) سويد، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣ ـ ٧٠.

الأولى، وتقليص أعداد الطلاب المقبولين مراعاة لمحاولة تحسين المستوى العلمي.[٢٩٢] وهو التقرير الذي يبدو أنه قد أهمل.

كان زريق على قناعة تامة بأن كون الجامعة الأميركية مؤسسة خاصة، يجعل منها قادرة على فرض متطلبات ومستويات رفيعة للتحصيل الأكاديمي على شكل غير متاح للجامعات الحكومية الخاضعة لضوابط ومطالب سياسية واجتماعية، وأن الجامعة قادرة على الاستفادة من هذا الوضع لخدمة العالم العربي، وللتخطيط البعيد الأمد الخاص بالبرامج وبالطلبة وبالمختبرات وغيرها من المتطلبات الأكاديمية.[٢٩٣] وكان زريق اعتذر، سنة ١٩٦٣، عن المشاركة في وضع خطة عشرية للجامعة لاختلافه مع التوجه الأساسي لها، وخصوصاً رصد المبالغ الطائلة لخدمة نشاطات ما رآها كثيرة الفائدة للجامعة، وخصوصاً هدر الإمكانات المالية وسوء توجيهها في تقوية كلية الطب ذات الفائدة الإعلامية الكبيرة والفائدة العلمية الأقل، على حساب كلية العلوم والآداب، وجده مخلاً في البنية العضوية للجامعة[٢٩٤] ـ وهو وضع يبدو أنه مستمر إلى الآن. وقد كتب إلى رئيس مجلس أمناء الجامعة سنة ١٩٦٤ قائلاً: إن التخبط في الإدارة وتتالي اللوائح التنظيمية يحجبان الرؤية عن القضايا الجامعية الأكاديمية الأساسية.[٢٩٥] واعترض في ملاحظة مخطوطة غير معنونة على استعمال الجامعة عبارة «العجز في الميزانية»، مفضلاً عليها عبارة «التكاليف»،[٢٩٦] مؤكداً بذلك أن الجامعات لا يمكن أن تعامل على شاكلة المؤسسات التجارية. كما كان مستاء من انعدام الرؤية لدى الإدارة، وخصوصاً لدى العمداء، الغارقين ـ مع غيرهم من أعضاء هيئة التدريس ـ في التفصيلات الإدارية، من دون بنية إدارية سليمة ومتكاملة ومتضافرة، ومن دون مجالات واضحة للتصرف وضوابط فعلية عليها، ومن دون التفريق بين صنع السياسة الجامعية وتنفيذها، ومن دون قنوات فاعلة للاتصال بين أعضاء هيئة التدريس والإدارة، وذلك مع عدم وجود محكّات متفق عليها للكفاءة الأكاديمية والإدارية، أو إمكان لأعضاء هيئة التدريس للشعور بأنهم مساهمون في سن

(٢٩٢) *Report of the University Survey Committee of the Future of the American University of Beirut on the Future Role and Needs of the University* (Typescript, June 21, 1961).

(٢٩٣) Memorandum to the AUB Trustees Regarding the Report on the Future Role and Needs of the University, 1964 (أوراق الدكتور زريق).

(٢٩٤) رسالة إلى رئيس الجامعة بيرنز بتاريخ ٢٥/٢/١٩٦٣ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٩٥) رسالة إلى السيد جون كيس بتاريخ ١٥/٩/١٩٦٤ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٩٦) أوراق الدكتور زريق.

السياسات الأكاديمية أو غيرها.(٢٩٧) كما كتب إلى العميد حنانية، عميد كلية الآداب والعلوم، سنة ١٩٦٣، مشيراً إلى ضعف الطلاب، وخصوصاً فيما يتعلق بالقدرة على التعبير باللغتين الإنكليزية والعربية، وعلى صياغة الأفكار بصورة متسلسلة ومتكاملة.(٢٩٨) ولئن كان العميد قد أجاب، إلاّ إن إجابته جاءت تأدباً ومجاملة، إذ ما تضمنت إلاّ إعلان إحالة الموضوع على ما قد يوسم بأنه «مقبرة الأفكار والاقتراحات» في المؤسسات كافة، وهي الوعد بإحالة الموضوع على اللجان وعلى النقاش الموسع.(٢٩٩)

وليس بأقل أهمية عما سلف، أفكار زريق المتعلقة بالاستفادة من فرصة الطابع الخاص للجامعة من أجل التشديد على البحث العلمي والدراسات العليا في عالم عربي يشكو، ولا يزال، نقصاً كبيراً في هذا الشأن ـ فما كان أول طالب أتم رسالة دكتوراه في الجامعة الأميركية بإشراف الدكتور زريق قد قدم رسالته إلاّ سنة ١٩٧١.(٣٠٠) وما كان من الجامعة إلاّ أن جمدت برامج الدكتوراه في كلية الآداب والعلوم خلال الحرب الأهلية اللبنانية، وما زالت مجمدة، كما لا يزال بعض أعضاء مجلس الأمناء منها وبعض الإداريين الكبار فيها، يعارض فكرة إعادة تقريرها بدعوى التدرج التي قد تفيد اعتقاد بعضهم أن اعتلال الهيئة الأكاديمية خلال الحرب الأهلية وحتى الآن أمر لا شفاء منه، أو بناء على تغليب أولويات لا نرجح أن زريقاً كان يرضى عنها. فقد كان زريق اقترح في تقرير، سنة ١٩٦١ ثم سنة ١٩٧١، فكرة التخلي بالتدريج عن التعليم التقليدي في الجامعة الأميركية والتركيز على الدراسات العليا فيها، فضلاً عن إمكان إناطة إنتاج خريجي المرحلة الجامعية الأولى في لبنان بالجامعة اللبنانية، مع ما يتطلب ذلك من تنسيق ما زال مفقوداً مع هذه المؤسسة الوطنية، ومن تعريب بالتدريج لأعضاء هيئة التدريس ولكبار الإداريين.(٣٠١) وكان زريق قد اقترح في تقرير سنة ١٩٦١ حصر تعيين الأجانب في ذوي السمعة العالية أو

---

(٢٩٧) «The Organization of the University,» Report written for the Organization Committee of the AUB, 13/10/1964.

(٢٩٨) رسالة بتاريخ ١٨/٢/١٩٦٣ (أوراق الدكتور زريق).

(٢٩٩) رسالة بتاريخ ٤/٣/١٩٦٣ (أوراق الدكتور زريق).

(٣٠٠) رشاد الإمام، «كنت الطالب الأول في حصولي على دكتوراه في تاريخ العرب الحديث في الجامعة الأميركية»، اللواء، ٣١/٨/١٩٩٩.

(٣٠١) Notes for a Talk with President Kirkwood, 15/12/1971; «The AUB at the Present Juncture,» op. cit. (أوراق الدكتور زريق).

في الشباب الواعد.(٣٠٢) ومن العسير أن نجد أصداء لهذا الاقتراح. وقد كان طرح في السياق نفسه حاجة الجامعة إلى ترتيبات جديدة تخص المناهج التعليمية، وتحفّز أعضاء هيئة التدريس الذين وجدهم من دون قيادة أكاديمية، ومثقلين بالضغوط الإدارية.(٣٠٣) كما وجدهم مشتتي الطاقة، منصرفين عن الأمور الأساسية كالتدريس والبحث والعناية بالطلاب والخدمة العامة، غير عابئين بالمستويات الأكاديمية التي وجدها في هبوط مطرد.(٣٠٤)

يبدو لنا صوت زريق في هذا الخصوص كأنه صائح في البراري والفلوات. وما يبدو أن الجامعة كانت مهتمة ـ ولا أنها اكتسبت الاهتمام لاحقاً ـ بما حث عليه زريق، من تذكير بأن الكلية السورية الإنجيلية كانت قد أُسست لخدمة العالم العربي في محاولة لتحويله إلى مجتمع علمي، وأن الجامعة الأميركية بحاجة إلى استقطاب الشخصيات العلمية المشهود لها عالمياً، وأنه ينبغي لها تهيئة كادر عربي قادر على إدارة الدول العربية، وأن كل ذلك يتطلب أن توجه الجامعة مواردها المالية إلى جهات مؤاتية، إلى ما دعاه «نقاط الإنتاجية ذات الأثر التراكمي الأكبر»(٣٠٥) بدل غيرها.

كان زريق بأسلوبه المترفع والوسطي يهدف إلى إذكاء الروح العلمية في العالم العربي عبر جامعات ذات خصوصيات قادرة على جعلها نقاط تراكم وتدريب عربي ومتكامل جزؤه مع جزئه الآخر. وكان بترسيمته التخطيطية يتوسم هذا أيضاً من جامعة الكويت قبل إنشائها، الجامعة التي رآها قائمة في قطر وافر الإمكانات المادية وقليل أعداد الطلاب المحتاجين فعلاً إلى تعليم جامعي، وقادر على إقامة مراكز أبحاث متميزة في جملة من العلوم الاجتماعية والطبيعية التي يوفر البلد مجالاً لها ـ كالمجتمع الخليجي وعلم البحار وخلافه. وكان زريق قد توسم في جامعة الكويت ـ على وفرتها المادية بوجه الخصوص ـ إمكان إقامة مركز متميز للدراسات العليا. فقد نصح للجامعة في تقرير استشاري تناول برنامجاً مقترحاً للماجستير في التاريخ الإسلامي فيها، التشديد على المستوى ورفع مستوى التدريس، واستجلاب الأساتذة والطلاب من الخارج، وإيلاء البحث الأولوية على التدريس. ووجد لا شك في هذا الإمكان لَبِنة من لَبِن إقامة نصاب فاعل ومراكم للدراسات العلمية في مجال الآداب

---

(٣٠٢) *The Future Role and Needs of the University*, 1961, op. cit., pp. 154, 210.

(٣٠٣) Ibid.

(٣٠٤) مذكرة إلى العميد بروثرو، ٢٥/٦/١٩٧١ (أوراق الدكتور زريق).

(٣٠٥) «The AUB at the Present Juncture,» op. cit.; «Address to the Worldwide Convention of AUB Alumni,» 26/7/1991; «The Regional Needs and the Role of Arts and Sciences,» 4/1/1975.

والعلوم الإنسانية في سياق يتجاوز الكويت إلى العالم العربي بعامة، ويتصل عبره بعالم العلم على الصعيد العالمي؛[٣٠٦] الأمور التي ما فتئ محاولاً الحث عليها، من دون أن تكون له الأدوات التنفيذية والإجرائية للقيام بها ولقيادتها.

وغني عن الذكر أن جامعة الكويت، كغيرها، جنحت إلى تلبية المطالب السياسية والاجتماعية الراهنة على حساب الاستراتيجية العلمية، منفّعة المواطنين بالشهادات الجامعية، القليلة القيمة، جرياً على إعادة تدوير جزء من الريع الاقتصادي في المجتمعات العشائرية. وبذلك تكتمل دائرة المربي الذي رأى في الجامعة مؤسسة نهضوية تنمي من قدرات العامل الإنساني العربي رجالاً ونساء،[٣٠٧] ورأى في الجامعة جماعة ناقدة وموضعاً للخطاب العقلاني وتراكمه.[٣٠٨] وما انفك زريق عن النعي على النظام التعليمي العربي الذي رآه يواجه أهدافاً وهمية، مُزيداً من تخريج أنصاف المتعلمين، هادراً الموارد، مبالغاً في الاختصاص على حساب التربية، هابطاً في المستويات.[٣٠٩] وهو قد رفض فكرة إقامة جامعة فلسطينية مفتوحة سنة ١٩٧٧ على اعتبار أن الفكرة غير ناضجة، وغير واقعية، ممعنة في التشتت القائم بين فاعليات الجامعات العربية المتعددة.[٣١٠] وقد رأى في كل ذلك إهمالاً للرابط بين التطور الكمي وتطور الإنتاجية الاجتماعية والثقافية، وتسييساً غير مقبول لديه للعملية التربوية العربية (الأعمال، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١).[٣١١]

* * *

لم تستمع المؤسسات التربوية إلى زريق على ما يبدو، ولم يستملها صوت العقل الذي رام تغليبه على الترتيبات الآنية والمصالح السياسية داخل الجامعة وخارجها ـ ولو استمعت إليه المؤسسات العلمية الخاصة كمؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز دراسات الوحدة العربية. فقد قدرت الجامعة الأميركية وغيرها مكانة زريق، واستفادت من خبراته واتصالاته وولائه لها، لكنها لم تعر كبير الاهتمام

(٣٠٦) تقرير استشاري إلى عميد كلية الدراسات العليا في جامعة الكويت، ٢٥/٣/١٩٧٩ (أوراق الدكتور زريق).

(٣٠٧) تقرير إلى رئيس مجلس التخطيط في الكويت، السيد عبد العزيز حسين، بتاريخ ٢٣/١/١٩٦٥ (أوراق الدكتور زريق).

(٣٠٨) الجيل الجديد (دمشق)، ١٦/٥/١٩٥٢.

(٣٠٩) «رسالة الجامعة لعالم عربي يتجدد»، في: فلسفة تربوية متجددة...، ١٩٥٦، ص ١٥٥ ـ ١٥٨؛ مقابلة في النهار، ٢٦/١٠/١٩٩٦؛ مقابلة في الخليج، ١٠/١٢/١٩٩٩.

(٣١٠) رسالة إلى صائب جارودي، ٣/٥/١٩٧٧، تعليقاً على دراسة الجدوى (أوراق الدكتور زريق).

(٣١١) سويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٣ ـ ١٤.

لاقتراحاته الاستراتيجية المتصلة بالهدف من الجامعة وبنقل فاعلياتها من مجالاته الروتينية ومن مصاف الارتجال إلى مصاف العمل الهادف المتماسك. خلال زياراته القليلة لقسم التاريخ في مبنى الكولدج هول في الجامعة الأميركية في أواخر السبعينات بعد تقاعده، وهو يتريض في رحاب الجامعة على عادته في كِبَره، لم يستقبل زريقاً أو يعرض عليه كرسياً للجلوس أحد من زملائه السابقين في القسم، الذين فضلوا السلام السريع. وما استقبله إلاّ من كان قد خصص له ـ موقتاً ـ مكتبه السابق، الدكتور رمزي البعلبكي، الأستاذ المساعد الحديث العهد في قسم اللغة العربية، وذلك قبل أن تخصص الجامعة لزريق مكتباً جديداً. ولدى تفقده كتبه على رفوف المكتب، طلب من الدكتور بعلبكي اختيار ما شاء من الكتب وأهداه إياها، مهدياً الباقي إلى مكتبة الجامعة الأميركية بعدما نقل إلى منزله ما كان منها أثيراً لديه وعزيزاً عليه.[٣١٢] وكأننا بوعد النهضة الذي أعلنه الراديكاليون العرب في الربع الثاني من القرن العشرين، يراجع مسيرته التي شتتتها النوائب القومية، من دون أن يسمح لنفسه بالانكسار. وكأنما الأمل الذي لا شفاء منه والذي لازم زريقاً طوال حياته قد استودعه زريق الشيخ مرة أُخرى في المكتبة، مناط الفكر الباعث على الأمل والذي يبعث الأمل عليه. لا شك في أننا نتلمس من زريق الشيخ خيبة أمل كبيرة في الفكرة القومية التي كانت عماد نشاطه الفكري، وفي الفكرة التربوية التي كانت عماد نشاطه المؤسس، من دون أن يؤدي هذا إلى القنوط، بل على العكس فإنه أدى إلى تنشيط الذهن وإلى الاهتمام بوعد الشباب الطالع. لم يؤد ذلك بزريق إلى الانكفاء على الذات ولا إلى القنوط، وهو الذي كتب التالي في صدر مقابلة طويلة أجراها معه محمود سويد، صدرت على شكل كتيب سنة ١٩٨٦ تحت عنوان العروبة وفلسطين: «عندما أطلعني الأستاذ محمود سويد على تصميم الغلاف والصفحة الداخلية الرئيسية من هذا الكتيب، جفلت في البدء من العنوان ومن كلمة ‹العروبة› التي تتصدره لما لحق هذه الكلمة من ابتذال، ولما تثيره في أحاديثنا وبعض أدبياتنا من ارتياب واستنكار. وقد خبرت هذا بنفسي، لدى كل هزيمة أو نكبة نصاب بها، لكثرة ما تحاط به هذه الكلمة من هزء وسخرية، ولما يقابلني به البعض من غمز وتشفٍّ. لكن ما لبثت أن قررت إبقاء العنوان كما هو، حفاظاً على حرمة الكلمة والعقيدة وراءها، وتدليلاً على أن ما أصابنا من انهزام واكتئاب لا يرجع إليها وإنما إلى خذلان حَمَلتها ورافعي لوائها، وإلى تخلف مجتمعنا العربي بوجه عام.»

قلنا إن زريقاً تأسّى ولم يقنط، وإنه راقب فترة الانحسار القومي وازدياد التدخل

(٣١٢) حديث مع رمزي البعلبكي، بيروت، ١٨/٦/٢٠٠٢.

الأجنبي والإمعان في عدم الاقتدار العربي وإحجام المثقفين العرب عن أداء الدور الذي رآه منوطاً بهم تاريخياً من دون أن ييأس. كما قلنا في مطلع هذا الفصل إنه ثبت على مسلمات وأهداف فكرية واجتماعية وقومية استقاها من تراث النهضة العربية في صورها المشرقية. وعلى ذلك انصرف فكره في العقد الأخير من حياته إلى إعادة تأكيد هذه المسلمات في أوضاع جديدة ما توسّم منها الفلاح، فانتقل في وجه من وجوه إنتاجه من مخاطبة الرجال والشيوخ إلى مخاطبة الشباب، متصلاً معهم بوصفه شاباً في التسعين. وجاء كتابه الأخير موجَّهاً إلى الشباب الذي توسم فيه الوعد، متخذاً عنواناً برنامجياً هو ما العمل ـ حديث إلى الأجيال العربية الطالعة.[٣١٣] ولئن أشار زريق في هذا الكتاب إلى جملة من العوامل المعطلة في تطلع العرب إلى المستقبل، إلاّ إنه فرق بين «القلق السلبي» المعطّل و«القلق الإيجابي» الحافز،[٣١٤] وما فتئ عائداً إلى ثوابت لازمت ـ على ما سنرى في الفصول اللاحقة ـ نقده للأوضاع العربية القائمة، ومستعيداً الحلول التي قد يراها البعض قديمة والمتخذة أهمية متنامية في ظل الأوضاع الحالية محلياً وعالمياً. الدعوة التي ما انفك عنها إلى إعمال العقل في شؤون الحياة، واتخاذ الأخلاق والانضباط محكاً لضبط العقل واللاعقل معاً، وتوسل التربية سبيلاً للاثنين[٣١٥] ـ مغلقاً بذلك دائرة حياته على ما ابتدأ به.

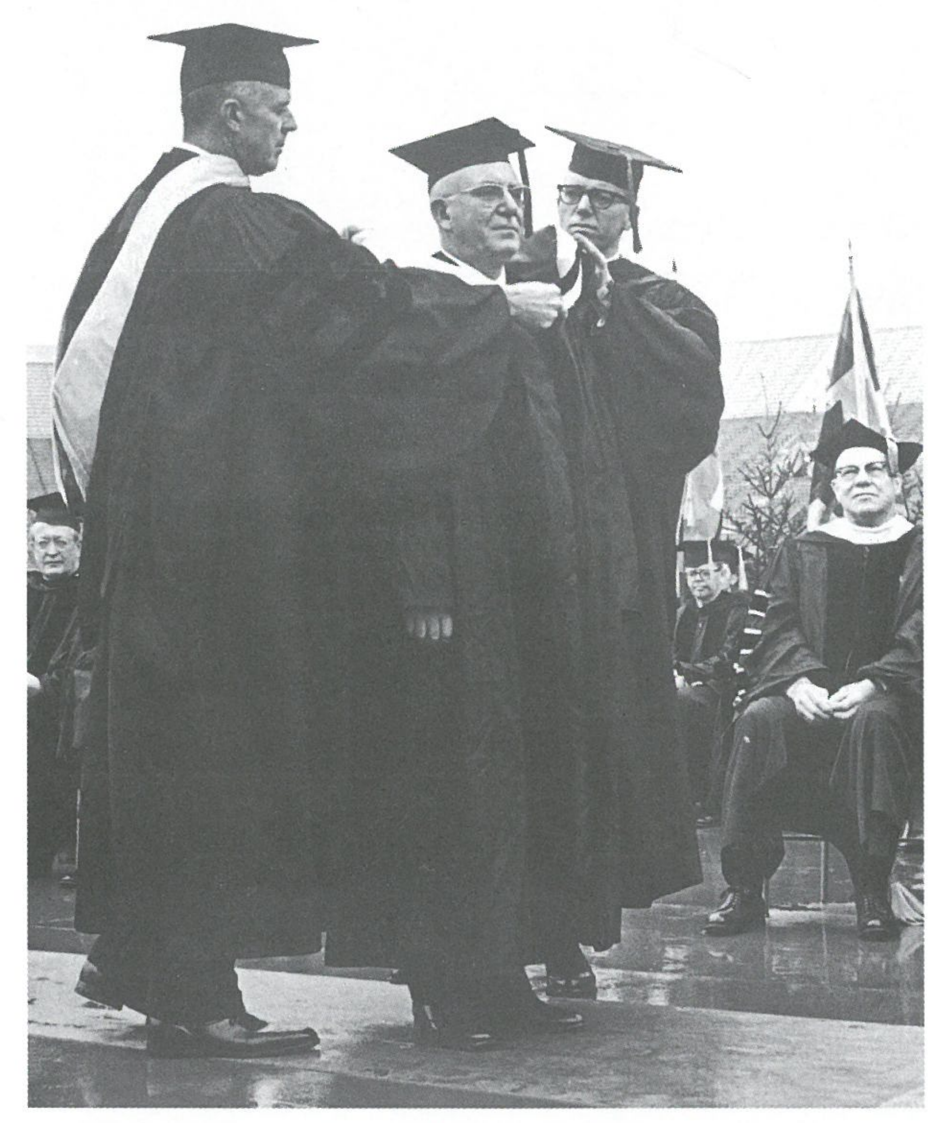
الأمل الذي لا شفاء منه: بعد سنوات قليلة رجع فيها زريق إلى الاهتمام العلني ـ كتابة ـ بالشؤون العامة التفصيلية والكتابة الدورية في الصحافة (كما هو بادٍ من فهرست أعماله في نهاية هذا الكتاب) ومخاطبة الشباب على ما رأينا، سنوات كرم فيها ووسّم وأصدرت فيها كتب تكريمية له مثبتة في فهرست الأعمال عن زريق في نهاية الكتاب، ونشرت فيها أعماله الفكرية العامة. توفي الدكتور قسطنطين زريق في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت يوم ١٢ آب/أغسطس ٢٠٠٠. وبعد أن صلى على جثمانه المطران خضر والمطران عودة في كنيسة نياحة السيدة للروم الأورثوذكس بشارع المكحول قرب الجامعة الأميركية، راجيين الله الرفق به وغفران خطاياه، دفن في جبّانة الكنيسة، وأقيمت له حفلات تأبين في الجامعة الأميركية وفي جمعية خريجي الجامعة الأميركية، وفي دمشق، وأسست مؤسسة ثقافية باسمه، كما أطلق اسمه على أحد شوارع بيروت، قرب الجامعة الأميركية، بقرار من مجلس بلدية العاصمة اللبنانية.

---

(٣١٣) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨.

(٣١٤) ما العمل (بيروت، ١٩٩٨)، الفصل الثالث.

(٣١٥) المصدر نفسه، الفصل الرابع.



جامعة ميشيغن ـ الدكتوراه الفخرية

قسطنطين زريق، أواخر السبعينات وأول الثمانينات



الحبيب بورقيبة مستقبلاً مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تونس ١٩٨١



قسطنطين زريق بعد تلقيه جائزة الثقافة العربية (شتاء سنة ١٩٩٩)، وإلى يمينه عقيلته وإلى يساره ابنتاه هدى وعفاف



الفصل الثاني

العقيدة القومية

وبخ زريق طلبة الجامعة الأميركية غير مرة على سوء استخدام الكتب التابعة لمكتبة الجامعة، بالكتابة على هوامشها وبتمزيق صفحات منها أو بإزالتها كلياً، مُرجعاً هذا الأمر إلى عدم تقدير القيم العقلية، وعدم الأمانة، وعدم الوفاء للأملاك المشتركة، وإلى غياب قدرة السيطرة على النفس.[١] وقارن بعد ذلك بما يقرب من نصف قرن، في كتابه نحن والمستقبل، مطلب النهج العلمي بالتعبد، واصفاً إياه بأنه «دقيق شاق... إنه كالصراط المستقيم لا يقوى على سلوكه إلاّ من استعد له استعداداً كافياً وأدى الفرائض التي يوجبها» (الأعمال، ص ١٢١٥)، ووصف العقلية التقدمية المستقبلية بأنها تتطلب، إضافة إلى الطاقة على التخطيط والتنظيم، «التقشف والتضحية» (الأعمال، ص ١٢١٣). والحال أن ثمة خطّاً ناظماً ينتظم أعماله وآراءه على امتداد عمره، خطاً أخلاقياً يلامس الطهرانية والتصوف في توخي الاستقامة والعمل مهما يكن طابع العمل، ويربط أخلاقية استخدام المكتبة الجامعية بالعمل القومي في حلقة متصلة؛ وهو خط أشرنا إلى بعض ملامحه في الفصل السابق. فإن كان لنا توصيف هذا الخط وتجلياته المتعددة التي ستصار الإشارة إليها فيما بعد، فإننا نرى أن مناطه مفهوم الإرادة، في مختلف مجالات الفعل، سياسياً كان أو أكاديمياً أو إدارياً ومؤسسياً، تلك الإرادة التي تجعل من كل عمل عام المدى عملاً يتطلب في المقام الأول إصلاح ما في نفس الفرد ـ وما زال زريق على دأبه هذا إلى آخر ما قاله للناس، وهو أن المطلوب دوماً إجراء عملية انقلابية في مفاهيمنا، داخل عقولنا ونفوسنا.[٢] وما فتئ يشيد بالسياسيين الهنود، ومنهم نهرو، على ما وجد فيه زريق تجاوزاً للتوتر بين السياسة والأخلاق، وهو التجاوز الذي توخاه طوال عمره.[٣]

قد يؤخذ على زريق في هذا المقام، كما في غيره، تبسيط الواقع ورفعه إلى مصاف ممتنع من المثالية والصفاء، وقد سبق أن أشرنا إلى الأهمية العملية التي أولاها للخطابة كما هي بينة من ممارسته إياها بشكل شبه يومي داخل الجامعة الأميركية وخارجها، وخصوصاً في الثلاثينات والأربعينات. لكن إن اعتبرنا هذا الأمر في وجهه السياسي والتاريخي، تبين لنا أن للخطابة علاقة بنوع التعبئة السياسية التي رمى زريق إليها. فالخطابة نوع من الخطاب يمكن وصفه بأنه المقابل الإيجابي

---

(١) «عنوان»، ١٩٤٢؛

«The Desecration of Books,» 1949.

(٢) مقابلة في المستقبل، ٢/٧/٢٠٠٠.

(٣) «Jawaharlal Nehru,» 1964.

للسجال الذي ابتعد عنه زريق، فهو خطاب استنهاضي يترسم بأشكال الطلب والحث والدعوة التي يتوسل منها استلهام المناقب والمُثل والفروض. وإن الخطابية التي نتكلم عنها ـ ولا نشير هنا إلى الحجّاج بن يوسف ولا إلى شيشرون اللذين انتميا إلى عصرين آخرين ـ نوع من الكلام في السياسة لازم كل الحركات السياسية التعبوية التي طبعت الحداثة بعصورها وبصورها من قومية واشتراكية وغيرها. وما دمنا نتكلم عن الحركات السياسية التعبوية الحديثة، فإننا نتكلم عن أوضاع تنطوي على تجريد نسبي للفرد الباث والمتلقي للخطاب من العلاقات الاجتماعية الأولية، وانخراطهما في حيز عام هو مناط السياسة في ظروف الحداثة.

والحال كذلك، فإن الأداء الخطابي يتخذ لنفسه فحوى اجتماعياً ـ سياسياً بالغ التحديد. فإن الخطابة التعبوية في العصور الحديثة ـ في إبان الثورة الفرنسية والثورات الشعبية التي تلتها، وفي سياق الحركات القومية التي اتخذت شكلها الأكثر حدة ووضوحاً في إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية، مع مشهدية بالغة الإفصاح والترميز بعد الاستيلاء على السلطة وقبل ذلك ـ كانت سياقاً لبثّ خطاب سياسي مغاير لخطاب الدولة أو البلاط من جهة، ولخطاب الشارع من جهة أُخرى. وأدت الخطابة، كالأحزاب السياسية في أطوارها المبكرة، والجمعيات السرية الماسونية وغيرها، دور مجال التعبئة للقوى السياسية الصاعدة، ومنها الإنتلجنسيا الحديثة الطابع التي مثّلها زريق. ولمّا كان للخطابة حيز متميز، كانت هي ومجالها الاجتماعي نقطة عبور مهمة بين سياسات اعتبرها أصحاب الخطابة هذه أنها تقادمت، وبين سياسات جديدة مرجوة هي السياسة القومية في حال زريق وكثير من مجايليه.

ومع أن هذا العبور ارتكز على قوة اجتماعية وثقافية صاعدة مثّلها المثقفون، إلاّ إن نبرة هذه الخطابة تتسم بتعال وخلاصية قد يعبران عن شعور أصحابهما بعدم استقرار القوى التي ينشدون إثارتها، وبفتوتها وطراوة عودها في محيط لم يكن مضيافاً على الدوام. وعلى ذلك، كان لا بد من التركيز على هذا المجال ـ مجال هذه النخبة المستقبلية التطلع، الانقلابية المرام ـ بهدف إنشاء نواة صلبة لا ترتجي القوة إلاّ بدفع ذاتي يتوخى دفع المجتمع بدوره. باختصار، تروم الخطابة في هذا السياق إنشاء الذات الفردية، وتالياً الجماعية، الأخلاقية ـ السياسية القائمة على فكرة الواجب، المتوسلة الإرادة رافعة لها.

فليس مستغرباً، إذاً، أن يشدد زريق على «رجال العقيدة» الناشطين المتلهبين حماسة، وأن يقارنهم بالرسل والأنبياء[4] ـ قاصداً بذلك تجديدهم وفعلهم التاريخي

(٤) «رجال العقيدة»، ١٩٣٤.

في آن واحد ـ وأن يرى في القومية عاملاً «مطهّراً» للروح.[5] وليس مستغرباً أيضاً أن يكرر العودة إلى المقارنة بين النبوّة والعمل العقائدي: فهو قد دعا إلى «هجرة» جديدة للزعماء السياسيين كي يتسنى لهم إنشاء «فاتحة» سياسية وتاريخية جديدة.[6] وهو طالب بتجديد معنى السيرة المحمدية، مقارناً بين جاهلية العرب الأولى وجاهليتهم اليوم، متوسلاً في هذا التجديد «مداواة النفس» كي تتسنى للعرب ولادة ثانية على شاكلة ولادتها مع دعوة النبي العربي.[7] فالمطلوب إنشاء النفوس الفاعلة، إذ ليست أزمة العرب أزمة ناشئة عن الاقتصاد، وإنما عن «الفراغ الروحي» الذي يجب أن يعالج بالإخلاص وبإنكار الذات وبالمحبة[8] ـ كما أن الأزمة المعاشية للمتعلمين «ليست شيئاً» إزاء الأزمة الخلقية التي يمرون بها، فالأولى ما هي إلاّ أزمة «خارجية مادية»، بينما الثانية «داخلية روحية» (الأعمال، ص ١٥٧). وتفوق الثانية الأولى، إذ هي «الجهاد الأكبر» الذي وصفه النبي العربي بجهاد النفس، وهو جهاد يهدف إلى «تحرير النفس العربية تحريراً تاماً والنهوض بها إلى مستواها الأرفع وكيانها الأمثل (الأعمال، ص ١٨١). وعندما يتغلب العقائديون على «أزمة النفس» المتمثلة في تراخي الهمم وغلبة اليأس وطغيان التشاؤم واستشراء الحقد والحسد وإيثار المصلحة الخاصة وزوال معنى الإخلاص والتضحية وإنكار الذات، يصبح العقائدي كالمتصوف العابد الذي يفني شخصيته في «شخصية الكون الكبرى»، على مثال النبي الذي ترتفع معه العقيدة إلى خير الإنسانية، ويصبح العقائدي في وضع يتيح له نقل الجبال من مكان إلى مكان و«لا يكون شيء غير ممكن لديه» (الأعمال، ص ١٧١، ١٧٦).

ولئن تهكم البعض على هذا الكلام في الوعي القومي، مقارناً إياه بما يسمع من مواعظ في مدارس الأحد،[9] علينا التنبه إلى أن خطابية زريق، على تقشف ظاهرها وعدم مشهدية إلقائها (ولهذا دلالات)، جاءت في سياق سياسي واجتماعي محدد أشرنا إلى بعض ملامحه في فقرة سابقة، وأنها رمت إلى جعل مفهومي الواجب والإرادة مناطاً للفعل القومي في وضع عربي وسمته عصبة العمل القومي، التي استلهمها زريق غير مرة،[10] في افتتاح بيانها التأسيسي بأنه يشهد تفسخاً خلقياً

(٥) «The Spiritual Aspects of Nationalism,» 1935.

(٦) «الهجرة وما توحيه للزعماء»، بيروت، ٢٨/١/١٩٤٣.

(٧) كلمة في ذكرى المولد النبوي، ١٩٥٥.

(٨) «الينابيع الناضبة في حياتنا»، ١٩٣٢.

(٩) رئيف خوري، معالم الوعي القومي (بيروت: دار المكشوف، ١٩٤١)، ص ١٤.

(١٠) «The Ideals and Activities of Arab Youth,» 1933.

كاد يقضي على الرجولة ويعمم روح التخنث وانحلالاً جسمياً «كاد يقضي على معالم القوة.»[١١] ولذا كانت الخطابة واستنهاض مكامن الإرادة والشعور بالواجب متجهين نحو إنشاء نواة «تتجسد الفكرة [القومية] في حيوات أفرادها» بالجد والانضباط والوعي والعلم والتضحية،[١٢] وكل ذلك من تبعات الواجب الذي تنفذه الإرادة. لكن أثر الخطابة لا ينصرف كلياً على استدعاء الواجب الفردي واستنهاضه في تكوين «النواة» العقائدية الانقلابية، بل هو يتعدى ذلك إلى الجمهور: يتعداه إلى ذلك الكم الهلامي الذي يرام تحويله إلى كتلة فاعلة. فما الجمهور إلاّ «المادة الخام القابلة للتوجيه» عن طريق التعليم المربي للأخلاق والتربية العسكرية الباعثة على استبطان قيم الانضباط والتراص، هذا علاوة على التقدم الصناعي والزراعي.[١٣]

يلي إنشاء الفرد، إذاً، إنشاء الجمع المتراص، أو الشعب، بالمعنى الذي لهذه العبارة في علم الاجتماع السياسي. ولا شك في أن العقائدية التعاضدية هذه ـ ذات المآل الناظم الضابط للمجتمع ـ كانت في الثلاثينات والأربعينات الشكل الأوضح للحركات القومية في أوروبا: «أرأيتم»، تساءل زريق، «هذه الأمم المنظمة في الغرب، وهي تنطق بلسان واحد، وتسير في صف واحد، وتخضع بجسدها وعقلها وروحها لفكرة واحدة» بعد اختلاط النظام بدمها وروحها؟ (الأعمال، ص ١٨٥). وما كان لهذا الاختلاط أن يتم لولا التربية القومية، «ذلك التهذيب الذي يكتسبه السواد الأعظم من أهل البلاد، وينتج عنه شعور الفرد منهم بأنه عضو حي في جسم الأمة، فيدفعه هذا الشعور إلى القيام بواجبه نحو أمته على الوجه الأكمل»، وتلك العملية (المتمثلة في وزارة التربية القومية الفرنسية ووزارة التثقيف القومي والدعاية في ألمانيا) التي توحد الأمة و«تصهرها كلها في قالب واحد وتخرجها أمة موحدة النزعات» (الأعمال، ص ٩٣، ٩٤)، مستمدة أسسها من فلسفة قومية تمثلت في ماتزيني وموسوليني في إيطاليا، وفي فخته وشبنغلر وهتلر في ألمانيا، وفي تييرو وفِريِّة وبارّس وموراّ في فرنسا (الأعمال، ص ٩٥)، هي الفلسفة القومية التي رمى زريق إلى نشر بذورها في الوعي القومي كما سنرى.

ولهذه التربية الهادفة إلى إنشاء الجمع التعاضدي المتراص، كما لمّحنا بالإشارة إلى عصبة العمل القومي، شقان، معنوي وجسدي؛ ذلك بأن للانتظام والتراص وجهاً

(١١) بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي المنعقد في قرنايل في ٢٤ أغسطس ١٩٣٣ (دمشق: المطبعة العصرية، د. ت. [١٩٣٣])، ص ١.
(١٢) «التنظيم»، ١٩٤٣.
(١٣) المصدر نفسه.

مرئياً هو الجموع المستعرضة لوحدتها المعنوية بتدريب أجسادها وترويضها على التماثل والانتظام. ذلك هو معنى الرجولة المتمثل في منظمات الشباب ـ ومنها المنظمات الكشفية ـ الألمانية والإيطالية والروسية في الثلاثينات (الأعمال، ص ٩٩) التي ألهبت مظاهرها مشاعر الشباب العربي وجعلت من عروضها أمام هتلر وموسوليني موضع استلهام لهم وأمل لديهم[١٤] ـ وجعلت من العراق، كما رأينا في الفصل السابق، موضعاً متميزاً لهذا في السياق العربي.[١٥] وعلى قدرة المنظمات التربوية على تنمية الجسم، فهي فاعلة أيضاً في تنمية العقل والشخصية (الأعمال، ص ٩٩)، فضلاً عن الاندماج جسداً وعقلاً وروحاً في فكرة واحدة. فليس غريباً، والحال كذلك، أن ينص الكتاب الأحمر على الدعوة إلى الروح العسكرية التي «يفرض البعث القومي» أخذ الأمة جمعاء بها، لاجتماعها على خصال الرجولة والوطنية «كالشجاعة والبأس والسماحة والمروءة وترك الدنايا والصبر على المكاره والطاعة حيث تجب الطاعة وحب النظام واستساغته»، فضلاً عما في الجندية من عون على توحيد النزعات بين الأفراد وتقريب طبقات المجتمع بعضها من بعض، «وحشد وتنظيم لعنصر القوة الكبرى في الأمة والوطن.»[١٦]

إن الانضباط شبه العسكري شق أساسي من الجهاد القومي، بل إن التنظيم جزء من أجزاء العقيدة ووجه من وجوهها،[١٧] وذلك ليس فقط بمعنى أن العمل يترتب على العقيدة ترتباً نظرياً بوصفه فرضاً ينفذه المرء، وقد لا ينفذه بعد التفكر فيه، بل بمعنى أن العمل يفيض عن الوجدان العقائدي فيضاً طبيعياً محتماً. تندمج بذلك أخلاقية الفرض والواجب في مجرى الحياة على صورة لها نظائر كثيرة في النظريات الرومانسية في السياسة، وخصوصاً في القومية، الأمر الذي لا مجال لخوضه في هذا المقام. ويترتب على ذلك أن هذا الجهاد لا ينفصل عن الجهاد الثقافي المعالج للقوى الهدامة في الحياة العقلية العربية، والمناط بـ «قادة الأمة الموكل إليهم أمرها» (الأعمال، ص ١٦١، ١٦٣)، محولاً الجمهور («الشارع» في عبارة شائعة اليوم) إلى شعب. ولذلك فإن السياق التربوي يتخذ أهمية بالغة، وخصوصاً في المرحلة الابتدائية، التي يحسن أن يختار أساتذتها ممن تختلج الروح القومية في داخلهم، بدلاً من أولئك الحائزين الحدود الدنيا من المعلومات التي تجب تأديتها إلى

(١٤) «The Ideals and Activities...,» op. cit.
(١٥) قارن: .Ibid
(١٦) الكتاب الأحمر، الفقرة ٤٠.
(١٧) المصدر نفسه، الفقرة ٨.

الطلاب: الروح القومية التي يراد بها العقيدة القومية الجامعة بين عمق التفكير والاندفاع (الأعمال، ص ٩٦ ـ ٩٧). كما أنه من نافل القول أن يشدد زريق على التربية المدنية والتاريخ والأدب باعتبارها ذات فائدة تعبوية واستنهاضية أساسية (الأعمال، ص ٩٦)، وأن يدعو إلى الانصراف عن المألوف من الأدب إلى «الأدب التوجيهي» الصاهر لعناصر الثقافة القومية، الموجه لها، المتجاوز لمواضع الاختلاف والبلبلة المتأتية عن الصراع الثقافي بين القديم والجديد، وبين نظم التعليم المتعددة والمتباينة من فرنسية وأنغلوسكسونية وغيرها. على ذلك، فإن الأدب التوجيهي هو «ذلك النوع من الأدب الذي يوضح أمامنا الأهداف، ويوجه قوانا الفكرية إليها، ولا يزال يعمل موضحاً وموجهاً إلى أن تصبح لنا عقائد تسود حياتنا وتجمع حولها كل ما في نفوسنا من إيمان وإخلاص، وما في عقولنا من فهم وذكاء» (الأعمال، ص ١٤٥ ـ ١٤٦). ولا يقتصر هذا الأدب على نوع واحد، كالبحث العلمي في أمورنا ومشكلاتنا، بل قد يتخذ شكل قصيدة حماسية أو قصة (الأعمال، ص ١٤٨). ولا شك في أنه يمكننا أن نضيف إلى هذه الأنواع الأدبية نوع الخطابة، لكن الأكيد أن المقصود من كل هذه في مجموعها، هو جعل المثل والعقائد القومية جزءاً من الحياة، بحيث تتناقلها وتتوارثها الأجيال كما تتناقل الدم واللغة.[18]

من نافل القول أن الدعوة إلى عسكرة المجتمع هذه لا تقتصر على التنظيمات الشبابية والمؤسسة التربوية، ولا على عسكرة الوعي والجسد فحسب، بل إن توخي الوحدة والانصهار والتراص هذا، ينسحب على ما كان متاحاً أو مرجواً من التخطيط الاجتماعي أو الهندسة الاجتماعية التي غلب عليها في الثلاثينات توخي الصفاء العرقي والأيديولوجي في جل أنحاء المعمورة. فانصرفت الطهروية الشخصية إلى تطهير المجتمع من البغاء والمخدرات والميسر على صورة تحريم «يؤيده الأدب والشرع القومي والقانون» بعبارة الكتاب الأحمر،[19] وإقامة نظام ـ على شاكلة ما كان قائماً في مختلف دول العالم ـ لما يمكن أن يدعى الصحة العامة الاجتماعية، كوضع ضريبة على العزوبية المتأخرة أو اعتبار الزواج من وسائل التكوين ومتممات البعث القومي، وخلاف ذلك.[20] ولا شك في انتماء مفهوم الكتاب الأحمر لتعرب الأجانب إلى هذا الضرب من النظام: فكل من سكن بلداً عربياً ممن لم تكن أصوله عربية، لا يتم له الانتماء إلى الجسم الاجتماعي العربي ـ وهو الجسم الخاضع

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه، الفقرة ٤٩.

(٢٠) المصدر نفسه، الفقرة ٥٠.

للتنقية ـ ولو مضى على سكناه أجيال، إلاّ إن مر بسلسلة امتحانات تؤكد الصفة الأصيلة لزوال الصفة الطارئة المتعلقة بعدم اكتمال الأصل؛ وهي امتحانات على بساطتها التي قد تبدو بديهية (قطع الصلة بأية عصبة قومية أُخرى؛ الإخلاص للقومية العربية «إخلاصاً يقوم عليه دليل»؛ تعلم العربية وجعلها لغة المنزل؛ اتخاذ الجنسية العربية؛ عدم إيذاء الوطن العربي بأي شكل من الأشكال[21]) ذات دلالة على أن العروبة انتماء سياسي ومدني في المصاف الأول، لا يكتمل إلاّ بصهر كل من أفراده في الكتلة المتراصة المستوية التي تشكل الأمة. ومن أساليب هذا الصهر، ذي العلاقة بالتثقيف في المجال العام الذي كنا بصدد الكلام عليه، النص في الكتاب الأحمر على اتخاذ سبيل الزجر والمراقبة لضبط الصحافة والمسرح والسينما والأغاني والصور والإعلانات والمهرجانات، وقمعها إن مست «بالآداب العامة أو الخصال القومية أو التاريخ العربي.»[22]

تلك بعض أدواتِ لَمِّ أشعاث الأمة العربية: الأدوات الموجهة الراصة، التي ماثل زريق ـ في مجال الفكر ـ بينها وبين النظم الاقتصادية الموجهة التي اعتمدها بعض الأمم التي «لا تملك موارد طبيعية وافرة.»[23] تلك أولوية الإرادة الطليعية على المجتمع العربي الأشعث المستجلبة لضرورة تخليص العاطفة الوطنية من «أدران المادة» ورفعها إلى «حيز العقل» (الأعمال، ص ٧٢)،[24] رافعة معها الجهاد السياسي إلى جهاد أكثر سمواً وأبعد غاية (الأعمال، ص ١٨١). لكن قبل الدخول في شأن أهداف العقيدة القومية، علينا استكمال القول فيما لها من عناصر تفصيلية قليلة وعامة، ذلك بأن مفهوم وحدة الفكر والعمل، ورفع العمل إلى مستوى الفكرة، مفهوم مضمر في العقيدة القومية التي طرحتها الجماعات القومية في الثلاثينات، هو مفهوم ليس غريباً على الجماعات القومية في أماكن أُخرى من العالم.

قلنا إن العناصر التفصيلية للعقيدة القومية فيما يتعدى أهدافها البعيدة كانت قليلة ومتسمة بالعموم، وتشكل مزيجاً من الرعاية الاجتماعية والتربوية، وذلك على صورة تبدو فيها صورة المجتمع المرسومة بعيدة إلى حد عن اهتمامات النخبة القومية المتميزة سوسيولوجياً وثقافياً من العامة ومن السياسيين المحافظين معاً[25] ـ هذا في

(٢١) المصدر نفسه، الفقرتان ١٩ ـ ٢٠.

(٢٢) المصدر نفسه، الفقرة ٣٣.

(٢٣) «واجب المفكرين في أيام الأزمات»، المعلم الجديد (بغداد)، حزيران/يونيو ١٩٤٠، ص ٢٥٠.

(٢٤) بشأن ازدراء زريق للماديات، أنظر: خوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥ وما يليها.

(٢٥) قارن ملاحظات هاني فارس، «قسطنطين زريق داعية العقلانية في الفكر العربي الحديث»، شؤون عربية، العدد ١٤ (نيسان/أبريل ١٩٨٢)، ص ٢٧ ـ ٥٨.

الوقت الذي انصب فيه الفكر القومي العقائدي على تشكيل الكتلة المتراصة عن طريق التنظيم، كما رأينا، في وضع أولى فيه القوميون السياسة موضع المحور من عملهم، جرياً على تصور عبّر عنه زريق بالقول إنه لا معنى فعلياً للعمل في مجال الاقتصاد أو غيره من المجالات إن كانت غير خاضعة للسيطرة التوجيهية للعمل القومي.[٢٦] وعلى ذلك، لم يكن زريق بعيداً عن المجرى العام لفكره وفكر رفاقه عندما تكلم في سياق الخطابة عن الجندي المجهول، إذ قرر أن جنود الأمة ليسوا العساكر فقط، بل يجب ذكر العامل والفلاح والبنّاء على أساس أن النهوض القومي عملية تشمل مختلف أجزاء الأمة.[٢٧] ومع تشديد الكتاب الأحمر و الوعي القومي وغيرهما من مظان العقيدة القومية على محو الأمية وإيواء اليتامى والإحسان إلى الفقراء وإنعاش القرى وتحضير البدو، إلاّ إن هذا كله يتخذ طابع الاهتمام الجزئي،[٢٨] بل الهامشي، في وقت انصب فيه الجهد والاهتمام معاً على تنمية الإرادة لدى المتمكنين من وعيها وعياً قومياً. وإن كان ثمة آراء اجتماعية بينة، فهي قد كانت أقرب إلى ذلك المزيج من الرعاية الاجتماعية الأبوية على شاكلة روبرت أوين وتشارلز ديكنز وفكتور هوغو، منها إلى الاهتمام بالتنظيم الطبقي أو التعاضدي/ السينديكالي للعمل وللعاملين، الأمر الذي يجعل زريقاً ينص على تفضيله الوساطة والمفاوضة على العمل الثوري أو الإضراب العمالي،[٢٩] ولو كان الهدف، بعبارة الكتاب الأحمر، «تحريم البطالة والجوع» والإنصاف في العمل، في عبارة متأتية عن لغة أخلاقية عامة لا عن لغة حقوق فئوية للجماعات التعاضدية.[٣٠] أمّا القضية النسائية، فلها طرفان، الطرف الأول المندرج في الاعتبار التربوي المألوف الذي لا يرى في المرأة إلاّ «صديقة الرجل، أو زوجة له، أو أماً له ولأولاده»، قادرة على أداء دور كبير إن تربت تربية قومية، أن تكيف حياة الأفراد وأن تقوم بالمهمة «الروحية» الموكلة إليها (الأعمال، ص ٨٢، ٨٦، ٨٨). أمّا الطرف الثاني فهو يتعلق بالتشديد على المكتسبات التحررية التي نالتها المرأة في السياق الاجتماعي للفئة

(٢٦) «The Ideals and Activities...,» op. cit.

(٢٧) «الجندي المجهول»، ١٩٣٩.

(٢٨) خالد زيادة، «قسطنطين زريق: الوقوف أمام التاريخ»، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٤٤ (٢٠٠٠)، ص ٦٤.

(٢٩) «Exploitation of the Lower Classes,» 1932; وانظر ملاحظات خوري، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦، ٨١.

(٣٠) الكتاب الأحمر، الفقرتان ٥٤ ـ ٥٥.

المثقفة ثقافة حديثة التي انتمى إليها زريق، حيث كانت قضية التحرر المحتشم «أمراً مفروغاً منه»، يكمل ضرورات التزامنا به قبولنا بمواثيق الأمم المتحدة.[٣١] ويجدر التذكير بأن هذه المكتسبات الاجتماعية هي التي تعززت بصورة خاصة في الحركة الكمالية في تركيا التي كانت موضع إعجاب زريق وكثير من مجايليه، ولو رأى بعضهم فيها تقدماً على درجة من السرعة قوّت عضد القوى الاجتماعية المحافظة،[٣٢] في الوقت الذي وجد ضرورة العمل «الجراحي» لمعالجة بعض الأمراض الاجتماعية.[٣٣]

لا تعكس ضآلة الجهد المبذول في تقصي القضايا الاجتماعية عدم الوعي بأهميتها، لكنها تعكس من دون شك، إيلاء الاهتمام الأكبر لمركز المحور من العقيدة القومية، أي إنشاء كتلة القوة المتراصة ـ ونحن العرب، كما قال زريق، شعب ينشد القوة[٣٤] ـ أي بناء الأمة الناهضة، المحاربة للرجعية الاجتماعية المنقلبة عليها. فلم يكن تأكيد زريق شاذاً عن مجمل أفكاره، بأن المشكلات الاجتماعية قد تبلغ أحياناً من الاستعصاء ما يبرر العمليات الجراحية في المجتمع، وأن النزوع التحرري يجب ألاّ يقتصر على السياسة، بل عليه أن يتعداها إلى المجتمع[٣٥] ـ وهو رأي اتخذ موضعاً أكثر محورية في فكر زريق على مر السنين، كما سنرى. لكن النهضة الاجتماعية في فترة العمل التنظيمي، كانت معطوفة في الأساس على إنشاء الكيان القومي المتراص: «تستهدف النهضة الاجتماعية عند العرب إيقاظ الحيويات الكامنة فيهم ـ ما كان منها طبيعياً أو مكتسباً ـ وترمي إلى تهذيبها وتنسيقها وتوطيدها. وبذلك تتحصل لهم القوى المادية والأدبية التي بها تبنى قوميتهم ودولتهم. وهذه النهضة الاجتماعية تنطوي على التطور التقدمي ـ فكل جمود اجتماعي ـ مناقض له، ومحكوم عليه بالزوال.»[٣٦] ولئن كانت النهضة هي الهدف

(٣١) «مشكلة المرأة العربية»، ١٩/ ٤/ ١٩٤٨، ص ٢ ـ ٣. أنظر: ملاحظات خوري، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠، وانظر أيضاً:
M. Rodinson, «*Al-Wa'y al-Qawmi* et sa place dans l'évolution de la pensée nationaliste Arabe,» in *Studia Palaestina: Studies in Honour of Constantine K. Zurayk*, ed., Hisham Nashabe (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1988), p. 9.

(٣٢) «The Ideals and Activities...,» op. cit.

(٣٣) «مشكلة المرأة...»، مصدر سبق ذكره.

(٣٤) «مصادر القوة في المجتمع»، ١٩٥٢.

(٣٥) «مشكلة المرأة...»، مصدر سبق ذكره، ص ٥.

(٣٦) الكتاب الأحمر، الفقرة ٤١.

الأسمى للعقيدة القومية، يصبح طبيعياً أن تجيّر لها كل فاعليات العمل القومي بما هو عملية بناء كتلة الأمة، أداة إرادتها الواحدة، أو ذلك الكيان الغامض والمتردد دوماً الذي يدعى شخصية الأمة. وإن اعتبرنا أن الصياغة العينية للنهضة الاجتماعية تستخدم عبارات ليبرالية عائدة إلى بنثام، وهي توفير «أكبر قدر ممكن من الخير لأكبر عدد ممكن من أفراد الأمة»،[٣٧] إلاّ إن صياغتها العامة والغائية، كما رأينا، تتجه نحو الكيانية القومية. وعلى ذلك، فإن كل ما قام في المجتمع من خلافات وتباينات يصرّف على الفرقة: فقد حرّمت عصبة العمل القومي اعتناق أي مذهب من المذاهب الاجتماعية، الأمر الذي من شأنه «إضعاف الحس القومي»، ووازت على نحو تقريبي بين هذه المذاهب وبين العصبيات الاجتماعية العرقية والطائفية.[٣٨] أمّا الكتاب الأحمر فقد نبذ الانشغال بالمشاحنات في شأن المذاهب الاجتماعية والاقتصادية في سبيل التآلف في «هيئة اجتماعية واحدة»، بل آثر تأجيل الكلام عن الحكم والتمثيل النيابي والأشكال التي قد يتخذها العمل السياسي إلى ما بعد إنجاز السيادة، مدخلاً شيئاً من الواقعية في تقرير أن هذا يتحدد تبعاً للأوضاع الزمانية والمكانية[٣٩] ـ وفي هذا جذر من جذور عداء الحركات القومية العربية للشيوعية بل ولفكرة الحزبية على وجه عام.

إن استثنينا من الكلام في هذا المقام بشأن هاجس الوحدة ـ بل مقولة الوحدة الداخلية التي تستخدم مجازاً للتراص والاصطفاف والتعاضد السياسي وشبه العسكري ـ مما لنا عليه كلام فيما يأتي، فإن ما يجب التشديد عليه هو أن الوحدة هنا نقيضة التفرق، وبهذا الاعتبار فهي وجه شمولي تتضارع فيه أشكال الفرقة المتعددة: «يحرّم العربي العصبيات التي تضعف العصبية العربية: كالعصبيات الطائفية والعنصرية والطبقية والإقليمية والقبلية والعائلية وأشباهها»،[٤٠] فهذا يتطلب ليس نبذ فكرة الصراع الطبقي والإعراض عن الأخذ بنظرة أكثر ثراء ومنهجية في النظر إلى المجتمع وتعقيده فحسب، بل يفيد عقيدة صاهرة لا تسمح بالاعتراف بوجود الجماعات المذهبية أو العنصرية.[٤١] وإن مناط كل ذلك صورة مجازية عن الأمة العربية تقيسها على صورة الكتلة التي لا يفيد التعقيد فيها إلاّ التشظي. وسنرى أن العصبيات

(٣٧) المصدر نفسه، الفقرة ٤٢.

(٣٨) بيان عصبة العمل . . . ، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

(٣٩) الكتاب الأحمر، الفقرات ٤١ ـ ٤٢، ١٦.

(٤٠) المصدر نفسه، الفقرة ٥.

(٤١) بيان عصبة العمل . . . ، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.

الطائفية ـ والعصبيات العشائرية الأقل وقعاً في سورية ـ بقيت في هذه الفترة من حياة وفكر زريق شاغلاً أساسياً، بل علماً دالاً بامتياز على تخلف المجتمعات العربية وعلى المثلبة القومية المتمثلة في مزج السياسة بالدين.

* * *

انتقلنا من الكلام عن الخطابة والأخلاق ومجاهدة النفس إلى الكلام عن الإرادة القومية الصانعة للفرد الطليعي وسبل تقويم المجتمع العربي الأشعث والمتخلف (ونحن نتكلم عن فترة لم يكن مستحباً فيها التباهي بالتخلف ومظاهره وجعلها علماً على «الأصالة» كما هو حادث في العقدين الأخيرين في مواضع شتى من مواضع المجتمعات العربية). وألمعنا إلى هاجس الوحدة، وحدة «الهيئة الاجتماعية» بعبارة الثلاثينات والمستقاة من خطاب عصر النهضة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وإن ما يجمع بين هذه العناصر كلها هو مفهوم للبعث القومي وآخر لرسالة الأمة العربية ـ وهما مفهومان استحوذ عليهما فيما بعد حزب البعث العربي الاشتراكي ـ بحيث نرى أن ما تصنعه إرادة النخبة المشكّلة من أفراد قويمين ومنظمين متراصين متعاضدين متكتلين، إنما هو بعث الأمة العربية وتمكينها ـ وهي قد بعثت من سبات تاريخي ـ من إعادة الالتحام بتاريخ البشرية وتأدية رسالتها البشرية والحضارية (وهي رسالة أصبحت «رسالة خالدة» لدى حزب البعث). هذا هو مناط العقيدة القومية، غير المنفصلة، كما سبق أن ذكرنا، عن الفعل القومي وإمكانه، وهي عقيدة آيلة عن الأخلاق وعن الثقافة القومية التي تفرض على العربي: «أولاً: أن يعرف حقيقة نفسه كفرد، فيعتد ـ من ناحية ـ بما عنده من خصال وفضائل. ويجاهد ـ من ناحية أُخرى ـ لإصلاح ما فيه من عيوب يلاحظ شيوعها بين أفراد العرب: كطبائع الفردية المانعة للتعاون، والاتكالية، وضعف الثقة بالنفس، والإحجام عن تحمل التبعات، والإفراط في الاشتغال بالمسائل الروحية. ثانياً: أن يعرف حقيقة قومه كمجموع، فيعتز بتاريخهم وأمجادهم وسجاياهم، ويبث في نفسه شعور الاستقواء بهم، وينمي في خياله أنهم أمة المستقبل كما كانوا أمة الماضي.»[٤٢] إن الفعل القومي بهذا المعنى فعل يرفع بصاحبه عن «الأهواء الأولية»[٤٣] والانتقال به من مصاف العصبية وغيرها من مظاهر الفرقة في الهيئة الاجتماعية، إلى قوام الأمة التاريخي المرجو، وما التشديد على الأخلاق، وعلى بناء الفرد ذي الإرادة المشفوعة

(٤٢) الكتاب الأحمر، الفقرة ٢٣.

(٤٣) Rodinson, op. cit., p. 7.

بالأخلاق؛ كما ذكرنا، إلاّ واسطة هذا الانتقال، والارتفاع عن التخلف إلى التحضر، غاية الكيان القومي.[٤٤]

ليست عملية الانبعاث هذه بمنفصلة عن فكرتها، ولا فكرتها بمنفصلة عنها، وما العقيدة القومية إلاّ الخطاب الذي يتماهى مع حركتها، جرياً على مبدأ وحدة الفكر والعمل الذي أشرنا إليه غير مرة. ليس هذا نتيجة قراءة خاصة لهذه العلاقة فحسب، بل له ما يؤكده مما كتبه زريق ورفاقه: فما الفكرة العربية «أو القضية العربية» إلاّ «تعبير يطلق على الحركة التي يقوم بها العرب لتحرير أنفسهم من الاستعمار والاستعباد والفقر والجهل وسائر ضروب الوهن.» والملاحظ هنا، كما في جل الخطاب القومي الذي نتكلم عنه، يجري تصريف الأمور الاجتماعية تصريفاً يبدي كيانها القائم وكأنه ليس شأناً قائماً بذاته، بل ما هو إلاّ من علامات الوهن وغياب الاقتدار. و«الفكرة العربية أو القضية العربية» مشروطة بأن على العرب أن «يؤلفوا شملهم ويتحدوا في دولة قومية عربية قوية متحضرة، فيصونوا بذلك كيانهم المادي والمعنوي ويرفعوا شأنهم ويستمروا في تأدية رسالتهم إلى الإنسانية والحضارة والعالمية.»[٤٥]

قلنا إن الرسالة الانبعاثية مناط العقيدة القومية، ووجدنا أن العقيدة لا تنفصل عن العمل باعتبارها نصاباً فكرياً أو نظرياً يفارقها ويرتبط بها في آن واحد، شأن الأيديولوجيات والعقائد كافة التي ترتبط بالوقائع المحايثة لها بروابط اجتماعية وسياسية وثقافية ومؤسسية وفكرية بالغة التعقيد. وإذا كان الحال كذلك، لماذا «الفلسفة القومية» التي رمى زريق إلى إنشائها، والتي رفع بها شذرات الأفكار القومية السابقة عليه إلى صياغة بالغة الأثر واسعة المدى، بحسب اعتراف الجميع من عرب وأجانب، وعلى صورة بلغت فيها مرحلة فاصلة لا رجوع عنها إلى ما قبلها من تبعثر واضطراب؟[٤٦] لقد كانت أكثر الدعوات القومية قبل الوعي القومي منصرفة إلى التخلص من الحكم الأجنبي أكثر من اهتمامها بالبناء الداخلي، وما كانت مستندة إلى نظريات شاملة وعقائد متكاملة (الأعمال، ص ٢٩)، وكان زريق أول من أفصح عن صياغة فكر قومي عربي صياغة سبقت أعمال الحصري والأرسوزي اللذين يكبرانه سناً. وقد وعى المعاصرون لزريق ذلك، فذهب أحد أبرزهم إلى أن أفكار العرب عن القومية، حتى بيان عصبة العمل القومي وصدور الوعي القومي ـ ويمكن أن نضيف

(٤٤) «مبدئي السياسي»، ١٩٤٣.

(٤٥) الكتاب الأحمر، الفقرة ١.

(٤٦) Rodinson, op. cit., p. 8.

إليهما الكتاب الأحمر ـ كانت تستند إلى «نشوة مبهمة» وإلى حركات نضالية سطحية دائرة حول نفسها، شاعرة بالغبن دون قدرتها على تحويل الشعور إلى أفكار ومبادئ، متقدة عاطفياً على إبهام وغموض فكريين.[٤٧] فجاء عمل زريق أول محاولة متكاملة في هذا المضمار، واكتسب أثراً بعيداً.[٤٨]

فإن تبينت لنا خلفية عمل زريق المبكر التاريخية، كونه أول بيان عن القومية باللغة العربية ـ وما سبقه، كما قلنا، إلاّ شذرات، إذ علينا عدم اعتماد الرواية المتواترة لتاريخ القومية العربية من أنها نشأت في أواخر القرن التاسع عشر، أو أنها تبينت واضحة فيما يدعى بالثورة العربية الكبرى ـ يصبح واضحاً لدينا أن أهمية الكتاب كمنت أساساً في توقيته، في صدوره في ظرف تكاثفت فيه النزعات القومية الطابع في المشرق العربي، واقترنت بنشوء فئة من المثقفين الحداثيين، على ما وصفنا في أوائل هذا الفصل. هذا في الوقت الذي تبلورت الحركات القومية المتأخرة في أوروبا ـ وفي ألمانيا وإيطاليا على وجه الخصوص ـ وأدت، مع غيرها من الظروف لكن على وجه بالغ الأهمية والحضور، إلى خلخلة الأوضاع العالمية التي سادت بعد الحرب العالمية الأولى، وأثرت في حركات تحررية شتى في العالم العربي والهند وغيرها، تماماً كما أثر نضال الشعب الفيتنامي في حركات الستينات والسبعينات. ونخصص الكلام ونحصره بالمشرق العربي، لأن الفكرة العربية في مصر ما كانت بارزة ولا سائدة، واختلطت فيها بالأممية الإسلامية وبفكرة الجامعة الشرقية ـ وخصوصاً عند أمثال طه حسين ومجايليه ـ على نحو مرتبك متخبط لحظه زريق في إحدى اللحظات القليلة جداً التي انتقد فيها أحداً بالاسم (الأعمال، ص ٦٥ ـ ٦٦). فكان من الطبيعي له أن يرى في بلاد الشام نواة الوحدة والمناط الأول للاتحاد، مع تأجيل الروابط بالمناطق العربية الأُخرى، والنظر إليها على أنها تحتاج إلى التدرج من وعي المصالح المشتركة الاقتصادية والعسكرية إلى عقد

(٤٧) عبد الله العلايلي، دستور العرب القومي [١٩٤١] (بيروت: دار الجديد، ١٩٩٦)، ص ١٠ ـ ١١، ١٩.

(٤٨) حازم زكي نسيبة، القومية العربية: فكرتها نشأتها، تطورها، ترجمة عبد اللطيف شرارة (بيروت: دار بيروت بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين، ١٩٥٩)، ص ٧٢؛ يهوشاع بن حنانيا، «زْراي مَحاشاڤاه بَتْنوعاه هَعَرفيت» [«تيارات فكرية في الحركة العربية»]، هيد هَمِزراح [صدى الشرق]، ٢٦/٢/١٩٤٣ و١٢/٣/١٩٤٣ (أود أن أتقدم بالشكر إلى مؤسسة الدراسات الفلسطينية التي تكرمت بترتيب ترجمة لهذا النص عن الأصل العبري)؛
S. Shamir, «The Question of a 'National Philosophy' in Contemporary Arab Thought,» *Asian and African Studies*, vol. 1 (1965), p. 1.

المعاهدات معها تكون بمثابة التمهيد لعلاقات اتحادية.[49] هذا في الوقت الذي كانت أقطار الجزيرة العربية والمغرب العربي ما زالت على غربة من عمليات التحديث أو رازحة تحت استعمار مباشر وغير مباشر.

وقد أشار بعض الدارسين إلى أن الدعوة إلى فلسفة قومية في الوعي القومي لم تتعدّ الاقتراح، بل لم تتعدّ الفصل التمهيدي من الكتاب،[50] واقترح غيره أن مجرد التفكير في إشادة فلسفة قومية قبل النظر إلى المجتمع والسياسة «وكأن القضية قضية خارطة هندسية... نعمد على أساسها إلى تشييد كياننا القومي» شأن عبثي، وخصوصاً إن لم تحتو هذه الفلسفة إلاّ على «عموميات مرسلة إرسالاً ومبهمات صوفية» كالكلام عن «الرسالة»،[51] الأمر الذي لا يفيد عملياً أكثر من الوعظ وحركات الكشافة ومشاريع إنعاش القرى ونشر «بعض المخطوطات القديمة».[52] لكننا رأينا أن هذه العمليات الجزئية أو بعضها ـ وخصوصاً الكشافة ـ على ارتباط وثيق بفكرة التنظيم السياسي أو شبه السياسي الذي يتقمص الفكرة القومية أو العقيدة، وأنه يجب ربط الفكر القومي لزريق بظرفه، مصداقاً لقول أحد معاصريه ـ مؤلف كتاب أكثر تكاملاً وإحكاماً في شأن القومية؛ أمّا مدعى عدم اشتهار هذا الكتاب، فهو أمر لا يتسع المجال لنقاشه هنا ـ بخصوص كتاب الوعي القومي ما يلي: «وكان أصح لو حمل اسم 'في الوعي القومي'، حيث لم يضعه، أي الوعي، في شتى تنوعاته، موضع الدرس الخالص، وإنما جاء به إهابة حادة تترك في الآذان صدى وجودها العميق، وتنشر ذؤابة من شروق الوعي القومي.»[53] ولئن كانت نبرة هذا العمل عاملاً أساسياً في انتشاره وشهرته، إلاّ إن الانتشار والشهرة ما كانا ليتما لولا شبكة الصلات الشخصية والحركية للمؤلف، سنّة الكتب في عصرها على وجه الإجمال.

«الإهابة» و«الصدى» و«الوعي» و«الرسالة»، عبارات ونبرات وتداعيات مترابطة تفيد ارتباط الخطابة بالسياسة، وتأسيس الكلام الخطابي لطاقة سياسية متأتية عن ضبط النوازع الفردية والاجتماعية المعطلة التي تساكنها السياسة القومية المرجوة. وقد حدد زريق الهدف من العقيدة في مفتتح الوعي القومي، قائلاً: إنه «ليس من أمل للنهضة

(٤٩) «مبدئي السياسي...»، مصدر سبق ذكره.

(٥٠) Y. Choueiri, *Arab Nationalism: A History* (Oxford: Blackwells, 2000), p. 129.

(٥١) خوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢، ٣٥، ٤٧ ـ ٤٩.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٥٣) العلايلي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.

القومية العربية ما لم تكن مستمدة من 'فلسفة' قومية تصور روحها، وتحدد اتجاهها، وتنصّب لها الأهداف، وتعيّن لها السبل والوسائل» (الأعمال، ص ٦٤). في هذا المرام التنظيمي إجابة على وضع وسمناه بالمشتت والأشعث والمتشظي، وهو المرام التنظيمي المتمثل في التنظيم السري الذي جعل زريق يضيف أنه على أهمية الجهاد العملي، لا بد من تدعيم ذلك «بفكر واضح نير» (الأعمال، ص ٦٤). ذلك الفكر الواضح النير، الذي يفيد «فلسفة قومية»، هو ما يمكن أن يعتصر «في فكرة مقطرة نقية صافية يتشربها أبناء الأمة وتمتزج بعاطفتهم المتوثبة وشعورهم الفياض، فيحصل من هذا المزيج المبارك 'عقيدة' قومية» (الأعمال، ص ٦٥).

لا شك في الطابع المجازي للكلام عن كون «تقطير» الأفكار الفلسفية و«تشربها» موصلاً إلى العقيدة، ولا في أن في هذا الخطاب القومي مزجاً بين الفكر والقلب على صورة تجعل من الثاني إعلاء للأول ومجازاً عليه، بحيث تكتمل في هذا الخطاب دائرة التماهي بين العلم والعمل ـ كإعلاء التحرر في صياغته بعبارة «النهضة»، وإعلاء الحاجات الاجتماعية في صياغتها بعبارة «الرسالة»[54] ـ وكإعلاء القومية إلى مصاف «الجهاد الأكبر» كما رأينا، وذلك على الرغم من ترديد زريق القول مراراً بأن العاطفة غير كافية، وأنه يجب إشغال العقل. على ذلك، لا يحق لنا أن نفتش في الوعي القومي أو غيره من أعمال زريق في تلك الفترة، فترة الصحوة القومية والاستنهاض السياسي، عن فلسفة متكاملة مترابطة في القومية، بل الأحرى بنا أن نبحث عن ترابط هذا الخطاب السياسي القومي في جملة مطالب ونظرات، وفي طروحات ذات طابع ميتا ـ سياسي أو ماوراء السياسي، وهذا شأن بيّن في الأنواع الأدبية التي اختارها للتعبير عن العقيدة في «أدبه التوجيهي» هذا: الخطبة، والمقالة (ويجدر التذكير بأن الوعي القومي يتكون من مجموعة مقالات)، والدرس التقريري الذي يمثله الكتاب الأحمر، الذي يتكون من جملة طروحات عقائدية واستنهاضية مقتضبة، على شاكلة كتب تقريرات العقائد الملقاة في الدروس الدينية (Catéchisme) مبوبة تحت بنود السياسة القومية والثقافة والاجتماع والاقتصاد. وليس واحد من أشكال الخطاب والأشكال الأدبية هذه غريباً عن أدبيات السياسة الثورية، وفي إمكاننا في هذا المقام استحضار «تقرير عقيدة الثوري» لتشرنيشفسكي المنشور سنة ١٨٦٢.

ما العقيدة القومية إذاً على صورتها التقريرية، وبغض النظر عن مجالات العمل الممتزجة بها، بل المتماهية معها على ما رأينا؟ إن العقائد كلها، حدّاً، جمل مقالات توجب الإقرار من دون المساءلة، وليست العقيدة القومية، موضع بحثنا هنا، بغريبة

(٥٤) قارن خوري، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦، ٥٣.

عن هذا الأمر. تنطلق هذه العقيدة من الموضوعة الأساسية التالية: «رقد العرب بعد نهضتهم الكبرى في العصور الوسطى قروناً طويلة نسيهم فيها العالم ونسوا أنفسهم، واستكانوا للظلم والجهل والفقر المادي والروحي، تجرهم الحياة عضواً مشلولاً في الجسم الإنساني، حتى إذا بدت طلائع القرن الماضي، حاملة معها نسمات روح جديدة، تهب بها عليهم حضارة الغرب الحديثة، أخذوا ينتعشون تدريجاً، ويفتحون عيونهم لاستقبال نور الحياة المشرقة عليهم، المهيبة بهم إلى النهضة والعمل لاحتلال المنزلة اللائقة بهم بين الأمم» (الأعمال، ص ٦٣). إن هذه الموضوعة التاريخية الطابع القائمة على قراءة ماوراء تاريخية للتاريخ، هي قراءة متواترة في الأدبيات القومية، المعتمدة نظرية رومانسية في التاريخ، قائمة على افتراض هوية قومية قارة تصحو وتسبت، تنهض وتنحط، أي أنها تسلب التاريخ تاريخيته، ولا ترى التحول إلاّ من منظور الحضور والغياب والقوامة والسؤدد، كما أنها قراءة كامنة في قرار مفهوم الأصالة، على ما رأيناه في بعض الأدبيات القومية وما نراه في بعض القراءات الإسلامية. وهي في المصاف الأخير قراءة مجازية، تكني تواريخ الأمم بالأفراد الذين يمرون بمختلف أدوار العمر، استخدمها زريق للكلام على «ربيع العمر» للأمم، كالنهضة الأوروبية وكعصور الراشدين والأمويين والعباسيين الأوائل، على الرغم من شكه في صحة هذه التشبيهات.[٥٥] تضاف إلى هذه الموضوعة، موضوعة حركية، وهي أن القضية العربية تعبير يطلق على محاولة العرب تحرير أنفسهم من الاستعمار ومن الوهن الداخلي،[٥٦] وفي ذلك تقرير لوجهة الحركة القومية العربية الأساسية: محاربة الاستعمار والانتداب، والانقلابية الداخلية التي رأينا كونها مزيجاً من تأسيس الطليعة ورعاية العامة وتثقيفها. ثم يُكمِل الصلة بين المنطلق، أي الوضع التاريخي، وبين الوسيلة، أي الفكرة العربية التي رأيناها متماهية مع الحركة العربية، العبورُ بين هاتين المحطتين ومحطتهما الغائية، أي «الغاية القصوى»، وهي «الرسالة التي تؤديها هذه الأمة للثقافة الإنسانية والتمدن العام»، الرسالة التي تبرر للأمة وجودها كأمة (الأعمال، ص ٧٩).

ترك زريق «الرسالة» عنواناً عاماً، وكناية عن الرقي العقلي والمادي والاقتدار التاريخي، ولم ينظر إليها نظرة تفصيلية في سياق تاريخ الحضارات، كما فعل في مرحلة لاحقة من حياته، كما سنرى في الفصل التالي، وذلك على خلاف ما فعل من اتخذ فيما بعد من هذه العبارة شعاراً حزبياً. ولم يحدد مآلها إلاّ على صورة تندرج

(٥٥) «ربيع الأمة»، ١٩٤٤.
(٥٦) الكتاب الأحمر، الفقرة ٥٦.

في تصور تقدمي عام للتاريخ، جعل عماده الاقتدار على العلم والعقلانية والتنظيم والانضباط في السلوك العام والخاص، ونموذجه تطور الحضارة العالمية مأخوذة على أنها حكاية التطور العقلي للإنسانية ـ وهو الأمر الذي ينظر إلى الغرب لا نظرة جغرافية أو عصابية رافضة، وإنما على أنه يفترق عنا بكونه منتمياً إلى درجة أسمى من التطور الحضاري العقلي للبشرية، درجة تتسم بالشك والبحث عن الحقيقة وطلب المعرفة بدلاً من الاعتماد على التقاليد والسلطات القائمة.[٥٧] وهو لذلك رأى في تفضيل المثقفين العرب المتنبي على ابن الهيثم والبيروني وابن سينا قصوراً عن متطلبات الثقافة والمعرفة العلميتين، وما وجد مما يستحق الثناء في إنتاجنا الفكري إلاّ المجلات المعرّفة بالمعارف الحديثة كمجلة المقتطف وأقرانها (الأعمال، ص ١٣٤ ـ ١٣٧).

أمّا من عليه إنجاز هذه النقلة، فهو الأمة العربية التي قرر التاريخ السابت وجودها، بناء على ربيع ناهض مضى. فكما أن العرب وحدة قومية معلومة، فهم أيضاً «وحدة اقتصادية طبيعية»،[٥٨] وذلك شأن كانت له عند زريق في تلك الفترة صفة البداهة التي جعلته ـ ورفاقه ـ يطرح جملة من المسلمات المعزوة إلى «التجارب والعقل والعلم والتاريخ» المتعلقة بوحدة الأمة: «يؤمن العربي إيماناً لا شك فيه بأنه ما من قطر عربي يستطيع النجاة العاجلة أو الآجلة... إلاّ بعروبته.»[٥٩] وما إحالة النظر في هذه المسلمة ـ وغيرها ـ على التراث إلاّ من باب تأسيس الوعي القومي، فهو يقوم أولاً على معرفة ماضي الأمة «معرفة صحيحة»، من جذورها في الجزيرة العربية، وسيادة العنصر العربي على غيره وامتزاجه بها منشئاً روابط جديدة، كاللغة المشتركة والتقاليد والجهاد الماضي والمصالح الحاضرة والمقبلة. من هذه المعرفة ينشأ استكشاف سر الحيوية و«روح تاريخنا»، والعوامل المكونة له من القوى «الفاعلة في نفوس العرب وقلوبهم وأرواحهم» (الأعمال، ص ٧٣). وليس هذا من باب التغني بمآثر السلف ومجرد اعتزاز بالماضي، بل هو شأن مرفوع إلى مقام المعرفة الأكيدة التي تفيد إدراك «الروح المتغلغلة» في العربي والحاضر الذي «تولّد عن هذه الروح» (الأعمال، ص ٧٤). وعلى ذلك، تضحي القومية العربية «مجموعة الصفات والمميزات والخصائص والإرادات التي ألّفت ما بين العرب وكوّنت منهم أمة: كوحدة الموطن واللغة والثقافة والتاريخ والمطامح والآلام والجهاد المستمر

(٥٧) «الشرق والغرب»، ١٩٣٨.
(٥٨) الكتاب الأحمر، الفقرة ٥٦.
(٥٩) المصدر نفسه، الفقرة ١٥.

والمصلحة المادية والمعنوية المشتركة. والقومية العربية هي محل تقديس وفخار عند العرب لأنهم بها تميزوا عن سائر الأمم وامتازوا عليها خلال العصور وبها نهض مجدهم الحاضر وكفل لنفسه النمو والبقاء إلى الأبد.»[٦٠]

بيد أن هذا التقرير عن الواقع المفترض للعرب ليس تام الارتهان بالماضي، وليس بالوضع الذي كانت له سبل التحقق التلقائي من دون العمل، إذ لا قيامَ فعلياً له من دون الانخراط في العصر الممازج في حضارته الإنسانية لحاضر العرب الواعد (الأعمال، ص ٧٥). أمّا رافعة الوعد هذا ووسيلته فهي الجهاد السياسي القائم على إعادة تشكيل الفرد العربي على صورة تضمن له اكتساب الصفات الحضارية، وعلى رأسها التنظيم في التفكير وفي العمل، مما لا يتأتى إلاّ بعد مران طويل وجهاد نفسي مستديم وتحرر من القيود العقلية والروحية، وتضفي على العربي الشعور بالمسؤولية الآيلة عن الشعور القومي (الأعمال، ص ١٨١ ـ ١٨٩).

ذلك هو سبيل الأخذ بالتمدن الحديث، باعتماده على الآلة،[٦١] وذلك في عصر ما زالت فيه للآلة صفات تبعث على الدهشة والانبهار ـ على ما نرى على سبيل المثال في فيلم ميتروبوليس لفريتز لانغ (١٩٢٤) ـ الأمر الذي جعل منها تعبيراً مجازياً بامتياز عن توخي التنظيم والطاقة التي يطلقها. والحال أن إطلاق فعل التنظيم في المجتمع أمر على تماس مباشر مع عملية التمدين، وهو على تضاد مع ما اعتاده العرب من ثقافة شعرية وسحرية غير منتجة للمعرفة. فقد رأى زريق أنه حري بالعرب الاتجاه إلى الأساسيات في حياتهم العقلية، ككتابة التاريخ العلمي بدلاً من تحقيق اسم هذا العلم أو ذاك، وكتابتهم أدباً ملتزماً (من دون استخدام للعبارة) والتفاتهم إلى قضية الأمّية بدلاً من الالتفات إلى تقصي المفردات والقوافي.[٦٢] وعليهم تتبع معاني القومية والأمة والبعث في فكرهم السياسي، والتفكر في النظريات الاقتصادية الحديثة وفي النظام العالمي في فكرهم الاقتصادي، ودراسة المؤسسات الاجتماعية القائمة، والجديد والقديم في العادات والتقاليد والنظريات الاجتماعية الحديثة في فكرهم الاجتماعي (الأعمال، ص ١٤٧)، إلى آخر ما ينتمي إلى «الأدب التوجيهي» من الموضوعات. ذلك بأنه من دون ذلك، لن تتم للعرب ثقافة حقة مجارية للعصر، وما الثقافة الحقة إلاّ «مركب فريد قد تآلفت فيه عناصر عقلية وروحية خالصة، ونسيج فاخر قد حيك في خطوط مستمدة من جوهر الفكر وصميم القلب»، بحيث يتسنى

(٦٠) المصدر نفسه، الفقرة ٢.
(٦١) المصدر نفسه، الفقرة ٦٠.
(٦٢) «واجب المفكرين...»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١ ـ ٢٥٣.

للفرد العربي أن يتصل بالقوى العقلية والروحية التي يكتسب بها المعرفة، «ويجعلها قسماً من نفسه وشخصيته» (الأعمال، ص ١٥٣، ١٥٦).

يتمازج الفكر والقلب في جملة مجازات قد أتينا إلى ذكر أهمها، وتتبقى لدينا الإشارة إلى موضوعين أساسيين يرتبطان بنقيض الوحدة، أي بالفرقة، وعلى وجه التخصيص الفرقة التي تمثلها العصبية، وخصوصاً العصبية التي تؤدي من الدين إلى الطائفية، وهو شأن سبق أن أشرنا إليه غير مرة. فقد وازى زريق ما بين العصبية وجاهلية العرب الأولى، جاهلية «الظلمات»[٦٣] التي كان الإسلام في فعله التوحيدي نقضاً تاريخياً لها. وكان قد رأى في موطنه لبنان، أن العصبية المحلية التي اتخذت شكل الدعوة الفينيقية الفاصلة للبنانيين عن عروبتهم، نقيض الاتجاه العروبي المتجه نحو المستقبل، ووجد في هذه الدعوة أحد وجوه «المبالغة في تقدير التاريخ»، بل الارتهان له في مجابهة الحاضر والمستقبل؛ فدعا إلى هتك «حجاب الجنس» و«شبح الدم»، مشدداً على أن ما يعتبر من التاريخ في منظور المستقبل هو الثقافة المشتركة واللغة الواحدة والذكريات التاريخية، إضافة إلى المصلحة الحاضرة الآتية (الأعمال، ص ١٠٩ ـ ١١٠). ولئن كان اعتبر الدين من أهم الروابط التي ورثها العرب عن الماضي الأمر الذي طبع الحياة العربية بطابع خاص لقرون كثيرة، فإنه رأى أن ربط الدين بالقومية يؤدي إلى طغيانه على الفكرة القومية ويجعل منهما متناقضين، ذلك بأن هذا الربط يؤدي إلى طغيان الشعور الطائفي على الانتماء القومي الواحد. ووجد على ذلك ضرورة التمييز بين الروح الدينية والعصبية الطائفية، والتشديد على الأولى بكونها تأثرت بتيارات الحداثة وأصبحت لدى البعض أضعف مما كانت أو حصرت في «ناحية خاصة» من الحياة العربية الفردية والاجتماعية، تكون قد ارتدت إلى أصولها الروحية التي تكلمنا عنها بشيء من الاستفاضة في الفصل السابق. والحال كذلك، فإن القومية لا تعارضها، فهي لا تعارض ديناً من الأديان «بل تقبل على الأديان جميعاً» إذ ترتبط معها بكونها الاثنين، أي بكون القومية كالدين، «حركة روحية ترمي إلى بعث قوى الأمة الداخلية» (الأعمال، ص ١١٩ ـ ١٢٠).

لنا بذلك عود على بدء، على علاقة الخطابة بالقومية، وعلى المفهوم الإلهي للدين في الحياة المعاصرة، الذي ما شاء زريق أن يعمل على تطويره على نحو مكتمل، أو أن يدفعه إلى مداه المنطقي، ولا الإشارة إليه بالاسم، كما فعل منظّر قومي معاصر له هو الشيخ عبد الله العلايلي الذي لم يشأ أن يقرأ الواقع من المجاز،

(٦٣) «العروة كما عرفتها»، ١٩٤٧.

مشيراً على نحو واضح إلى مقام الدين من الجهاز الرمزي للحركة القومية، ومشيداً بتركيا وإيران اللتين لم تعرفا الظفر بالحرية إلاّ برد رجال الدين من خارج المعابد إلى داخلها.(٦٤) إلاّ إن الغض عن وسيلة الانتقال من الطائفية إلى المدنية وغياب الحلقة الواصلة بينهما على صورة واضحة وفصيحة عند زريق، لم يؤديا به ـ وبرفاقه ـ إلى التغاضي عن القول إن «الدولة العربية دولة قومية لا دولة دينية»، وإنه لا دور للدين في الشؤون الدنيوية الخالصة كالإدارة والأحكام المدنية والعقوبات والتجارات والمعارف، الخاضعة جميعاً للوازع المدني أو لقانون تسنه الدولة ويخضع له الجميع،(٦٥) بل إنه يجب ضبط صلاحية الوعظ المعطاة لرجال الدين وتنظيم القواعد لهم، كي لا يشذوا عن الفكرة القومية السليمة.(٦٦)

* * *

بناء على ما سلف من القول، تبدو لنا العقيدة القومية أو الفلسفة القومية، جملة من الأقوال التي تفيد الإعلان، إعلان الوجود وإعلان الضرورة، من دون أن تشكل بياناً متكاملاً. اجتمعت في هذا الإعلان عدة عناصر، من مذهب رومانسي في التاريخ إلى عقيدة إرادوية في الفعل السياسي، إلى استنهاض قومي مبدئي، إلى إعلان هدف انقلابي في المجتمع. وقد أمضى زريق، كما سنرى، طوال عمره في تطوير بعض هذه الأفكار والتوجهات والطموحات بعد أن تحول عن نواح أُخرى منها، كما كان للفلسفة القومية هذه أثر كبير في تطور الفكر القومي العربي اللاحق، منها القومية الشعائرية والقومية الشعارية والقومية الانقلابية والقومية الثقافية، وهي كلها استمدت عناصرها من الوعي القومي أو استقتها من الأجواء التي رافقته. وقد تمثّل زريق هذه الأجواء، وجعل منها في كتاباته ونشاطاته وخطبه نقطة تحول الأسئلة لنهضة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ الأسئلة عن أسباب التخلف وسبل مجاراة العصر ـ من آلام نظرية إلى محرك سياسي (واجتماعي إلى درجة أقل) كان بعض شروطه قد قام، وخصوصاً في بدايات تبلور فئة المثقفين الحداثيين في المجتمع العربي، من دون ترجمته بعد إلى أجوبة عملية، ومن دون الخروج عن الأطر العامة لهذه الأسئلة النهضوية. ولئن جاء بعض عناصر الأجوبة عن هذه الأسئلة على نحو عملي وفكري وثقافي في سياق الحركات العربية التقدمية المازجة بين الانقلابية

(٦٤) العلايلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧ ـ ١٥٢.
(٦٥) الكتاب الأحمر، الفقرة ٤٤.
(٦٦) المصدر نفسه، الفقرة ٣٥.

والقومية، إلاّ إن زريقاً جافى في سني حياته التالية الكثير من هذه الأجوبة، واستمر على نهج عصر النهضة، في الوقت الذي بدت هذه الأجوبة النظرية العامة، الدرامية الصياغة للانبعاث والانحطاط، ومنذ إرهاصاتها الأولى، كأنها منافية لمنطق تاريخي تقدمي ولدينامية مصاحبة لهذا المنطق. وكأن هذه الأسئلة بانصرافها عن هذا المنطق وهذه الدينامية، إنما تحيد بالعرب عن وجهة التاريخ إلى وجهة الانغلاق على اعتلال تاريخي لا شفاء منه عنوانه «الأصالة». والحال أن أمل زريق كان أملاً لا شفاء منه، وهو الذي اختتم مؤلفاته بكتاب عنوانه ما العمل؟ حديث إلى الأجيال العربية الطالعة، صدر وهو في التاسعة والثمانين من العمر، واختتم فيه حياته على ما ابتدأها به، بالدعوة إلى تمكين الإرادة من الفرد ومن المجتمع.

الكتاب الأحمر

كتاب القومية العربية: حقائق وإيضاحات ومناهج

في السياسة القومية

(١) ما هي الفكرة العربية

الفكرة العربية أو القضية العربية: تعبير يطلق على الحركة التي يقوم بها العرب لتحرير أنفسهم من الاستعمار والاستعباد والفقر والجهل وسائر ضروب الوهن. على أن يؤلفوا شملهم ويتحدوا في دولة قومية عربية قوية متحضرة، فيصونوا بذلك كيانهم المادي والمعنوي ويرفعوا شأنهم ويستمروا في تأدية رسالتهم إلى الإنسانية والحضارة العالمية.

(٢) ما هي القومية العربية

هي مجموعة الصفات والمميزات والخصائص والإرادات التي ألّفت ما بين العرب وكوّنت منهم أمة: ـ كوحدة الموطن واللغة والثقافة والتاريخ والمطامح والآلام والجهاد المستمر والمصلحة المادية والمعنوية المشتركة.

والقومية العربية هي محل تقديس وفخار عند العرب لأنهم بها تميزوا عن سائر الأمم وامتازوا عليها خلال العصور وبها نهض مجدهم الحاضر وكفل لنفسه النمو والبقاء إلى الأبد.

(٣) من هم العرب

العرب هم من كانت لغتهم العربية أو من يقطنون البلاد العربية وليست لهم في الحالتين أية عصبية تمنعهم من الاندماج في القومية العربية.

(٤) ما هي البلاد العربية

البلاد العربية هي جميع الأراضي التي تكلم أو يتكلم سكانها اللغة العربية في آسيا وإفريقيا. أي هذه الأراضي الواقعة في الحدود التالية: من الشمال: جبال طوروس والبحر المتوسط، من الغرب: المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، من

الجنوب: بحر العرب وجبال الحبشة وصعيد السودان والصحراء الكبرى، من الشرق: جبال بشتكوه والبختيارية وخليج البصرة.

أمّا الجزر القريبة من الشواطئ العربية والتي يسكنها عرب فهي عربية.

(٥) لزوم العصبية العربية وحدها

يحرّم العربي العصبيات التي تضعف العصبية العربية: كالعصبيات الطائفية والعنصرية والطبقية والإقليمية والقبلية والعائلية وأشباهها.

والعربي يعلم أن الأديان السماوية ليست في ذاتها عصبية دنيوية، فهو لذلك يحترمها ولا يرى فيها ما يحمله على إنقاص ولائه التام لقوميته العربية.

(٦) وحدة الهدف في الجهاد

يؤمن العربي بأن هدفه القومي في أصله وطبعه ومنتهاه واحد لا يتجزأ ولو تنوعت أساليب الوصول إليه، وبأنه إلى هذا الهدف يجب أن توجه كل الجهود الفردية والجماعية.

فالعربي يرى أن المساعي القومية التحريرية التي يقوم بها العرب في هذا القطر أو ذاك من أقطارهم، لا تؤدي ولا يجوز أن تؤدي إلاّ إلى التحرر والتوحد الشاملين.

فلكل عربي ـ بل عليه ـ أن يعمل في كل أرض عربية بما يعجل تحقيق هذه الغاية ويوطد أركانها ويكفل بقاءها.

(٧) الاختلاف والتنوع في أساليب الجهاد

ليست أقطار العرب اليوم سواء: في العلم والجهل أو الغنى والفقر أو السيادة والاستعباد. فلذلك جاز أن تتنوع أساليب الحركات السياسية والاجتماعية فيها وأن تختلف باختلاف القطر، على أن يقوم بينها جميعاً ضابط يؤلفها وينسقها ويوجهها توجيهاً يضمن فعلها في إيصال الأمة العربية إلى هدفها القومي العام بأقل التضحيات وأقصر الزمن.

(٨) التنظيم: ماهيته وخطورته

الضابط الذي يؤلف المساعي القومية ويوجهها هو التنظيم. فهو على ذلك جزء من أجزاء العقيدة ووجه من وجوهها. ولا يجوز أن يصدر إلاّ عن وحي الإرادة العامة.

وهذا التنظيم يقوم على ضبط الخواطر والنزعات والإرادات الشخصية الفردية أو القطرية الإقليمية عند العرب، وتحصيل القوي منها وتسخيرها لخير القضية العربية الشامل.

(٩) تحتيم الانتظام والجهاد

قعود الفرد العربي وإحجامه عن الانتظام في مواكب المجاهدين عار وضلال يشبهان الخيانة. ومثله الإخلال بالنظام بعد الانتظام.

وفي ميسور كل عربي أن يجاهد بيده وبنانه، فإن لم يستطع فبلسانه وبيانه، وإن لم يستطع فبقلبه وجنانه، ولا سيما إذ تكون الأمة في ساعات البعث أو الخطر.

(١٠) تعميم الحركة بين جمهرة الشعب

تفرض الفكرة العربية لنجاحها أن تؤمن بها جمهرة الشعب وتعتنقها بعد أن آمن بها الأفراد واعتنقوها، لأن ذلك يسهل أعمال التنظيم في صفوفه ويصون أخلاقه القومية ويضاعف قدرته على الجهاد ويعظم نباهته فيه.

(١١) «السلبية» وشريعة القوة

ليس في مطامع العرب أن يعتدوا على أمة ما أو أرض ما أي اعتداء. فهم إنسانيون متعاونون دولياً في حدود النظم والأعمال العالمية التي لا تؤذي نهضتهم وكيانهم ولا تمس بكرامتهم. ولكنهم يرون أن أكثر الأمم ليست على هذه الصفات، ولا سيما الأمم المستعمرة المتسلطة على بعض ديارهم بالقوة.

فهم إذن يعتبرون هذا التسلط اعتداء على كيانهم، فيأخذون بشريعة القوة ويعمدون إلى مقابلة الاعتداء بمثله حيثما استطاعوا، ويبررون عملهم بأنه دفاع مشروع عن الحياة.

(١٢) «السلبية» كسياسة في الكفاح

إذا عجز العرب عن رد الاعتداء بالقوة، فعليهم أن يقاوموه مقاومة سلبية تؤدي حتماً إلى تعطيل فعله في المستقبل قريباً كان أم بعيداً.

فالسلبية في الكفاح السياسي عندهم أصل، لأنها أقرب إلى العزة القومية وأصون لها وأقوى على إيجاد الوحدة والانسجام والمشابهة في أساليب الكفاح وخططه بين العرب عموماً، ولو اختلفت ديارهم.

والوحدة والانسجام والمشابهة عوامل تضاعف القوة وتقرب آجال أثمارها.

(١٣) «الإيجابية» كسياسة في الكفاح

الإيجابية أو الانتهازية ـ كخطة سياسية في الكفاح ـ أسلوب كثير المزالق عظيم الأخطار. فإذا جاز اللجوء إليه في ظرف ما، فإنما يجب:

أولاً: أن تخلو مسالكه من شبهات التسليم والاستكانة للمعتدي أو المستعمر حتى لا تعود الأمة الرخاوة فتسترخي حيث تجب الصلابة.

ثانياً: أن يكون النجاح فيه عاقبة مضمونة سلفاً، إبعاداً له عن صفات المغامرة.

ثالثاً: أن لا ينشأ من استعماله في قطر عربي ما، ضرر يلحق أثره بالمصلحة العربية العليا.

(١٤) بطلان التنازل عن الحرية والوطن

لا يملك الفرد العربي أن يتنازل لأجنبي ما ـ سواء بالرضى أو بالإرغام ـ عن كرامته أو عن حريته أو عن أرض من وطنه أو عن جزء من هذه الثروات جميعاً. ومثله العرب كجماعات، فكل تنازل أو عقد من هذا القبيل فاسد باطل، ولا سيما إن كان قهرياً استلزمته الضرورة الآنية الموقوتة.

(١٥) نجاة العرب بالعرب

يؤمن العربي إيماناً لا شك فيه بأنه ما من قطر عربي يستطيع النجاة العاجلة والآجلة من الفقر والجهل والاستعباد والاستعمار إلاّ بعروبته.

وإيمانه هذا منبثق من التجارب والعقل والعلم والتاريخ.

(١٦) الأمة مصدر السيادة ومستقرها

السيادة للأمة وحدها أصلاً ومآلاً. أمّا المظاهر التي بها تتمثل السيادة كالحكم والتمثيل النيابي والتعامل الدولي ـ فللأمة أن تختار منها ما يلائمها وفقاً للظروف الزمانية والمكانية.

(١٧) مصلحة الأمة أولاً

مصلحة الأمة أصل، ومصلحة الفرد تبع. فإذا تعارضتا وجبت التضحية بالثانية. فالأمة العربية وحدة قومية مستمرة مع التاريخ، يرث أجيالها النفع والخير ويورثونهما.

والقانون العادل الحازم يحول، على كل حال، دون إيذاء حقوق الأفراد ويضمن لهم المساواة والإنصاف والطمأنينة.

(١٨) النظام الاتحادي للدولة العربية

يحرّم العرب العصبية القطرية والإقليمية. على أنهم لبواعث جغرافية وإدارية يرضون مختارين بأن تكون أقطارهم مؤلفة الشمل في الدولة العربية على أساس نظام الاتحاد (فدراليون).

والضرورة في قيام هذا النظام تبطل إذا ما زالت تلك البواعث.

(١٩) بلاد العرب للعرب وحدهم

كل من سكن بلداً عربياً ولم يكن عربياً فهو ضيف أو لاجئ أو مهاجر أو طارئ، ولو انقضى على سكناه فيه أجيال. فتطبق معه قواعد الضيافة أو تجري عليه قوانين الالتجاء أو المهاجرة أو ما جرى مجراها.

وللدولة العربية أن تجلي عن أراضيها كل فرد أو جماعة يعصون هذه القواعد والقوانين أو يستعصي تطبيقها فيهم.

(٢٠) التعريب وشروطه

للساكن في البلد العربي أو في غيره أن يتعرب وفقاً للنواميس القومية والأنظمة الدولية. وذلك:

- بأن يقطع صلته بأية عصبية قومية أُخرى كل القطع.
- وأن يخلص للقومية العربية إخلاصاً يقوم عليه دليل.
- وأن يتعلم اللغة العربية ويجعلها لغة بيته ومرتزقه.
- وأن يتخذ الجنسية العربية.
- وأن لا يؤذي الوطن العربي بشكل ما.
- وأن لا يكون سبباً في إيذائه.

في الثقافة

(٢١) سهم العرب في الثقافة ونظرتهم إليها

الثقافة ثروة إنسانية شائعة، يساهم العرب في خدمتها بوحي تقاليدهم، ولا

سيما ما كفل منها لأفرادهم وجماعاتهم: وسائل العيش والعزة القومية والغذاء الروحي السامي ونفع الجنس البشري.

(٢٢) تكوين الثقافة العربية وأثرها القومي

تكفل الثقافة للعرب تحقيق غاياتهم القومية إذا استمدت عناصرها وحيويتها ومناهجها من مميزاتهم وخصائصهم النبيلة وتاريخهم المجيد ومطامحهم ومصلحتهم كأمة تامة، ثم توفرت على مضاعفة القوة والإنتاج في هذه المنابع كلها.

(٢٣) الاعتداد بالمحامد القومية والجهاد لإصلاح العيوب

تفرض الثقافة القومية على العربي:

أولاً: أن يعرف حقيقة نفسه كفرد، فيعتد ـ من ناحية ـ بما عنده من خصال وفضائل. ويجاهد ـ من ناحية أُخرى ـ لإصلاح ما فيه من عيوب يلاحظ شيوعها بين أفراد العرب: كطبائع الفردية المانعة للتعاون، والاتكالية، وضعف الثقة بالنفس، والإحجام عن تحمل التبعات، والإفراط في الاشتغال بالمسائل الروحية.

ثانياً: أن يعرف حقيقة قومه كمجموع، فيعتز بتاريخهم وأمجادهم وسجاياهم، ويبث في نفسه شعور الاستقواء بهم، وينمي في خياله أنهم أمة المستقبل كما كانوا أمة الماضي.

(٢٤) العرب هم أولى الأمم بإبداع الثقافة الإنسانية العليا

يرمي العرب في حاضرهم ومستقبلهم إلى إنشاء ثقافة تستمد عناصرها من المدنيتين: الروحية الشرقية والمادية الغربية. وهي الثقافة التي تنشدها الأمم لاعتبار أنها تخلق الطمأنينة الفردية والدولية، وتوجد الرقي المعنوي والرخاء المادي للجنس البشري.

ويؤمن العرب كل الإيمان بأنهم من أقدر الأمم على إنشاء هذه الثقافة، يوم تقوم دولتهم المقبلة لسببين:

أولهما جغرافي: فهم قاطنون دياراً تقع في النقطة الوسطى المعتدلة من الكرة الأرضية. فبلادهم لذلك قطب في القارات وحلقة اتصال مثلى بين أمم الأرض.

وثانيهما تاريخي: فهم وارثون مدنية حفلت بالخصائص والمميزات اللازمة لتلك الثقافة المنشودة.

(٢٥) حرية البحث العلمي

يطلب العرب من العلوم والآداب ما صانهم كأمة وحفظ خصائصهم ومزاياهم وأعلى شأنهم وأعانهم على الابتكار والتجويد، ومضاعفة الإنتاج العقلي والفني، والاشتراك في نفع الإنسانية.

والبحث العلمي عندهم حرية، لا يحد منها إلاّ مسلك الدفاع عن القومية العربية في طور نمائها وتحققها.

فإذا جاز البحث في الأخطاء الطبيعية أو التاريخية التي تناولت هذه القومية فللتنبيه والإصلاح، لا للتشهير أو تبغيض العرب بتاريخهم وحاضرهم.

(٢٦) القومية العربية والثقافة الشعوبية

مصلحة العرب القومية هي أن يكونوا أمة مستقلة لها شعائرها وخصائصها. فكل علم أو فن أو أدب يرمي إلى الشعوبية والميَعان الأممي والرخاوة في العصبية العربية مفسد لكيانهم فهم حرب عليه.

(٢٧) الثقافة القومية أداة تعريب

تفرض القومية العربية أن لا يقيم في الوطن العربي جماعات ذات عنصرية أجنبية تتحسس بعصبية غير العصبية العربية، على الرغم من حملها جنسية الدولة.

فعلى هذه الجماعات أن تتعرب إذا شاءت البقاء في هذا الوطن، وعلى العرب أن يسهلوا لها ذلك استيفاء للتوحيد والانسجام بين المواطنين جميعاً.

والثقافة القومية العربية وسيلة كفيلة بالتعريب المطلوب.

(٢٨) دوام الصلة الوطنية مع العرب المغتربين

الأمة العربية ضنينة بحياة أفرادها وبإنتاجهم ونبوغهم. فيجب أن تقوم الثقافة العربية بقسطها في إبقاء العروبة على أبنائها الذين هاجروا إلى الديار الأجنبية في طلب الرزق أو دفع الظلم، حتى تحبب إليهم العودة إلى الوطن فيشتركوا بتعميره والدفاع عنه، أو تظل صلتهم به ناهضة متينة فيخدموا أمتهم من منازل هجرتهم.

(٢٩) بين الأدب العربي والآداب العالمية

يدرك العرب أحسن إدراك ما في الآداب والفنون العالمية من جمال وقوة. فهم لذلك يقبسون إلى آدابهم وفنونهم ما فاتهم منها، ويحاكونه، ويبتكرون على غراره، ليدعموا ثروتهم القومية الخاصة بالتجدد، ويغذوها بالتنويع، ويسابقوا غيرهم في الوصول إلى الغنى الأدبي والكمال الفني.

وتتضاعف رغبتهم في هذا الاتصال بالآداب العالمية حيث تكون الفنون وجدانية تصدر من الشعور الإنساني الشامل الشائع ـ كما في الشعر والنحت والموسيقى والغناء.

(٣٠) التعليم: نوعه وتوحيد أصوله وتعميمه بالإجبارية والمجانية

التعليم العام في الأصل عمل من أعمال الدولة، تمارسه الحكومة مباشرة أو بالواسطة، على أن يكون كله منطوياً ومنطبقاً على برنامجها القومي الموحد.

والتعليم الابتدائي يجب أن يكون عاماً إجبارياً. وعلى الحكومة أن تيسره بالمجانية في مدارسها، فإن فاتها ذلك في الحال فإنما هذه خطتها المفروضة للمستقبل القريب.

ويشترط في هذا التعليم كله أن يستهدف الخلق المتين والوطنية الصحيحة والتنوير الذهني وتوفير أسباب العيش.

(٣١) تعرب المعاهد الأجنبية أو خضوعها لقوانين المعارف

يجب على المعاهد الأجنبية القائمة في الوطن العربي أن تتعرب لتكفل رضى الحكومة والأمة وتعضيدهما لها. فإن تعذر ذلك فعليها أن تخضع للبرنامج القومي الذي تفرضه عليها دوائر المعارف الرسمية وتنفذه تحت مراقبتها:

ويستوي في هذه القاعدة كل ما صح فيه معنى المعهد: كالمدرسة والكلية والجامعة والمصح والمستشفى والمصنع والملجأ ودار الموسيقى والسينما وبعثة التنقيب على الآثار وما شابه.

(٣٢) الأمية: أثرها وأساليب مكافحتها

الأمية بين العرب المعاصرين كارثة متوطنة عامة، لها في تأخير بعثهم الأثر الأعظم، فيجب أن تكافح كما تكافح الأوبئة الإقليمية بجميع الطرائق والأساليب:

كتعميم المدارس الليلية والكتاتيب النقالة، وإلزام التلاميذ والجنود بتعليم الأميين من زملائهم ومواطنيهم في فترات العطلة والراحة، وحرمان الأمي من ممارسة الانتخاب للمجالس، وتفضيل الإدارات العامة العاملَ القارئ على غيره حكماً حين طلبه الارتزاق من منشآتها ـ إلاّ في مهلة تحددها الدولة.

وبكلمة عامة: توجيه دوائر المعارف الحكومية وجمعيات الشبان المثقفين لحملات دورية منظمة استيفاء لذلك القصد «كما في مشاريع السنوات الخمس».

(٣٣) وسائل النشر إذا مست بالمقدسات القومية

لا يجوز في وسيلة من سائل النشر ـ الأهلية ـ كالصحافة والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية والأغاني والصور والإعلانات والمهرجانات أن تكون ماسة بالآداب العامة أو الخصال القومية أو التاريخ العربي. بل على الدولة والجماعات الوطنية أن تراقب هذه الوسائل وتوجهها وجهة حسنة في حركة التحرير الوطنية وفي تمجيد القومية العربية.

أمّا إذا تعذر على الدولة والجماعات: المراقبة والزجر، بكون المساس قد حصل من نفر أجنبي في بلاد أجنبية، فإن هذا الاعتداء يقابل بكل ما تيسر من ألوان القمع كأن تصادر المادة المنشورة وتتلف، وأن ينقطع التعامل المادي والمعنوي مع أمة المعتدي.

(٣٤) أساليب نشر الثقافة في الشعب

على السلطات في الأمة أن تأخذ بجميع الوسائل لنشر الثقافتين العامة والقومية، فتنشئ المكتبات الثابتة والمتنقلة، والمتاحف والمعارض الدائمة والدورية، والصحف الفنية والنشرات، وتجعلها في متناول الكافة، وأن تستخدم الإذاعات اللاسلكية والسينما والتمثيل، لتنوير أذهان الشعب وتعليمه بسائط العلوم التي تتطلبها الحياة الحديثة كعلم الصحة والزراعة والتاريخ.

(٣٥) ضبط الوعي الديني وتنظيمه وتوجيهه

الصلاحية المعطاة لرجال الدين بالوعظ والإرشاد قوة ذات فعل خطير في توجيه الإرادة عند الشعب. فيجب أن تضبط هذه الصلاحية وتنظم لها القواعد بحيث لا تشذ عن خطوط الفكرة القومية السليمة.

ومن الشروط الأولى في الواعظ المرشد أن يكون حسن الخلق كريم السمعة جيد الثقافة يفهم الوطنية على وجهها الصحيح.

(٣٦) اللغة العربية: مكانتها وقبولها للتجديد والتطور

اللغة العربية حصن العرب وشرفهم ومظهر وحدتهم. فلها كل أنواع التقدير والتكريم.

توضع القوانين والأنظمة لحفظها وتمجيدها، وتنشأ المجامع اللغوية، وتنظّم اللجان لتأليف القاموس العام حتى تتهذب اللغة باستمرار وفق تطور الزمن. والإصلاح والتبسيط في قواعدها كله مقبول إلا ما أخرجها عن كيانها كلغة مستقلة خاصة بأمة مستقلة تامة.

ومن عناصر الإصلاح الأولى، أن يشرع في تقريب العامية من الفصحى لينشأ جيل يكتب كما ينطق وينطق كما يكتب. على أن يؤخذ من العامية ما هو موحد في جميع الأقطار العربية أو ما هان توحيده.

(٣٧) موقف العرب المعاصر من اللغات الأجنبية

كانت اللغات الأجنبية عون المستعمَرين أن يقصروا اهتمامهم باللغات على ما عزّ أو استحال نقله إلى لغتهم العربية، أو على ما رموا به إلى التعاون مع الأمم الأخرى وإلى الاطلاع على ثقافاتها ومدنياتها للاستفادة منها.

والعربية وحدها هي لغة دوائر الدولة والتعليم والتعامل الأهلي.

وهي محتومة في المؤسسات الأجنبية ومواطن النشر كالراديو والسينما والإعلان واللوحات والعلامات الفارقة المسجلة.

ويستثنى من هذا التحتيم ما تعطل معناه بالترجمة والتعريب كبعض المؤلفات الأدبية والألفاظ العلمية والآثار الفنية.

(٣٨) البعثات العلمية وكفالة الرزق للعلماء والموهوبين

تكفل الدولة الرزق والمعاش للعلماء والفنانين المجدين ذوي الكد، حتى لا يشغلوا به عن الإجادة والإبداع والنبوغ. فهم ثروة قومية تغذى وتستغل لمصلحة الأمة.

وتنظم الدولة المجامع العلمية وتساعد المنظم منها بالمال وبشتى أنواع المعونة. ودوائر الدولة تعمل بنصائح المجامع وتطبق إرشاداتها وقراراتها.

وتوفد الدولة البعثات من العلماء والطلبة النابهين إلى الديار الأجنبية للاطلاع والاقتباس، وتستوفد بعثات العلماء الأجانب إلى الوطن ليتكاتف أبناؤه معهم على الأمر نفسه.

ويحسن أن تكون النسبة في الإيفاد والاستيفاد كبيرة جداً خلال العهد الذي تتعجل فيه الأمة تمام نهضتها.

(٣٩) الرياضة تثقيف إلزامي تؤيده الدولة

الرياضة البدنية عدة الصحة الحسنة وآية الرجولة، فتعاطيها إلزامي لجميع العرب وفقاً للقواعد العصرية التي تجري عليها المؤسسات العامة كالحكومة والمدرسة والمحافل الرياضية.

وتعضد الدولة الأندية والأفراد الذين ينصرفون إلى التثقيف الرياضي، وتثيب الأبطال المتفوقين، وتكافح الوهن في الصحة وتستأصل السقم والعلة كما تستأصل الأمية وتكافح الجهل: وذلك بمشاريع وقوانين يكفل تنفيذها الحازم أن ينشأ للوطن، في أقرب حين، جيل جديد سليم البنية مستكمل الرجولة.

(٤٠) الدعوة للروح العسكري وتعميم الجندية

يفرض البعث القومي على الأمة جمعاء أن تأخذ بالروح العسكري ـ إلاّ ما انطوى منه على شهوة العدوان. ففي هذا الروح تتجمع خصال الرجولة والوطنية: كالشجاعة والبأس والسماحة والمروءة وترك الدنايا والصبر على المكاره والطاعة حيث تجب الطاعة وحب النظام واستساغته.

ويمهد هذا الروح للجندية العامة التي تقررها الدولة تمهيداً يجعلها مقبولة مرغوبة.

وفي الجندية عون على توحيد النزعات بين الأفراد، وتقريب لطبقات الناس بعضها من بعض، وحشد وتنظيم لعنصر القوة الكبرى في الأمة والوطن.

في الاجتماع والاقتصاد

(٤١) مرمى النهضة الاجتماعية

تستهدف النهضة الاجتماعية عند العرب إيقاظ الحيويات الكامنة فيهم ـ ما كان منها طبيعياً أو مكتسباً ـ وترمي إلى تهذيبها وتنسيقها وتوطيدها. وبذلك تتحصل لهم القوى المادية والأدبية التي بها تبنى قوميتهم ودولتهم.

وهذه النهضة الاجتماعية تنطوي على التطور التقدمي ـ فكل جمود اجتماعي ـ

مناقض له، ومحكوم عليه بالزوال.

(٤٢) الكفاح الوطني والمذاهب الاجتماعية

ليس من مصلحة العرب ـ وهم في عهد نهضة كفاحية شاملة ضد الاستعمار الأجنبي ـ أن يشغلوا عنها بالمشاحنة حول المذاهب الاجتماعية والاقتصادية للأخذ ببعضها ومحاربة البعض الآخر ـ إشغالاً يصرفهم عن تلك الضرورة الملحة الطارئة، ويثلم جبهتهم، ويوزعهم صفوفاً وطبقات متطاحنة ويوهن قواهم الكفاحية.

وإنما يحل لهم التخير بين المذاهب والنضال في سبيلها ـ إن وجب النضال ـ يوم يظفرون باستقلالهم وسيادتهم ويؤلفون دولتهم ويعمدون إلى إصلاح شؤونهم الداخلية.

على أن هذه النهضة الاجتماعية لها بكل حال غرض أعلى لا يتبدل، تقصد إليه بشتى الطرق والوسائل: وهو توفير أكبر قدر ممكن من الخير لأكبر عدد ممكن من أفراد الأمة.

(٤٣) تكوين الهيئة الاجتماعية الموحدة

من مصلحة العرب ومن متممات نهضتهم العصرية أن تتألف من مجموعهم هيئة اجتماعية واحدة لا سبيل معها إلى بلواهم بما يعرف بالنضال الطبقي أو النضال الطائفي.

وسبيل ذلك أن يدفع النضال الطبقي باتخاذ الإنصاف قاعدة في إثابة المجهود الشخصي أو الكفاءة الشخصية، وبرفع المستوى الأخلاقي حتى لا يألف الرجل المقتدر: الظلم والأذى، ولا الرجل المستضعف العاجز: الحسد والمكيدة.

ويدفع النضال الطائفي بنشر العلم الصحيح والفكرة القومية والتسامح الإنساني واحترام العقائد الشخصية في الدين احتراماً مطلقاً في حدود الآداب والنظم العامة.

(٤٤) دولة قومية لا دولة دينية

الدولة العربية دولة قومية لا دولة دينية. والأديان عندها هي سبيل المرء إلى خالقه في العبادات. فهي مصونة ومحترمة ومقدسة وفاق ما يرد عنها في القوانين.

أمّا في الشؤون الدنيوية الخالصة كالإدارة والأحكام المدنية والعقوبات والتجارة والمعارف، فلا دخل للدين أصلاً، إذ الوازع فيها عرف مدني يجري عليه الناس أو قانون تسنه الدولة ويخضع له جميع العرب.

(٤٥) الحريات مصونة في حدود القانون

الحريات العامة كحرية التفكير والقول والكتابة والاجتماع، حق من الحقوق الأساسية للفرد وللمجموع. ولكن يسوغ للقانون أن يقيدها قيداً شاملاً عاملاً أو قيداً آنياً موضعياً شرط أن يقع القيد لمصلحة الأمة لا لمصلحة الفرد وحده أو الجماعة دون الأُخرى.

(٤٦) حرية التملك وقيودها

التملك حر ومصون في جميع أنواع الثروة كالأرض والعقار. بل على السلطات في الدولة أن تدعو إليه دعوة إيجابية واسعة. إذ من الخير للأمة أن يكون كل فرد من أفرادها ممتلكاً. لأن الملكية غالباً ما تنشئ في النفس فضيلة الاقتصاد وتروضها على تحمل التبعات وتوثق ارتباطها بالأرض ـ أي بالوطن.

أمّا الحد من هذه الحرية على الأسلوب المعروف بالاستملاك والإجارة الجبرية أو الاستغلال القهري، فلا يجوز أن يساق إلاّ لمصلحة الكثرة بالنسبة إلى القلة أو لمصلحة الدولة العليا عموماً.

(٤٧) روح التعاون والعمل المشترك

ينزع العرب في الأصل إلى روح الفردية تعلقاً منهم بالحرية أو استقلالية. ولكن طبيعة الحياة العصرية بما فيها من قسوة وشدة وتكاليف، ومن تنافر في المصالح وتوزع في المعايش، طورتهم تطويراً، فاستساغوا روح التعاون المادي والأدبي وتطبعوا بطباع الجماعات المتعاونة المتآلفة. وهذا التطور فيه خيرهم. فعليهم أن ينموه بحذق، شرط أن يستبعدوا أخطاره: كالاحتكار بدعوى تعاون رؤوس الأموال، وكالفوضى باسم الشورى.

(٤٨) القضاء العادل وشروطه

العدل خلق عربي، فالقضاء العربي عادل بالطبع. أمّا في الوضع أو في التطبيق فلا يكون كذلك إلاّ إذا اشتمل على الخصائص التالية:

أ ـ استقلاله عن السلطات التنفيذية تمام الاستقلال قولاً وفعلاً.

ب ـ اتجاهه إلى اجتهاد أعلى واحد في جميع أنحاء البلاد.

ج ـ بساطة إجراءاته، أي أصوله ومراسمه.

د ـ حزمه وجزمه وسرعة أخذه بالرأي وبالتنفيذ.

هـ ـ خفضه النفقات والرسوم عن كاهل الناس عموماً، وإلغاؤها عن الفقراء.

(٤٩) مكافحة المفاسد الاجتماعية

كل لهوة مفسدة، ما لم يستهدف رياضة الذهن أو البدن رياضة الصحة. فالمحرمات الجنسية كما في البغاء، والمخدرات، والميسر، والمراهنة التي لم تصنف لقصد خيري: محرمة تحريماً يؤيده الأدب والشرع القومي والقانون.

(٥٠) الزواج

يشجع العرب الزواج لأنهم يعتبرونه من وسائل تكوينهم ومن متممات بعثهم القومي. وهم يفرضون في ذلك فروضاً شتى: كاشتراط الشرعية والقانونية في ارتباط الجنسين، وسلامة الصحة في الخاطبين والمتزوجين، وتحديد تكاليف الزواج، ووضع ضريبة على العزوبية المتأخرة، وحماية المرأة الحامل والمرضع، وكفالة اليتيم، وضبط الطلاق، وما إلى ذلك.

(٥١) الصحة في العائلة

العائلة أساس الأمة وخليتها الأولى. فالمحافظة على سلامتها واجب من أخطر واجبات الدولة. فهي تعنى بحمايتها خاصة من الأمراض المعدية ولا سيما التناسلية منها، فتنشر الإرشادات بمختلف الوسائل لمقاومتها وتيسر أمر معالجتها وتنزل أشد العقوبات بمن ينشرها أو يتهاون في مكافحتها.

(٥٢) تحضير البدو

البداوة مانعة لتوحيد الهيئة الاجتماعية العربية ومناقضة لمقتضيات الحياة المدنية. فعلى الدولة أن تزيلها، وذلك بأن تهيىء للبدو وسائل الاستقرار والعيش الثابت، على أن يكون انتقالهم من البداوة إلى الحضارة المطلوبة تدريجياً لا يصيب المجموع العربي بأي اضطراب اجتماعي.

(٥٣) رفع مستوى الحياة في القرية

تحرص الدولة على أن تكون نهضة الأمة شاملة لجميع أفرادها وجماعاتها، لذلك هي تسعى لرفع مستوى القرية بأن تؤمن للفلاح عيشاً رضياً وتسهر على صحته وتهذيبه تهذيباً كافياً يحفظ له أخلاقه ويبقيه متعلقاً بأرضه.

(٥٤) الإنصاف في إثابة العمل والعامل

تعنى الدولة بالطبقة العاملة التي تتكاثر ويعظم خطرها في ظل التمدن الحديث. وتحرص على أن لا يتعرض العامل العربي لما تعرض له العامل الغربي خلال النهضة الصناعية في سائر أنحاء العالم من المشاق والأضرار.

فهي لذلك تسن القوانين التي تكفل له نيل الأجور المتكافئة مع إنتاجه وتحدد ساعات عمله وتضمن له العناية أو التعويض في حالات المرض والعاهة والعجز.

(٥٥) تحريم البطالة والجوع

لا بطالة في المجموع العربي ولا جوع. فعلى الدولة أن توجد العمل لجميع رعاياها أو توجد الرزق. وللفرد العربي على كل حال سهم شائع في مجموع الأموال العربية قدره ما يوازي ثمن القوت والدفء الضروريين للحياة.

والدولة تستوفي هذا السهم وتوزعه لقاء التبعة الملقاة عليها في ذلك.

(٥٦) البلاد العربية وحدة اقتصادية

البلاد العربية وحدة اقتصادية طبيعية، لا تنافس بين مرافقها وأقطارها ولا مضاربة.

ينظم استغلال كل من ترباتها وفاق ما سوتها الطبيعة الجغرافية.

أمّا التعامل الاقتصادي مع البلاد الأجنبية فيجب أن يكون على أساس النفع المتبادل المشترك.

(٥٧) سياسة الاستقلال الاقتصادي

تتجه الدولة والأمة إلى سياسة الاستغناء بمرافقها وبمنتجاتها لكي تكون كاملة القوة بذاتها ضامنة لاستقلالها الاقتصادي جهد الطاقة.

(٥٨) مرافق البلاد العربية للعرب أولاً

مرافق البلاد العربية للعرب أولاً، فإذا فقد رأس المال العربي أو عجز عن استغلالها جاز استقراض المال أو استمداد الكفاءة من الأجنبي لقاء تمتعه المحدود بغلاتها. على أن لا يمس ذلك بحق الرقبة العربي أو باستقلال الوطن أو بتقدمه.

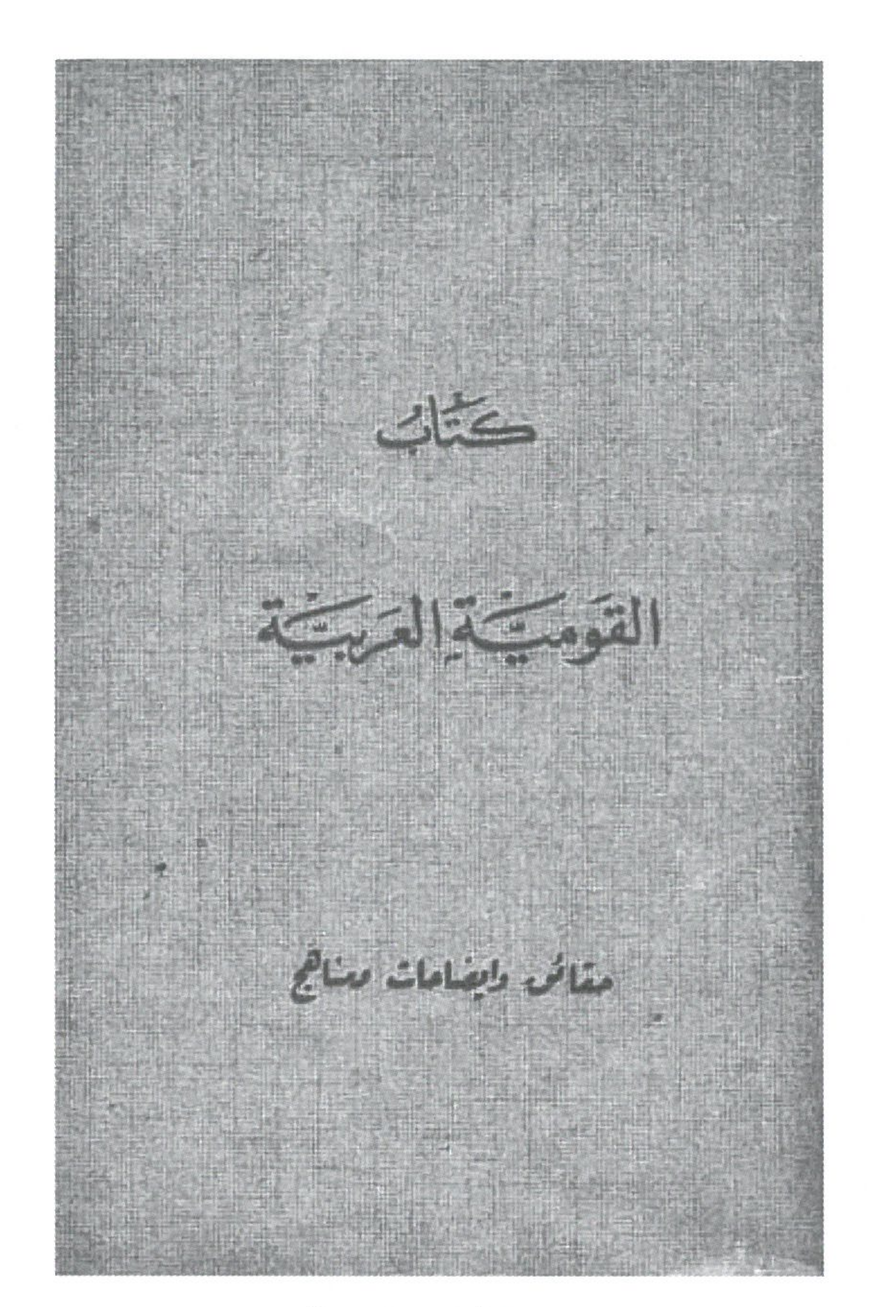
وفي هذه الحالة يفضل الاستقراض والاستمداد من الدول والشعوب التي ليس لها في بلاد العرب مطامع فتح.

(٥٩) إجبار رأس المال الأجنبي على استخدام العرب

رؤوس الأموال الأجنبية وأصحابها وشركاتها مجبرة على استخدام نصاب من الموظفين والمستخدمين والعمال العرب لا يقل عن الثلاثة أرباع من المجموع. ذلك فضلاً عن خضوعها لقانون تفضيل العرب حيث تتساوى الكفاءات جملة.

(٦٠) تعميم الآلة

يقوم التمدن الحديث معظمه على الآلة. فالدولة تسعى لتعميم الحياة الاقتصادية على أساسها. لكنها تعمل على اتقاء الاضطرابات والمضار التي أوقعتها الآلة بشعوب الغرب وتسعى لجلب منافعها دون مفاسدها.



الصفحة الأولى من الكتاب الأحمر

(٦٠) تعميم الآلة

يقوم التمدن الحديث معظمه على الآلة . فالدولة تسعى لتعميم الحياة الاقتصادية على اساسها . لكنها تعمل على اتقاء الاضطرابات والمضار التي اوقعتها الالة بشعوب الغرب وتسعى لجلب منافعها دون مفاسدها .

٥١

الصفحة الأخيرة من الكتاب الأحمر

الفصل الثالث

القومية في معركة الحضارة

ما كانت نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨ كارثة قومية فحسب، بل كانت صدمة ورضّة للواعين سياسياً وقومياً من العرب، حضت زريق على الاعتكاف في قرية جبلية في لبنان لتأليف معنى النكبة،[١] الكتاب الذي أدخل مصطلحاً جديداً على الخطاب السياسي العربي في استخدامه العبارة استخداماً غير مقيد على أنها «النكبة العظمى التي ليس بعدها نكبة»،[٢] والذي شكل محطة مفصلية في تصور زريق القومي. ولئن قال زريق أنه لم يفكر في النهضة ولا في التاريخ عندما كتب هذا الكتاب، إلاّ إنه من البيّن أن الكتاب ـ والحدث الذي أدى إليه ـ دعا صاحبه إلى إمعان النظر فيما كان يطرحه من فكر سياسي بغية إضافة المزيد من التحديد والدقة في تناول الموضوعات المطروحة، على صورة جعلت من النكبة معنى إيجابياً كونها نقّت، «بنار المحنة، جوهرنا» وبلورت «كياننا» (الأعمال، ص ٢٣٩).

والحال أن القضية كانت ماثلة دوماً في فكر زريق وجيله من القوميين، ونراها متواترة الحضور في الكتابات والبيانات والخطب والنشاط السياسي السابق على معمودية النار هذه في سنة ١٩٤٨. ولعل أول مظاهر العناية بهذه القضية لدى زريق كانت رسالة لم تنشر كتبها لباب بريد القراء في صحيفة نيويورك تايمز في آب/أغسطس ١٩٢٩، عندما كان لا يزال طالباً، اعتراضاً على تقارير صحافية مادحة للنشاط الصهيوني في فلسطين ومهاجمة للعرب المنتفضين عليه. احتج زريق في هذه الرسالة على تصوير العرب كأنهم برابرة همج متعصبون، وذكّر قراء الصحيفة بالمثقفين من العرب المسلمين والمسيحيين الذين عز عليهم تملك اليهود للأرض واستئثارهم بالوظائف الحكومية، كما اعترض على جمع اليهود أنفسهم تحت راية الدين، وتنبأ بأن وعد بلفور سيحط من مقام العرب في فلسطين إلى مقام الهنود الحمر في أميركا.[٣]

إلاّ إنه كان للنكبة أثر أكبر من إيراد وقائع الحيف اللاحق بعرب فلسطين، ومن الانتصار لكرامة المثقفين من العرب. فقد اتخذت النكبة موقعاً مركزياً من القضايا

(١) وضاح شرارة، «حوار مع قسطنطين زريق: هل يكون العرب في صناعة التاريخ من أبناء الماضي أم من أبناء المستقبل»، الفكر العربي، العدد الأول، السنة الأولى، حزيران/يونيو ١٩٧٨، ص ١٢٨.

(٢) مراجعة عارف النكدي لكتاب معنى النكبة، في مجلة المجمع العلمي العربي، العدد ٢٤ (١٩٤٩)، ص ٢٩٥.

(٣) «Letter to the Editor of the New York Times,» 1929.

القومية العربية، وكأنها تمثلت ككناية عن مجموعها، واتخذت عند زريق منطلقاً أو حالة مخبرية لسبر نقاط الضعف في الواقع العربي ولاقتراح الحلول له. ولعل النكبة كانت العامل المحفز على توسيع مجال النظر في القومية لدى زريق، وموقع استدخال النظر التاريخي فيها.[٤] بل في إمكاننا الاقتراح أن سلسلة الكتب التي أصدرها زريق من معنى النكبة إلى نحن والتاريخ وما تلاه من كتب، كانت بمثابة «ردة فعل» على الخطاب القومي المبكر لديه، أو «توضيح وتوسيع» له،[٥] شرط أن نفهم «ردة الفعل» هذه على أنها إعادة نظر في النهج الخطابي للقومية وفي تجلياتها العملية، الناصرية والبعثية خصوصاً، التي رآها غير قائمة على ضبط وتركيز، ولا على الاستناد إلى مؤسسات، الأمر الذي شكّل مقاتلها،[٦] على ما نرى على امتداد هذا الفصل. ولقد أعاد زريق الإشارة إلى هذا في فترة متقدمة من حياته في جوابه عن سؤال يتعلق بما كان قد تخلى عنه لو راجع نفسه وتاريخه، بالقول أنه تخلى على مر الزمن عن الاعتقاد أن مجرد اتباع العقيدة القومية والقيام بالواجب تجاهها من شأنه إقامة الخير والسلام، بينما أنه نحا مع مر الزمن إلى أن يرى في العقيدة القومية نتيجة أكثر من كونها سبباً، وأن الأهم الانتقال من التخلف إلى الحضارة بمداواة العلل الداخلية للعالم العربي، مضيفاً أن اهتمامه بفكرة استعادة الماضي واستيحائه قد خف مع السنين، وأنه جنح إلى إيلاء أهمية أكبر لفهم الواقع الحاضر والمستقبل.[٧]

بعبارة أُخرى، يمكننا القول إن رضة النكبة جعلت زريقاً ينتقل من الانقلابية الخطابية إلى التحري التاريخي لمعاني الانقلابية، مع التشديد المتزايد على العلل الداخلية، وعلى المنظور الحضاري الشامل للقضية القومية. ومن نافل القول، في ضوء ما سبق أن قلنا، إن زريقاً احتفظ بمنظور للعمل العام يكاد يكون صوفياً في نظرته إلى صانعي هذا الانتقال وأخلاقيتهم وانضباطهم وعلمهم وتفانيهم، لكن التصوف هذا كان «تصوف إقبال وإقدام» لا «تصوف زهد وإعراض» (الأعمال، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣). خلاصة القول، إن أعمال زريق التالية للنكبة قامت على محاولة تحصين الخطاب القومي، النهضوي الاستنهاضي، بتوسل التاريخ معيناً للفهم، وبسبر ما تتطلبه العملية التاريخية والحضارية من تحصيل للفوات التاريخي بين العرب

(٤) قارن شرارة، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٦) محمود سويد، العروبة وفلسطين: حوار شامل مع قسطنطين زريق (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٢، ١٩٩٧)، ص ٢٣.

(٧) مقابلة في السفير، ١٩/٥/١٩٩٤.

والأمم المتقدمة: تحصين الخطاب القومي من الغلو اللاعقلاني لدعاوى القومية الثقافية التي تنيط بمفهوم الأصالة مركز المحور والمحك، والتي تغرق في إيلاء الاهتمام للتراث وللتواصل الرومانسي مع الماضي، وتحصينه من كثير من الممارسات السياسية التي أصبح لها القيام باسمه، وخصوصاً تلك التي قامت على الانقلابية السياسية من دون مراعاة الوجوه الأُخرى للانقلابية التي رآها أكبر أهمية ـ أي تحصينه إياها من بعض جوانب الواقع الذي تعينت به. ولقد استمر زريق على الدأب هذا إلى نهاية عمره، ولم يكن بالغريب قط أن يستهل كتابه مطالب المستقبل العربي سنة ١٩٨٣، بالقول إن ما سبق أن كتب في معنى النكبة بشأن أسباب وشروط تجاوز النكبة قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاماً، ما زال في جوهره صالحاً (الأعمال، ص ١٤١٩) ـ وكان قد قال كلاماً بالمعنى نفسه سنة ١٩٦٧ عندما كتب في معنى النكبة مجدداً (الأعمال، ص ٩٩٣). ويحق لنا، بناء على كلام زريق وعلى قراءتنا لأعماله، أن نعتبر أعماله منذ سنة ١٩٤٨ حتى نهاية حياته بعد ذلك بنصف قرن، أنها تشكل وحدة فكرية مترابطة. ولا شك في صحة ما قيل عن أن كتابه في معركة الحضارة (١٩٦٤)، ولئن لم يكن بحثاً ذا جاذبية متأتية عن تناوله القومية أو الاشتراكية أو الثورة أو الديمقراطية أو الاستعمار أو غيرها من العبارات الجذابة آنذاك، إلاّ إنه كان كتاباً ثورياً (أو انقلابياً) داعياً إلى تعميق مفهوم الثورة[٨] كما فهمه زريق، وعلى ما سنرى فيما يلي.

لقد وفق بعض الباحثين في تعيين الملامح الأساسية لما استخدمه زريق من سبل في سياق التحصين الذي تكلمنا عنه، من دون الإشارة إلى الاضطراب النسبي الذي وسم به هذا التحصين من حين إلى آخر، عندما تغلغلت عناصر من أفكار المرحلة الأولى في المرحلة الثانية، وخصوصاً بعض التصورات الرومانسية، وهي العناصر التي درجت أغلبية القوميين العرب على تلقفها بشهوة بالغة لا حدود لها. وإن على رأس تلك الملامح لفكر زريق في الفترة الثانية من نشاطه والخط الناظم لها، اعتبار القومية، كعقيدة وهوية، بوصفها واسطة لا غاية متعالية على التاريخ أو قدراً محتماً أو حقيقة أبدية، يتمسك بها أبناء الأمة لما تتيحه من تقدم وحرية. وهي بوصفها الأخير هذا متأتية عن قطيعة مع عوامل تكوينية من الواقع العربي، آيلة من التراث، وعلى رأسها الطائفية وغيرها من العصبيات، الأمر الذي يجعل لزاماً إقامة أي نظام عربي على أساس علماني.[٩] يترتب هذا الأمر على أن زريقاً اشتق القومية،

(٨) مراجعة جورج طعمه لكتاب في معركة الحضارة، في المعرفة، العدد ٣/٣١ (١٩٦٤)، ص ١٣٣.

(٩) هاني فارس، «قسطنطين زريق داعية العقلانية في الفكر العربي الحديث»، شؤون عربية، العدد ١٤ (نيسان/أبريل ١٩٨٢)، ص ٤٥ ـ ٤٦.

في هذه المرحلة من عمره، من زمن القوميات بعيداً عن الفكر اللاتاريخي فيها، اعتماداً على أطروحتين أساسيتين هما: تاريخية الظاهرة القومية ـ أي اعتبارها ظاهرة من التاريخ وإليه، أينما كانت ـ وجدل القومية والحداثة الاجتماعية، بعيداً عن اشتقاق القومية من «روح العروبة»، مع الأخذ بتاريخية الظواهر الاجتماعية وبمرجعيتها في «الزمن الحاضر الأكثر تقدماً»، في سياق تاريخي وتحليلي يرى انطباق المعايير الإنسانية الشاملة على كل المجتمعات، وبعيداً عن أوهام التفرد التاريخي.[10]

كل ذلك جعل من زريق «مفكراً قومياً غريباً لأنه كان مفكراً قومياً حقيقياً»[11] ـ مع أخذ «الغرابة» على أنها غربة التوحد، ومع التشديد على معاني عبارتي «المفكر» و«القومي». فبعيداً عن البيانات والخطب النارية التي رافقت اندحارنا سنة ١٩٤٨ (وسنة ١٩٦٧ وحتى الآن)، وجد زريق أننا في مواجهة عدو يتأهب منذ زمن على نحو منضبط ومنظم، محاولاً الاستيلاء على مصادر القوى في الدول العظمى، في زمن تاريخي ما زال فيه العرب في بداية نهضتهم ـ أو تطلع بعضهم إلى النهضة ـ وفي المراحل الأولى من إرهاصات تكونهم الحديث اجتماعياً وسياسياً. وعلى ذلك، فإن التنديد بالعدو غير كاف إن لم يتزامن مع التنديد بمواضع الضعف فينا، وخصوصاً التفاتنا إلى «أصل العلة» الكامن في التهرب من الواقع. ولمّا كان الواقع هذا تاريخياً، كمنت الاستجابة في العمل في جعل العرب قوة حية «متمشية مع مجرى التاريخ» (الأعمال، ص ٢٠١ ـ ٢٠٤)، بدلاً من التغني بمآثر السلف وبالكلام عن انبثاق النهضة من روح الأمة أو قواها الكامنة المفترضة.

ليست القضية الفلسطينية، إذاً، بما يمكن التعامل معه بالهتاف العالي (الأعمال، ص ١٠٠٢)، ولا سبيل إلى نجاح الكفاح المسلح الفلسطيني المشروع تماماً إن لم ينقّ من شوائب التخلف،[12] إذ لا سبيل إلى «محاربة الصهيونية لاستئصال جذورها» إلاّ التبدل الجذري في العالم العربي والانقلاب التام في «أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها.» فلئن كانت الصهيونية متأصلة في الحياة الحديثة، بقينا نحن متنكرين لهذه الحياة، مخدرين أنفسنا بأمجاد الماضي، آخذين الوطن على أنه «تضاريس جغرافية» من دون تغلغل معانيه في الذهن وأدائه أمة «موحدة المنازع، محققة الإمكانات، تتوجه للمستقبل» (الأعمال، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨) ـ وفي هذا أصداء لكلام قيل قبل عقود يتعلق بأهمية الحرص على إدراك الشعب معنى الدولة إدراكاً

(١٠) فيصل دراج، «دلالة المعرفة التاريخية»، الطريق، ٦٠/٤ (٢٠٠١)، ص٩١ ـ ٩٢.

(١١) المصدر نفسه، ص ٩١.

(١٢) سويد، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠ ـ ٦٢.

واعياً إن كان للدولة هذه أن تكون سياقاً سليماً من سياقات التنظيم القومي، من دون أن تؤَلّه.[13] ولذلك، فإنه إلى جانب المتطلبات السياسية المستدعية للاتحاد بين الدول العربية وأشكاله في مجالات السياسة والاقتصاد والدفاع، ثمة شرط لازم يتصل بالاقتصاد والاجتماع والفكر، ذلك بأن الكيان القومي العربي المنشود لن يكون له التمام إن لم يكن كياناً تقدمياً مماشياً للتاريخ ولقوانين الاجتماع (الأعمال، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩).

وبهذا المعنى الآخذ بمماشاة التاريخ وسنن الاجتماع، جاءت النكسة نتيجة واقع حضاري، هو انتماء العرب وإسرائيل إلى حضارتين مختلفتين أو إلى مرحلتين متفاوتتين من مراحل الحضارة. وما الفارق في الاقتدار بيننا وبين العدو إلاّ نتيجة الفارق الحضاري (الأعمال، ص ٩٩٨)، بل نتيجة الفوات الحضاري لنا والاندراج في الحضارة العالمية لعدونا. وجرياً على فهم زريق المثالي للحضارة، الذي سنتناوله لاحقاً، فإنه وجد سبيل اجتياز أو تجسير فارق الاقتدار هذا في تحويل المجتمع العربي من «مجتمع انفعالي توهمي ميثولوجي شعري إلى مجتمع فعلي تحقيقي عقلاني علمي» (الأعمال، ص ٩٩٩). فليس من خطر على القومية أكبر من الرجعية بشتى مظاهرها، وليست التقدمية المحاربة للرجعية بوقف على الشيوعيين، وإنما على القوميين مجاراة الزمن إن رغبوا فعلاً في محاربة الشيوعية المكافحة لمقيدات الماضي والثائرة على الاستغلال (الأعمال، ص ٢٢٩، الحاشية ١). ولعل المثالية في مفهوم الحضارة تتبدى واضحة في تعليله انتصارات الشعب الفيتنامي على اليابانيين والفرنسيين والأميركيين بإرجاعه إلى الدربة في فنون القتال والروح المعنوية العالية (الأعمال، ص ١٠٠٢)، من دون ذكر صلة ذلك كله بالبنية الاجتماعية وخصوصاً بدور الحزب الشيوعي ثم النظام السياسي الشيوعي في فيتنام الشمالية في تعبئة الشعب وتنظيمه وتحفيزه. لكننا سنؤجل الكلام بشأن مفهوم الحضارة لديه إلى نقاش تال، وما قصدنا من الإشارة إليه في هذا المقام إلاّ لننتقل إلى توصيفه للعَلاج، وفي هذا التوصيف مدخلنا إلى معالجة شأن الحضارة لديه.

على رأس القضايا المطروحة في هذا التوصيف التنمية والتعبئة الفكرية والتربوية كمناط الفكرة الانقلابية التي طرحها في تمايزها من الانقلابية السياسية التي تحققت في مصر وسورية وغيرهما من الأقطار العربية في الخمسينات والستينات من القرن الماضي. وقد كانت هذه التنمية التعبوية لدى زريق تبدو كأنها هادفة إلى نزع السياسة المباشرة عن الفعل القومي ـ وفي هذا تحول أكيد في الوجهة عن مواقف سابقة

(١٣) «من مقومات الدولة»، حديث في الإذاعة السورية، ٢٧/١٢/١٩٤٩.

لزريق ـ جرياً على القناعة بضرورة تكوين العقيدة القومية وتأصيلها في النفوس وفي المجتمع قبل الإقدام على محاولة تطبيقها سياسياً أو فرضها فوقياً (الأعمال، المقدمة، ص ٣٦).

ليس من شك في أن هذا الموقف، الذي أشار الكثيرون إلى أنه موقف مثالي، إنما يشكل محاولة للابتعاد عن قضية الدولة والسلطة، والدور الأكيد الذي كان لهما في تجذير العقائد القومية وفي صهر المجتمعات ومجانستها مجانسة قومية، أي الابتعاد عن دخول التاريخ الفعلي في تاريخ القوميات، وعلى رأسها ـ كمثال صاف ـ فرنسا في القرن التاسع عشر، حيث كانت الدولة العامل الرئيسي في تحويل أشتات الفرنسيين إلى مواطنين فرنسيين، عن طريق التوحيد اللغوي والثقافي والسياسي، وصهر المواطنين بتوسل النظام التربوي والتجنيد الإجباري. قلنا في بداية هذا الفصل إن زريقاً جافى، أو على الأقل آثر الابتعاد عن القومية العربية المتحققة. وما علينا في هذا المقام إلاّ الإشارة إلى تحفظه من مزج القومية بالاشتراكية، ومن استبدادية النظم القومية و«الثورية المزيفة» وفسادها وإهدارها موارد الأمة (الأعمال، المقدمة، ص ٢٥). وهو ولئن امتدح جمال عبد الناصر غير مرة (الأعمال، ص ١٧٠٦ ـ ١٧٠٧، ١٧١١)، لافتاً النظر إلى عنايته بالعلم والتعليم والإنتاج، وناسباً إليه تفجير طاقات هائلة في الأمة العربية، إلاّ إنه تحفظ بشأن سياساته الاجتماعية والاقتصادية، حتى إنه وجد أن مفاهيم عبد الناصر وكلامه عن توزيع الثروة والعدالة الاجتماعية «طغت» على مفاهيم أُخرى وجدها أكثر أهمية، كالثروة الوطنية والقدرة الوطنية،(١٤) بل إنه عزا انتكاس الدعوات الاستقلالية العربية إلى بلبلة الأفكار التي رأى أن الأفكار الاشتراكية مسبب أساسي لها، الأفكار التي نشرت الانقسام والفرقة في الجسم السياسي العربي بتغليبها فكرة الصراع الطبقي على وحدة الأمة (الأعمال، ص ١٠٠٦). بل إنه وجد أن الشيوعية بحد ذاتها تناقض القومية مناقضة تامة.(١٥) لا شك في أن في هذا أصداء أكيدة من مركزية فكرة «الوحدة» الرومانسية، ولفكرة استواء وجه المجتمع والسياسة في تنظيم قومي صارم لا يحتمل التعدد الداخلي، كما أنه ما وجد في عبارة «الثورة»، كما مورست، إلاّ فكرة الثورة على الغير، من دون ولوج باب الثورة على الذات (ممثلاً على ذلك بالجزائر وفلسطين).(١٦)

(١٤) كلمة ألقيت في ذكرى أربعين جمال عبد الناصر، الآداب، ١٩/١ (١٩٧١)، ص ٣ ـ ٥. قارن: «The Meaning of Arab Nationalism,» 1959.

(١٥) «The Meaning...,» op. cit.

(١٦) مقابلة في السفير، ١٩/٥/١٩٩٤.

أمّا هذه «الثورة على الذات»، فإنها تتخذ، في ضوء ما سبق، صفة زائدة على الانقلابية الاجتماعية، صورة التوجيه الثقافي والعلمي والأخلاقي المتعالي على السياسة، وكأن زريقاً بذلك يعتبر مثال «الفيلسوف ـ الملك» الذي اهتم بشأنه أيام الطلب ووسّع مناطه من الفرد إلى الطليعة القومية في الفترة الأولى من كتاباته وأنشطته. فهو ما فتئ يدعو إلى «الفضيلة» في السياسة ـ حتى في لبنان(١٧) ـ وفي إيلاء دور محوري للنخبة في تحول المجتمعات والحضارات، مشيراً إلى الأهمية الحاسمة للرسل والطلائع والقيادات الذين يتبادلون عنده الأسماء والمسمّيات (الأعمال، ص ٨٣٥). ولئن لم يتوسع زريق في توضيح فكرته عن النخبة، إلاّ إن مناط الكلام ـ بعد فترته المبكرة ـ اتجه نحو فئة من «خيار الناس»، التي تعلو بما لها من علم ووطنية وسمو واحترام، من دون أن يقصد فئة سياسية تحتكر لنفسها صفة النخبة وتزعم الوصاية على المجتمع بوسائل سياسية.(١٨) ذلك ما حدا الكثيرين على اعتبار زريق مفكراً ليبرالياً، وهي عبارة تطلق عليه على نحو مرسل من دون ضوابط آيلة عن تحري شروط ومؤدى العبارات، على ما درج عليه الفكر العربي الحديث في أشكاله الغالبة. كان مفكراً ليبرالياً بمعنى أنه ثمن الثقافة الليبرالية المتوسلة العقل الحر المنطلق، وكان ليبرالياً عندما كانت الليبرالية وشماً ـ بل عند البعض وصماً ـ مقارباً للرجعية كما رأينا ـ للذين تحفظوا بشأن السياسات الناصرية، وآثروا التدرج على الثورة.(١٩) أمّا المعاني الأُخرى لليبرالية، كصلتها بنظرية اقتصادية معينة، ودلالتها على أحد أشكال الحكم، ومؤازرتها معسكر الرأسمالية في فترة الحرب الباردة، فهي أمور، وإن ذكرت في أعمال زريق، إلاّ إنها لم تحظ بكبير العناية والسبر والتدقيق.

ومهما يكن الأمر، علينا الآن الرجوع إلى «الثورة على الذات» وتتبع معاني الانقلابية «الليبرالية» ذات الطابع الثقافي والعقلي ـ والأخلاقي تالياً ـ في سياق رد زريق على النكبة وعلى ما تشي به من مواضع ضعف، وما توحي به من إمكانات التجاوز والتقدم والرقي في سبيل الاقتدار التاريخي. اقترح زريق أن انتقال العرب من العجز إلى القدرة يتطلب إدراكاً دقيقاً لمعنى القدرة، وأول معانيها أنها جوهر بشري يتمثل في الرقي الإنساني، وليس تالية على نحو تلقائي لمزايا عرقية أو تاريخية وغير

(١٧) «في سبيل ماذا؟»، حديث في راديو بيروت، ١٧/٩/١٩٥٨.

(١٨) برهان الدجاني، «حول آراء قسطنطين زريق في القضية الفلسطينية»، في دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق، تحرير هشام نشّابه (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ١٥.

(١٩) «The Meaning...,» op. cit.

ذلك من العناصر اللاتاريخية لما يسمى «أصالة». أمّا معيار القدرة ومقياسها، فهما التحرر بوجوهه المتعددة، التحرر من تحكم الأجنبي ومن المتنفذين داخلياً. كما أن التحرر والاقتدار يرتبطان بالاستحقاق. فالاستحقاق ما ينجم عن النضال للتخلص من القيود الخارجية ـ الطبيعية وغيرها في منظور تاريخ الحضارات ـ ومن أجل التماسك الوطني في السياسة والاقتصاد والاجتماع، ولا سبيل للحق في فلسطين أو في غيرها إلاّ بالاستحقاق (الأعمال، المقدمة، ص ٢٦ ـ ٢٨). أمّا على الصعيد العملي، فإن ترجمة الاقتدار والاستحقاق إلى واقع يجري عن طريق خطى أولها السبيل الانقلابي على الذات، وعلى رأسها صناعة مجتمع تكنولوجي يقتبس الآلة ويصنّع الحياة، وثانيها فصل الدولة عن التنظيم الديني «فصلاً مطلقاً» استرشاداً بتجربة المجتمعات المتقدمة التي ما حققت التماسك القومي إلاّ عندما قضت على الطائفية وحكّمت العقل في أمور المجتمع. وتالياً لذلك، يتعين علينا في هذه السبيل، في نظر زريق، فتح الصدر لتقبل خير ما حققته الحضارات الإنسانية من قيم عقلية وروحية أثبتت نجاعتها لبناء الحضارة (الأعمال، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١). بعبارات أكثر تحديداً، ينبغي للعرب إقامة مجتمع تقدمي. والمجتمع التقدمي هو مجتمع متحرك متطور بناء على العوامل الاجتماعية التي فيه. أمّا سر الحركة هذه، فهو الانكباب على الوسائل الإنتاجية، والتشديد على الآلة والتقنية والاقتصاد والإعمار ـ تلك الأشكال التنموية والتنظيمية التي حلّت في فكر زريق في مرحلته الثانية مكان التنظيم العقائدي وتوابعه.

ولا يتم هذا عفواً، كما لا يتم على نحو كاف إن استورد استيراداً، وإنما علينا اكتساب القوى التي كانت وراءه وبعثت عليه، أي القوى الحضارية التي تتلخص في العلم: التحري عن الحقيقة؛ الأسلوب العقلي المنضبط؛ النتائج العلمية المحققة والمتراكمة، تلك الأمور التي تؤمن شروط التحرر من المحيط الخارجي (العلم) ومن الجهل والهوى (العقلية العلمية)، وإتمام الحرية في الانتظام (الأعمال، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٤، ٢٩٩) القائم على العقلانية والانضباط معاً. بتوسل هذه السبل معاً، يتاح التغلب على العجز في الميدان العسكري، كما تتاح التنمية الاقتصادية المتطلبة للعقلانية في الاستهلاك و«التضحية لا السمر والسهر»، والعقلانية في السياسة الخارجية القائمة على المساومة ومبادلة بعض المصالح في سبيل درء الخطر الأكبر، وقيام قيادات قادرة على إشراك القوى الشعبية في النضال القومي (الأعمال، ص ٢١٥ ـ ٢٢٢). بل يتاح لنا المشاركة في الثقافة الإنسانية المتطلعة إلى الأرض، لا إلى السماء، والتعميم المتزايد للفرص والخيرات، وإنتاج العلم والفن والأدب الذي ما زال حظنا منه قليلاً (الأعمال، ص ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

يرتبط الاقتدار والاستحقاق القوميان، إذاً، بالاستحقاق الحضاري وبجني أعلى القيم الحضارية المتمثلة في الحيوية العقلية والصفاء الخلقي الذي لا انفكاك لنجاعتهما عنه (الأعمال، ص ٥٧٧). وإذا كان ازدهار الحضارات مُناطاً بالاستجابة للتحدي، ولمّا لدينا نحن معشر العرب تحدي النكبة،[٢٠] فعلى المجتمعات المفوتة أن تجابه هذا التحدي إن رمت إلى التقدم والرقي، تماماً كما أن الأفراد ـ وكأننا بزريق يعتبر ماضيه الشخصي هنا ـ العصاميين الناجحين قد قبلوا مواجهة تحدي أوضاع نشأتهم، وقووا بذلك في داخلهم عناصر الإقدام والجهد والجد، وواجهوا عنفوان التحدي بمثله (الأعمال، ص ٢٣٧). أمّا عنوان هذا التحدي، وقد قاربناه في الفقرات الأخيرة من جوانب متعددة، فهو تحدي التقدم والترقي. فإذا لم يتمثل العرب قيم التقدم والترقي هذه، ولم يشكلوا أنفسهم أو يعيدوا تشكيل أنفسهم على صورة مجارية ومناسبة لهذه القيم، فإن قوميتهم ستفشل كما فشلت غيرها من القوميات.[٢١] ولا تمام لتلك الاستجابة للتحدي بالركون إلى التاريخ الماضي، ذلك بأن «الشخصية العربية» اليوم واجدة نفسها في حضارة عالمية ذات منشأ غربي تحيط بها من كل الجوانب، ولو أن شهادة المنشأ التي لها لا تجعلها حكراً على الغرب، فليس الغرب مفهوماً جغرافياً، وإنما هو يمثل كل بلد أو شعب قبل الحضارة الحديثة، ومثال ذلك اليابان التي ولو كانت بلداً شرقياً، إلاّ إنها أقرب إلى أوروبا منها إلى أكثر مناطق آسيا. بل إن زريقاً رأى أن العالمين الرأسمالي والشيوعي سيتقاربان بفعل التقدم الصناعي المتسارع لديهما، الأمر الذي سيتيح لهما التشابه والتفاهم والتبادل، باتساع سلطان الدولة والعدالة في الأول، ومجال الحرية في الثاني، وذلك جرياً على نظرية قال بها الاقتصادي الأميركي غالبرايث، مستشار الرئيس كينيدي (الأعمال، ص ١١٧٤ ـ ١١٧٥). وعلينا بذلك الإقرار بالواقع ـ بل الانتصار لما يمثله هذا الواقع من تقدم ورقي ـ وتفهم الغرب والتعرف على «ماهيته»، كي «نحسن مجابهته ويكون اتصال روحنا بروحه على نور وهدى وبصيرة لا بفعل الصدف الطارئة والأحوال المسيّرة» (الأعمال، ص ٧٦). أمّا مفاعيل «الاتصال الروحي» هذا، فتكمن في التنظيم ـ وهو أول ما كان قد استدعى انتباه المؤلفين النهضويين والرحالة العرب إلى أوروبا. وليس المقصود بالتنظيم عند زريق تنظيماً اقتصادياً خاصاً أو غيره، وإنما اتخذ معنى أبعد وأعرض؛ إذ هو التنظيم الساري من المصانع إلى العقول والمتجلي في السياسة والاجتماع والثقافة، والآيل عن العلم. ما

(٢٠) «The Challenge,» 1948.

(٢١) مقابلة في الخليج، ١٠/١٢/١٩٩٩.

العلم هنا إلاّ البحث الدائم عن الحقيقة، والشك اليقظ فيما لا يوافق العقل، والاستنتاج الصحيح والمنطق السليم، والتواضع أمام المجهول والاتزان العقلي. وهذه الأمور كلها وجدها زريق ضعيفة الأثر لدينا، ذوي الثقافة التي يطغى عليها الطابع الأدبي (الأعمال، ص ٧٧ ـ ٧٨).

* * *

يتضافر التنظيم مع العلم والاقتدار والاستحقاق في سياق بناء القومية، ولا تنفك القومية عن زمن الحداثة. تخلى زريق تخلياً تاماً عن بعض مطالب التصور الرومانسي للقومية، وخصوصاً تلك التي تربط القومية ربطاً أحادياً بالتراث وبسابق التاريخ، وتجعل منها زهاء ومجداً صادرين عن روح الأمة المتجلية في التاريخ منبثقاً منه انبثاقاً يشاكل القوانين الطبيعية. وربط زريق بين الاستحقاق والاقتدار على صورة تاريخية، جاعلاً منهما استحقاقات لا تتم إلاّ بالتقدم وبالترقي وبالاندراج في زمن الحضارة الحديثة بعد مغادرة الزمن السابق عليها. ولمّا كانت القومية نتيجة إنجاز تاريخي وليست تحصيل حاصل سبق، فإنه لو افترض لها وجوداً اليوم، فإن هذا الوجود قائم في حالة الكمون وبالقوة لا بالفعل. وهو لذلك آثر عدم استخدام عبارة «الوطن العربي»، بل آثر عليها عبارة «المجتمع العربي»، لأن الوطن العربي ليس متحققاً كوطن واحد، وإنما هو وطن بالقوة، وهو بنحوه النحو القومي إنما ينحو إلى البقاء والفعل والعطاء، فليست القومية «سدرة المنتهى» بل سبيل التقدم الحضاري المتمثل في اكتساب قيم الرقي (الأعمال، المقدمة، ص ٣٦ ـ ٣٧).

إذاً، القومية ظاهرة مرتبطة بالحداثة، لم تنشأ منذ الأزل وقد لا تستمر بشكلها الحالي إلى الأبد، وإن ما تفيده هو الحضارة الحديثة (الأعمال، المقدمة، ص ٣٠ ـ ٣١)، ولو كان من الممكن أن تستمد من التراث بعض ما فيه من عناصر التقدم (الأعمال، ص ٢٩٨). ولمّا لم تكن الموضوعة الأخيرة هذه مشفوعة، في هذا النص أو في غيره، بسبر تأريخي لمواقع التراث الفعلية من العالم العربي المعاصر، الاجتماعية والثقافية وغيرهما، لا ينبغي لنا إلاّ الاستنتاج أنها ـ أي هذه المقالة ـ مقالة خطابية، فاعلة على صعيد الرمز التاريخي فقط. وإن ارتباطها بالحداثة ليس ارتباطاً بهذا المؤشر أو ذاك مما يدل على الحداثة فحسب، بل بالحداثة بصفتها سمة الحضارة المعاصرة. إلى هذا الحد يمكن القول إن نظرية زريق في القومية نظرة تاريخية. لكن النظرة التاريخية في أي موضوع من الموضوعات تختلف في منطلقها ومآلها ومعناها. وعليه، علينا التساؤل عن التاريخ الذي تندرج فيه نظرية الحداثة ـ والنظرة إلى القومية داخل ثنايا الحداثة ـ التي اعتمدها زريق في تنظيره للقومية

وتشخيصه لعدم كفايتها لدى العرب، واقتراحه الحلول لهذا الوضع الذي بدا له مأزوماً ومنغلقاً، والذي يبدو بعد وفاته مغرقاً في التأزم والانغلاق.

سيكون مبتدؤنا في سبر موضوع نقاشنا ـ علام يدور التاريخ، وما مناطه، وما الذي يؤرخ له في سياق تتبع شأن القومية في سياق الحداثة؟ ـ نهايات هذا التاريخ. ولا نعني بالنهايات وضعاً يتسم بالانغلاق على تمام واكتمال، فهما غير متاحين في التاريخ، بل نقصد بهذه النهايات: الحداثة، أي الطور الحالي من الحضارة العالمية، الذي علينا الاندراج فيه. وللحداثة أو للحضارة في طورها الأعلى المتحقق اليوم، على ما رأى زريق، جملة سمات تشكل «روحاً» لهذه الحضارة وتسم عصرها بسمات هذه الروح، وتشكل جماع ما تراكم من إبداع حضاري على مر العصور كافة.

وللحداثة اسم آخر، متموضع سياسياً وجغرافياً، هو «الغرب»، ولو لم يقتصر الغرب، كما رأينا، على ما يقع إلى الغرب منا. لم ينفرد زريق في محاولة الاقتداء بالغرب وبإنجازاته الحضارية من علمية وأدبية وسياسية وفنية، بل إن هذا التوجه ما فتئ يسم قطاعات غالبة من الفكر العربي منذ عصر النهضة ويحفزها على الأخذ بأسباب التمدن الحديث، من بطرس البستاني ومحمد عبده إلى اليوم، ولو تقوّت في المجتمعات العربية مؤخراً دعوات الأصالة والتقوقع وازدراء الواقع وإيثار النبرة الخطابية على تلمس العيان. وبهذا المعنى، كان زريق ممثلاً فصيحاً لعصره ولمجايليه في المشرق، ممن تقاطعت حياتهم مع حياته ومنشوراتهم مع ما نشر، وممن لم تربطهم بالغرب علاقة عصابية قائمة على مركب نقص: كمجلتي الطليعة والثقافة في دمشق، ومجلة الحديث في حلب، وأمثال محمد كامل عياد وجميل صليبا ورئيف خوري، بناء على تراث قريب مثّله عبد الرحمن الشهبندر ومحمد كرد علي في مجلته المقتبس. فكان الغرب بالمعنى الذي أخذه زريق وغيره كأنه مختبر الحداثة المتعين، من دون أن يكون مجالها الوحيد.

لكن للغرب أيضاً مفهوماً سياسياً، وخصوصاً في فترة الحرب الباردة. فهو مثال الاستعمار والاستغلال وتأييد الكيان الصهيوني وازدراء الشعوب المتخلفة، وكانت ـ وما زالت ـ العالمية التي ينادي بها بالغة الالتباس، «كائلة بمكيالين» كما يقال اليوم جرياً على تعبير الإنجيل. وقد كان زريق ـ كما كان غيره ـ متنبهاً إلى هذا الأمر غاية التنبه، رائياً إمكان استحواذ الغرب، بمعناه السياسي، على معاني العالمية وتسييسها، ومتخوفاً من ذلك، حتى في إطار المؤسسات الثقافية.[٢٢] فهو قد نعى على الغرب السياسي عدم قدرته على تقدير الآخرين، ومعاملتهم بصفتهم أدوات سياسية

(٢٢) «كيف أنظر إلى الأونسكو»، ١٩٤٨.

الأمر الذي من شأنه أن يغلب النزعات المعادية للغرب، المتوسلة الماضي بدلاً من الانطلاق نحو الحداثة استجابة لهذا الوضع، وأن يقوض إمكانات الترقي التي عملت عليها أجيال من العرب.[٢٣] لكن المعلوم أن زريقاً آثر ألاّ يتقصى بدقة العلاقة بين السياسة والثقافة، بل أن يعتبر الأولى ـ ضمناً ـ أنها من الأعراض الطارئة على الحضارات. وهو بذلك توسل عودة الغرب إلى قيمه الأصيلة، إلى القيم الأصيلة للحداثة، رداً على هذا الوضع، وإعادة الاعتبار للروحانيات والمعنويات على الماديات، وعلى رأسها القيم الأخلاقية والجمالية الدينية «الصحيحة»، معيناً للعالمية الحقة.[٢٤]

تتركز النظرة الحضارية، إذاً، على القيم في المقام الأول، وتتقصد النظر إلى لباب الحضارات واستيحاء قيمها الخلقية والجمالية، بحيث يكون للأخيرة هذه السيطرة على القيم التقنية والنفعية للحضارة، كي يتم «التقابل الحضاري الجوهري» بدلاً من أن تبقى العلاقات الحضارية «خارجية» و«سلبية» (الأعمال، ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨)، أي بنزعها من التقوّم بالاقتصاد السياسي الرأسمالي. على أن الازدراء النسبي للسياسة هذا، والتعالي عليها، ليس مستفاداً فقط من اتجاه ثقافوي أخذ به زريق منذ أواخر الأربعينات، ولا يمكن أن يدرج كلياً في باب «تحصين» القومية على ما قلنا في مطالع هذا الفصل، بل تقوّم في كلام زريق بنظرية معينة للحضارة وللحداثة.

والمعروف أن زريقاً عالج قضية الحضارة في كتابات شتى، على رأسها في معركة الحضارة المنشور سنة ١٩٦٤. قدم زريق في هذا الكتاب، وللمرة الأولى والأخيرة باللغة العربية،[٢٥] عرضاً شاملاً ومستفيضاً لمفاهيم الحضارة والنظريات التاريخية فيها، من تعريفاتها إلى تجلياتها ومقوماتها، إلى مسألة التغيرات الحضارية التقدمية والتراجعية والدورية، وظاهرة التراكم والتشابه الحضاريين، جرياً إلى تفاعل الحضارات، وانتهاء بمقاييس التحضر والتقدم وموقع الشعوب العربية من ذلك. وإن في هذا الكتاب من المادة التثقيفية والتحليلية ما يجعله مرجعاً في موضوعه. إلاّ إن ما يهمنا في هذا السياق هو استجلاء بعض النقاط التي تعيننا على تفهم مواقف زريق الخاصة بالموضوعات التي شغلت فكره، وعلى رأسها المواقف القيمية من التحضر والتخلف وصلة ذلك بتحليله الأوضاع العربية، وقوام القومية العربية ومآلها

(٢٣) «Conditions,» 1959, p. 25; «Problems of the Arab World,» 1945.

(٢٤) «Conditions,» op. cit., p. 28.

(٢٥) هذا إن استثنينا كتاب حسين مؤنس، الحضارة (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ١، ١٩٧٨).

على وجه التحديد.

فقد قال زريق إن الهدف من الكتاب الانطلاق من البرج العاجي وما يتيحه هذا البرج من مجالات للتفكر والاعتبار، في سبيل «استجلاء مفهوم الحضارة، ومحاولة إدراك جوهرها ومقوماتها والتغيرات التي تطرأ عليها، وتبيّن الأثر الذي يحدثه هذا الإدراك والاستجلاء في سعينا الحاضر، وفي وعينا لماضينا وإعدادنا لمستقبلنا» (الأعمال، ص ٧٠١). والحال أن جدل الخصوصية الحضارية مع دعواها التفرد والتميز المطلقين لكل حضارة، وإنسانية الحضارة باعتبارها وحدة تراكمية تشمل تواريخ الشعوب والأمم والحضارات جميعاً، كان مناط تحري مفهوم الحضارة لديه، على اعتبار أن هاتين الصورتين معاً، كانتا ـ وما زالتا ـ ساريتين في الفكر البشري على مر العصور، وخصوصاً فكرة الوحدة البشرية في الأديان التوحيدية، ونظريات التطور المنطوية على شيء من النزعة الحتمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من جهة، ونظريات التعدد المتأثرة بالرومنطيقية وبالحركات القومية، والمتمثلة بشبنغلر (ذي الحظوة في العالم العربي، كونه مؤلف انحطاط الغرب) وتوينبي وسوروكين ودانيلفسكي (الأعمال، ص ٧٣٠ وما يليها). والحال أن المسألة الأساسية التي تبرز في هذا السياق، هي مسألة وحدة الإنسانية أو تباعد الأمم والحضارات بعضها عن بعض تباعد الفصائل الحيوانية، على ما يريد أصحاب مفهوم «الأصالة». وقد تأمل زريق في هذا الأمر، ووازن على سجيته بين المواقف المتعددة، واتخذ موقفاً وسطاً بين هذا الموقف العام وذاك، موقفاً لعله «يكون جامعاً للقولين معاً» (الأعمال، ص ٧٤٤)، من أن الإنسانية تطلع مستقبلي ومثال لم يتحقق بعد، مع وجود وسائل التحقق، وعلى رأسها العلم وتطلع الشعوب إلى الانعتاق من قيود الماضي. فوجد إنسانية الحضارات في تشابه ناجم عن كونها جميعاً إنسانية، وأن افتراقها وتميزها بعضها من بعض شأن واقع، ولو لم يشأ أن يرفع بهذا الموقف إلى ما ذهب إليه شبنغلر من أن تمايز الحضارات تمايز كلي شامل، الأمر الذي يؤدي إلى نظرية نسبية في الحضارة تعتبرها على مثال الكائنات العضوية التي تحيا وتموت وتتقاتل من دون أن تتداخل على نحو جوهري (الأعمال، ص ٧٣٨، ٧٤٢).

إلى هذا الموقف الجامع بين النظرية الرومنطيقية من الحضارة وبين عنصر مخفف لها أثراً وصرامة مفهومية، عنصر التاريخية والأمل النهضوي، أضاف زريق اعتبار صور التحول والتغير الحضاريين، الصور التقدمية والتراجعية واللولبية (الأعمال، ص ٧٩٥ وما يليها)، من أجل مزيد من الرصد لقضية الوحدة الحضارية في التاريخ. وفي صدد هذه المسألة، كما في صدد سابقتها، أحجم زريق عن اتخاذ موقف فاصل ـ كشأن الأعمال الجامعية الأنكلوسكسونية خاصة ـ لتضارب الدلائل

وعدم كفاية المعارف، ولنفور يبدو أنه كان غريزياً لديه من كل تعليل أحدي للظواهر الحضارية، وخصوصاً النظريات الحتمية في التاريخ التي ترى للتاريخ وجهة معينة ضرورية (الأعمال، ص ٨١٠، ٨٣١ ـ ٨٣٣)، وهي النظرة التي كان قد خص اهتمام الماركسية بها بنقد أكيد في كتابه نحن والتاريخ، على اعتبار أنها تنفي الفعل عن الإنسان (الأعمال، ص ٤٥٩ ـ ٤٦١، ١١١١ ـ ١١١٢).

لكن زريقاً على الرغم من نفوره في المواقف الحتمية رأى ـ جرياً على أسلوبه المتزن والمرن وغير الجازم ـ ضرورة تفادي النسبية، التي تنفي عن التاريخ البشري صفة التراكم التقدمي (الأعمال، ص ٤٦٢)، وخصوصاً على صعيد القيم. ولذلك فإنه عندما تناول بالبحث مفاهيم الحضارة، وصنف الأقوال في الموضوع إلى القول الوصفي الذي يقصد به مجموع الحياة من قيم ونظم حكم وأساليب المعاش وعلاقات اجتماعية ومعارف وقواعد سلوكية، وإلى القول التقويمي الذي يتجه إلى استخدام القيم المتضمنة في الحضارة سبيلاً للمقارنة بين الحضارات، وللممايزة بينها ولإطلاق الحكم على الدور الذي تمر به ـ عندما اعتبر هذين القولين، آثر ألاّ يؤيد الجانب الوصفي الأنثروبولوجي، وأن يتجه في المقارنات والأحكام إلى سبر «خصائص التقدم والرقي» (الأعمال، ص ٧٠٣ وما يليها، ٧٢١). ذلك بأن مناط النظر في الحضارة لدى زريق، كما رأينا، كان ناجماً عن نظرية تقويمية مقارنة بين تخلفنا وتمدنهم، وعن الذهاب إلى ضرورة أخذنا بأسباب التمدن في سبيل صنع الاقتدار والاستحقاق الحضاريين، وتالياً القوميين. فما تراثنا الحضاري نحن، على شاكلة كل تراث حضاري، إلاّ «خلاصة ما بلغنا من مكاسب وتحقيقات في سبيل الحياة الفاضلة»، وعلى رأسه التحرر من قيود الطبيعة ومن تحكم الناس في الناس، فيما اعتبره مسيرة مستمرة من شريعة حمورابي، مروراً بشرائع الأنبياء، إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (الأعمال، ص ٦٠٤ ـ ٦٠٥). وإن ما يجعل من هذه الشرائع المتعددة التاريخ والمنشأ مساراً تراكمياً، هو الصفة الإنسانية، إذ إن كل تراث حضاري قومي تراث إنساني، وقادر بذلك على التلاقي والتعاطف مع تراث الحضارات الأخرى (الأعمال، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧).

أمّا مناط التمايز بين الحضارات، فهو ما تتقوم به كل حضارة من نظام وقيم مؤدية إلى تمايزات بين الأديان واللغات وغيرها من العناصر المميزة، ويتقوم هذا القوام بدوره بـ «طابع غالب» يجب التحفظ والتحوط وعدم الاستسهال في تحديده، يتكون من مفهوم شامل للحياة يحدد معاني «الحقيقة والخير والجمال» (الأعمال، ص ٧٧٣ وما يليها، ٧٨٢ وما يليها، ٧٨٨، ٧٩٠). ولئن احتوت هذه النظرة على عناصر تمكن تأديتها في سياق النظريات الرومانسية في التفرد الحضاري، إلاّ إن هذا

«الطابع الغالب» على هذا التصور يخضع لتحوط ينفي عنه صفة الإطلاق ويجعل منه موضعاً للأخذ والرد بحسب الحال، وخصوصاً للرد على دعاوى الانغلاق الحضاري. ولذلك فإن زريقاً يتحفظ من استخدام عبارة بالغة الذيوع والتداول، عبارة «الشخصية الحضارية» (الأعمال، ص ٧٨١)، التي تفيد الثبات عبر الزمن وامتناع التداخل والتفاعل في الآن.

ولمّا كانت الحضارات مظاهر بشرية اكتسابية تتعدى الطبيعة البدائية والوراثة الجنسية الخالصة، وذلك لكون الإنسان فاعلاً، مكتسباً للعادات والقيم والفضائل والقوانين وأنواع التنظيم عن طريق الفعل الذي تتشابك فيه الأمور المادية والأمور الروحية (الأعمال، ص ٧٤٩ وما يليها)، فإن معيار الممايزة القيمية بين الحضارات يكمن في درجة حضارية وتمدن ما اكتُسب. في هذا التفكير شيء من الدور من دون شك، إلاّ إن المناط، كما رأينا، يتناول تمايز الحضارة العالمية الحالية من التخلف ما قبل القومي. وإن مقياس الحضارة، إن نظرنا إلى اليوم أو إلى فترة تاريخية ولت، يتكون في الأساس من مؤشرات متعلقة بمعنى الحضارة بوصفها اكتساباً وخروجاً على الطبيعة: القدرة التقنية، والقدرة النظرية، والإبداع والتحرر (الأعمال، ص ٨٦٩ وما يليها). وإن زريقاً يمزج بين النظرة التاريخية إلى الحضارة بوصفها تراكماً، وبين النظرة القيمية إليها بوصفها جماع إنجازات ومقدرات، عندما يقرر أن الاختلاف الأساسي بين الحضارة العربية الإسلامية (الآتية من الماضي) والحضارة الغربية الحديثة (المتجهة نحو المستقبل والواسمة لليوم) يتموضع في مؤشرات بالغة التعين: يتموضع في اختلاف النظرة إلى طبيعة الكون، بين نظرة متجهة إلى أعلى ترى في الكون إبداعاً إلهياً وفي سبل التوصل إلى الحقيقة طرقاً استنها الله، ونظرة ترى للطبيعة «استقلالاً نسبياً» ـ وربما استخدمت عبارة «النسبية» مجاملة ـ وترى في أساليب التوصل إلى المعرفة أساليب التجربة والاعتبار العقلي الصرف.[٢٦]

نرى في هذه النظرة مفهوماً للانغلاق النسبي للحضارات على عقلياتها، مما هو مستفاد من مفهوم في التمايز الحضاري يفيد شيئاً من الانغلاق، مع كل التحفظ الممكن، وخالياً من اعتبار أساسي لتواريخ الحضارات في وقائعها المتعينة التي تفيد تمايزات داخل «الحضارات» نفسها، كالانشطارات الثقافية والاجتماعية والحضارية القائمة في العالم العربي وفي العالم الغربي في آن واحد. وتؤدي هذه النظرة إلى عزو وحدة داخلية إلى كل من الوحدات الحضارية، وإلى تجانس داخلي فيها أطلق عليه زريق عبارة «الطابع الغالب»، الأمر الذي قد يجافي التاريخ في كثير من

(٢٦) «المسائل الرئيسية التي تتعرض لها الدراسة الحضارية»، ١٩/٣/١٩٧٩.

الأحيان. ولعل أفضل مثال لذلك، عزوه إلى الحضارة الغربية تجانساً واستمرارية جوهريين في نصاب الماهية الحضارية الذي تشكله الفلسفة. إذ رأى أن وراء علم الغرب فلسفة الغرب، و«في الفلسفة تجتمع شتى التيارات الفكرية والعاطفية وتتجه كلها نحو هدف واحد في نسق واحد»، بحيث وجد أن ثمة «اتفاقاً جوهرياً ووحدة روحية» و«منبعاً أصلياً» يمد التيارات التي يمثلها أرسطو وأفلاطون وأوغسطين وديكارت وكانط ونيتشه وهيغل (الأعمال، ص ٧٨)،[٢٧] وهي التيارات التي نراها في تاريخها المتعيّن متطاحنة ومتنافرة تنافراً بيّناً مؤدياً في بعض الأحيان إلى تناطح أيديولوجي مؤد إلى حروب. ولعلنا نفيد من الإشارة في هذا المقام، إلى أنه في تقويمه للنظريات في الحضارة، نجد زريقاً أكثر ميلاً إلى النظريات الرومانسية المقترنة باسمي شبنغلر ودانيلفسكي ـ مع التحفظ المعهود لديه ـ مع إهمال نسبي لفكر عصر الأنوار وتراثه الذي نادراً ما استخدمه أو أشار إليه في كلامه بشأن التقويم الحضاري. وفي ذلك رابط بين كلامه في التاريخ وفي الحضارة، وبين كلامه في القومية في مرحلة سابقة من حياته وفكره.

ولذلك، فإن زريقاً عندما تكلم عن الحضارة الغربية، أو بالأحرى عن الحضارة الحديثة، لم يكتف بالحديث عن الإقبال على الدنيا، واختفاء النظرة الماورائية، والتحول عن الوحي إلى العقل، واتخاذ الإنسان غاية كبرى، باعتبار أن هذه سمات القيم الفلسفية الكبرى المشكّلة «الطابع الغالب» على هذه الحضارة فحسب، بل نراه توسل المجاز الإسمي الذي عممه شبنغلر عندما وسم حضارة الغرب بأنها «حضارة بروميثية» (الأعمال، ص ١٠٧٥). فجاء مزيج الصوفية الرومانسية الثورية والعقلانية الحديثة لديه[٢٨] رافعة لأمل القومية العربية من دور إلى دور أسمى، من دور العجز إلى دور الاقتدار، متوسلاً العلم والتنظيم، ممثلاً إياهما في صورة بروميثيوس، وجاعلاً هذه القومية، أو بالأحرى هذا التطلع إلى القومية، على صورة تجسير الفوات بين حضارتين، والانتقال من الواحدة إلى الأُخرى، بحيث نجعل «الممكن ضرورياً».[٢٩] وإن كان للعرب تجاوز النكبة، فعليهم الأخذ بما دعاه سنة ١٩٦٥ «علم النكبة» (الأعمال، ص ١٦٦٧ ـ ١٦٧٠).

ترتبط على هذا النحو، إذاً، قضية اقتران القومية بالحداثة، فتنقل القضية من

(٢٧) أنظر ملاحظات رئيف خوري، معالم الوعي القومي (بيروت: دار المكشوف، ١٩٤١)، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٢٨) كريم مروة، «ظاهرة قسطنطين زريق في أفكاره وفي تحولاته»، الطريق، ٦٠/ ٤ (٢٠٠١)، ص ٨٥.

(٢٩) *L'Orient*, 3/2/1969.

مجال السياسة والمجتمع إلى مقام الحضارة. إلاّ إن زريقاً وجد بعد فترة التأمل المتفائل نسبياً التي تكلمنا عنها، أن تغيرات العالم المعاصر تتسارع على نحو لا ينطوي على «تقدم حتمي وتحسن مطلق» قدر انطوائه على «توسيع وتعقيد»: توسيع للإمكانات والفرص، وتعقيد للمشكلات والأخطار التي على الشعوب أن تجابهها، على مزيد من الخير ومزيد من الشر في آن واحد (الأعمال، ص ١١٦٧). وهو ولئن أثنى على بني جلدته التقدم الذي أحرز في العقود الأخيرة، كالتخلص من الحكم الأجنبي وتنمية الموارد الزراعية والبشرية ومكافحة الآفات الجسدية والعقلية، إلاّ إنه رأى أن ذلك يبهت أمام الخسائر الناتجة من معارك خارجية وداخلية، ومن فساد الأنظمة السياسية المحافظة المتخلفة والثورية المزيفة، والهدر، والتفتت المتنامي (الأعمال، المقدمة، ص ٢٤ ـ ٢٥). ووجد زريق أن القوميات الحديثة في الغرب انتهجت سبيل الاستعمار وانصرفت عن مقاصد التحرر وتطبيق المبادئ الإنسانية. كما وجد أن ثمة عودة على نطاق عالمي إلى النزعات السابقة للقومية، كالقبلية والعرقية والدينية والطائفية، يجب استيعابها في أشكال سياسية جديدة لا تتخلى عن القومية، وخصوصاً لدى الأمم المتخلفة، باعتبار القومية الجامعة لديها «نظاماً واقياً» ساعياً للتغلب على النزعات المفرقة في المجتمع (الأعمال، المقدمة، ص ٣٣). وقد وجدَنا زريق، نحن معشر العرب، في وضع ما قبل صناعي، وفي وقت يشهد إطلالات الطور ما بعد الصناعي، وارتفاعاً في شأن المعرفة التقنية من دون المعرفة العلمية، وثورة الاتصالات، وتصاعد قدر الكفاءة الإنسانية (الأعمال، ص ١١٥٠ وما يليها، ١١٥٨ وما يليها). ووجد على ذلك فارقاً متصاعداً بين التقدم التقني والتقدم العقلاني والخلقي، وتبايناً بين الأدوات التقنية والمعرفية وبين تفهم الغايات الحضارية والإنسانية الكبرى، بل واعتبار هذه التطورات مما من شأنه أن يطلق من عنان القوى الاقتصادية والسياسية من دون رادع أو وازع، يرتدي «البدائية الحديثة الأشد عنفاً وخطراً من سوابقها» (الأعمال، المقدمة، ص ٢٢ ـ ٢٣). فما كانت الهمجية أبداً بغائبة عن التاريخ البشري، وليس ثمة حد فاصل بين الحياتين البدائية والمتحضرة، إذ إن الحياة «دفق متصل لا يعرف الحدود والسدود»، وكثر ما كان التحضر طبقة رقيقة، «فإذا حككتها انكشفت لك الطبيعة الإنسانية الأولية بنزعاتها وشهواتها وبدائيتها ـ بل لنقل بهمجيتها ـ كأن الجهد الحضاري المتتابع لم يفعل بها شيئاً. كثيراً ما تختلط الحضارة والهمجية في الشخص الواحد وفي المجتمع الواحد» (الأعمال، ص ٧٢٥)؛ وكانت من مظاهر الهمجية لديه الاستغلال والاستعمار والعنف والقتل الجماعي.[٣٠]

(٣٠) «حول مفاهيم الحضارة»، ١٩٧٨.

وعلى ذلك، أصبح التقدم المادي محل تحر ونقد - من إهدار الموارد وتضخم المدن وتلويث البيئة وتضاؤل نزعة التفاؤل وازدياد الاغتراب وازدياد البون والفجوات بين العالم المتخلف والعالم المتقدم، وازدياد الانقلابات والثورات (الأعمال، ص ١٠٩٠ وما يليها)، إضافة إلى الحروب والمنازعات والطاقة التدميرية الهائلة التي تهدر في سبيلها الموارد. يصبح خيار المستقبل - للعرب ولغير العرب - خياراً بين البقاء والاندثار (الأعمال، ص ١١٩٥ وما يليها) - وهذا في وقت «تفرض» التطورات الاقتصادية والعلمية أن ينطلق العالم في طريق التوحد والعدالة والترقي (الأعمال، المقدمة، ص ٢٣).

في هذا السياق العالمي الذي لم يرتض زريق لنفسه صرفه على التشاؤم، قد تبدو القضية القومية العربية ضئيلة قياساً بعالمية المشكلات والنوائب، بحسب توصيف زريق لها. ولئن لم يرتض زريق لنفسه أن يتناول هذه القضايا العالمية الكبرى استناداً إلى التحليل الشامل، بلغة الاقتصاد السياسي، وإنما انطلق من المؤشرات مباشرة إلى اقتراح الحلول القائمة على الثورة الداخلية وعلى يقظة الضمير المميز الرادع (الأعمال، ص ٥٩٤ - ٥٩٧) - مناط الإنسانية عنده كما رأينا - إلاّ إن هذا لم يمنعه من إثبات أصول النظرة الحضارية التي أخذ بها، والتي أبت إلاّ أن ترى في الحضارة العالمية لباً أو جوهراً ناظماً قادراً على تجاوز الهمجية المستشرية ومطالباً بهذا التجاوز، عن طريق الحركات التحررية والإنماء والمنظمات الدولية ومبدأ الإخاء الإنساني ووحدة العمل والإيمان لدى الأفراد وضرورة حدوث «تحول جذري في الكيان الإنساني» (الأعمال، ص ١٠٢١ وما يليها). أمّا الهمجية الجديدة، فما رأى فيها إلاّ نقائص ومواضع قصور، أو قل حصيلة تضافر صدف ونوائب، من دون انتمائها إلى الديناميات البنيوية الداخلية للحضارة، وكأنها أتت متطفلة بغتة، بل متطاولة على المحمود من التراث البشري وخارجة عن تاريخه. ولذا جاء الجواب عنها بنفسه من خارج سياق الديناميات الحضارية، من عليّ الأخلاق ومن موضع مفارق لها. ليس غريباً والحال كذلك أن يركز زريق على الجانب القيمي والتقويمي في الحضارة، وألاّ يعير اهتماماً يذكر لما أُجري عن الحضارة من دراسات في سياق العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع التاريخي، فلم يتناول أعمال فيبر، ولا تناول أعمال نوربرت إلياس التي تتناول التحضر القيمي من وجهة نظر علم الاجتماع التاريخي. بل كأنه مع إدخاله الظاهرة القومية في الحضارة نراه يخرج الحضارة عن التاريخ.

ومهما يكن الأمر، فإن زريقاً رأى أن هذا التجاوز لتهتك النصاب الحضاري مطلب أكبر من مقدرات الشعوب المقهورة، ومنها العرب، مطلب من الأجدر أن

يوجه أساساً إلى الشعوب المتقدمة القادرة. أمّا الشعوب المقهورة، فما زالت بصدد حماية ذاتها وتكوين شخصيتها (الأعمال، ص ١٢٠٧)، أي تجسير الفجوة الحضارية. فلا إمكان لوعي الحاضر ورؤية المستقبل واستشرافه إلاّ بغلبة الولاء القومي على غيره من الولاءات، ذلك بأن هوية أي فرد أو مجتمع، مرتبطة بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة، وبالتالي بدرجة التطور الحضاري الذي يمكنه من الانتقال من ربط الهوية برواسب الماضي إلى التطلع إلى المستقبل. ولا قدرة للمجتمعات العربية على تحقيق هذا الانتقال إلاّ إن عملت على علمنة الدولة، أي فصل الدين عن الدولة بحيث يستوي المجتمع القومي على قاعدة من المساواة القانونية بين المواطنين (الأعمال، ص ١٢٣٠ - ١٢٣٢). وكأن الهوية القومية التي كان لها أن تتقوم بالأوضاع السائدة، والمتزايدة تعقيداً وخطباً، عليها أن ترى في الدين، وفي الدين الإسلامي على وجه الخصوص، عنصراً واحداً من مقومات القومية من دون أن يكون العنصر الحصري أو الشامل، هذا فضلاً عن كون عبارة «العالم الإسلامي» أوسع كثيراً مما يتحمله الانضباط الإنساني، كعبارة «العالم الكاثوليكي» الذي لا تتوفر له مقومات الوجود الفعلي المتحقق.(٣١)

فإذا كانت حضارة العرب المعاصرين، على ذلك، غير موصوفة كلياً بالدين، وإن كانت في اعتبارات أُخرى لدى زريق موصوفة على نحو طائفي، ما الذي يتعين على العرب فعله؟ بل ما الذي يتعين عليهم فعله بهذه «الحضارة» التي ما زالوا عائشين فيها؟ دأب زريق على تقرير موضع محوري للطليعة الثقافية، رأى أن من واجبها - إن أراد أفرادها شيئاً من الزعامة - أن تترفع عن شهوات الجهلة وعن التنزّل إلى مستواهم بدلاً من أن ترفعهم إلى مقامها، وإلاّ تستسلم للقوى الرجعية في المجتمع،(٣٢) على ما هو جارٍ لدى كثيرين من المثقفين العرب في العقدين الأخيرين في انتحالهم الشعبوية المتوسلة الاستسلام مناطاً للخلاص القومي، وتسنمهم، من دون تفكر مسؤول، ما دعاه زريق «التاريخ العبء». أمّا نقيض ذلك، فهو «التاريخ الحافز»: فإذا كان الأول شالاً للحركة والحيوية معطلاً، كان الثاني حافزاً على الإبداع والتقدم (الأعمال، ص ٥٢٦ وما يليها)؛ فالتاريخ العبء هذا، أي ما دعاه زريق سنة ١٩٥٣ «أفيون التاريخ» (الأعمال، ص ١٦٦٤) قياساً على «أفيون الشعوب» لكارل ماركس، يرمي إلى إيقاف التاريخ وإعادته القهقرى، مسترشداً بصورة عصر ذهبي ماضٍ ما تلاه في التاريخ العالمي إلاّ تدهور وانحطاط - كعصر

(٣١) مقابلة في الخليج، ١٠/١٢/١٩٩٩.
(٣٢) «واجبات المفكر»، ١٩٤٨، ص ٦.

الراشدين أو عصر آباء الكنيسة أو عصر بركليس الأثيني - من دون إدراك سنّة التاريخ المانعة للاستعادات، ومن دون صحة الإحساس بالحاضر والتطلع إلى المستقبل، الأمر الذي يسم العمل التاريخي والحضاري المبدع (الأعمال، ص ٥٠٧ - ٥٠٨، ٥١٠ - ٥١١).

وإن كان لنا أن نمثل لهذا الارتهان بالماضي، وهو ما يعطل الاتجاه نحو معالجة الحاضر والتطلع إلى المستقبل، ما علينا إلاّ الالتفات هنا إلى الحالة الواحدة التي خرج فيها زريق من التعميم إلى التخصيص في كلامه على التراث المعاش، وهي حالة لبنان. ذلك بأن زريقاً يبدو لنا أنه ما انفك يربط الدين بالطائفية، ولهذا جملة عناصر موجبة، منها سكناه في لبنان، ومنها بقاؤه على ولائه لأفكار حقبات سابقة من تاريخ العرب الحديث عندما كان الدين لا يزال يحتل موقعاً هامشياً في الحياة العامة، الأمر الذي جعله يحجم عن النظر إلى تنامي الظاهرة الدينية في العقود الأخيرة على نحو يعتبر الظروف التي آلت عنها والنتائج الواسعة التي قد تؤدي إليها، والتي ما الطائفية منها إلاّ وجهاً واحداً. ففي إطار نظرته في القومية والهيئة الاجتماعية المؤدية إليها، وجد في لبنان نتيجة إلصاق جغرافي أكثر من كونه نتيجة صهر اجتماعي قومي، إلصاقاً أدى إلى ما يدعى في لبنان «محاصصة» في اقتسام المغانم الفردية والطائفية عن طريق الدولة، وإلى تشظ طائفي في النظام التعليمي والمنظمات الشعبية والثقافية والخيرية (الأعمال، ص ٢١١٤ - ٢١١٧). ونهر زريق اللبنانيين بقوله إنه على أي شعب يدعي الحداثة والأخذ بأسباب التمدن أن يتسم بالتماسك الاجتماعي وليس بالانشطار العصبوي، وأنه لو تمسك بالأخير، لا يمكن أن يعتبر شعباً متحضراً.[٣٣] كما دعا مسيحيي لبنان إلى الارتفاع إلى مستوى مسؤوليتهم التاريخية عن ذلك (الأعمال، ص ١٨٦٢). على أن ذلك لم يعن أنه برأ المسلمين من المسؤولية في لبنان وفي إطار العالم العربي كافة، وإنما حثهم على «احتضان الأقلية» في الوقت الذي على هذه الأقلية ألاّ تعادي الأكثرية باللجوء إلى سند سياسي خارجي[٣٤] - والكلام عن لبنان. وكان زريق في أوائل العهد الشهابي قد حث القيادة الجديدة للبنان على إجراء «العمليات الجراحية الاجتماعية» في سبيل «التصافي الصادق المخلص مع الحياة العربية الناهضة.» ودعا الجنرال فؤاد شهاب إلى إعلان مبدأ العلمانية في الدولة، وإزالة عراقيل التزاوج، واعتماد الكفاءة في الوظيفة العامة

(٣٣) مقابلة في السفير، ١٩/٥/١٩٩٤.
(٣٤) سويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧ - ٢٨؛ مقابلة في السفير، ١٩/٥/١٩٩٤؛ الأعمال، ص ١٤٧٥ - ١٤٧٦.

بدلاً من المحاصصة الطائفية فيها، وتشجيع المؤسسات اللاطائفية الاجتماعية والثقافية «بالترغيب والترهيب». وكل ذلك في معرض تكوين مجتمع مندمج داخلياً متوائماً مع التوجه القومي العربي الذي دعا إليه زريق.[٣٥]

أمّا في المنظار القومي المتطلع إلى المستقبل، فإن للقضية تفصيلاً آخر، إذ إن الكلام يدور، ليس عن علاقة المسيحية بالإسلام - الأمر الذي قد يتطلبه منظور للحضارة ينسب إليها الانغلاق - بل عن العلاقة «بين الرجعيين والتحرريين في هذا الجانب وذاك» (الأعمال، ص ١٤٧٢). فالطائفية من رواسب التاريخ، التاريخ العبء، ويكمن الخيار للبنانيين بين متابعة المسيرة الماضية، والإقبال على الحياة الحاضرة والانصراف عن الانشغال بما يحلو للبعض أن يراه ماضياً مستمراً، كما قال زريق في نص بيان أعده للنشر في أيلول/سبتمبر ١٩٧٦، وصرف النظر عن نشره لعدم توفر من رضي بتوقيعه من المنطقة الشرقية من بيروت.[٣٦]

* * *

بهذه الإحالة على التاريخ المستمر، أي على الحضارة الفائتة في صورة متعينة من صورها، وهي صورة ليست كثيرة الحضور في أعمال زريق عن التاريخ والحضارة إلاّ في شكل ضرب المثال، من دون المعالجة المنهجية، نعود إلى التاريخ الذي أتينا إلى ذكره ومساءلته في مطالع هذا الفصل، عندما تساءلنا عن ماهية التاريخ الذي اهتم به زريق، وعلى أي تاريخ يحيل، وعن الوحدات التاريخية التي تكلم عنها. ولئن قال زريق إن اهتمامه بقضايا التاريخ الحضارية متأت عن اتجاه مهني، كونه أستاذاً للتاريخ، وأحجم عن الربط بين اهتماماته الفكرية العامة والأوضاع السياسية التي قامت فيها،[٣٧] إلاّ إننا رأينا ارتباطاً أكيداً لديه بين الاهتمام بالشأن التاريخي وبالشأن الحضاري، وبين السياسة بمعناها العام، على ما في هذا العموم من تركيز على الأمور القيمية والتربوية. بل إن زريقاً طرح جملة من المسائل التي لا جواب نظرياً ولا تاريخياً عنها، وإنما الإجابة عنها سياسية، كما وجدنا في كلامه بشأن لبنان: فقد سأل التراث، ودعانا - وبعضنا يستوحي التاريخ، وهو على ذلك من عوامل نهضتنا -

(٣٥) رؤوس أقلام قدمت للرئيس فؤاد شهاب بناء على طلب من الشيخ فؤاد حبيش، أيلول/سبتمبر ١٩٥٨ (أوراق الدكتور زريق). قارن زريق، «من معاني الأزمة اللبنانية»، العلوم، ٣/٨/١٩٥٨، ص ٥ - ٨، ٦٣ و٣/٩/١٩٥٨، ص ٧ - ١١، ٥١.
(٣٦) أوراق الدكتور زريق.
(٣٧) شرارة، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٣ - ١٣٤.

إلى أن تكون عودتنا إليه عودة «متبصرة؛ يهديها العقل»، فارزة إياه إلى ما يجب الحرص عليه، والبناء على أساس منه، وإلى ما يجب أن يطرح جانباً، وأن نتخطاه إلى الأفضل (الأعمال، ص ٣٨٢).

على أن جدل الاستمرار والتخطي، لم يحظ من زريق بالعناية المنهجية اللازمة، الأمر الذي يتطلب العناية بالسياسة وبالاجتماع وبالتاريخ، بمعناه الحِرَفي الصناعي، وإنما بقي التاريخ عنده في هذا السياق نظرة إلى التاريخ، لا استقراء له يتحقق مما هو باق ومما قد اندرس منه. ولعل هذا الأمر متعلق بنظرة ثقافوية وقيمية، بل نظرة كتبية إلى التراث، إضافة إلى الرومانسية وإلى هاجس الترميز والاستنهاض الغالبين على «التاريخ الحافز». فقد رأينا أن التاريخ لدى زريق تاريخ للحضارات وليس تاريخاً للقوميات، وكأنه بقي نصاباً رمزياً أو سياسياً نفي عنه الطابع السياسي، يدرج القومية في خانة عريضة هي الحضارة في طورها الحديث، ويدرج النظر في الحضارة في سياق النظر ـ السياسي ـ المنطلق إلى الحداثة باعتبارها قواماً معيارياً في المصاف الأول. وبذلك فإننا نرى أن محاكمته للوضع التاريخي لعرب القرن العشرين، كانت محاكمة قامت بقاموس المذهب التطوري التاريخي بثنائياتها، كالفصل بين القرون الوسطى والعصر الحديث، وبمعياريتها القائمة على العلم والعقلانية.[٣٨] ولئن كان قد ناقض المذهب التطوري في التاريخ هذا، على ما رأينا، ووصمه بالتحتيمية، إلاّ إن هذا النقض وهذا الوصم، جاءا في سياق النظر في النظريات التاريخية الذي مارسه بصفته مؤرخاً وعالماً، لا في سياق الخطاب النهضوي الذي أسس مفاعيل خطابه السياسي والثقافي العام، أي في سياق صناعة التأريخ وليس في سياق صنع التاريخ، وفي سياق علم النكبة، لا في سياق «معنى» النكبة. في هذا الأمر إلغاء لسؤال «ما هو الماضي؟» واستبداله بسؤال «ما هو العلم الذي يفسر لنا ما هو الماضي؟»، أي الانتقال من الرغبة إلى المعرفة[٣٩] ـ على التنازع بين هذه وتلك الذي رأيناه واسماً لموقفه من الحضارة باعتبارها تاريخاً فاعلاً وباعتبارها تعالياً على التاريخ في آن واحد، وعلى انشطار هذه النظرة بين وجهها النظري التأملي، ووجهها الحركي.

فكأننا بالتأمل يعاند الحركة، وبالحركة تمانع بغية هذا التأمل. وكأننا بالسؤال

(٣٨) وجيه كوثراني، «الفكر التاريخي في دعوة قسطنطين زريق: 'نحن والتاريخ' ما قبل وما بعد»، في: وجيه كوثراني، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠)، ص ١٧٢.

(٣٩) دراج، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.

النهضوي غير واجد الإجابة في الواقع المتحقق، وبهذا الواقع المتحقق غير مستجيب للسؤال النهضوي اللاتاريخي: لماذا تخلفنا، ولماذا تقدموا، ولماذا استعصى علينا الترقي بعد وعينا للتقدم والتخلف؟ لا إجابة عن هذا السؤال إن وضعنا كلاً منهما ـ أي التقدم والتخلف ـ فيما وراء دينامية التاريخ الداخلية غير العابئة باعتبار المؤشرات والعلامات الصرفة على التقدم وعلى التخلف، وإلاّ إن أدرجناهما في حركة التاريخ الواقعية التي لا توصيف شافياً لها إلاّ في سياق علم اجتماع التاريخ، الوحيد القادر على الإلمام بـ «الذات» وبالقوام القومي فيما يتجاوز الكلام عن الموروث، وعن التكنية عن الذات بـ «التراث» أو بـ «التخلف»، والتكنية عن الآخر بـ «التقدم».

الفصل الرابع

مطالب الصناعة التاريخية

رأينا في ختام الفصل السابق انشطاراً ما في موقف زريق من التاريخ. إذ على الرغم من مبدأ الوحدة العضوية بين الفكر والعمل الذي لازمه منذ شبابه، ذلك المبدأ الذي ترجمه في فكره اللاحق بالدعوة إلى توسل العلم والمعرفة ـ ومنهما العلم والمعرفة بالتاريخ ـ سبيلاً إلى الجدارة والاستحقاق التاريخيين، فإنه تناول صناعة التأريخ، أي العلم بالتاريخ، وصنع التاريخ، أي الإلمام بالشروط العملية للترقي والاندراج في مجرى تاريخ فات على العرب، باعتبارهما نصابين متمايزين. لم يكن تمايز النصابين المذكورين تمايزاً قال به زريق، ولو أن الأخذ الضمني به غلب على معالجاته التفصيلية للأمور التي تناولها في سياق كلامه عن الحضارة والتاريخ، الغلبة التي رأيناها بيّنة عندما يتحفظ ويتحوط وهو يراقب نفسه مبالغاً في هذا الاتجاه أو ذاك، من دون أن يكون للتحفظ والتحوط هذين أثر في تسلسل أفكاره يتجاوز إعلان التحوط والتحفظ. وقد لمّحنا غير مرة إلى أن التوتر هذا الذي يسم مواقفه من التاريخ والحضارة ـ بين الفهم التراكمي والفهم الانفصالي للحضارات، بين الفهم الإنساني الشامل والفهم الأقوامي، والمراوحة بينهما ـ عائد إلى الرغبة في مزاوجة الوصل بين العرب والعالم في تاريخ بشري عام، والفصل الذي يتيح للعرب التطلع إلى التقدم من موقع التخلف الأكيد الذي يسم حاضرهم. ورأينا أن هذا التوتر عائد إلى عدم استجابة واقع التاريخ المتعين لأسئلة النهضة المصاغة على صورة مجردة مرسلة لاتاريخية، تلك الأسئلة التي اتخذت لدى زريق صياغة قومية مناطها قضية الاقتدار والجدارة التي بحث لها عن حلول في العلم والمعرفة المرتبطين برابط الفرض الأخلاقي الواجب على الفكر والعمل معاً.

في إمكاننا القول بناء على ذلك إن فكر زريق كان فكراً عملياً، وإن تصوره الأخلاقي والنهضوي للقومية كان تصوراً عملياً وليس بنظري، وإن أولوية ـ ولا نقول غلبة ـ العمل على النظر تشكّل خطاً ناظماً لحياته ولفكره معاً، بل إن أولوية العمل هذه جعلت من النظر لديه فعلاً في القومية، ابتداء من وحدة العقيدة والتنظيم في الكتاب الأحمر وانتهاء بالكتابة في معركة الحضارة وفي علم المستقبل، على اعتبار أن الموضوعين مندرجان في سياق العمل والتطلع القوميين العربيين. ولا يشذ تناول زريق للتأريخ عما قلنا، ولعلنا نجد في ذلك تفسيراً لما عنته إحدى بناته بقولها إن والدها، على الرغم من كلامه عن العقلانية، «كان مؤرخاً بالغريزة».[1] ولعله في

(١) مقابلة مع السيدة عفاف زريق، ٦/٧/٢٠٠١.

إمكاننا أن نضيف أن الغريزة هذه كانت غريزة أخلاقية ـ قومية لا انفكاك لعنصريها الاثنين أحدهما عن الآخر. فإن التاريخ يفترض مزايا عقلية وينميها، وهذه المزايا العقلية «هي في جوهرها فضائل خلقية» (الأعمال، ص ٤٥٠)، فضائل باعثة على اكتساب مزايا مفضية إلى قدرات على الفعل المعرفي وتالياً القيمي؛ قادرة، إن ربّيت ونمّيت وأتيح لها التراكم والتوسع في المجتمع، على بناء الجدارة والاقتدار القوميين. ذلك مناط الدعوة إلى العلم غير المنفصل عن العمل مبدئياً، لكنه القادر على الانفصال إجرائياً على ما سنرى.

أقر لي زريق غير مرة، كما أقر لغيري،[2] بصحة الانتقاد عليه أنه لم يقدم لعلم التاريخ ما وجب عليه بصفته مؤرخاً، مضيفاً أنه أذكى في طلابه ملكة النظر في التاريخ. والحال أن انشغاله بالفكر القومي أولاً، ثم بالتفكير في القومية في سياق نظريات الحضارة تالياً، حال دونه ودون ممارسة الصناعة التأريخية وهو منصرف إلى صنع التاريخ عملاً ـ عملاً تنظيمياً وتعبوياً ـ ونظراً غير منفك عن متطلبات العمل الذي تطلب، كما رأينا غير مرة في سياق هذا الكتاب، إعداداً عقلياً تربوياً وأخلاقياً دؤوباً. ولئن كان هذا جارياً بموجب «الغريزة» على ما رأينا، إلاّ إن صناعة التأريخ لم تكن غائبة عن نشاطه ومناط معاشه على امتداد الجزء الغالب من حياته العملية بوصفه أستاذاً جامعياً لهذه المادة.

عرف عن زريق التدقيق والتحوط في الشؤون العلمية والإدارية معاً، وهابه الطلاب لشدة تطلبه منهم، وإبداء نفسه ـ في تشدده مع نفسه ـ قدوة لهم، وما كان متساهلاً ولا سخياً في العلامات عن غير استحقاق تام، بل إن بعضهم حاول تأجيل الدراسة بين يديه في المقررين الإجباريين المقررين على طلبة التاريخ في الجامعة الأميركية في الأعوام العشرين الأخيرة من نشاطه الجامعي (فلسفة التاريخ والتفسير التاريخي) إلى أبعد أجل ممكن.[3] ونحن نرى التدقيق والتحوط بيّنين فيما وصل إلينا من تعليقاته على أعمال الآخرين. لدينا جملة من الرسائل التي كتبها إلى رئاسة اللجنة العالمية للتاريخ العلمي والثقافي لليونسكو، التي كان عضواً فيها خلال الفترة

(٢) وضاح شرارة، «حوار مع قسطنطين زريق: هل يكون العرب في صناعة التاريخ من أبناء الماضي أم من أبناء المستقبل»، الفكر العربي، العدد الأول، السنة الأولى، حزيران/يونيو ١٩٧٨، ص ١٢٧.

(٣) مقابلة مع الدكتور عدنان البخيت، عمّان، ١٦/٤/٢٠٠١؛ مقابلة مع السيد غسان تويني، ١٧/٤/٢٠٠٢، وغيرهما من طلبته الذين أجمعوا على ذلك.

١٩٥٠ ـ ١٩٦٩،[4] معترضاً فيها على مقدمة جوليان هكسلي (الذي كان المدير العام الأول لهذه المنظمة عندما أنشئت) لمجموعة الكتب الصادرة عن اللجنة، بدعوى أن لهكسلي آراء بالغة الخصوصية آيلة عن منظور دارويني في التاريخ مما لا يلزم اللجنة ولا مؤلفي المجلدات المتعددة، بل قد يشوه بعض ما فيها أو يشوّش عليه. واعترض بحزم وبكياسة على الجهل ومجانبة الدقة والتعميم المفرط و«الخيال السياحي» والأسلوب الصحافي الذي صيغ به بعض الأجزاء التي تناولت العالم العربي. واعترض أخيراً على الكسل والإهمال وعدم تحمل المسؤولية التي طبعت أعضاء اللجنة بحيث ما كانت لجنة فاعلة، وقدم استقالته منها لهذا السبب أكثر من مرة.[5] وفي تقارير تحكيم كتبها عن مرشحين للترقية إلى درجة الأستاذية في جامعات بغداد ودمشق والخرطوم وفي الجامعة الأردنية، نراه قارئاً متأنياً لأعمال وأبحاث المرشحين مع تحوط وإنصاف استثنائيين. وهو في تقويمه لأعمال هؤلاء، أولى أهمية كبرى للدراية بالمصادر التاريخية وبسبل استخدامها، بل أحجم عن التوصية بترقية أحدهم لعدم معرفته اللغة الفارسية، وهو يجري أبحاثاً في مجالات تتطلب معرفتها، واقترح حجب الترقية عن آخر ممن لم تتسم أبحاثه بالأصالة.[6] وفي مراجعته لترجمة فرانز روزنتال مقدمة ابن خلدون إلى اللغة الإنكليزية، نراه متمنياً لو أنه كان للمترجم الصبر حتى صدور نشرة علمية محققة لهذا النص[7] ـ وهو ما لم يتم إلى الآن.

سبق أن ذكرنا أن دقة العمل وانضباطه بيّنان في تحقيقه تهذيب الأخلاق لمسكويه، وفي أجزاء تاريخ ابن الفرات التي حققها بالاشتراك مع نجلا أبو عز الدين.[8] أمّا الامتداد الأبعد لهذا النهج، فيبدو في اعتباره الصناعة التأريخية شأناً

(٤) نشرت الأجزاء التسعة التي اكتملت من هذا المشروع تحت عنوان:
Histoire de l'humanité: développements culturelles et scientifiques (Paris: André Laffont, 1963-1968); *History of Humanity: Cultural and Scientific Developments* (London: George Allen and Urwin, 1963-1968).

(٥) رسائل بتاريخ ٩/٩/١٩٥٨؛ ١٥/٥/١٩٥٩؛ ١٠/٦/١٩٥٩؛ ٦/١٠/١٩٦١؛ ٣/١/١٩٦٢ (أوراق الدكتور رزيق).

(٦) تقارير عائدة إلى السنوات: ١٩٥٩؛ ١٩٦٣؛ ١٩٦٦؛ ١٩٧٠؛ ١٩٧٨ (أوراق الدكتور زريق).

(٧) Review of Franz Rosenthal, «Ibn Khaldun, The Muqaddimah,» *Middle East Forum*, 1959.

(٨) تاريخ ابن الفرات، المجلدات ٧ و٨ و٩ (جزءان) (بيروت: المطبعة الأميركانية، ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢). (المجلد ٨ والجزء الثاني من المجلد ٩ بمشاركة الدكتورة نجلا أبو عز الدين).

قائماً على الجد والمثابرة، و«العمل الشاق المستديم»، والصبر الطويل على ما يبعثه البحث أحياناً في النفس من «شعور بالوحشة والغربة وما يدعو إليه من وحدة وانزواء وتأمل» (الأعمال، ص ٤٣٨)، وتشديده على الدقة في النقل والتفكير والتعبير، وتشديده على ضرورة التجرد (الأعمال، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣). والحال أن التجرد والدقة في الأداء وفي التطلب طبعا منهجه في التدريس، الذي ما بدا فيه تحيز أيديولوجي أو غير أيديولوجي لأي طرف من أطراف المادة التاريخية التي درّسها.[٩]

ولو نظرنا إلى النصوص والملاحظات التفصيلية والدقيقة التي دوّنها زريق وخصصها لمحاضراته،[١٠] لوجدناه معتمداً أسلوباً أكاديمياً محافظاً في تدريس تاريخ العرب (وهو درّس مقررات في تاريخ الفكر العربي القديم، وتاريخ الفكر العربي الحديث، وتاريخ العرب في الجاهلية، وفي العصور الأموية والعباسية والأيوبية والمملوكية، وتاريخ العلوم العربية، وتاريخ الصليبيين، وتاريخ الأندلس، وفلسفة التاريخ، ومذاهب التفسير التاريخي). ولعل هذا الاتجاه المحافظ هو الذي يسر له الجمع بين الدقة في العرض، والإعراض عن التعميم المفرط، وتأكيد التمايزات بين الحقبات والشخصيات والفئات الاجتماعية من جهة، ومن جهة أُخرى عدم مساءلة أو حتى مناقشة المقولات الكبرى السائدة للسرد التاريخي، كالثيوقراطية والجاهلية ومَلَكيّة الأمويين، والسنة والشيعة، وغيرها ـ تلك المساءلة التي نجدها في الأعوام الأخيرة مؤدية إلى تحولات مهمة في تناول تاريخ العرب. وجاء منهجه في تعليم التاريخ أكاديمياً منهجياً دافعاً الطلاب إلى اكتساب ملكات تقنية في معالجة المادة التاريخية. فكان يفرض على طلبته في بداية كل مقرر تناول سنوات عشر من مصدر تاريخي ما، ثم العمل على تحقيق جميع الأعلام والأماكن والأحداث في المصادر التاريخية الأُخرى، تدريباً أولياً للطلبة على تقنيات البحث. وخصص لكل من طلبته موضوعاً للبحث الشخصي تفاوت ما بين تاريخ لباس المرأة وزينتها، وكتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني، وبلقيس والزبّاء، والأسواق في الجاهلية، والمَرَدة، وكتاب هنري لامنس عن يزيد بن معاوية، ومدينة حلب في عهد نور الدين زنكي، وكتاب أدب الدنيا والدين للماوردي، وفلسفة التاريخ عند هيغل، وهياكل النور للسهروردي، والخزف الإسلامي، والحياة الاجتماعية كما تبدو في أعمال الجاحظ، وبناء سامراء، وفتح القدس، والتجارة الإسلامية في المحيط الهندي، ووقعة صفين، والحجاج بن يوسف، والكثير من

(٩) مقابلة مع السيد غسان تويني، ١٧/٤/٢٠٠٢.

(١٠) محفوظة بين أوراق الدكتور زريق.

غير ذلك.[١١]

من البيِّن أن زريقاً عرج مع طلابه إلى مجالات بالغة السعة من مجالات التاريخ ودراسته، ودربهم على تقنيات البحث والتنقيب التاريخيين، وأفضى إليهم بثقافة تاريخية واسعة. ومن الواضح أنه سعى معهم لانتشال التاريخ من العامية التي تطبع الكثير من تناوله، ومن اعتباره «كأرض مشاع يستطيع كل من أمسك قلماً أو تأدب بنوع من الأدب أن يلجها ويعبث فيها كما يشاء» (الأعمال، ص ٤٣٣)، على ما هو مشهود لدينا معشر العرب في توسل التاريخ منجماً للمناقب. إن الصناعة التأريخية عند زريق علم منضبط بشروط ومتطلبات عقلية وأخلاقية، وهو يتكون من مادة تاريخية، ومن وسائل منضبطة لمعالجة هذه المادة وصوغها سردياً. وهو قد توسع في مجال المادة التاريخية، فنراه أولى عناية كبرى تفصيلَ الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحربية والدينية للعرب قبل الإسلام تفصيلاً بالغ السعة والوفرة.[١٢] ووسع زريق من مجال تدريسه لموضوع «التفسير في التاريخ» من توينبي وشبنغلر، اللذين أولاهما موقعاً محورياً، إلى هيغل وأوغسطين وماركس وابن خلدون والنظريات الصينية والبوذية والعبرية والسامية القديمة.[١٣] وضمّن دراسة الحضارة الإسلامية مظاهر المعاش، والعادات والتقاليد، والنظم والمؤسسات، والأدب، والفنون، والعلوم، والدين، والفلسفة، والمثل العليا الشخصية.[١٤] وتناول زريق في محاضرة عامة طريحة هنري بيرين الشهيرة والبالغة الأثر في الصناعة التأريخية عن أثر الفتح الإسلامي في التاريخ الأوروبي، معالجاً ثلاث قضايا كبرى هي تلاقي الحضارات، والتحقيب التاريخي، والتعليل التاريخي، من دون أن يعالج هذه الأمور في نصاب مستقل من كتاباته أو بتفصيل وتحرٍّ عامّين.[١٥] ودعا في

(١١) لوائح بأسماء الطلبة وعلاماتهم لمقررات التاريخ ٤١١ (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠)، والتاريخ ٣١١ (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠)، والتاريخ ٣٢١ ـ ٣٢٢ (١٩٤٠ ـ ١٩٤١)، والتاريخ ٤٢٥ (١٩٤٠ ـ ١٩٤١)، والتاريخ ٣٢٣ ـ ٣٢٤ (١٩٤٠ ـ ١٩٤١)، والتاريخ ٣٢٣ ـ ٣٢٤ (١٩٤١ ـ ١٩٤٢)، والتاريخ ٣٣١ ـ ٣٣٢ (١٩٤٢ ـ ١٩٤٣)، والتاريخ ٣٧٥ ـ ٣٧٦ (١٩٤٤ ـ ١٩٤٥) في الجامعة الأميركية في بيروت (أوراق الدكتور زريق).

(١٢) أوراق مقرر التاريخ ٣٢١ ـ ٣٢٢ (١٩٤٢ ـ ١٩٤٣) في الجامعة الأميركية في بيروت (أوراق الدكتور زريق).

(١٣) أوراق مقرر التاريخ ٢٨٦ (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠) في الجامعة الأميركية في بيروت (أوراق الدكتور زريق).

(١٤) أوراق مقرر التاريخ ٢٩١ [د .ت].

(١٥) «طريحة المؤرخ هنري بيرين في العلاقة بين الغرب الأوروبي والإسلام في القرن السابع للميلاد ـ الأول للهجرة»، محاضرة في جامعة دمشق، [د .ت].

محاضرة أُخرى إلى اعتبار أثر العقليات والتمازج الاجتماعي في حقبات التاريخ.[16] كما صاغ مخطط دروسه في التاريخ العربي العام حتى العصور الحديثة على جملة تحولات: تحول الأُسرة والعشيرة إلى الدولة والأمة؛ تحول الفهم الثيوقراطي للحكم إلى الفهم العلماني؛ تحول الصناعات اليدوية والاقتصاد المحدود الدورة إلى التصنيع؛ تحول من ريادة الأرستقراطية إلى ريادة الطبقة الوسطى؛ التحول عن الإيمان بالوحي إلى الإيمان بالعقل والتجربة،[17] كل ذلك من منظور دينامي للتاريخ، ملم بالتحولات والفواصل وتعقيد العلاقات بين عناصر التاريخ المتزامنة والمتتالية، الأمر الذي أتاح مساءلة مقولة تاريخية كبرى بالغة التواتر، هي مقولة الانحطاط: فتساءل عن علاقة هذه المقولة بمقولة التقدم، وعن الكيفية التي يمكن أن يوصف بها الانحطاط على نحو متعين في الشكلية الأدبية والتقليد في الفقه بدلاً من إطلاقها على نحو مرسل غير منضبط، وتحرى أصول الانحطاط في السياسة والاقتصاد والدين والنظم العسكرية، وتناول تزامن الانحطاط في مجالات مختلفة من التاريخ، والتوفيق والبروز في مجالات أُخرى كعلم اللغة وعلم التاريخ والتصوف والعمارة، كما توخى التوصل إلى محطات زمنية تؤرخ للأوجه المتعددة للانحطاط.[18] إلاّ إنه استمر في تقرير مقولة الانحطاط في أعماله على العموم، إذ فيها لب الرواية المناقبية للتاريخ التي تمثله على مثال الكائنات العضوية، وترى في خطه الزماني انتقالاً من المجد إلى الضعة إلى مرام المجد مرة أُخرى.

قام كل ذلك على اعتبار تقني ومهني تدقيقي لصناعة التأريخ، على صفة يمكن أن نَسِمَها بأنها «وضعية»، أي ما دعاه زريق التيار العلمي في التأريخ، المتجه إلى دراسة الماضي من دون أفكار مسبقة (الأعمال، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣)، والهادف إلى إدراك حقيقة الماضي «على ما هي» بعبارة أوتّو فون ـ رانكه، عَلَم هذا الاتجاه في الدراسات التاريخية،[19] وهو الاتجاه الذي وجد زريق أنه ما زال في بواكيره في الكتابة التاريخية العربية الحديثة (الأعمال، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١).[20] ذلك هو الاتجاه الذي يشدد في المقام الأول على إيلاء الأهمية القصوى لمعالجة المصادر ونقدها داخلياً وخارجياً، ومقابلة الروايات، وتبيّن الحقائق المفردة، ثم الجمع والتأليف بعد نقد للمصادر شبيه بعمل المستنطق في الدوائر القضائية (الأعمال،

(١٦) «بعض نواحي الحياة الاجتماعية في عهد الصليبيين»، ١٩٣٢.

(١٧) «Lectures on Arab History,» Columbia University, 1966 (أوراق الدكتور زريق).

(١٨) «Arab Intellectual History,» Columbia University, 1965-1966 (أوراق الدكتور زريق).

(١٩) «العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع»، ١٩٧٨.

(٢٠) قارن: «How Arabs have Viewed History,» 1957.

ص ٤٢٣ ـ ٤٢٧) ـ وفي هذا حدس لارتباط مفهوم الموضوعية الحديث بتطور القانون ومقولاته، الأمر الذي لا مجال لدينا لخوضه هنا. أمّا فيما يتعلق بالسرد التاريخي، فالواجب عليه بحسب هذا المذهب عدم فرض التعليل على التاريخ من خارجه، كالاستناد إلى الدين أو الفلسفة في القيام بالتعليل، والاحتراز في الحكم على الأمور الماضية من منظور الحاضر (الأعمال، ص ٤٦٩ وما يليها، ٤٨١)، وعدم محاولة استخراج القوانين لما في ذلك من «خلط» بين التاريخ وعلم الاجتماع على طريقة ابن خلدون.[21] فالتأريخ علم يتناول الحقائق المفردة وليس العلاقات السببية بينها، ولو أن كل سرد تاريخي يتناول هذه العلاقات على وجه مضمر.[22] ونرى هذا المطلب الوضعي متضافراً في علاقة متوترة مع إصرار زريق في أعماله على ضرورة وجود مذهب فلسفي ما لدى المؤرخ.

والحال أن تشديد زريق على هذا المذهب الوضعي جاء مغالياً في المحافظة، على أهميته للتدريب المهني للمؤرخين الشباب. فقد اعتمد زريق في كتاباته وفي تدريسه ـ كأستاذه أسد رستم[23] ـ اعتماداً أساسياً على كتاب مبادئ صناعة التاريخ من تأليف لانغلوا وسينيوبوس، المنشور سنة ١٨٩٨، وعلى أسد رستم وعلى بعض المظان المدرسية الأنغلوسكسونية (الأعمال، ص ٤٢١ ـ ٤٢٣ في الحواشي)، هذا في الوقت الذي كان المذهب الوضعي قد خضع إلى مراجعة ونقد شاملين، وإلى تطور بيّن، وخصوصاً من مدرسة «الأنال» الفرنسية، ولا نراه مستشهداً بالمؤرخين من الفرنسيين إلاّ بعمل في منهج البحث التاريخي صادر سنة ١٩٥٤ لهنري ـ إيرينيه مارّو، آخر كبار المؤرخين الفرنسيين الوضعيين. بل لم يعر زريق التطورات والتحولات البالغة الأهمية التي طرأت على الصناعة التاريخية منذ العشرينات من القرن الماضي أي اهتمام على الإطلاق، وتوقف في مجال تناول أثر الجغرافيا في التاريخ مثلاً على الأعمال المتقادمة لِرَتْزِلْ (Ratzel) وفيدال دولابْلاش (Vidal de la Blache) وهنتنغتون (Huntington) (الأعمال، ص ٨٢٧ في الحاشية).[24] ولا شك في أن في هذا

(٢١) «العلاقة بين التاريخ...»، مصدر سبق ذكره.

(٢٢) أوراق مقرر التاريخ ٢٨٦ (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠) في الجامعة الأميركية في بيروت (أوراق الدكتور زريق).

(٢٣) شفيق جحا، «الدكتور قسطنطين زريق المؤرخ»، في: قسطنطين زريق: ٦٥ عاماً من العطاء، تحرير أنيس صايغ (بيروت: مكتبة بيسان، ١٩٩٦)، ص ٧٩.

(٢٤) قارن وجيه كوثراني، «الفكر التاريخي في دعوة قسطنطين زريق: (نحن والتاريخ) ما قبل وما بعد»، في: وجيه كوثراني، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠)، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

الموقف المحافظ حرصاً على تلقين طلبته ـ والجمهور الأعرض العربي الذي قدم له ما قد يكون أفضل عرض شامل بالعربية لأسس صناعة التاريخ في كتابه نحن والتاريخ (١٩٥٧) ـ المبادئ الأولية في جو مفعم بالقراءة الأيديولوجية للتاريخ على المذاهب التي أخضعها لنقد مستفيض.

فكان زريق في سعيه لتغليب التحقيق والنقد على سرد البطولات والملاحم، والخروج على التاريخ الحربي والسياسي إلى المجالات الأوسع الشاملة للنظم الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والاعتقادات والتقاليد الدينية والمذاهب الخلقية والأساليب الأدبية والفنية (الأعمال، ص ٤١١ ـ ٤١٢)، إنما رغب في أن يتلاقى التاريخ في هذا مع غيره من مجالات الجهود العلمية المنصرفة إلى اكتساب المعرفة بتجرد وإخلاص (الأعمال، ص ٤١٣). ونحن نعلم أنه رأى في الجهد العلمي مناط عبور الفوات التاريخي الفاصل لحاضر العرب عن ركاب التقدم الإنساني. وبناء على ذلك، فقد انتقد زريق التيار التقليدي عند المسلمين والمسيحيين في صناعة التأريخ العربية الذي رآه نابعاً من العصور الوسطى، والذي لا يرى في التاريخ إلاّ تاريخ «الأمة الإسلامية»، معتبراً إياه المجرى الرئيسي في تاريخ العالم، معللاً الأحداث التاريخية تعليلاً إلهياً لا يد فيه للإنسان أو المحيط الجغرافي أو أي عامل بشري آخر، ومصدقاً لروايات السلف من دون نقد أو تمحيص. وانتقد التيار القومي في التأريخ، العروبي منه والإقليمي، المنصرف إلى التغني بالأمجاد والمختلط عند البعض بالتيار الديني (على مثال العقّاد ومحمد حسين هيكل وطه حسين). ولئن اعتبر هذا الاتجاه شأناً طبيعياً في الطور القومي المبكر الذي يمر العرب فيه، ومقتبساً بعض مفاهيم الحضارة الحديثة، إلاّ إنه أخذ عليه تضخيمه الماضي القومي على حساب الروابط مع التواريخ الأخرى، وتأرجح القيّمين عليه بين التصديق غير النقدي للروايات التراثية وتغليب الخيال من جهة، وبين التحقيق التاريخي، مع الغلبة للاتجاه الأول من جهة أُخرى. أمّا التيار الثالث الذي انتقده من التيارات المعتملة في موقف العرب من الماضي، فكان التيار الماركسي، الذي أخذ عليه المادية والحتمية، ووجد فيه تماسكاً وإحكاماً يُخلاّن بواقع التاريخ، مع تبسيط للأمور ملائم لبساطة عقلية الشعوب المتطلعة إلى النهوض، المؤمنة بالثورة (الأعمال، ص ٣٩٢ ـ ٤٠١).

صناعة التأريخ، إذاً، شأن متمايز من صنع التاريخ، تتصل به في نهايتها، أي في اندراجها في نصاب الممارسة العملية. أمّا علميتها، فهي أمر لا ولاء سياسي أو عملي له، إلاّ عبر هذا الاتصال الغائي بمقام الحداثة، أي بمقام الدور الأكثر سمواً الذي وصلت إليه الحضارة الإنسانية، وهو مقام العقل المزاوج بين الأخلاق المنضبطة بالمعرفة. لن ندخل هنا في مفهوم العلم لدى زريق، واقتصاره في تعريفه

على المتعارف عامة عليه من أنه أساسي لممارسة العلم ممارسة إجرائية وتقنية، وفي عدم إيلائه الاهتمام لما نتج من الثورات العلمية الحديثة من أثر في تصور العلوم وفي مفهوم الموضوعية في العلوم الطبيعية والإنسانية جميعاً. وجل ما في إمكاننا قوله هنا هو أن الإجابة عن التساؤل الذي وضعه أحد دارسي زريق عن ماهية العلم الذي قصده بكلامه، وما إذا كان يعني بالعلم ما فهمه من العلم أينشتاين أو باشلار أو كونت،[٢٥] لا بد من أن تشير إلى تراث كونت الوضعي أساساً لفهم زريق للعلم، كونت الذي رأى في تطور البشرية انتقالاً تطورياً مرتقياً من السحر إلى اللاهوت إلى العلم، منتهى التاريخ في عصره.

لقد كان هذا الفهم العلموي للعلم التأريخي، والنبذ الناجم عنه لممارسة التأريخ بوصفه منصرفاً إلى البطولات والملاحم، وبالتالي إلى تأسيس الموضوع التاريخي على توسل للأمة ومركزيتها فيه، موضع ملاحظات نقدية من قبل أحد أكبر المؤرخين القوميين العرب المعاصرين، الذي أراد التشديد على عدم التعارض بين الروح القومية واتباع الأسلوب العلمي في التأريخ.[٢٦] والواقع أن ملاحظات زريق التعليمية والتمهيدية في سياق صناعة التأريخ ـ عن حقيقة الماضي «على ما هي»، إلى آخر ذلك ـ ما توافقت مع سرده للتاريخ، إذ قام هذا السرد على استخدام مقولات تاريخية، أو ماوراء التاريخية، اتخذ منها موضوعاً لرواية التاريخ. فلئن أخذ على زريق التوتر والمراوحة بين النهج الوضعي الرافض لفلسفة تأريخية بعينها، وبين مطالبته المؤرخَ بأن يكوّن نظرة شاملة إلى الكون والإنسان بحيث يتمكن من إجراء الحكم على الوقائع التاريخية،[٢٧] ولئن تم التساؤل عن نقده للتحتيم في التاريخ، في الوقت الذي استخدم قاموس التطورية التاريخية،[٢٨] نراه، على الرغم من كلامه المرسل عن «الواقعية الفوتوغرافية» التي ارتجاها في الكتابة التاريخية (الأعمال، ص ٤٤٤) ـ والتي وجدناه معجباً بها فيما كتبه عن رواية إنكليزية يوم كان طالباً، والتي كانت موضع معالجات بالغة التعقيد والاستفاضة ابتداء من آباء الكنيسة في تحليلهم لعبارة «الرَقم» (Graphe) اليونانية الدالة على الكتابة والتصوير جميعاً، وانتهاء بالنظريات والدراسات الحديثة التي تناولت الخطاب (ومنه السرد التاريخي) والرسم والتصوير الفوتوغرافي ـ نراه مرتجياً مطلباً أبعد منها. ذلك المطلب، وهو

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٢٦) عبد العزيز الدوري، مراجعة نحن والتاريخ، الأبحاث، ١/١٣ (١٩٦٠)، ص ٩٦ ـ ١٠٦.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٢٨) كوثراني، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢.

المطلب الذي كان متواتراً في المدرسة التأريخية الرومانسية الألمانية المقترنة باسم فلهلم دِلتاي (غير المذكور في أعمال زريق)، الذي ارتجى تمكين المؤرخ «بما له من دقة شعور وحدّة بصيرة من أن ينفذ إلى أعماق الأفراد والجماعات في الماضي فيحس أحاسيسهم، ويتلمس أهواءهم، ويختبر ميولهم ورغباتهم، وآمالهم وأمانيهم.» ذلك مناط «التفهّم» التاريخي (Verstehen) الذي ينقلب فيه التجرد من صفة سلبية إلى صفة إيجابية، ويتجاوز كونه تلقياً أو مرآة تنعكس عليها الصور، بحيث يضحي «ذهناً تتلاقى فيه أفكار الماضي ومعتقداته»، ويصبح ذهناً «استطاع أن يجعل الماضي حياً فيه» (الأعمال، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥).

لسنا معنيين هنا برصد ومساءلة العلاقة بين المفهوم والمجاز في سياق مفهوم «التفهّم» هذا، وفي إلحاق الصفة الفوتوغرافية بالخطاب، وبتصور إمكان انتقال ذهن المؤرخ من عصر إلى عصر مضى ومساكنته هذا العصر والتماهي مع أفراده وجماعاته، الأمر الذي شكّل موضوعات نقاشات بالغة الثراء في علم التأريخ في القرن الماضي، ما يبدو أن زريقاً اهتم بها. بل إن مرامنا الانتقال من التمهيد إلى النظر في المسألة التي طرحها الدكتور الدوري والدكتور كوثراني، واستخدامها مفتَتحاً للبحث في علاقة التأريخ الوصفي بالتأريخ القومي لدى زريق. يشير واقع أمر الكتابة التأريخية إلى أن التماس التماهي الروحي بين المؤرخ والعصر الذي يدرسه إنما يهدف لا إلى تقمص أرواح أفراده وجماعاته، بقدر ما أنه يؤدي إلى تمثّل عصارة هذا العصر أو «روحه». ولا سبيل إلى تمثل هذه العصارة وتمثيلها في سياق الخطاب التاريخي السردي إلاّ بتوسل جملة من المقولات التاريخية الناظمة لعناصر هذا العصر وعصارته، مشكّلة هذا العصر بذلك على صورة موضوع للسرد التأريخي، أو الوحدات الأساسية أو المعقولة في الدراسات التأريخية كما عند توينبي (الأعمال، ص ٧٠٥). في هذا من دون شك انتقال من نتائج الممارسة المهنية والتقنية البحتة للصناعة التأريخية، بتقريرها الوقائع «على ما هي عليه»، إلى نصاب ناظم وتفسيري بمعنى من المعاني، نصاب ماوراء تاريخي يقوم على إدراج هذه العناصر الحديثة المفردة في مقولات كـ «الحضارة»، و«روح العصر»، وغيرها. في هذا الأمر من دون شك خيار فكري وأيديولوجي: فقد يختار المؤلف نبذ هذا الجامع المجانس لتاريخ حقبة من الحقبات، وأن يرى في التاريخ العربي الكلاسيكي جوامع شتى عبرت عنها تواريخ العامة والكتّاب والفلاسفة والمؤرخين وغيرهم.[29] وقد يختار المؤرخ الماركسي أنظمة الإنتاج وأنماطها، والبنى

(٢٩) قارن المصدر نفسه، ص ١٧٣.

التناحرية للعلاقات الاجتماعية والطبقية. أمّا مناط المؤرخ القومي فهو الأمة، ومناط مؤرخ الحضارات ـ وخصوصاً المؤرخ القومي للحضارات ـ تتالي الإنجاز الحضاري وترقيه والانتقال الكامل من وحدة تاريخية مغلقة إلى تاليتها، وهذان الأمران هما ما انتظما أسس السرد التاريخي لزريق.

ففي ملاحظات استشارية وتقويمية أرسلها زريق سنة ١٩٧٦ إلى وكيل جامعة دمشق بخصوص مشروع إعادة كتابة تاريخ العرب الذي بادرت به الجامعة والدولة السورية وراءها (والذي ما زال طور الإعداد لدى الألكسو)، رأى ضرورة إيلاء موقع المحور من المشروع للحضارة العربية وليس للتاريخ العربي بمعناه الواسع وبتقسيماته التقليدية. ويعود هذا الرأي ليس لأن زريقاً وجد أن مشكلاتنا، «عند التقصي والتحقيق»، حضارية في أساسها فحسب، بل لأن «التيارات الوحدوية العربية كانت في الحضارة العربية أبين وأشد أصالة منها في التاريخ العربي.»[30] وبغض النظر عن صحة هذا القول، إلاّ إن البيّن أن الحضارة مستجلبة هنا ليس للتدليل على نظرة عامة في التاريخ فحسب، بل كأننا بصدد إنقاذ الحضارة العربية من تاريخها، بحيث يتسنى لنا التمكن من كتابة تاريخ قومي للعرب يتجاوز في مآله التاريخ ويندرج في السياق الحاضر لتطلع العز القومي المتجه إلى المستقبل. ويتضمن هذا الاختصار للتاريخ تمييزاً أساسياً بين ما دعاه زريق «مظاهر» الحضارة و«قوامها».[31] يتجلى الأول في المعاش والعادات والتقاليد والنظم والمؤسسات واللغة والأدب والفنون. أمّا الثاني فهو موقع «روح الحضارة»: نظرتها إلى الوجود وإلى الحقيقة الراجعة إلى الإيمان بالله وبالكتب السماوية وقيمها، تلك النظرة التي تولد «مفاهيم أساسية» ينتج منها نظام اجتماعي معين، سمته هنا الثيوقراطية في الحكم وفي النظم والمؤسسات، تماماً كما رأينا دينامية الحضارة الغربية آيلة عن اقتران مُثُلها بمثال بروميثيوس. وليس هذا الموقف بالمستغرب على الإطلاق. إن هذا الهدف الذي وضعه زريق للتأريخ ما كان إلاّ تفهم الوعي التاريخي وإدراك معنى التاريخ بوصفه موضع انتظام هذا الوعي، وأثر ذلك في الحاضر والمستقبل (الأعمال، ص ٣٧٩). وفي هذا الأمر من دون شك صلة بالتماس التاريخ معيناً تعبوياً في أيام النضال الحركي لزريق في الثلاثينات كما رأينا، بل وفي فترات لاحقة عندما تحفظ زريق في نقاش مع طلبة الجامعة السورية أيام رئاسته لها من «ذكر مثالب الأمة» في تدريس التاريخ القومي، مع التشديد

(٣٠) ملاحظات على «مشروع إعادة كتابة تاريخ العرب» مقدمة إلى الدكتور محمد خير فارس، ٢٨/١٢/١٩٧٦ (أوراق الدكتور زريق).

(٣١) أوراق مقرر التاريخ ٢٩١ في الجامعة الأميركية في بيروت [د .ت].

الذي لازم هذا التحفظ على الموضوعية في النظر التأريخي.[٣٢]

لم يحجم زريق كثيراً عن ذكر «المثالب»، أو بالأحرى تلك النواحي من التاريخ العربي التي تقادمت، مضافة إلى ما في التراث من شر وتقاتل وتحاسد ولاعقلانية وبغضاء. إلاّ إن مقولة «الأمة» الجامعة، المعطوفة على الحضارة، بقيت الخط الناظم للسرد التاريخي. جاء في العهد البويهي على ذلك تغلب على الخلافة في بغداد، وانعدام الشعور بالوحدة والأخوة، وفساد أخلاقي. لكن جاء فيه أيضاً تغلب القبائل العربية من بني حمدان وبني مرداس على الجزيرة وشمال سورية، فعادت السيادة العربية الفعلية، متممة بذلك «للعصر العربي الأول الذي شاده الراشدون والأمويون.»[٣٣] يتخذ بذلك تأريخ العرب موضوعاً له هو شأن سيادة العنصر العربي ومجده والقول باستمراره على الرغم من تقطعه الزماني والمكاني، وذلك مناط التأريخ القومي العربي، القائم على رواية درامية للعز والذل، للصعود والهبوط، للبعث والفوات، ومناط التأريخ الإسلامي عند الإسلاميين وعند جل المستشرقين الذين استند زريق منهم على وجه الخصوص إلى فون غرونباوم في استشهاداته في كتبه، وفي المظان التي أحال طلابه عليها.

ذلك بأن زريقاً، وإن ساءل مفهوم الانحطاط كما رأينا، من وجهة نظر المؤرخ الموضوعي، اتخذ منه لَبِنة بنيوية في سرد التاريخ العربي، وفي سرد التاريخ الإسلامي بعامة في المرات التي استخدم فيها العبارتين، أو الموضوعين من موضوعات رواية التاريخ، على نحو يفيد بإمكان استبدال الواحد بالآخر بحسب الحاجة.[٣٤] إن تاريخ العرب تاريخ صعود وهبوط وسبات مع وعد بالانبعاث. وهكذا جاء التوحيد المحمدي خطوة ثورية في عصره، وأدى إلى إقامة نظام ثيوقراطي كان في الوقت نفسه نظاماً منفتحاً لم يعرف مثالب العنصرية، خلاّقاً، بانياً للحضارة، مؤيداً للعقل، مشجعاً على الفلسفة والعلم، بانياً لحضارة إنسانية التطلع. لكن هذا النصاب التاريخي ـ الحضارة العربية ـ عانى جرّاء توترات بينة، بين العقل والنقل، بين الأمة والقبيلة، بين الاستبداد والحرية. وأدت هذه التوترات الداخلية إلى تغلب المساوئ على المحاسن، وإلى فترة الهبوط وفتور الهمم التي استمرت حتى النهضة في القرن التاسع عشر، التي قدمت الوعد بعودة الروح إلى المحاسن المتمثلة

(٣٢) كلمة الآنسة فخرية [الخطيب] في وداع الدكتور زريق من الجامعة السورية، ١٩٥٢/٥/١٢ (أوراق الدكتور زريق).

(٣٣) «في ذلك العصر المضطرب»، ١٩٤٣؛ «محاضرة في الذكرى الألفية لأبي العلاء»، ١٩٤٤.

(٣٤) مثلاً: «The Influence of Arab Islamic Civilization on the West,» 1978.

في العقل وفي الحرية وفي فكرة الأمة الجامعة (الأعمال، ص ١٥٩١ ـ ١٦٠٣؛ ص ٥ ـ ١٦ من القسم الإنكليزي في الجزء الرابع).

أمّا أسباب الأفول، فلم تكن كما يعتقد الكثيرون راجعة إلى غزوات الترك والتتار التي قضت على الخلافة العباسية وعلى المُلك العربي عموماً، بل إن العرب «كانوا قد غُلبوا على أمرهم داخلياً. . . وأنهم لو شُنت عليهم تلك الغزوات وهم في دور تنبههم ونموهم لما طغت عليهم، بل لعلها كانت، بالعكس، منشطة لهم ومجددة»، كما حدث للرومان (الأعمال، ص ٢٣٨). ورجعت الغلبة على الأمر إلى «عوامل أساسية وجذور عميقة في الشخصية العربية حينذاك، هي خسارتها لإيمانها السابق، وتراخي عقيدتها، وتسلط المطامع الشخصية عليها، وعدم ترفعها عن الهوى، وعجزها عن التضحية في سبيل المجموع.»[٣٥] وفي كل ذلك استقرار على «نظرة معينة إلى الوجود» تتناول الخير والحق والجمال التي تشكّل «لب التاريخ وعصارته» في السياق الحضاري، الأمر الذي يسبغ على التاريخ «معنى»[٣٦] ـ هذا من دون الإشارة إلى القوى التاريخية والاجتماعية التي تلقت هذا «المعنى»، ومن دون سبر علاقتها بـ «المعاني» الأُخرى التي قامت في هذه الحضارة في عهودها المتعددة. ونحن إن سبرنا هذه الأمور من منظور تاريخ الحضارة البشرية، لوجدنا أن التراث الباقي ـ السابق لدى العرب ـ هو «خلاصة ما بلغناه من مكاسب وتحقيقات في سبيل الحياة الفاضلة»، أي المتحررة من قيود الطبيعة ومن أهواء النفس ومن تحكم الإنسان في الإنسان،[٣٧] على ما رأينا في الفصل السابق.

إن ما يتبقى من التاريخ مما يسبره التأريخ، إذاً، الاندراج في التراث الإنساني الذي بقي كامناً في ماضينا، ذلك بأن أي تراث حضاري قومي «هو في جوهره تراث إنساني»، كونه نتاجاً لحاجات إنسانية أصلية تتعدى الزمان والمكان والظروف والأحوال، وكون الحضارات التاريخية مرتبطة بعضها ببعض، متعارفة متلاقية متبادلة.[٣٨] وإن إنسانية الحضارات لا تُقتل بل «تنتحر» عندما تفقد الفضائل التي أدت إلى نيلها الحضارة والمجد، من دون اعتبار الفضائل هذه في علاقتها بوقائع التاريخ وبمثالبه ـ أي بما دعاه هيغل «فعل السالب» في التاريخ. فبعد صعود الحضارة العربية «. . . جاءت عصور ضعفت فيها الفضائل: فتر الإيمان، واستولت على

(٣٥) «في ذلك العصر. . .»، مصدر سبق ذكره.

(٣٦) زريق، «التراث الحضاري»، الأبحاث، ١٣/١ (١٩٦٠)، ص ٤ ـ ٥.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٦.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٠ ـ ١١.

النفوس العصبيات والمصالح والأطماع، وقعدت الهمة عن ارتياد الآفاق: آفاق الطبيعة وآفاق العقل، وتسلط المعنى على اللفظ والروح على الحرف، وغلب التحكم على التسامح والتكبر والتجبر على التواضع، وخفت صوت الضمير وخفت محاسبة النفس ـ عندها، عندما عجزت البصيرة عن رؤية التحديات الجليلة، والتهى الأفراد والجماعات بالتحديات الوضيعة، ضؤل السعي الباني وتفرق، فذبلت زهور الحضارة وجفت ثمارها، ودخلت في طور الركود والانحطاط»، وبقيت الفضائل دفينة «في الكتب المنسية، وفي السير المهملة، وفي الفتوحات الضائعة، وفي الفضائل المطوية.»[٣٩]

ولئن زريقاً لم يستحسن تناول كيفية ترجمة المنسي والمهمل والضائع والدفين والمطوي إلى واقع يمكن أن يبعث تناولاً يتوسل دراسة موقع التراث المجيد من الحياة العربية المعاصرة، أو تناول الدوافع الاجتماعية والتاريخية له، عدا ما سلف من إشارات إلى الطليعة وإلى التربية وإلى الاقتداء التعبوي الفاعل في النفوس، ولئن لم يتناول كيفية الانتقال من صناعة التأريخ إلى صنع التاريخ، على سجية التأريخ القومي بعامة، إلاّ إنه ما فتئ منبهاً إلى عدم جواز إيقاف التاريخ وإعادته القهقرى. وما رضي عن مجرد الاسترشاد بصورة عصر ذهبي ماضٍ كان كل ما بعده تدهوراً وانحطاطاً، كعصر الراشدين، أو عصر بركليس الأثيني، أو عصر آباء الكنيسة. ذلك بأن استعادة التاريخ غير ممكنة، ولو أن التاريخ قام على شيء من الاستمرار الذي لم يخضع لرصد أو تحليل تاريخيين، على عكس ما يرى من يروم نقض الماضي تماماً مناقضاً بذلك سنن التاريخ (الأعمال، ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨). وقد سبق أن أشرنا إلى تفريق زريق بين التاريخ العبء والتاريخ الحافز، وإلى نبذه التفرد في التاريخ على وجه يمنع مثلاً الابتداء بتاريخ العرب من الجاهلية من دون اعتبار ما سبقها وعاصرها من المدنيات، على الرغم ممن يرى في ذلك انتقاصاً من التاريخ القومي (الأعمال، ٥٢٦ ـ ٥٢٨). وهو قد وجد ـ من دون أن يستفيض في الكلام عن ذلك ـ أن النظرة السائدة إلى التراث ليست آيلة عن الخطأ، وإنما عن التخلف الفكري، وأن العلاقة بين الحاضر والتراث شأن مركب معقد غير قابل للمعالجة عن طريق «نقد العقل» بل يتطلب اللجوء إلى معالجة تأريخية.[٤٠]

من الجلي، إذاً، أن بين صناعة التأريخ وصنع التاريخ توتراً أكيداً: بين النهج

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٥ ـ ١٦.

(٤٠) تعليق على بحث فؤاد زكريا، «التخلف الفكري وأبعاده الحضارية»، في: أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، تحرير شاكر مصطفى (الكويت، ١٩٧٥)، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٨.

الوضعي والنهج التقيّمي الحضاري، بين الاستمرار والانقطاع، بين تقويم العهد الذهبي ونفي الفاعلية عنه، بين الكمون والانبعاث، بين اتصال الحضارات وتفردها، بين العرب والعالم. ليس ثمة حل نظري لهذه التوترات، ومن غير الجائز أن نتوقع توافقاً سحرياً يعيد الصفاء إلى صلة الفعل بالفكر، مستولداً الواحد من الآخر على نحو لا يترك بقايا وشذرات.

الفصل الخامس

الرّاهن من قسطنطين زريق : خلاصات تحليليّة وتركيبيّة

ما الذي يتبقى لنا اليوم، في أوائل القرن الحادي والعشرين، من قسطنطين زريق؟[1] لا شك في أنه يتبقى لنا القدوة الشخصية، الداخلة من دون وجل في خضم واقع القرن العشرين العربي بتياراته واتجاهاته، وبوعده وخيباته وآماله وإحباطاته وتوتراته، وبمرجعياته وسبل تجاوز هذه المرجعيات. ويتبقى لنا ذكرى أحداث هذا القرن كما عاشتها هذه الشخصية القدوة وتمثلتها بتنبه حيوي ملؤه الأمانة والحرص والانضباط والإحساس بالمسؤولية العامة وتغليبها على الشأن الخاص. ويتبقى لنا حصيلة فكرية.

وجدنا على امتداد الفصول السابقة أن الحصيلة الفكرية هذه لم تتسم بالاستواء، وإنما جابت تحدي الواقع وجابهته، وكررت بعض مواضع توتره واضطرابه. وجدنا أن بعض هذه الحصيلة كان وليد ظروف ولت، وأن في بعضها الآخر ما يؤهل له الاستمرار والدخول معنا في قرننا الحالي. وقد بقي زريق متنبهاً إلى ما يحدث في الدنيا إلى نهاية عمره، وكان راصداً للوعد والإحباط معاً، من دون الاستكانة للثاني منهما، وأن سبيلنا إلى تناول هذا الأمر هو القيام بقراءة تركيبية وتحليلية لبعض الخطوط الناظمة لفكره. وعلينا التساؤل هنا في المقام الأول عن موقع زريق في الفكر القومي العربي بصفة عامة، وعما يمكن أن نستبقي منه في سياق الحاضر، وربما في سياق المستقبل، مما يعالج قضايا ما زالت تلح علينا، وأُخرى استجدت علينا بعد أن اتخذ الوضعان العالمي والعربي اتجاهاً متنامياً في اعتبار المسائل المتعلقة بالقضايا القومية، وخصوصاً الغلو في اعتبار ما يدعى مسألة «الهوية»، واقتضاء الهويات الاجتماعية الميكروسكوبية منها والجامعة حدة تضاهي في وحشية سلوكها وعبارتها ما نجده في المركز الإمبريالي الجامع الذي تشكله الولايات المتحدة اليوم. وعلينا هنا أن نقوم بعملية اختيار وتركيز وتشديد نستصلح بعض جوانب فكر زريق في تناول ما يداهمنا من تيارات، ونجعله بذلك في نصاب من الراهنية، ولو تمت تلك المعاصرة على نحو مغاير لما قاله زريق عن استصلاح التراث على ما رأينا. فقد رأينا في فكر زريق تواتراً بين الرومانسية والتاريخانية، ونرى أن من ضرورات هذا العمل ـ أي استصلاح فكره من موقع مغاير بعض الشيء ـ إبراز الثانية على حساب الأولى. إذ إن الدورين هذين من أدوار فكره في التاريخ

---

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على مقال لنا بعنوان: «التأريخ والقومية العربية والعلمانية: قسطنطين زريق عكس التيار»، الطريق، العدد ٤ (تموز/يوليو ـ آب/أغسطس ٢٠٠١)، ص ١٠٠ ـ ١١٥.

محوريان، وسبق أن ختمنا الفصل السابق بالقول إن ليس لواحد منهما الأرجحية باعتبار نظري، بل إن الغلبة، إن تمت، إنما تتم في مواضع عملية وليس في سياق حوار نظري، وإن أحد هذه المواضع هو استصلاح اللاحق.

وعلى ذلك نقول، ونحن في معرض استصلاح فكر زريق والكلام عن راهنيته، إنه يصعب الحديث عن القومية العربية عند زريق اعتماداً على مفهوم «الهوية» في استخداماتها المتداولة، على ما يعتور هذه الاستخدامات من غموض. فمع أن «الهوية» مصطلح أضحى عميم الحضور في الخطابات المتداولة في العالم العربي، إلاّ إنه لا يظهر عملياً في كتابات زريق.

يحف باستخدام الهوية كمقولة تحليلية عدد من المشكلات، ليس أقلها شأناً إمّحاء التمييز بين التعريف الذاتي للفاعلين الاجتماعيين والسياسيين والأيديولوجيين، الذين تنسب إليهم الهويات، أو ينسبونها إلى أنفسهم، وبين الواقع التاريخي والاجتماعي. وتزداد أهمية هذا التمييز لأن الهوية هي، قبل أي شيء آخر، مقولة فعل وعمل أكثر منها مقولة تحليلية، الأمر الذي يجعلها شديدة الطواعية للاستخدام الأيديولوجي. والهوية علامة على التفرد والتمايز الفردي والاجتماعي لا قوام لها إلاّ بتصور للآخر، فهي علامة اجتماعية وليست دالاً على «ذات». ثم إن استخدام «الهوية» وكأنها مقولة دالة تفترض جموداً تاريخياً وجموداً اجتماعياً لا ينسجمان مع ما يسميه ابن خلدون «سنن الاجتماع البشري». أمّا أن تستخدم مقولة الهوية بالادعاء أنها مقولة تحليلية، فأمر ليس مردّه ادعاء يقظة للوعي فجائية، بل نهائية، تبدد أوهام الحداثة والتنوير في اللاعقلانية من رومانسية تأصلية على الصعيد العالمي، على نحو يناظر ما حدث في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن في أوروبا والعالم العربي والهند وبلاد البلقان وسواها، الأمر الذي وجدنا له أصداء في أعمال زريق المبكرة.

على ذلك ليس ثمة توصيف للواقع بريء في فكرة الهوية؛ إنها تشكّل حلقة من سلسلة من الاصطلاحات أوسع، تضم أفكاراً شقيقة لها عن القومية والسياسة مثل الأصالة والعضوانية والداروينية الاجتماعية، وكلها ارتبط عالمياً بحركات شعبوية يمينية تتوسل الاتصال بالأصول الرحمية للأمة. نشأت تلك الاصطلاحات وترسخت خلال القرن التاسع عشر في ألمانيا على وجه الخصوص، وحققت مذ ذاك اختراقات فعلية في الفكر السياسي العربي، من السيد جمال الدين الأفغاني إلى الحركات الإسلامية وبعض تيارات الفكر القومي العربي والقوميات المحلية خلال فترة ما بين الحربين، وصولاً إلى انبعاثها وانتشارها خلال العقدين الأخيرين مع انتشار الخطاب الأصولي وتقعر قسم كبير من الخطاب القومي العربي تحت وطأة تلك الأيديولوجيا كما تحت وطأة الأزمات الحادة التي عصفت بالسياسات القومية في العالم العربي بعد وفاة

جمال عبد الناصر.[٢]

وكل ذلك يزيد في الحاجة إلى تسليط الأضواء من جديد على فكر زريق في القومية العربية والعلاقة بين الانتماء القومي والدين. وكتاباته في هذه المجالات تشكّل رافداً من روافد تيار عريض في القومية العربية الكلاسيكية يضم ساطع الحصري، وعبد الرحمن البزاز، وجمال عبد الناصر وآخرين. وقد طرح هؤلاء جميعاً أفكاراً متشابهة إلى حد كبير، عن الأمة والتدبير السياسي القومي والعلاقة بين الدين والانتماء القومي.

أن يكون زريق دمشقياً مسيحياً أمر لا يبدو لنا أن له صلة بمواقفه. وبودي أن أبدد بإيجاز القراءة التوهمية للتاريخ التي لا تزال سوقها رائجة عندنا، على الرغم من مكتشفات الأبحاث التاريخية التي تثبت العكس. قيل مؤخراً إنه يجب تصنيف زريق على أنه مفكر مسيحي، وإنه يشاطر القوميين العرب المسيحيين الهم الأقلّوي منبعاً للدعوة إلى الاندماج القومي في نظام علماني. والادعاء هنا أن هؤلاء المسيحيين - بمن فيهم، لغرابة الأمر، أنطون سعادة - تعاطوا مع الإسلام بطريقة تنم عن إعادة الانخراط في تاريخ يروم استرجاع الماضي، منتشر بين العرب الواقعين تحت تأثير الحركات الإسلامية، نحو التسوية التاريخية، في صيغة مبتذلة للجدلية الهيغلية.[٣] وهذا منوّع لموضوعة قديمة لا تزال سارية المفعول بفضل الإرث الذي خلّفه جورج أنطونيوس. وهي الموضوعة التي تقرأ الفترة الحميدية في الولايات العربية من السلطنة العثمانية في ضوء هموم الحرب العالمية الأولى، وخصوصاً في ضوء المصالح البريطانية لدى العرب، أو في ضوء الأخبار القومية العربية اللاحقة عن تاريخ القومية العربية نفسها.[٤]

---

(٢) Aziz Al-Azmeh, *Islams and Modernities* (London: Verso, 2nd ed., 1996), chapters 1, 2 and 4;
وانظر أيضاً: عزيز العظمة، الأصالة أو سياسة الهروب من الواقع (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٢).

(٣) محمد جابر الأنصاري، الفكر العربي وصراع الأضداد (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٦)، ص ٨٣.

(٤) أنظر:
Albert Hourani, «The Arab Awakening: Forty Years After,» in *Studies in Arab History: The Antonius Lectures, 1978-1987* (London: Macmillan, 1990), p. 21 ff.
وكان حوراني التزم التأريخ التقليدي للظواهر شبه القومية في المشرق في كتابه:
Arabic Thought in the Liberal Age (London, 1962), p. 263 ff;
وانظر أيضاً:
A. Al-Azmeh, «Nationalism and the Arabs,» *Arab Studies Quarterly*, 17 (1995), p. 5 ff;
عزيز العظمة، العلمانية من منظور مختلف (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٩٢)، ص ١٢٨ وما يليها.

وبينما نحن لا نجادل الأطروحة القائلة إن المواقع الاجتماعية والاجتماعية - الثقافية يمكن أن تولد حساسيات معينة وتسهّل ولادة أو استقبال أفكار معينة كما رأينا، إلاّ إننا نرغب في التشديد على نقطتين تتعلقان بهذه المحاججة الآنفة الذكر.

النقطة الأولى هي أن الفكر والنشاط القوميين العربيين، مع أنهما شملا مسيحيين، إلاّ إنهما كانا يشكلان حركة فكر وسياسة مستقلة عن الانتماء الديني. فالتحديثيون من المشرقيين المسيحيين الذين نافحوا عن اللامركزية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم يكونوا قوميين عرباً، ولا هم كانوا دعاة انفصال عن السلطنة العثمانية. وإنما كانوا فاعلين ضمن شروط المواطنة العثمانية الناشئة في أوساط الإنتلجنسيا الجديدة التي كانت تضم، في أساس من تضم، بيروقراطية الدولة العثمانية. ولم يكن هؤلاء يجدون أي تعارض بين العروبة والعثمانية، مثلهم مثل القوميين السنّة في دمشق وبيروت حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، ومثل الاتحاديين التقدميين والعروبيين جميعاً، الذين انتقلوا كأنما على غفلة إلى القومية العربية تحت تأثير الحرب العالمية الأولى. أمّا الانفصاليون فكنت تجدهم في المؤسسات الإكليركية، وخصوصاً الكاثوليكية منها، وبين الإرساليين وبعض القناصل الأوروبيين الذين فكروا وتصرفوا على أسس طائفية واضحة، وعلى نحو لا يكاد يختلف كثيراً عن العناصر اليونانية والأرمنية من رعايا السلطنة.

أمّا النقطة الثانية فهي تتعلق بالمساق التاريخي. من الخطأ الاعتقاد أن ما يسمى «الثورة العربية» كان ثورة قومية، مع أنها كانت تحوي ألواناً قومية، بصرف النظر عن التحالف الأيديولوجي والسياسي الذي اعتمدت عليه في فتراتها اللاحقة. كانت الثورة العربية حركة خلافة إسلامية تميز العرب، وتميز فيما بينهم وفقاً للمطامع الضيقة لأشراف مكة الذين ادّعوا أنهم أصحاب الحق الشرعيون في الخلافة. وإذا وضعنا التأريخ اللاحق جانباً، فإن النسب الفعلي لثورة الحجاز سنة ١٩١٦ يتطلب البحث، لا في تأريخ القومية العربية، وإنما في محاولات إنشاء دولة تخلف السلطنة العثمانية. والأكثر إثارة بين تلك المحاولات فكرة نابليون الثالث عن ضرورة بناء دولة عربية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري؛ وهي فكرة كان نجيب عازوري لا يزال يقول بها حتى سنة ١٩٠٥، أي بعد مضي عقود من الزمن على إطلاقها. وبالتالي، فإن تاريخ نشوء القومية العربية يجب تعيينه في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، أي بعد أعوام كثيرة من الفترة التي يصطلح، عادة، على تعيينها تاريخاً لنشوء القومية العربية. على أن النزعة اللاتاريخية المسيطرة على المؤرخين القوميين العرب اللاحقين جعلتهم يحاولون التغطية على فعلة أولئك الذين ساهموا في استعجال العواقب الكارثية لثورة الحجاز. ولم ينقص هؤلاء المؤرخين التعبير عن شيء من

التفرُّض تجاه الاستقلال الذي انتزعه الأتراك الكماليون في مواجهة عقبات عظيمة.

إن القوميين العرب في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، الذين يتحدر منهم زريق مثله مثل سوريَّين آخرين هما إدمون رباط وعبد الرحمن الشهبندر، كانوا الورثة الشرعيين للنزعة القومية المدنية التي حملتها الإصلاحية العثمانية والتي تتوجت بحركة أتاتورك.(٥) إلى هذا التيار التاريخي العريض كان ينتمي أيضاً الوحدويون التقدميون العرب الذين انتقلوا انتقالاً يسيراً إلى القومية العربية في إبان الحرب العالمية الأولى. ولعل الآصرة الأيديولوجية الأكثر مباشرة في هذا الانتقال هي سيرة ساطع الحصري، الذي بدأ بالتعاون مع ضياء غوكألب في سالونيكا، مروراً عبر دمشق الفيصلية وبغداد، وصولاً إلى الأيام الأخيرة من التأمل في القاهرة وبيروت. وهي سيرة تبيّن ذلك الانتقال الميسّر بين العثمانية والعروبة، من خلال النظر إليهما بما هما مشروعان قوميان افترضا بناء نظام سياسي مدني معرف قومياً. وفي هذا الإطار، يجري النظر إلى القومية بما هي شكل التنظيم السياسي الحضاري الأكثر تقدماً. وكان هذا المفهوم للقومية يتعارض كلياً مع صلتي القربى والدين أو سواهما من الصلات مادون التاريخية وما قبل القومية التي درجت تسميتها الآن التكوينات الـ «أولية».(٦)

وهكذا كان زريق يرى، ومعه من شاركه في هذا التيار، أن أية محاولة لبناء كيان سياسي قومي، ولإعادة بناء المجتمع العربي على أساس قومي، لا يجوز أن تكتفي بنبذ «حجاب الجنس» و«شبح الدم» (الأعمال، ص ١٠٩) - بحسب التعبيرين اللذين يستخدمهما في دحضه النزعة الفينيقية كما رأينا - وإنما يتوجب عليها أن تمارس السياسات العلمانية على نحو واعٍ. في تعبيره الزاخم عن الممارسات

(٥) Edmond Rabbath, *Unité syrienne et devenir arabe* (Paris, 1937); عبد الرحمن الشهبندر، نصوص في الدولة والخلافة في الخطاب العربي، تحرير وجيه كوثراني (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٦)، ص ١٨٨ وما يليها.

(٦) أنظر على سبيل المثال: ساطع الحصري، الأعمال القومية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٢٩٠٢؛ عبد الرحمن الشهبندر، القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي (القاهرة، ١٩٣٦)، ص ١٠٨؛ تاتيانا تيخونوفا، ساطع الحصري، رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٧)، ص ٥١ - ٥٦؛ Hourani, *Arabic Thought...*, op. cit., p. 309 ff.
أمّا بالنسبة إلى بلورة دقيقة لهذا الموقف من القومية المدنية، فراجع: Marcel Mauss, «The Problem of Nationality,» in *Aristotelian Society: Proceedings*, N.S. (1919-1920), pp. 242-252.

القانونية والسياسية للقومية العربية والتيارات الغالبة في الحياة العربية العامة منذ الإصلاحات العثمانية، رأى زريق ـ بثبات مدهش وبصيرة ووضوح هدف لا تشوبها شائبة طوال ستين عاماً ـ أن المواطنة المشتركة التي يعبر عنها الانتماء القومي تتطلب انتقالاً من عمومية أشكال الاجتماع المشتركة ومفاهيمها إلى أشكال ومفاهيم مدنية مخصوصة. إلاّ إن القول بضرورة أن يتم هذا الانتقال في العالم العربي مما يسميه زريق «المفهوم الثيوقراطي» إلى المفهوم العلماني (الأعمال، ص ٣٢١، ٣٩٨ ـ ٣٩٩، وفي صفحات متفرقة)، أمر لا ينفرد به قوميو العالم العربي. ذلك بأن نظرة شمولية مبنية على الثيوقراطية، في مفهومها التطوري الكونتي (نسبة إلى أوغست كونت)، ظاهرة قبل علمية وقبل حداثية من ظواهر التاريخ البشري بمجمله. وبديهي أننا نرى التاريخ البشري هنا من منظار الغلبة الشاملة لأشكال التنظيم الاجتماعية والسياسية والثقافية والقانونية الحداثية ابتداء من القرن التاسع عشر،[٧] من دون أن يعني ذلك عدم رصدنا لتعقيدات هذه الغلبة وأشكالها وأدوارها وصورها.

لا يمكن تفسير موقف زريق هذا بالعودة إلى سيرة الرجل أو انطلاقاً من صدفة ولادته، وإنما يجب وضعه في سياق أوسع هو سياق الجماعة القومية في قيد التكوين والمشروع الفكري والسياسي السابق على تشكلها. إن التفسير السيروي الضيق هو تفسير كثير الاتكاء على نظرة جامدة إلى التاريخ الحديث للعالم العربي، مثلما هو شديد الاعتماد على فهم غاية في التبسيط لسوسيولوجيا العرب الثقافية. لنا عند زريق، في الدرجة الأولى، منظور المؤرخ إلى تطورات التاريخ الحديث للعرب، يستوعب أفكاراً متضمنة في عملية تحديث قطاعات أساسية من المسارات القانونية والاجتماعية والتعليمية والسياسية والروابطية في الأقطار العربية المركزية، ويدفع إلى

(٧) العظمة، العلمانية...، مصدر سبق ذكره، الفصل الثاني وص ١٩١ وما يليها. نحن ندرك تماماً أن هذا التفسير الحداثي للحداثة قد تعرض للهجوم في الأعوام الأخيرة. إلاّ إن أعمال النقد الجادة من منظار السوسيولوجيا التاريخية ـ تمييزاً لها من بهلوانيات «ما بعد الحداثة» ـ لم تجادل في القيمة الوصفية والتفسيرية لأطروحة العلمنة، وإنما تعرضت بالهجوم فقط لمنوعاتها اللاتاريخية والظفراوية. والحال أن تلك الأعمال النقدية أحجمت عن وضع أطروحة العلمنة موضع تساؤل وحاولت أن تدرس بعناية استمرار الدين في الحياة العامة كما في ميادينه الهامشية، وخصوصاً في الماضي القريب. أنظر:

José Casanova, *Public Religions in the Modern World* (Chicago and London: Chicago University Press, 1994), Chapters 1 and 2.

وبالنسبة إلى العالم العربي، أنظر: عزيز العظمة، دنيا الدين في حاضر العرب (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٦)، الفصلين ١ و٦.

الأمام مهمة تعميم المسارات وتحققها بما هي مهمات سياسية ومعرفية في آن واحد، ذلك بأن فكر زريق يقيم دوماً صلة مباشرة بين المهمة السياسية والمهمة المعرفية (الأعمال، ص ٣٦، ٥١٠، وفي صفحات متفرقة). وهكذا يصير المشروع القومي، في اتصاله بالتشكيلات الدولتية، فعلاً. وتتحرر القومية ذاتها من كونها أيديولوجيا أو نظاماً متخيَّلاً، لتصير شكلاً من أشكال النشاط السياسي والتنظيمي وثيق الارتباط بمفهوم حداثي للدولة المتواصلة مع مواطنيها. وعلى عكس الكثير من المفاهيم الرائجة في أيامنا هذه ـ عند الأكاديميين والصحافيين الغربيين وعند المثقفين العرب المحبطين على حد سواء ـ فإن فكرة القومية العربية ليست حصيلة نقل أو استعارة ثقافيَّين، وإنما هي مولود محلي مرتبط بالبنى الدولتية الجديدة وبالأنساق الثقافية الجديدة بقدر ما هو متصل بالإنتلجنسيا التي كانت أبرز نتاج السياسات الثقافية لفترة التنظيمات وفترة ما بعد التنظيمات العثمانية، تلك السياسات التي تمفصل فيها المحلي والكوني جميعاً.

ومما لا شك فيه أن عينية الكتابات والمواقف عند زريق وأهميتها الاجتماعية ـ الثقافية، تنعكسان في التأثير العظيم الذي مارسته هذه وتلك في ولادة أشكال من القومية العربية حداثية جذرية، بل قلْ ثورية في الخمسينات. ولا يقل تأثير زريق هذا أهمية عن نفوذه الأقل بروزاً في الأوساط الحداثية الليبرالية. ثم إن أعماله، وخصوصاً كتاباته عن فلسطين، كان لها أيضاً أصداء واسعة جداً، علماً بأن الأوساط القومية المحافظة كانت أكثر إنصاتاً لما فيها من عناصر تحريضية وبلاغية أكثر منها للعناصر الأُخرى التي تتضمنها. ولا يمكن فهم كل هذه الأمور إلاّ إذا نظرنا إلى أعمال زريق من منظور سوسيولوجيا المعرفة وأعملنا فيها التحليل الدقيق للتمفصل بين أنساق الأفكار التي دعا إليها. وستغيب عنا أمور أساسية إذا نحن لم نتفحص ظروف ولادة الفاعلين الاجتماعيين ـ السياسيين والاجتماعيين ـ الثقافيين في الكيانات السياسية العربية في منتصف هذا القرن في إطار الدولة الحديثة بما هي واقع عيانيّ ومشروع ثوري للبناء القومي في آن واحد. والأدعى للاستغراب أن القارئ نادراً ما يقع في كتابات زريق على إشارات مباشرة إلى مؤلفين أو إلى نقاشات معاصرة أو إلى تحليلات تاريخية للوقائع العربية الحديثة إلاّ في أشكالها الأكثر عمومية.

إن الحس الواقعي، تمييزاً له من العيانيّة التفصيلية، يزداد بروزاً عند زريق المؤرخ، في استباقه الدراسات العامة عن القومية التي ظهرت باللغات الأجنبية في السبعينات والثمانينات. فهو يخوض، بروحية المفكر القومي الواقعي، غمارَ مسار تاريخي لا إنجازَ محدداً سلفاً له، وهو جازم في اعتقاده أن الأمم ليست سابقة على القومية، وأن التكوّن القومي مسار زمني في الإطار التاريخي الشامل، يُنتِج الأممَ

بعامة، مثلما هو جازم في اعتقاده أن مسار البناء القومي عند العرب لا يزال جنينياً، وأن هذا المسار مسار تطوري تراكمي، في الواقع، يعتمد في تقدمه على طبيعة السياسات القومية المعتمدة. ذلك بأن المسارات التاريخية الرئيسية إنما هي مسارات تتم في التاريخ، لا خارجه، وتتكئ على النشاط البشري الفاعل في شروط تاريخية محددة. هنا تتضح عقلانية الواقع، وإن يكن في شكل أقل تماماً مما كان يرغب فيه مفكر مثل هيغل وأقل منه جدلية.

وهكذا فإن التاريخ ليس مساراً حتمياً صادراً عن نظام طبيعي يحرك هويات «أولية»، وإنما هو جزء من عملية تمدن زمنية تراكمية تتخذ في عصرنا الحاضر شكل التكون القومي المدني (الأعمال، ص ٣٦، ٢٢٨، ٥١٢، ٧٢١ وما يليها، ٧٤٣ وما يليها، ٨٤١). هنا ينجدل التقدم والتحرر والحضارة بعضها ببعض (الأعمال، ص ٢٦، ٣١، وفي صفحات متفرقة). وليس لهذا الثالوث عند زريق من ترجمة معيارية سياسية فقط، بل له أيضاً ترجمة خلقية على شكل المفهوم الكوني للفضيلة، بوجهيها الخاص والعام - بما هي ركيزة الحياة الاجتماعية والسياسية العقلانية (الأعمال، ص ٨٣٧، وفي صفحات متفرقة). وهذا الثالوث هو، إذاً، الأساس المعياري لنظرة شاملة إلى الكون والحياة تعرّف النظام الحضاري. أمّا النظرة الحداثية فإن قوامها الميزة العملية للعقلانية، العلموية منها والتاريخية، بأوسع معانيها (الأعمال، ص ٧٨٣ وما يليها). ذلك بأن الفضائل هي، في نهاية المطاف، طاقات على التجاوز الذاتي وعلى استبدال التحتيم الطبيعي بالتدبير والتحوّل الإنسانيين، وباختصار، بالتقدم التاريخي (الأعمال، ص ٨٣٧، وفي صفحات متفرقة). ومما لا شك فيه أن درجة التمدن التي يبلغها مجتمع معين تقاس بدرجة السيطرة التي يمارسها على الطبيعة - على الطبيعة الجسمانية، من خلال العلم والتنظيم العقلاني، كما على الطبيعة النفسانية وقوامها الغريزة والرغبة والعادة (الأعمال، ص ٧٢٢ - ٧٢٣)، وهذه الثلاث هي سوالف الأفكار الهمجية عن الهوية.

إن هذه التاريخانية البيكونية (نسبة إلى الفيلسوف البريطاني فرانسيس بيكون) هي أكثر الصيغ كلاسيكية فيما يتعلق بتعبيرها عن مناهضة الحتمية ومناهضة الغائيّة. وسنجد أن أوجه الشبه بينها وبين حداثية عبد الله العروي كثيرة، هذا إذا تغاضينا عن الاختلافات في المنظور والصيغة وعن قلة اكتراث العروي لقضايا العقيدة القومية. ذلك بأن أعماله تنطلق من فرضية وجود دولة - أمة متحققة هي المغرب العلوي، ذات استمرارية سُلالية طويلة وراسخة. ولا غرابة في تكاثر أوجه الشبه بين المفكّرَين زريق والعروي، فكلاهما صادر عن الحداثية العربية التي سبق ذكرها. إلى هذا، يجدر التشديد على درجة تحفظ زريق إزاء أية عقيدة تدعو إلى الحتمية التاريخية،

سواء أكانت المورفولوجيا الطبيعية لشبنغلر، أم النزعة التقليدية العاطفية، أم المذهبية، في التيار العربي المحافظ. ولا يوازي هذا التحفظ قوة غير نفوره من الاستتباعات التأصلية والضد إنسانية لتلك العقائد الداعية إلى الهويات البلدية (الأعمال، ص ٨٠٧ وما يليها، وفي صفحات متفرقة). وتزداد الحاجة إلى مثل هذا التشديد نظراً إلى المناخ السائد حالياً حيث المفاهيم الرومانسية الحيوية للتاريخ تعود بقوة من خلال المذاهب الأصولية في العالم العربي ونزعة المحافظة الأبوية الاجتماعية السائدة في القسم الأكبر من أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة المتعلقة بالعرب والإسلام في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، مثلما هي سائدة بالتأكيد في أوساط التشاؤميين في العالم العربي، وكلها نزعات وتيارات تزداد ميلاً إلى القبول بفكرة قَدَرية عن الخصائص المحلية الثابتة والقارة لشعب من الشعوب.

إن تاريخ العرب - وتاريخ سواهم من الشعوب - ليس، إذاً، محتوماً سلفاً أو محدداً كلياً بواسطة ثقل الماضي. ذلك بأن الممارسة الإنسانية في التاريخ هي دوماً وتعريفاً حبلى بالجدة. وإن تاريخية أمة من الأمم لا تتكون من مجرد الذاكرة ومن إحياء تلك الذاكرة (الأعمال، ص ٣٨٥). لعل زريقاً يردّ هنا على نظرية عفلق الأفلاطونية عن القومية بما هي شكل من أشكال التذكّر.[٨] على أن الماضي يبقى يفعل فعله، وأن له مضاعفات اجتماعية - سياسية وثقافية محددة، وتكمن مهمة الحاضر في أن يشحذ وعياً حاداً للحظة الحاضرة من أجل تحقيق التحويل التاريخي، أي من أجل الانتقال من «التاريخ العبء» إلى «التاريخ الحافز»، وهذا تمييز حاسم في فكر زريق (الأعمال، ص ٥٢٦ وما يليها) كما رأينا. هذه مهمة شبه إرادوية، على أن الإرادوية هنا تبقى متصلة بالممارسة المخصوصة للتاريخ الحديث، مع أن زريقاً لا يتناولها بالتفصيل اللازم.

إنما التاريخ العبء هو قوة سِحر وفوات تمتصّ القدرة على الفعل الإيجابي وتحرف الأنظار عن المهمات العملية الواجبة التنفيذ، مثلما تحرف الأنظار عن المنظور التاريخي المتطلع إلى أمام. والحق يقال إنه يمكن ويجب أن يكون الماضي عند زريق مصدر استلهام - ليس فقط بالمعنى البلاغي الذي به يعبر الفكر السياسي والاجتماعي العربي عن نفسه - بأن يوفر العناصر الإيجابية من هذا الماضي التي يمكن الاحتفاظ بها، على نحو إرادوي. والأهم أن الماضي يمكن ويجب أن يكون مصدر استلهام بما هو يوفّر المقارنة بين الماضي والحاضر، فيوفر بذلك مصدراً لمعرفة عناصر التأخر الموجودة في الحاضر، بما فيها ما يسمى «الهويات الأولية» -

(٨) ميشيل عفلق، في سبيل البعث (بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٩)، ص ٤١.

كالانتماءات المذهبية ـ ليحرّض من ثم على ضرورة تجاوزها. تلك هي النتيجة العملية لمعرفتنا الماضي، والأهم من ذلك لحكمنا عليه (الأعمال، ص ٥١٠ وما يليها).

إن ما يقترحه زريق هنا هو نظرية للتاريخ تتميز من الرومانسية التي خلبت لب ذلك الضرب من ضروب القومية العربية الذي اعتمد على مفهوم الهوية. ويجب ألاّ يغيب عن البال أن اللحظة الرومانسية في الفكر والحساسية القوميين ظاهرة عميمة، وأن العناصر الوضعية والرومانسية في الأيديولوجيات القومية وكتابات التأريخ القومية عناصر مشتركة بين التعبيرات القومية أينما كانت. أمّا تنويعاتها فتعتمد على نمط العلاقة القائمة بين الحركات القومية والدولة. ففي فرنسا، مثلاً، يجري التمييز، في الغالب، بين قومية الدولة المدنية والعلمانية وبين الشوفينية الرومانسية الوثيقة الاتصال بالرمزية الكاثوليكية (كما عند مورّا/ Maurras ولوبين/ Le Pen)،[٩] علماً بأن هذا التمييز لا يستثني أحياناً أن يقوم تحالف بين التيارين. وعلى غرار ذلك، فإن القومية الإيرلندية تحوي عنصراً كاثوليكياً وغَيْلياً (Gaelic ـ نسبة إلى الجنس الذي يتحدر منه الإيرلنديون) أكيداً، على أنه أكثر مركزية في البنية القومية مما هو عليه في فرنسا.[١٠] ويتكئ التيار الرومانسي والعضواني السالف الذكر على نزعة حيوية، وعلى المقارنات المجازية بكيانات بيولوجية (تمييزاً لها من الكيانات الميكانيكية)، فيرى التاريخ أنه نسيج دارويني ـ اجتماعي من التماثلات والتضادات بين مصائر وحدات إفرادية سابقة الوجود هي الأمم.[١١] وهذه نظرة تصل في شكلها الأصفى إلى الفاشية. وفي الغالب، يجري الربط بين هذا الشكل من الأيديولوجيا القومية وبين النظرات الثقافوية للقومية والنزعات الغوغائية الشعوبية الناجمة عن تمفصل ضعيف بين الدولة والقومية. كان ذلك هو حال القومية الألمانية، وقد استهلكتها الحقبة النازية الشديدة المفعول التجانسي بحيث حققت، في فترة زمنية قصيرة، أشكالاً من الاندماج ومن المثاقفة القومية اقتضى تحقيقها في فرنسا وإنكلترا قروناً من الزمن. والأمر ذاته ينطبق على بعض اللحظات الأساسية التاريخية من تطور القومية العربية.

---

(٩) بشأن هذا الموضوع الأخير، أنظر:

Pierre Birnbaum, «La France aux Francais,» in *Histoire des haines nationalistes* (Paris, 1993).

(١٠) أنظر:

Richard Kearney, *Transitions: Narratives in Modern Irish Culture* (Dublin, 1988), p. 242 ff.

(١١) Judith Schlanger, *Les métaphores de l'organisme* (Paris, 1971), p. 152 ff.

يسعى زريق لبناء شكل غير ثقافوي وغير رومانسي من القومية تأسيساً على مفهوم للتاريخ تطوري وتقدمي في آن واحد، مفهوم عميق الجذور في قراءة راهنة للتاريخ بدلاً من أن يكون بثاً ارتدادياً لغدٍ متمنّى على شاشات الماضي. والحال أن فكرة «المصير» القومي تؤدي دوراً مهماً في هذه الحالة الثانية، في ألمانيا القومية كما في القومية العربية في منوّعها العفلقي، إذ يعرّف عفلق خلود الأمة العربية بأنه «ليس سَير الحاضر إلى المستقبل، بل نقل المستقبل إلى الحاضر.»[١٢]

وبدلاً من هذه الفرضية عن أمة خالدة تتعدى التاريخ، وعن قومية هي «وعي مباشر لذات أصيلة الوجود منذ ما قبل المرحلة التفكّرية»،[١٣] يسعى زريق لتحقيق وعي تاريخي لولادة القومية وتكونها، مستبدلاً القومية الرومانسية لعفلق وأضرابه بالقومية التاريخانية.[١٤] وفي جذر هذا كله يكمن فهم للتاريخ الحديث يتلاءم مع بعض القراءات المعاصرة لتاريخ القومية؛ وهي قراءات قارنت بين وطنية الدولة الاستيعابية وبين القومية النابذة اللادولتية الصادرة من أسفل، مقارنة بالغة التشخيص والتركيب. إنها قراءات أكدت تاريخية الظاهرة القومية والدور الحاسم الذي يقوم به التعليم والتجنيد الإجباري والاتصالات والخدمة المدنية وأشكال المشاركة السياسية في تكوين الدولة القومية.[١٥] وبالتأكيد فإن زريقاً ينطلق من مبدأ أساسي هو

---

(١٢) عفلق، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.

(١٣) Sudipta, Kaviraj, «The Reversal of Orientalism: Bhudev Mukhophadhyay and the Project of Indigenist Social Theory,» in *Representing Hinduism,* eds., S. Dalmia and H. von Stietenkron (New Delhi, 1995), p. 256.

(١٤) بشأن هذا التمييز البالغ الأهمية، يحال القارئ على:

Friedrich Meinecke, *Historism* (London, 1972);

عبد الله العروي، مفهوم التاريخ (بيروت والدار البيضاء، ١٩٩٢). على أن وقع الرومانسية التاريخانية على بعض تعبيرات القومية العربية لم يُولَ ما يستحق من دراسة. أنظر مثلاً:

Al-Azmah, «Nationalism...,» op. cit., p. 12 ff;

الأنصاري، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٤ وما يليها.

(١٥) Ernest Gellner, *Nationalism* (London, 1983), pp. 32, 37, 48, 55; Eric Hobsbawm, *Nations and Nationalism* (London, 1990), pp. 9-11, 80 ff., 92-93, 120 ff.; Anthony Smith, «National Identity and the Idea of European Unity,» *International Affairs*, 68 (1992), pp. 61-62;

لقراءة دراسة لامعة عن التكون القومي، أنظر:

Eugen Weber, *Peasants into Frenchmen: The Modernization of Rural France, 1870-1914* (Stanford: Stanford University Press, 1976).

ضرورة تكوين عقلانية خلقية ترتكز على مبادئ الإدارة العلمية للمجتمع بما هو فكرة خلقية وكيان صادر عن تيارات مهيمنة في التاريخ الحديث، وأن وجود تلك الدولة هو الشرط المسبق لبناء الكيان القومي غير المقيّد بموانع ومبالغات تمليها عقيدة قومية مبتذلة وارتدادية وعاطفية على نحو وحشي. بعبارات تاريخية، فإن هذا يقابل تطورات عميقة لكنها هشة عرفتها الكيانات العربية منذ حقبة الإصلاحات العثمانية، تطورات حدّ من فاعليتها تمفصل لم تستطع منه فكاكاً بين الإرهاصات الداخلية والضغوط القاسية للحرب الباردة وللنزاع العربي ـ الإسرائيلي. تلك هي الكيانات السياسية التي أصلحت القانون والتعليم واضطلعت بمشاريع الهندسة الاجتماعية بنسب متفاوتة من النجاح، مدخلة أشكالاً سياسية وإدارية جديدة ومحققة أشكالاً أُخرى من التغيير التاريخي المستمر. وهذه كلها إنجازات يجري إنكارها الآن باستخفاف شديد بناء على الافتراض العبثي أن التيارات النكوصية في بعض الدول العربية الكبرى الآن إنما كانت مبرمجة برمجة جينية مسبقة تتعدى فعل التاريخ.

أمّا الحالة المأثورة للتعبير عن التفارق بين الضرب الوضعي ـ التاريخاني والضرب الرومانسي ـ التاريخاني للتعبير القومي العربي، فهي العلاقة المعقدة بين عرب اليوم وماضيهم، وبين القومية العربية والإسلام بنوع خاص.[١٦] لا شك في أن زريقاً يتحدث عن «شخصية» قومية عربية، إلاّ إنه يعرّفها بطريقة غامضة، مع أنه يرسي خصائصها المميزة برسوخ داخل حدود التاريخ لا خارجه، ويعنى عناية فائقة بألاّ يخلط تلك الخصائص بالخصائص اللاتاريخية التي يضفيها على تلك الشخصية مفكر مثل ميشيل عفلق. يؤكد زريق أن تراث الماضي إنما هو مكون شديد النقصان من مكونات الحاضر (الأعمال، ص ٢٤ وما يليها، ٣٩٢ وما يليها). والحال أن النزعة القومية العاطفية والصوفية عند عفلق قد تعرضت لنقد ساطع الحصري اللاذع.[١٧] وقد وصفت تلك النزعة مؤخراً بأنها «قصيدة نثر» تقدم إلينا خلطة غريبة من الفروض الخلقية والثورية الصبيانية.[١٨] إنها نظرة قومية مبنية على فكرة «القدر»، بل هي لون من ألوان «القومية السلبية»،[١٩] تتصور الفعل السياسي بما هو فعل غريزة مبرمجة برمجة مسبقة. وبالتأكيد، فإن القومية عند الحصري تحوي

(١٦) العظمة، العلمانية...، مصدر سبق ذكره، ص ٣١١ وما يليها.

(١٧) الحصري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠٣.

(١٨) مؤنس الرزاز، «نحو إعادة الاعتبار للفكر القومي»، أفكار (عمّان)، العدد ١١٧ حزيران/يونيو ـ تموز/يوليو ١٩٩٤، ص ١٢٩ وما يليها.

(١٩) جورج طرابيشي، الدولة القطرية والنظرية القومية (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٢)، ص ٦٢ ـ ٦٣.

مفاهيم عاطفية وشعورية تتعايش مع مفاهيمه الوضعية.[٢٠] على أن تلك العناصر تبقى مشدودة إلى مفهوم معين للغة بما هي نتاج تاريخي متحاشية التحليق في فضاءات الأثيرية والتجاوزية التي تعبر عنها فكرتا «الخلود» و«القدر». ومع أن الحصري يؤكد أهمية اللغة في تشكيل الثقافة القومية والإرادة القومية المشتركة، إلاّ إنه يفعل ذلك، والحق يقال، من دون مبالغة أو شطط.[٢١] على أن الحصري لا يبدو أنه أدرك أن اللغة وإن تكن سابقة على نشوء القومية إلاّ إن اللغة القومية لا تنشأ إلاّ مع نشوء القومية.[٢٢]

يدرك زريق إدراكاً واضحاً أن النظرة الرومانسية والعاطفية إلى الماضي ترتبط على نحو حتمي تقريباً بالقومية، ويميز التفسير الديني للماضي، السائد في زمانه، فيورد أسماء عباس محمود العقاد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل (الأعمال، ص ٣٩٢ وما يليها). ولا عجب من أن يقتصر زريق على ذكر المفكرين المصريين بالذات في هذا الصدد. ذلك بأن هذا الخلط العاجز الذي ينعدم معه أي تمييز على مستوى العاطفة بين العروبة أو القوميات المحلية من جهة، وبين الإسلام من جهة أُخرى، يوقعنا في مستنقع عائد إلى العصر الجوراسي. وهذا النقل، اللامسؤول والعديم التوسطات، لتلك العاطفة إلى كتابة التاريخ والمفاهيم المجتمعية، كان إلى أمد غير بعيد، إنجازاً مصرياً في الدرجة الأولى (مع استثناءات مشرقية قليلة في كتابات محمد عزة دروزة مثلاً). ومردّ ذلك الظروف المخصوصة التي بها ظهرت أفكار العروبة في مصر[٢٣] في إطار النزعة القومية المحافظة المتعصبة والمتحالفة مع الغوغائية البرلمانية ومع لون من الحداثية الاعتذارية.[٢٤]

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٧٨، ١٠٥، ١٣٢.

(٢١) الحصري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤٧ وما يليها، ١٧٩٣ وما يليها.

(٢٢) طرابيشي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩؛ وانظر أيضاً:

Hobsbawm, op. cit., pp. 38, 60.

(٢٣) أنيس صايغ، تطور الفكرة العربية في مصر (بيروت، ١٩٥٩)، ص ١١٨، ٢١٠، ٢٣٠ وما يليها؛ عبد الرحمن البزاز، هذه قوميتنا (القاهرة، ١٩٦٤)، ص ٤٠٠ وما يليها؛ محمد حسين هيكل، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (بيروت، ١٩٧٠)، ج ٢، ص ١١٣.

(٢٤) عن الحداثة الاعتذارية، أنظر: العظمة، العلمانية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٠ وما يليها، ٢٢١ وما يليها. لنصّ مازج بين العروبة والإسلام، أنظر: عصمت سيف الدولة، عن العروبة والإسلام (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)؛ وانظر أيضاً:

Alain Roussillon, *Réforme sociale et identité: pensées, idéologies, société en Egypte,*

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة السوربون الجديدة، باريس الثالثة، ١٩٩٤.

في المقابل، كانت القومية العربية المشرقية في فترة ما بين الحربين وفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية حاسمة في تمييزها بين القومية العربية والإسلام. وكانت الفكرة القائلة إن الدين كان ركيزة عصر ما قبل الحداثة، وإن القومية هي عقيدة العصر الحديث، فكرة كلية الحضور في المشرق.(٢٥) يستشهد الحصري بخطبة للملك فيصل في حلب في حزيران/يونيو ١٩١٩ يعلن فيها أن العروبة سابقة على الرسول ويسوع المسيح والنبي موسى وحتى إبراهيم النبي.(٢٦) وإذا ضربنا صفحاً عن الضرورات البلاغية للحظة تلك، نجد أن هذه الفكرة عميقة الجذور في أفكار التمييز الصارم بين الدين والكيان السياسي، والتمييز التاريخي بين العروبة والإسلام.(٢٧) على أن هذا لا يعني، بأية حال، نفي العلاقة التاريخية بين تكوّن العرب بما هم شعب في التاريخ العالمي وبين الإسلام، ولا هو يعني، طبعاً، التنكر للدين. على أن العروبة قد وُصفت دوماً بأنها حركة قومية تتضمن الإسلام بما هو روح جماعية غامضة كامنة فيها، وبما هو حافز تاريخي لها، إضافة إلى كونه عاملاً ساهم في نشر اللغة العربية وحافظ على استمراريتها.(٢٨) وعلى الأقل، يوجد مفكر قومي واحد رأى أن الدور الجاهلي للعروبة كان أفضل وأكثر ذكورية من المنوّع الإسلامي، ويملك غرائز دينية استبقت نشوء الإسلام، مؤكداً أنه بمقدار ما يبتعد العرب عن عادات الجاهلية، بذلك القدر يبتعدون عن مروءة العرب، بل عن الإسلام ذاته.(٢٩)

وهناك أيضاً وجهة نظر ترى أن الإسلام لم يكن قومية ولا كان ثقافة، وأن ثقافة الإسلام إنما كانت الثقافة العربية؛ وهي وجهة نظر مفهومة وغير مثيرة للجدال في هذا الإطار.(٣٠) والمؤكد طوال تلك الفترة ـ فترة الفكر القومي العربي الكلاسيكية ـ

(٢٥) بين المراجع الكثيرة عن الحصري، يمكن مراجعة: البزاز، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦ وما يليها، ١٨٩ وما يليها؛ سامي شوكت، هذه هي أهدافنا (بغداد، وزارة المعارف، ١٩٣٩)، ص ٥٩؛ زكي الأرسوزي، مشاكلنا القومية وموقف الأحزاب منها (دمشق، ١٩٥٩)، ص ١٧.

(٢٦) ساطع الحصري، يوم ميسلون (بيروت، ١٩٤٧)، ص ٢١٥.

(٢٧) أنظر مثلاً: الحصري، الأعمال...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٠٢ وما يليها؛ العظمة، العلمانية...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥ وما يليها.

(٢٨) Rabbath, op. cit., p. 46 ff;
البزاز، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨ وما يليها.

(٢٩) زكي الأرسوزي، المؤلفات الكاملة (دمشق، ١٩٧٥)، ج٥، ص ٥٦، ٧٣، ٤٤٥ وما يليها.

(٣٠) عبد اللطيف شرارة، الجانب الثقافي من القومية العربية (بيروت، ١٩٦١)، ص ٢٨ وما يليها، ٧٧ وما يليها.

هو التجنب الدقيق لإغراء الدمج بين العروبة والإسلام بما هما مَجازان ينوب واحدهما عن الآخر. ونجم عن ذلك أن التحويل السهل لمفردة «الأمة» بجناسها المؤسف، من السجل القومي إلى السجل الإسلامي كان نادراً جداً، على عكس ما كان يجري في مصر قبل الناصرية. والحال أن الفكر الناصري، كما عبرت عنه خطابات جمال عبد الناصر، قد حافظ على التمييز الصارم بين دلالتي مفردة «الأمة» القومية والإسلامية، وباستثناء استخدام المفردة في المجال الدبلوماسي أو العلاقات الخارجية، لن نعثر في الفكر الناصري على أثر لاستخدام مفهوم الأمة الإسلامية في دلالتها المستخدمة في الخطاب السياسي للإخوان المسلمين، أو في الميل المستجد إلى عدم التمييز بين الدلالتين.(٣١) لعل الفكر الناصري خير بيان على هيمنة المفهوم العلماني للقومية في الفترة ما قبل العقدين الأخيرين. على أن هذا لا ينفي أن عبد الناصر، ومعه سائر القوميين العرب، لم يحجموا عن أداء خطاب ديني، لكن هذا كان له أطر مؤسسية وثقافية مختلفة عن أطر البلورة القومية والبناء القومي. كان التشديد في الخطاب القومي على تمايز القومية، وما ارتبط به من مفهوم واضح لموقع الدين في التشكيلات السياسية، والبلاغة الإشراكية التي تحيل المضاعفات المعيارية والأيديولوجية من الواحد على الآخر أو تدمجهما معاً في حقل شعوري واحد، هذه كلها كانت تنتمي إلى ميدان مختلف كلياً عن ميادين البلورة الأيديولوجية.(٣٢) ولا عجب من أن يتم ذلك في دول علمانية، أو في دول تسعى لأن تكون علمانية في رسالتها المعلنة. ذلك بأن اليعقوبية العلمانية، بما هي سياسة رسمية للدولة، لم تكن هي القاعدة في التاريخ الكوني الأطول للعلمانية وفي تحوله إلى تحقيق الغلبة المؤسسية والمعرفية، بل اقتصر اعتمادها على عدد محدود من البلاد هي فرنسا، والمكسيك، وتركيا، والدول الشيوعية.

سبق أن ذكرت اعتقادي أن الفكر القومي عند زريق هو وليد دراسته للتاريخ بعامة، من جهة، ودراسته للواقع السائر إلى التقدمية والحداثية في التاريخ المعاصر مترجماً في إنجازات الدولة العربية الحديثة، من جهة أُخرى. ويرى زريق، في قراءته لدور الدين في التاريخ والسياسة، أن محورية دور الدين تنتمي إلى عهد ثيوقراطي سابق، فتجده لا يولي الدين دوراً مؤسساتياً في تكوين الكيانات السياسية الحديثة التي

(٣١) مارلين نصر، التصور القومي في فكر جمال عبد الناصر، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠: دراسة في علم المفردات والدلالة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١)، ص ٣٤٤ وما يليها، ص ٣٦٠ وما يليها.

(٣٢) Aziz Al-Azmeh, *Islams and Modernities* (London: Verso, 1st ed., 1993), p. 68 ff.

يرى أنها كانت ترتكز على أسس علمانية ويجب أن تبقى كذلك. ومواقفه في هذا الصدد تأتي في سياق الخطابات القومية المهيمنة في زمنه، وإن تكن تملك قاعدة مفهومية أرسخ تجذراً في تأملاته الأكثر شمولاً في أنماط التطور التاريخي. من هنا يمكن النظر إلى مواقف زريق على أنها مكملة، في أوجه كثيرة منها، لدراسات ساطع الحصري عن القومية الأقل تبلوراً منها، وإن تكن الأخيرة أكثر شمولاً من الناحية التجريبية لإحاطتها التفصيلية بالظاهرة القومية على النطاق العالمي.

والحال أن زريقاً منسجم مع سائر المفكرين الوضعيين والتاريخانيين بين القوميين العرب في تأكيده التمييز بين العروبة والإسلام وتشديده، المفهوم جداً، على أن التمايز لا يؤدي، بالضرورة، إلى التنابذ، شرط أن يتم الاعتراف المتبادل بين الدين والقومية في ميدان التاريخ لا في مناخ تجاوزي أو متعالٍ عن التاريخ، هو مناخ أجدر بأن نعزوه إلى عالم التهويمات. من هنا، يجب الاحتراز من الدين المسيّس الذي تمارسه المؤسسات والقوى الدينية لأنه متعارض مع البناء والاندماج القوميين على أرض راسخة من السلم المدني والمواطنية (الأعمال، ص ٣٥، وفي صفحات متفرقة).

هذا التقويم الإيجابي للطاقات الخلقية الكامنة في الشعور الديني، وما يرتبط بها من ضرورة إبعاده عن السياسة واقتصاره على النطاق الفردي، أمران لا ينفرد بهما زريق، بل شاركه فيهما معظم دعاة القومية العربية في ضربها الذي كان سائداً إلى أمد قصير. على أن من الضروري أن نلقي الضوء على تطور جديد يجري عكسه على الخلف والافتراض أنه أصلي ومبتكر، وهو التطور الذي يفرض فكرة الفسيفساء اللاتاريخية، والمنحازة سياسياً، نموذجاً للمجتمعات العربية، معتبراً أن كل قطعة من هذه الفسيفساء إنما هي وحدة سياسية، بل وحدة شبه قومية، قائمة بذاتها ومتميزة من الوحدات الاجتماعية والتاريخية. وتجنح هذه النمذجة إلى النظر إلى الإسلام على أنه مضمر في القومية العربية. وهو موقف متحدر من أفكار كانت هامشية في السابق، اللهم إلاّ في مصر قبل الناصرية، يعود أصلها إلى حركة الإصلاح الإسلامية في نسختها الحركية. في إطار تلك العروبة المهيمنة، ذات المضمر العلماني، شكلت الخصوصيات الدينية أو المذهبية، على أنواعها، لا أكثر من مجرد «تلوين» من التلاوين، بحسب تعبير مراقب لمّاح.[٣٣] على أن تلك الخصوصيات ما لبثت أن تسربت إلى الأيديولوجيا القومية العربية من خلال نسختها الرومانسية

(٣٣) Jacques Berque, *Arab Rebirth: Pain and Ecstasy*, trans. by Quitin Hoare (London, 1983), p. 47.

الجامحة.[٣٤] وأبرز طريقة لقياس تلك المسألة هي في أن نختم حديثنا بمقارنة بين الأفكار عن النبي محمد كما وردت في نصين، نص زريق سنة ١٩٣٩ (الأعمال، ص ١١٧ وما يليها) وآخر لميشيل عفلق سنة ١٩٤٣،[٣٥] وكلاهما محاضرة بمناسبة ذكرى المولد النبوي.

في نص سابق عن الروائي الفرنسي مارسيل بروست، قابل ميشيل عفلق النبي بالكاتب، قائلاً إن الأول يجدّد ولو حُكم على تجديده باليباس وتالياً بالموت لأنه يقرر أن جديده لن يتغير، بينما الثاني ينافح عن الحرية بلا حدود.[٣٦] إن هذا التقديس للكاتب بما هو «خالق» (أو «مبدع» من تعبير اليوم) في ممارسته الحرية اللامحدودة، سيتحول، في مديح عفلق لرسول الإسلام، ليشمل الأمة كلها فيصير ما أسبغه على الكاتب صفة يتصف بها كل عربي يعيش عروبته كاملة. في ذلك، تجد العربي، المتحرر من الزمان والمكان، يشارك في حياة الرسول ويعيش سيرة الرسول مكررة، ذلك بأن الرسول هو نتاج حياة العرب المطلقة، ومُنجِب الأمة في آن واحد. كلاهما يشارك في «حياة العرب المطلقة». وهكذا يصير الرسول هو العربي النموذجي، وتصير القومية العربية هي التجلي لنبوءته، فلا الرسول ولا العروبة خاضعان لفعل الزمان أو المكان، وكلاهما لا يمكن تصوّره محدوداً بحدود، كلاهما لا يُعرف إلاّ بالتجربة الحيوية التي يجري تمثلها فردياً بما هي قوة القدر العصية على الإدراك بواسطة التدبير الفكري أو العقلاني.[٣٧] وكلاهما وجه لـ «الحياة» بما هي «إرادة»، أي بما هي لازمة بيولوجية من لوازم مدرسة الحيوية اللاعقلانية التي بلورها الألمان في القرنين التاسع عشر والعشرين تحت اسم Lebensphilosophie. وكانت تلك النزعة ذات أهمية كبيرة لدى الحركات القومية اليمينية في أوروبا وسواها. هنا يجري النظر إلى الوعي القومي بما هو شكل مخصوص من أشكال الغريزة البيولوجية، مثلها مثل الولاء القَبَلي.

(٣٤) لتحليل مفصل عن هذه الظاهرة، أنظر: العظمة، العلمانية...، مصدر سبق ذكره، ص ٣١١ وما يليها.

(٣٥) نشر هذا النص غير مرة، بما في ذلك في مجموعة في سبيل البعث، ص ١٢٢ وما يليها. نستشهد به من قراءات في الفكر القومي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤)، ج٣، ص ٦٣ وما يليها.

(٣٦) ميشيل عفلق، الكتابات الأولى، تحرير ذوقان قرقوط (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٣)، ص ٧٦.

(٣٧) عفلق، قراءات في...، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ٤، ٧٦؛ شبلي العيسمي، في المصدر نفسه، ص ٦٣٦.

إن هذه النزعة النبوية الإبداعية والعرفانية للعربي، العربي الأصيل، هي، تعريفاً وتحت شعار الأبدية، طاقة للتجدد والتكرار الأبديين، وليست عرضة للآثار المعوقة للدين التي سبق أن أشار عفلق إليها في نصه عن بروست. ذلك بأن الرسول العربي ورسالته الدينية باتا يتشاركان جوهرياً مع العروبة بما هي طاقة حياتية. وهذه نظرة إلى الجماعات القومية دارجة في القومية الرومانسية التي تصف حياة الأمم بما هي ديمومة، تشوبها أحياناً كبوات موقتة، وهي ليست غريبة عن منوعات العروبة الرومانسية التي تظهر بشفافية في كتابات جبران خليل جبران مثلاً.[٣٨]

أمّا الحصيلة العملية لهذا الهذر البلاغي فهي أنه يمكّن عفلقاً من أن يدعي، في الخطاب الإصلاحي والتبريري العادي، أن الإسلام خالد، إلاّ إنه كيان يتطور في آن واحد، لكنه يتطور من دون تميز تاريخي، وهو ما يجعل موقعه عرضة لكل التقلبات التي يراها ضرورية بحسب اللحظة السياسية أو المناسبة البلاغية. وهكذا تجد عفلقاً في وصيته الأخيرة، يشهر إسلامه، إسلاماً لرسالة ولعمل. فينسف بذلك سائر أقواله، في الوصية ذاتها، من أنه فَقَدَ كل إيمان عقيدي وهو في الخامسة عشرة من عمره، وأنه رباني المذهب، وأن إسلامه إن هو إلاّ اتصال صوفي مع ثوري كبير آخر.[٣٩]

أمّا زريق، في المقابل، فهو شديد الوعي أن للكلمات لزومات عملية يفرضها الظرف التاريخي الذي يتجاوز لحظة التفوه بها. فلن تجد في نواح من كتاباته أية شبهة لعقيدة متعالية عن التاريخ أو لعقيدة جوهرية أو لنظرية ترى القومية على أنها بمثابة الـ «حياة» لجسم عضوي بيولوجي هو الأمة، حياة تفرض «قَدَرَها» فرضاً. والرسول محمد هو عند زريق أرقى شخصية بطولية عربية ومصدر استلهام، لكنه ليس «جوهراً» قومياً يتجلى في التكرار. لا يقابل زريق الرسول محمد بغاريبالدي، ولو أنه لم ينفِ التشابه بينهما كما رأينا، إلاّ إنه يعدد صفاته بما هو شخصية قومية ملهمة. فالرسول شخصية تاريخية تستوجب التبجيل بما هو موحّد للعرب في مرحلة سابقة من تاريخهم، شخصية يجب التمثل بها بما هو رجل ذو مبدأ خلقي رفيع ـ وهي صفة يشترك فيها مع سائر العقائديين والرسل والأنبياء.

هكذا، فإن الرسول عند زريق شخصية تاريخية ملهمة وليس حضوراً أبدياً. ورسالته موحية، رمزياً وتاريخياً في آن واحد، بأنه ترك لنا ديناً ومارس نفوذاً حاسماً على الثقافة العربية في فترتها التكوينية. ومثلها مثل أية ديانة، فإن ديانة النبي محمد

(٣٨) جبران خليل جبران، العواصف، في: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران (بيروت، ١٩٦٤)، ص ٤٦١ وما يليها.

(٣٩) عفلق، «وصية عفلق»، في: الكتابات...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

كان لها أثر بالغ في عرب الأمس، ولا يجوز الخلط بينها وبين القومية بما هي ظاهرة حديثة كلياً. ينتمي الدين في العالم الحديث إلى النطاق الفردي الخاص، وقد جعلت منه قوةُ التطورات التاريخية ذاتها مصدراً للطاقة المعنوية والسلوك الخلقي. أمّا خارج هذا النطاق الفردي الخاص، فإن الديانة في العالم العربي الحديث مهددة بأن تقع فريسة الخلط بين الروح الدينية الخلقية الأساسية وبين العصبية الجماعية. والحال أن الحداثة وأفكار التنظيم الديني متنافية فيما يتعلق بالمبدأ، وأن الأدلة التاريخية على النزاع والتداخل بينهما لا تعد ولا تحصى.

وهكذا، فإن القومية التاريخانية عند زريق، على عكس تاريخانية عفلق، تقاوم الاستعارة العضوانية عن الأمة، مثلما تقاوم إغراء أخذ هذه الاستعارة على أنها متطابقة مع مدلولها، وهي تمتنع من الخلط بين القيمة الرمزية والشعورية للماضي وبين واقع الحاضر. ثم إن هذه القومية التاريخانية عنده، على عكس التاريخانية الرومانسية عند سواه، تتحاشى الوقوع في فخ التوهمات الذي تنصبه التاريخانية بعامة. ذلك بأن هذه العقيدة الأخيرة عقيدة كبوات واستمرارية. إنها عقيدة جوهرية شرهة تستطيع أن تلتهم القومية والدين، بلا تمييز بينهما، طاردة هذا وتلك من حومة التاريخ، كما أنها قابلة لأن تلتهم المشاعر والذاكرات الفعلية جميعها، غير معوقة بفعل الزمن. إنها، بعبارات أُخرى، عقيدة فراغ تملأها «أمةٌ» هنا و«أمةٌ» هناك، بحيث يصير الانتقال من القومية إلى الإسلامية لا يكاد يلحظ، مثله مثل الانتقال من القومية الوضعية العثمانية إلى القومية الوضعية العروبية. إلاّ إن انتقالات أُخرى تفعل فعلها الآن؛ ذلك بأن الرومانسية لن تلبث أن تستفرغ من جوفها ما احتفظت به مغابن للتاريخ تستعيد في عصر ما طابقته، كانت فيه وكأنها ولت تلك «الأمة» على شكل كيانات أُخرى، كل واحدة منها تحمل الصفات العضوانية إياها، صفات الكبوة والاستمرارية والجوهرية. وبهذا نقصد: المذاهب والديانات والإثنيات والجماعات، تلك التي يسمونها «هويات». وما القومية العربية عند زريق إلاّ سياق تجاوز مغابن التاريخ هذه، وتركها وراءنا، كي يتسنى لنا الترفع عن التاريخ العبء، والانتقال من الحاضر إلى جدارة الانتقال إلى المستقبل. تلك تَركته لنا، وذلك مناط انتصارنا له استصلاحاً تاريخياً، ينتقل بعربي القرن العشرين إلى نسيج القرن الحادي والعشرين. ولعل ما يسهّل على ذكرى زريق الانتقال من القرن العشرين إلى ما هو تالٍ له، اندراج مفردات تشخيصاته وتوصياته في أواخر حياته[٤٠] في مزيج من القومية والعقلانية الليبرالية التي توافق مفرداتها مفردات أحد ضروب الخطاب العربي السياسي والاجتماعي في الأعوام

(٤٠) ما العمل (بيروت، ١٩٩٨).

الأخيرة: العقلانية والرشاد والديمقراطية، الأمر الذي نجده عاضداً لإشادة أي كيان تاريخي فاعل في وضع متّسم بصعوبات وموانع بالغة، مع كونه متوافقاً مع، بل في بعض الأحيان معتصماً بخطاب سياسي عالمي الانتشار.

المَصَادِر

أولاً: كتابات الدكتور زريق

أوردنا هذه الكتابات، المنشورة منها وغير المنشورة، كما أوردنا المقابلات الصحافية التي أجريت مع الدكتور زريق، في الفهرست الشامل لأعماله الوارد في آخر هذا الكتاب، مع الملاحظة أن كل ما كان غير منشور منها موجود ضمن أوراقه المحفوظة لدى أُسرته.

ثانياً: المصادر غير المنشورة

- أوراق الدكتور قسطنطين زريق المحفوظة لدى أُسرته، والمتضمنة نص مذكراته التي كتبها في نهاية عمره، ورؤوس أقلام أو مسودات محاضراته المنشورة وغير المنشورة، ومراسلات ووثائق متعلقة بأنشطته المتعددة، مرتبة في ملفات على التاريخ أو على الموضوع، لكن من دون أرقام متسلسلة. تتضمن هذه المادة بند «الأعمال غير المنشورة» في الفهرست.
- محفوظات جامعة دمشق (ملف متعلق بالدكتور زريق ـ من دون رمز أو رقم متسلسل).
- محفوظات الجامعة الأميركية في بيروت (مظروف متعلق بالدكتور زريق ـ مغلق للعموم ـ من دون رمز أو رقم متسلسل).

ثالثاً: المقابلات

الدكتور نبيل خوري، بيروت، ١٤/٢/٢٠٠١.
الدكتور سمير خلف، بيروت، ١٦/٢/٢٠٠١.
الدكتور نقولا زيادة، بيروت، ٢٧/٢/٢٠٠١.
السيد شفيق جحا، بيروت، ١٤/٣/٢٠٠١.
السيد واصف كمال، بيروت، ٤ و٥/٤/٢٠٠١.
السيد هاني الهندي، بيروت، ٩/٤/٢٠٠١.
المطران جورج خضر، برمانا، ١١/٤/٢٠٠١ و١٦/٥/٢٠٠٢.
الدكتور عدنان البخيت، عمّان، ١٦/٤/٢٠٠١.
الدكتور كمال صليبي، عمّان، ١٩/٤/٢٠٠١.

الدكتور جورج طعمه، عمّان، ٢٠/٤/٢٠٠١.
غبطة البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم، دمشق، ٢٤/٦/٢٠٠١.
السيدة عفاف زريق، بيروت، ٦/٧/٢٠٠١.
السيدة نجلاء زريق، بيروت، ١٩/١٠/٢٠٠١.
السيد منح الصلح، بيروت، ١٦/١١/٢٠٠١.
الدكتورة هدى زريق، بيروت، ٢٤/١١/٢٠٠١.
الدكتور محمد يوسف نجم، بيروت، ١٢/١٢/٢٠٠١.
الأستاذ غسان تويني، بيروت، ١٧/٤/٢٠٠٢.
السيد رفعت النمر، بيروت، ١١/٦/٢٠٠٢.
الدكتور علي حمية والدكتور هشام شرابي، حاصبيا، ١٦/٦/٢٠٠٢.
الدكتور رمزي البعلبكي، بيروت، ١٨/٦/٢٠٠٢.
السفير نديم دمشقية، بيروت، ٢٩/١٠/٢٠٠٢.

رابعاً: المظانّ الأُخرى

لقد استُثنيت من اللائحة التالية الدراسات التي تتناول الدكتور زريق حصراً، والتي جرت فهرستها في الفهرست الشامل لما كتب عنه والوارد بعد الفهرست الشامل لأعماله المثبت في آخر هذا الكتاب.

(أ) بالعربية

ـ الأرسوزي، زكي. مشاكلنا القومية وموقف الأحزاب منها. دمشق، ١٩٥٩
ـ ــــــ. المؤلفات الكاملة. دمشق: مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، ١٩٧٥.
ـ ألف باء (دمشق)، ١٦/٥/١٩٥١.
ـ الإمام، رشاد. «كنت الطالب الأول في حصولي على دكتوراه في تاريخ العرب الحديث في الجامعة الأميركية». اللواء، ٣١/٨/١٩٩٩.
ـ الأنصاري، محمد جابر. الفكر العربي وصراع الأضداد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٦.
ـ باروت، محمد جمال. حركة القوميين العرب: النشأة ـ التطور ـ المصائر. دمشق: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٧.

ـ البزاز، عبد الرحمن. هذه قوميتنا. القاهرة: دار القلم، ١٩٦٤.
ـ بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي المنعقد في قرنايل في ٢٤ أغسطس ١٩٣٣. دمشق: المطبعة العصرية، لا تاريخ [١٩٣٣].
ـ البيطار، نديم. «الفعالية الثورية في النكبة». بيروت: دار الاتحاد، ١٩٦٥.
ـ التل، سهير السلطي. حركة القوميين العرب وانعطافاتها الفكرية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦.
ـ تيخونوفا، تاتيانا. ساطع الحصري، رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي. موسكو: دار التقدم، ١٩٨٧.
ـ جبران، جبران خليل. العواصف، في: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران. بيروت: دار صادر، ١٩٦٤.
ـ جبري، شفيق. «مرونة دمشق»، في: مجلة مجمع اللغة العربية، العدد ٥٥ (١٩٨٠)، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٩.
ـ جبور، جبرائيل. من أيام العمر. بيروت: جمعية أصدقاء الكتاب، ١٩٩١.
ـ جحا، شفيق. دارون وأزمة ١٨٨٢ بالدائرة الطبية وأول ثورة طلابية في العالم العربي. بيروت: لا ناشر، ١٩٩١.
ـ الجواهري، عماد أحمد. من تاريخ الحركة العربية المعاصرة ـ نادي المثنى. بغداد: دار الجاحظ، ١٩٨٤.
ـ الحصري، ساطع. الأعمال القومية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.
ـ ــــــ. يوم ميسلون. بيروت: مكتبة الكشاف، ١٩٤٧.
ـ حمادة، حسين عمر. الماسونية والماسونيون في الوطن العربي. دمشق: صبرا للطباعة والنشر، ١٩٨٦.
ـ الحوت، بيان نويهض. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ ـ ١٩٤٨. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١.
ـ خضر، جورج. «الأرثوذكسية في الكراسي الشرقية في السنين المئة الأخيرة»، في: الله والإنسان في الفكر المسيحي المعاصر، تحرير شارل مالك. بيروت، الجامعة الأميركية، ١٩٧٠، ص ٥ ـ ٧.
ـ دروزة، الحكم. الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية. بيروت: مكتبة منيمنة، ١٩٦٣.
ـ دروزة، محمد عزة. دروس التاريخ العربي، من أقدم الأزمنة إلى الآن. دمشق: مطبعة الترقي، الطبعة السادسة، ١٩٣٩.

- الرزاز، مؤنس. «نحو إعادة الاعتبار للفكر القومي». أفكار (عمّان)، العدد ١١٧ (حزيران ـ تموز/يونيو ـ يوليو ١٩٩٤).
- سيف الدولة، عصمت. عن العروبة والإسلام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦.
- الشاعر، جمال. سياسي يتذكر. لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٨٧.
- شرارة، عبد اللطيف. الجانب الثقافي من القومية العربية. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١.
- شكري، غالي. «استراتيجية الاستعمار الجديد في معركة الثقافة العربية». الطليعة (القاهرة)، ٣ (يوليو ـ ديسمبر ١٩٦٧).
- الشهبندر، عبد الرحمن. القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي. القاهرة، ١٩٣٦.
- ———. نصوص في الدولة والخلافة في الخطاب العربي، تحرير وجيه كوثراني. بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٦.
- شوكت، سامي. هذه هي أهدافنا. بغداد: وزارة المعارف، ١٩٣٩.
- صاغية، حازم. قوميو المشرق العربي، من درايفوس إلى غارودي. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠.
- صايغ، أنيس. تطور الفكرة العربية في مصر. بيروت، ١٩٥٩.
- صليبي، كمال. طائر على سنديانة ـ مذكرات. عمّان: دار الشروق، ٢٠٠٢.
- طرابيشي، جورج. الدولة القطرية والنظرية القومية. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٢.
- طيبي، بسام. «الفكر والهزيمة». مواقف، ٨ (١٩٧٠)، ص ١٦٠ ـ ١٦٥.
- عبود، مارون. مؤلفات مارون عبود. بيروت: دار مارون عبود، الطبعة الثانية، ١٩٨٣.
- العروي، عبد الله. مفهوم التاريخ. بيروت؛ الدار البيضاء، ١٩٩٢.
- العظمة، عزيز. الأصالة أو سياسة الهروب من الواقع. بيروت: دار الساقي، ١٩٩٢.
- ———. دنيا الدين في حاضر العرب. بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٦.
- ———. العلمانية من منظور مختلف. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٩٨.
- عفلق، ميشيل. في سبيل البعث. بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٩.
- ———. الكتابات الأولى، تحرير ذوقان قرقوط. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٣.
- العلايلي، عبد الله. دستور العرب القومي [١٩٤١]. بيروت: دار الجديد، ١٩٩٦.
- علوش، ناجي. المسيرة إلى فلسطين. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٤.

- غنما، أمجد ذيب. جمعية العروة الوثقى، نشأتها ونشاطاتها. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٢.
- فارس، هاني. النزاعات الطائفية في تاريخ لبنان الحديث. بيروت: الدار الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠.
- فروخ، عمر. غبار السنين. بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٨٥.
- قراءات في الفكر القومي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤.
- مطر، فؤاد. حكيم الثورة ـ قصة حياة الدكتور جورج حبش. لندن، ١٩٨٤.
- المقدادي، درويش وأكرم زعيتر. تاريخنا بأسلوب قصصي. بغداد: وزارة المعارف، ١٩٣٩.
- المنجّد، صلاح الدين. أعمدة النكبة. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٩.
- مؤنس، حسين. الحضارة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ١، ١٩٧٨.
- النادي الثقافي العربي خلال ٣٥ عاماً. بيروت: النادي الثقافي العربي، ١٩٨٠.
- نبذة عن أعمال الجامعة السورية خلال العام الدراسي ١٩٥٠ ـ ١٩٥١. دمشق: الجامعة السورية، ١٩٥١.
- نسيبة، حازم زكي. القومية العربية: فكرتها نشأتها، تطورها. ترجمة عبد اللطيف شرارة. بيروت: دار بيروت بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين، ١٩٥٩.
- نصر، مارلين. التصور القومي في فكر جمال عبد الناصر، ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠: دراسة في علم المفردات والدلالة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١.
- الهندي، هاني وعبد الإله النصراوي. حركة القوميين العرب: نشأتها وتطورها عبر وثائقها، ١٩٥١ ـ ١٩٦٨، الكتاب الأول، ١٩٥١ ـ ١٩٦١. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠١.
- هيكل، محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. بيروت، ١٩٧٠.
- واصف كمال: شاهد على قضية فلسطين وقضايا عربية، إعداد هالة سليمان الأسعد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١.

ب) باللغات الأخرى

١) الكتب:

- Al-Azmeh, Aziz. *Islams and Modernities*. London: Verso, 2^{nd} ed., 1996.
- ——. «Nationalism and the Arabs.» in *Arab Studies Quarterly*, 17 (1995).
- Berque, Jacques. *Arab Rebirth: Pain and Ecstasy*. Quitin Hoare, trans. London, 1983.
- Birnbaum, Pierre. «La France aux Français.» in *Histoire des haines nationalistes*. Paris, 1993.
- Casanova, José. *Public Religions in the Modern World*. Chicago and London: Chicago University Press, 1994.
- Choueiri, Y. *Arab Nationalism: A History*. Oxford: Blackwells, 2000.
- Dodge, B. *The American University of Beirut*. Beirut: American University of Beirut, 1958.
- Gellner, Ernest. *Nationalism*. London, 1983.
- Gendzier, Irene L. *Notes from the Minefield: United States Intervention in Lebanon and the Middle East, 1945-1958*. Boulder: Westview Press, 1999.
- Grobba, F. *Männer und Mächte im Orient: 25 Jahre diplomatischer Tätigkeit im Orient*. Göttingen: Musterschmitt, 1967.
- Hirszowicz, L. *The Third Reich and the Arab East*. London and Toronto: Routledge and Toronto University Press, 1966.
- *Histoire de l'humanité: Développements culturelles et scientifiques*. Paris: André Laffont, 1963-1968 (*History of Humanity: Cultural and Scientific Developments)*. London: George Allen and Urwin, 1963-1968.
- Hobsbawm, Eric. *Nations and Nationalism*. London, 1990.
- Hourani, Albert. *Arabic Thought in the Liberal Age*. London, 1962.
- ——. «The Arab Awakening: Forty Years After.» in *Studies in Arab History: The Antonius Lectures, 1978-1987*. London: Macmillan, 1990.
- Kaviraj, Sudipta. «The Reversal of Orientalism: Bhudev Mukhophadhyay and the Project of Indigenist Social Theory.» in *Representing Hinduism*, S. Dalmia and H. von Stietenkron, eds. New Delhi: Oxford University Press, 1995.
- Khoury, P. *Syria and the French Mandate*. Princeton: Princeton University Press, 1987.
- Mauss, Marcel. «The Problem of Nationality.» in *Aristotelian Society, Proceedings*, N.S. (1919-1920).
- Meinecke, Friedrich. *Historism*. London, 1972.
- Penrose, S. *That They May Have Life: The Story of the American University of

Beirut, 1866-1941. Beirut: American University of Beirut, 1970.
- Rabbath, Edmond. *Unité syrienne et devenir arabe*. Paris, 1937.
- Roussillon, Alain. *Réforme sociale et identité: pensées, idéologies, société en Egypte*
(أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة السوربون الجديدة، باريس الثالثة، ١٩٩٤).
- Sayah, E.N. *The American University of Beirut and its Educational Activities in Lebanon, 1920-1967*. Ph. D. Thesis, University of North Texas, Denton, 1988.
- Schlanger, Judith. *Les métaphores de l'organisme*. Paris, 1971.
- Shamir, S. «The Question of a 'National Philosophy' in Contemporary Arab Thought.» *Asian and African Studies*, 1 (1965).
- Simon, R.S. *Iraq between Two World Wars: The Creation and Implementation of a Nationalist Ideology*. New York: Columbia University Press, 1986.
- Smith, Anthony. «National Identity and the Idea of European Unity.» in *International Affairs*, 68 (1992).
- Stonor Saunders, F. *The Cultural Cold War: The CIA and the World of Arts and Letters*. New York: The New Press, 2000.
- Tibawi, A.L. «The Genesis and Early History of the Syrian Protestant College.» in *American University of Beirut Festival Book (Festschrift)*, Fuad Sarruf and Suha Tamim, eds. Beirut: American University of Beirut, 1967.
- Weber, Eugen. *Peasants into Frenchmen: The Modernization of Rural France 1870-1914*. Stanford: Stanford University Press, 1976.

٢) الوثائق:

- American University of Beirut. *Annual Report, 1952-1953*.
- American University of Beirut. *Annual Report, 1955-1956*. Beirut: AUB, 1956.

دِرَاساتٌ في زُرَيق

أولاً: كتب

- خوري، رئيف. معالم الوعي القومي. بيروت: دار المكشوف، ١٩٤١.

ثانياً: كتب تكريمية

(أ) بالعربية

- نشّابه، هشام (محرر). دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨.

  تمت مراجعة هذا الكتاب في:

  - «قسطنطين زريق: باحث تكرمه فلسطين». السفير، ٢١/٤/١٩٨٨.
  - فاضل، جهاد. القبس (الكويت)، ٣/٥/١٩٨٨.
  - «مؤسسة الدراسات الفلسطينية تكرم قسطنطين زريق بكتاب». المستقبل، ١٢/ ٥٨٥ (٧/٥/١٩٨٨).
  - شريح، محمود. «قسطنطين زريق تكريماً له بمجموعة أبحاث في نصف قرن». النهار، ٢٣/٩/١٩٨٨.
  - سعيد، إدوارد. المجلة (لندن)، ٣٠/١/١٩٩٠.
- صايغ، أنيس (معدّ). المثقف العربي: همومه وعطاؤه. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥.
- ـــــ. (محرر). قسطنطين زريق: ٦٥ عاماً من العطاء. بيروت: مكتبة بيسان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.
- قسطنطين زريق: رائد الفكر القومي والعقلانية الخلقية. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٩.
- حفل تسليم الجائزة التقديرية في الثقافة العربية للأستاذ الدكتور قسطنطين زريق (كتيب). بيروت، ٢٣/٤/١٩٩٩.

(ب) باللغات الأُخرى

– Nashabe, Hisham, ed. *Studia Palaestina: Studies in Honour of Constantine K. Zurayk*. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1988.

– Atiyeh, George N. and Ibrahim M. Oweiss, eds. *Arab Civilization, Challenges and Responses: Studies in Honour of Constantine K. Zurayk*. New York: State University of New York Press, 1988. (The Book was Reviewed by al-Khalidi, Tarif, in *Al-Abhath*, 38(1990), pp. 89-93.

ثالثاً: كلمات التقريظ

ـ حفل تسليم الجائزة التقديرية في الثقافة العربية للأستاذ الدكتور قسطنطين زريق (كتيب). بيروت، ٢٣/٤/١٩٩٩. ألقيت في الحفل الكلمات التالية:

- بعاصيري، سلوى السنيورة، ص ٣ ـ ٥.
- الميلي، محمد، ص ٨ ـ ١٠.
- برقاوي، أحمد، ص ١٢ ـ ١٤.
- العالم، محمود أمين، ص ١٦ ـ ١٨.
- الجادر، أديب، ص ٢٠ ـ ٢١.
- تويني، غسان، ص ٢٤ ـ ٣٣.
- بيضون، محمد يوسف، ص ٣٦.
- الحص، سليم، ص ٣٨ ـ ٣٩.
- قباني، محمد، ص ٤٦ ـ ٤٩.
- زريق، قسطنطين، ص ٥٢ ـ ٥٧.

ـ تويني، غسان. «إنسان عربي جديد». كلمة ألقيت في الجامعة الأميركية في بيروت في الاحتفال بيوم الآباء المؤسسين في الذكرى ١٣٤ لتأسيس الجامعة مهداة إلى قسطنطين زريق (نشرت في إنسان عربي جديد (كتيب). الجامعة الأميركية في بيروت، ٦/١٢/٢٠٠٠).

ـ حومد، عبد الوهاب. «كلمة في تأبين الدكتور قسطنطين زريق كما عرفته». نص كلمة ألقيت في حفل التأبين في دمشق، ١٢/٢/٢٠٠١ (مخطوط).

رابعاً: مقالات

(أ) بالعربية

ـ الكيالي، سامي. «قسطنطين زريق». الأدب العربي المعاصر في سورية. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٠، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٧.

ـ الحاج، كمال يوسف. «قسطنطين زريق ورائحة اليأس من العرب». ملحق النهار، ١٦/٦/١٩٦٨.

ـ الأنصاري، محمد جابر. «قسطنطين زريق أو... توهج الفعل». الدوحة، ٣/٣٠ (١٩٧٨). (نشر أيضاً في: الأنصاري، محمد جابر. هل كانوا عمالقة؟ البحرين، ١٩٨٠).

ـ فارس، هاني أحمد. «قسطنطين زريق داعية العقلانية في الفكر العربي الحديث». شؤون عربية، ١٤ (١٩٨٢)، ص ٢٧ ـ ٥٥.

ـ صبحي، محيي الدين. «مراجعة مع الدكتور قسطنطين زريق لآرائه». قضايا عربية، ١/١٠ (كانون الثاني ١٩٨٣)، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٥.

ـ حاتم، صفوت. «من قسطنطين زريق إلى نديم البيطار: الفكر القومي والطريق إلى الوحدة العربية». الوحدة، ١/٧ (نيسان ١٩٨٥)، ص ٩٧ ـ ١٠٦.

ـ صبحي، محيي الدين. «قسطنطين زريق وفكره القومي». الوحدة، ١/١٠ (تموز ١٩٨٥)، ص ١٢١ ـ ١٣٣.

ـ جحا، ميشال. «قسطنطين زريق إرث علمي أنزله في طلابه». النهار، ١٦/٣/١٩٨٦.

ـ الدجاني، برهان. «حول آراء قسطنطين زريق في القضية الفلسطينية». دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق، تحرير هشام نشّابه. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨، ص ١ ـ ٣٥.

ـ بهجت، أحمد. «من نحن؟ (١)» و«الولاء للحقيقة (٢)». الأهرام، ١٥ و١٦/٤/١٩٩١.

ـ س.، ط. [طلال سلمان]. «الآتي من الغد». السفير، ٢٤/٧/١٩٩١.

ـ جحا، ميشال. «قسطنطين زريق المفكر: الشأن العربي المعاصر، الحضارة والقومية». النهار، ١٥/٨/١٩٩١.

ـ ـــــ. «أأنت رومانسي خيالي حالم؟». النهار، ١٦/٨/١٩٩١.

ـ العلايلي، عبد الله. «في أحداث دنيانا العربية». النهار، ٩/٨/١٩٩٤.

ـ حسن، محمد سليمان. «القومية والوحدة في حوارات النهضة العربية». الثورة (دمشق)، ٧/١/١٩٩٥.

- حريق، إيليا. «فكر قسطنطين زريق ومستقبل القومية العربية». الحياة، ١٩٩٥/٩/١٩.
- محمد، حسام الدين. «المثقف العربي ـ همومه وعطاؤه». القدس العربي، ٣/ ٤، ٧/ ١٩٩٦/٢ (مراجعة لكتاب تكريمي لزريق بعنوان المثقف العربي: همومه وعطاؤه، إعداد أنيس صايغ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥).
- رزق، الياس يوسف. «غربال نقدي لزريق ومطران». الأنوار، ١٩٩٧/٦/٢.
- صايغ، أنيس. «أين مذكرات قسطنطين زريق؟». السفير، ١٩٩٨/٤/١٧.
- إبراهيم، سعد الدين. «العرب. . . وعلم النكبات». الأهرام، ١٩٩٨/٥/١٥.
- الباقوري، عبد العال. «المفكرون العرب والنكبة، قسطنطين زريق نموذجاً». الاتحاد، ١٩٩٨/٥/٢٥.
- العظمة، عزيز. «التأريخ والقومية العربية والعلمانية، قسطنطين زريق عكس التيار». مجلة الدراسات الفلسطينية، ٣٥ (صيف ١٩٩٨)، ص ٣ ـ ٢٢. (نشرت أيضاً بصورة معدلة في الطريق، ٦٠/ ٤ (تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس ٢٠٠١)، ص ١٠٠ ـ ١١٥).
- «قسطنطين زريق: سيرته العلمية والمهنية ومؤلفاته». أخبار الألكسو، العدد ١ (كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩)، ص ١٧ ـ ١٨.
- كوثراني، وجيه. «الفكر التاريخي في دعوة قسطنطين زريق: 'نحن والتاريخ' ما قبل وما بعد». الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل. بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠، ص ١٦٩ ـ ١٧١.
- نشّابة، هشام. «كلنا أبناء قسطنطين زريق». مجلة الدراسات الفلسطينية، ٤٣ (صيف ٢٠٠٠)، ص ٣ ـ ٧.
- زيادة، خالد. «قسطنطين زريق: الوقوف أمام التاريخ». مجلة الدراسات الفلسطينية، ٤٤ (خريف ٢٠٠٠)، ص ٦١ ـ ٦٨.
- عليوان، هادي حسن. «قسطنطين زريق». الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي (١٩١٨ ـ ١٩٥٢). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص ٨٤ ـ ٨٧.
- أبو فخر، صقر. «شفيق جحا وواصف كمال وممدوح رحمون: ثلاثة رجال يتذكرون صفحات مجهولة من التاريخ السري للدكتور قسطنطين زريق». السفير، ١٧/ ١١/ ٢٠٠٠.
- العظمة، عزيز. «قسطنطين زريق (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٠) مفكر قومي دون تعصب». العربي، ٥٠٧ (شباط/ فبراير ٢٠٠١)، ص ٥٢ ـ ٥٧.
- أبو فخر، صقر. «قسطنطين زريق: لمحات من التاريخ السري لنضاله في لبنان وفلسطين والعراق». الطريق، ٦٠/ ٤ (تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس ٢٠٠١)، ص ١٣٩ ـ ١٤٩.

- أصطيف، عبد النبي. «قسطنطين زريق داعية العروبة». الطريق، ٦٠/ ٤ (تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس ٢٠٠١)، ص ١١٦ ـ ١٢٢.
- الجباعي، جاد عبد الكريم. «الجهاد الأكبر، جهاد المعرفة في فكر قسطنطين زريق». الطريق، ٦٠/ ٤ (تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس ٢٠٠١)، ص ١٢٣ ـ ١٣١.
- خليل، خليل أحمد. «قسطنطين زريق». موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١. الجزء الأول، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٣.
- دراج، فيصل. «دلالة المعرفة التاريخية». الطريق، ٦٠/ ٤ (٢٠٠١)، ص ٩٠ ـ ٩٩.
- دكروب، محمد. «قسطنطين زريق: رؤية مستقبلية للتوحيد العربي». الطريق، ٦٠/ ٤ (تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس ٢٠٠١)، ص ٦٤ ـ ٦٦.
- زهر الدين، صالح. موسوعة رجالات من بلاد العرب. بيروت: المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ٢٠٠١، ص ٦٦٥ ـ ٦٧٩.
- الشريف، ماهر. «قسطنطين زريق: تحولات على تفكير قومي عربي». الطريق. ٦٠/ ٤ (٢٠٠١)، ص ٦٧ ـ ٨٠.
- مروة، كريم. «ظاهرة قسطنطين زريق في أفكاره وفي تحولاته». الطريق. ٦٠/ ٤ (٢٠٠١)، ص ٨١ ـ ٨٩.
- اليساوي، شاكر. «مفهوم القومية وقضايا التاريخ والتقدم في فكر قسطنطين زريق». الطريق، ٦٠/ ٤ (تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس ٢٠٠١)، ص ١٣٢ ـ ١٣٨.

(ب) باللغات الأُخرى

- Jabre, Jamil. «Le Monde arabe et l'histoire.» *L'Orient*, 8/3/1960.
- Shamir, Shimon. «The Question of a 'National Philosophy' in Contemporary Arab Thought.» *Asian and African Studies* (Annual of the Israel Oriental Society), 1 (1965), pp. 3-47.
- «Distinguished Professor Zurayk Fascinates Audience at Chapel.» *Outlook*, 25/17 (17/5/1969).
- «Professor Zurayk Elaborates on Language of Instruction.» *Outlook*, 19/1 (17/10/1972).
- Munro, John. «Zurayk on Arab Nationalism: No Smooth Ride Towards Unity.» *The Middle East*, June 1978.
- Atiyeh, George. «Humanism and Secularism in the Modern Arab Heritage: The Ideas of al-Kawakibi and Zurayk.» in *Arab Civilization, Challenges and Responses: Studies in Honour of Constantine K. Zurayk*, George N. Atiyeh

and Ibrahim M. Oweiss, eds. New York: State University of New York Press, 1988, pp. 42-59.

- Faris, Hani. «Constantine K. Zurayk: Advocate of Rationalism in Modern Arab Thought.» in *Arab Civilization, Challenges and Responses: Studies in Honour of Constantine K. Zurayk*, George N. Atiyeh and Ibrahim M. Oweiss, eds. New York: State University of New York Press, 1988, pp. 1-41.
- Rodinson, Maxime. «*AL-WA'Y AL-QAWMI* et sa place dans l'evolution de la pensée nationaliste arabe.» in *Studia Palaestina: Studies in Honour of Constantine K. Zurayk*, Hisham Nashabe, ed. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1988, pp. 3-11.
- Steppat, Fritz. «Re-reading *The Meaning of Disaster* in 1985.» in *Studia Palaestina: Studies in Honour of Constantine K. Zurayk,* Hisham Nashabe, ed. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1988, pp. 12-19.
- Ghanma, Amjad. «I Remember.» *Al-Kulliyah*, November 1994, pp. 40-42.
- Corm, Georges. «Itinéraire d'un intellectuel arabe.» *Le Monde diplomatique*, Septembre 1995.
- Fahmi, Soheir. «La Raison à la place de l'illusion.» *Visages*, 27/12/1995.
- Kassab, Suzanne. «An Arab Neo-Kantian Philosophy of Culture: Constantine Zurayk on Culture, Reason and Ethics.» [1997]. 30 pages, TS. (unpublished).

خامساً: مراجعات كتب الدكتور زريق

(أ) بالعربية

• اليزيدية قديماً وحديثاً:

- الشهباء، ٩/١٠ (شباط/فبراير ١٩٣٥)، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٣.
- ف.ت. مطبوعات شرقية جديدة، ١٩٣٥، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
- ب.أ. هدايا [آذار/مارس ١٩٣٥]، ص ١٧٧.

• الوعي القومي:

- ص.ش. البصير (الإسكندرية)، ١٩٤٠/١/١٢.
- القلعة جي، قدري. «الوعي القومي: منهج حياة ودستور عمل وكتاب أمة». المكشوف، العدد ٢٣٧ (١٩٤٠/٢/١٩).
- «الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي». البلاد (بغداد)، ١٩٤٠/٢/٢١.

- الشايب، فؤاد. «الوعي القومي ينبه الفكر ويوقظ الشعور بالعزة». المكشوف، العدد ٢٤٨ (١٩٤٠/٥/٥).
- الحديث، ٥/١٤ (أيار/مايو ١٩٤٠)، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.
- زيادة، نقولا. مراجعة أذيعت من محطة إذاعة القدس، ٣، ١٩٤٠/٨/١٠. ٤ صفحات، مطبوع.
- عبود، مارون. «الوعي القومي للدكتور زريق». المكشوف، العدد ٢٨٧ (١٩٤١/٢/١٠) والعدد ٢٨٩ (١٩٤١/٢/٢٤). (نشر في عبود، مارون. مؤلفات مارون عبود (المجموعة الكاملة). بيروت: دار مارون عبود، ١٩٨٣، الطبعة الثانية، ص ١٧٥ ـ ١٨٧).
- الهمذاني. «معالم الوعي القومي». الجمهور، ١٩٤١/١٠/٢٠.
- حسن، محمد عبد الغني. الرسالة، ٥٦٧/١٢ (١٩٤٤/٥/١٥).

• تاريخ ابن الفرات:

- المقتطف، ج٨٩ (١٩٣٦)، ص ٦٣٦؛ ج٩٢ (١٩٣٨)، ص ٤٨.

• معنى النكبة:

- الدنيا (دمشق)، ٨٩/٤، [د.ت.]، ص ٢٨.
- صعب، حسن. كل شيء، العدد ٧٦ (١٩٤٨/٩/٣).
- ياسين، عبد الحميد. بيروت المساء، ١٩٤٨/٩/٦.
- «الحل الأساسي لقضية فلسطين وقضايا العرب تأسيس كيان قومي اتحادي تقدمي». عالم الغد (بغداد)، ٩/٣ ـ ١٠ (١٩٤٨/١٠/١).
- صائب، سعد. بيروت المساء، ١٩٤٨/١٠/٢٥.
- الحجازي، جمال الدين. الرسالة، ج١٧ (١٩٤٩)، ص ١٧٢٣. نشرت أيضاً في الكتاب، ج٧ (١٩٤٩)، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢.
- الزحلاوي، حبيب. المقتطف، ١١٤ (١٩٤٩)، ص ١٣٧.
- النكدي، عارف. مجلة المجمع العلمي العربي، ٢٤ (١٩٤٩)، ص ٢٩٥.
- اللاذقاني، محيي الدين. الشرق الأوسط، ١٩٩٩/٦/٣.

• أي غد:

- المقتطف، ٩٦ (١٩٥٧)، ص ٢٤٠.
- الشهابي، مصطفى. مجلة المجمع العلمي العربي، نيسان/أبريل ١٩٥٧، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

ـ عبد الصبور، صلاح. صباح الخير، ٢/ ٦٩ (٢/ ٥/ ١٩٥٧)، ص ٤٢.
ـ زايد، محمود. العلوم، أيار/مايو ١٩٥٧، ص ٧٨.
ـ الخوري، إبراهيم عبده. الأديب، أيار/مايو ١٩٥٧، ص ٥٢ ـ ٥٣.
ـ الأموي، شكيب. قافلة الزيت، تموز/يوليو ١٩٥٨.
ـ الشريف، منير. الأيام، ١٠/ ٧/ ١٩٥٩.

● نحن والتاريخ:
ـ السمرة، محمود. العربي، شباط/فبراير ١٩٥٨.
ـ «مناقشة كتاب نحن والتاريخ». بيروت، ٨/ ١١/ ١٩٥٩.
ـ الحياة، ١١/ ١١/ ١٩٥٩.
ـ الجريدة (بيروت)، ٦/ ١٢/ ١٩٥٩.
ـ زيادة، نقولا. نص مراجعة [أذيعت من محطة الإذاعة البريطانية]، [١٩٦٠]. ٤ صفحات، مطبوع.
ـ الحكمة، ٨/ ١ (كانون الثاني/يناير ١٩٦٠)، ص ٥٥ ـ ٦٥.
ـ الدوري، عبد العزيز. الأبحاث، ١٣/ ١ (آذار/مارس ١٩٦٠)، ص ٩٦ ـ ١٠٦.
ـ الأهرام، ٢٦/ ٣/ ١٩٦٠.
ـ شرارة، عبد اللطيف. رسالة التربية، ١/ ٥ (نيسان/أبريل ١٩٦٠)، ص ٧٠ ـ ٧٢.
ـ عياد، كامل. مجلة المجمع العلمي العربي، ٣٥/ ٢ (نيسان/أبريل ١٩٦٠)، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.
ـ فلسطين، وديع. العلوم، ٥/ ٧ (تموز/يوليو ١٩٦٠)، ص ٣٨ ـ ٤١.
ـ قربان، ملحم. الحكمة، ٩/ ٢ (شباط/فبراير ١٩٦١)، ص ١٧ ـ ٢٣.
ـ الهنداوي، خليل. المعرفة، العدد ٧ (أيلول ١٩٦٢)، ص ١١٨ ـ ١٢٦.
ـ شريح، محمود. «قسطنطين زريق مرة خامسة لدارس التاريخ وصناعة التاريخ». النهار، ٢٠/ ١/ ١٩٨٢.

● هذا العصر المتفجر:
ـ الجندي، إنعام. الأسبوع العربي، العدد ٢٣٦ (١٦/ ١٢/ ١٩٦٣).
ـ البستاني، إدوار أمين. لسان الحال، ٢٦/ ١٢/ ١٩٦٣.
ـ زيادة، نقولا. المعرفة [ليبيا]، ١١/ ٢٨٢ (١٣/ ٣/ ١٩٦٤).
ـ كرم، أنطون غطاس. الأبحاث، ١٧/ ١ (آذار/مارس ١٩٦٤)، ص ٩٥ ـ ١٠٠.

● في معركة الحضارة:
ـ شكري، غالي. ثورة الفكر في أدبنا الحديث، [د.ت.] ص ٢٢٤ ـ ٢٤٠.
ـ طعمه، جورج. المعرفة، ٣/ ٣١ (أيلول/سبتمبر ١٩٦٤)، ص ١٣٣ ـ ١٤٠.
ـ ي. ح. [يوسف حوراني]. حوار، العدد ١١ ـ ١٢ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٤)، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥.
ـ السمرة، محمود. العربي، العدد ٧٦ (آذار/مارس ١٩٦٥).
ـ شكري، غالي. الفكر المعاصر، العدد ٢ (نيسان/أبريل ١٩٦٥).
ـ الشرقاوي، محمود. قافلة الزيت، كانون الثاني ـ شباط/يناير ـ فبراير ١٩٦٦، ص ٢٩ ـ ٣١.
ـ ديب، وديع. الأديب، تموز/يوليو ١٩٧٠، ص ٤٥ ـ ٤٦.
ـ ــــــ. النشرة، ١٠١/ ٧ (تموز/يوليو ١٩٧٠).
ـ ــــــ. العرفان، المجلد ٥٨ (أيلول/سبتمبر ١٩٧٠)، ص ٦١١ ـ ٦١٣.
ـ فريد، حسني. الدفاع (عمّان)، ١٧/ ٢/ ١٩٧١.

● تحقيق مسكويه، تهذيب الأخلاق:
ـ فيصل، شكري. مجلة المجمع العلمي العربي، ٤٢/ ٤ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٧).

● معنى النكبة مجدداً:
ـ الحصري، خلدون ساطع. ملحق النهار، ١٩/ ١١/ ١٩٦٧.
ـ ملف النهار، ٢٥/ ٤/ ١٩٦٨.
ـ عشقوني، رجا. الأنباء، شباط/فبراير ١٩٦٩.

● نحن والمستقبل:
ـ الحوادث، العدد ١٠٨٧ (٩/ ٩/ ١٩٧٧)، ص ٧١.
ـ «مناقشة كتاب نحن والمستقبل»، مقابلة مع نديم المقدسي سجلت لإذاعة الـ BBC العربية، ٢٦/ ١١/ ١٩٧٧. ٥ صفحات، مطبوع.
ـ بهاء الدين، أحمد. العربي، العدد ٢٣٤ (أيار/مايو ١٩٧٨)، ص ٩ ـ ١١.
ـ كرم، سمير. المستقبل العربي، العدد ١ (أيار/مايو ١٩٧٨)، ص ١٦٧ ـ ١٧٣.
ـ بيطار، مودي. النهار، ٢٣/ ٦/ ١٩٧٨.
ـ أبو جودة، ميشال. النهار، ٢/ ١١/ ١٩٧٨.

• **مطالب المستقبل العربي:**

ـ النهار، ٤/١/١٩٨٣.

ـ الحوادث، العدد ١٣٦٩ (٢٨/١/١٩٨٣).

• **ما العمل:**

ـ الحلو، كرم. الحياة، ٨/٣/١٩٩٨.

ـ العربي (الكويت)، العدد ٤٧٥ (حزيران/يونيو ١٩٩٨)، ص ١١١.

ـ الطليعة (الكويت)، ٣ ـ ٩/٦/١٩٩٨.

ـ الحلو، وضاح يوسف. النهار، ٢٥/٦/١٩٩٨.

ـ مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٣٥ (صيف ١٩٩٨)، ص ٢٠٥.

ـ البيان، ٩، ١١، ١٣، ١٤/٨/١٩٩٨ (مناقشة الكتاب في ندوة شارك فيها أحمد صدقي الدجاني والسيد يسين وجلال أمين وطارق البشري وعلاء عبد العزيز وقسطنطين زريق ومحمد عودة ومحمود أمين العالم. نشرت الندوة أيضاً في المستقبل العربي، آب/أغسطس ١٩٩٨، ص ١١١ ـ ١٤٠).

ـ المستقبل، ١٠، ١٧، ٢٤/٨/١٩٩٨ و٧/٩/١٩٩٨.

ـ عثمان، عفيف. السفير، ١٠/١٠/١٩٩٨.

ـ البجيرمي، يوسف. البيان، ١٨/١/١٩٩٩.

• **الأعمال الفكرية العامة:**

ـ «مناقشة الأعمال الكاملة». ندوة أقيمت في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية، بيروت، في ٢/٦/١٩٩٥، ألقيت في الندوة الكلمات التالية:

□ القطار، الياس. «المسألة الحضارية في فكر قسطنطين زريق». ١٣ صفحة، مطبوع.

□ الخالدي، طريف. «الفكر النقدي عند قسطنطين زريق». ٨ صفحات، مخطوط.

□ شعيب، علي. «المسألة القومية عند قسطنطين زريق». ١٨ صفحة، مطبوع.

□ كوثراني، وجيه. «الفكر التاريخي عند قسطنطين زريق». ١٤ صفحة، مخطوط.

□ ضاهر، مسعود. «قسطنطين زريق، رائد المنهج المستقبلي في فهم التاريخ العربي». ١١ صفحة، مخطوط.

□ منيمنة، حسن. نص كلمة. ٣ صفحات، مطبوع.

□ بيضون، إبراهيم. نص كلمة. ٤ صفحات، مخطوط.

ـ محافظة، علي. الناقد، العدد ٨٤ (حزيران/يونيو ١٩٩٥)، ص ١١٦ ـ ١٢٦.

ـ المستقلة، ٧/٨/١٩٩٥.

ـ أبو فخر، صقر. مجلة الدراسات الفلسطينية، ٢٤ (١٩٩٥)، ١٨١ ـ ١٨٤.

(ب) باللغات الأُخرى

• ***The Yazidis Past and Present:***

– Heyworth, Dunne J. *Reviews of Books*, pp. 546.

– Strothmann, R. *Der Islam*, 22/4 (1935), pp. 323-324.

– Lescot, R. «El Yazidiyya Qadiman Wa Hadithan.» *Comptes Rendus*, 1937.

• **الوعي القومي:**

ـ بن حنانيا، يهوشاع. «زْراي مَحاشاقاه بِتْنوعاه هَعَرفيت» [«تيارات فكرية في الحركة العربية»]. هيد هَمِزراح [صدى الشرق]، ٢٦/٢/١٩٤٣ و١٢/٣/١٩٤٣.

• **في معركة الحضارة:**

ـ رجوان، نيسيم. كول سفاراد، تموز/يوليو ـ آب/أغسطس ١٩٦٥، ص ١٤ ـ ٢٤.

• **تحقيق مسكويه، تهذيب الأخلاق:**

– Hottinger, Arnold. *Oriens* (Leiden), 20 (1967).

– Kobert, R. *Orientalia*, 37 (1968), pp. 390-391.

– Arkoun, M. *Arabica*, 16 (1969), pp. 96-97.

– Khan, M. Saber. *New Books in Review*, pp. 242-243.

• ***The Refinement of Character:***

– *Orientalistische Literaturzeitung*, 67/718 (1972), pp. 370-374.

• **معنى النكبة مجدداً:**

– Rejwan, Nissim. *Jewish Observer and Middle East Review*, 1/9/1967.

– ——. *Week-end Magazine*, 16/2/1968.

– ——. *New Outlook*, 15/6 (August 1971), pp. 25-31.

– ——. *New Outlook*, October 1972.

فهرست أعمال
قسطنطين زريق

المحتويات

أولاً: الأعمال المنشورة ٢٣١

(أ) بالعربية ٢٣١

١) الكتب: تأليف وتحقيق وترجمة وتحرير ٢٣١
٢) المقالات: علمية وثقافية وتربوية ومقالات في كتب وأعمال المؤتمرات والحلقات الفكرية ٢٣٣
٣) مقدمات وتوطئات ٢٤٠
٤) مراجعة كتب ٢٤٠
٥) الكتابات الصحافية ٢٤١
٦) مقابلات وندوات ٢٥٠

(ب) بالإنكليزية ٢٥٣

١) Academic Articles ٢٥٣
٢) General Cultural and Educational Articles ٢٥٤
٣) Pamphlets ٢٥٥
٤) Prefaces ٢٥٦
٥) Book Reviews ٢٥٦
٦) Newspaper Articles ٢٥٦
٧) Interviews ٢٥٦

ثانياً: الأعمال المخطوطة (محفوظة في أوراق الدكتور زريق) ٢٥٧

(أ) بالعربية ٢٥٧

١) مذكرات قسطنطين زريق ٢٥٧
٢) أعمال الصبا والشباب ٢٥٧
٣) محاضرات وكلمات عامة ٢٥٧
٤) محاضرات وكلمات ألقيت في الجامعة الأميركية في بيروت ٢٧٣
٥) تقارير واقتراحات ٢٧٧
٦) أحاديث إذاعية ٢٧٨
٧) تعقيبات ومقالات ٢٨٢

(ب) بالإنكليزية ٢٨٤

١) Juvenilia ٢٨٤
٢) Lectures and Talks ٢٨٤
٣) Lectures and Talks given at the American University of Beirut ٢٩٠
٤) Administrative Reports and Memoranda ٢٩٥
٥) Media Contributions ٢٩٦
٦) Miscellaneous Writings ٢٩٦

أولاً: الأعمال المنشورة

(أ) بالعربية

١) الكتب

● **تأليف:**

- زريق وآخرون. كتاب القومية العربية ـ حقائق وإيضاحات ومناهج [المعروف بـ الكتاب الأحمر]. لا مكان: لا ناشر، لا تاريخ.
- هدفي في جهادي. بيروت: جمعية العروة الوثقى، لا تاريخ [١٩٣٦]، المقدمة وص ٢٨ ـ ٢٩.
- الوعي القومي. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٣٩، الطبعة الثانية ١٩٤٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٥٥ ـ ١٩٠).
- معنى النكبة. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٤٨، الطبعة الثانية ١٩٤٩ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ١٩٥ ـ ٢٦٠).

الترجمة الإنكليزية:

Zurayk, Constantine. *The Meaning of the Disaster*. R. Bayly Winder, trans. Beirut: Khayat's College Book Cooperative, 1956.

- خطاب الدكتور قسطنطين زريق في حفلة تدشين مزرعة الجامعة في ٢٥ أيار سنة ١٩٥٦ (كتيب) (مع ترجمة إنكليزية).
- أي غد؟. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٥٧ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٢٦٥ ـ ٣٦٦).
- نحن والتاريخ. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٥٩، الطبعة الخامسة ١٩٨١ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٣٧٣ ـ ٥٥١).
- هذا العصر المتفجر. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٦٣ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٥٧١ ـ ٦٨٤).
- في معركة الحضارة. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٦٤ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٦٩١ ـ ٩٨٢).
- معنى النكبة مجدداً. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٦٧ (نشر في

الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٩٨٩ ـ ١٠٣٥).

ـ نحن والمستقبل. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٧٧، الطبعة الثانية ١٩٨٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٠٥٧ ـ ١٤١٢).

ـ مطالب المستقبل العربي. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٨٣ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٤١٧ ـ ١٦١٦).

ـ ما العمل. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

ـ الأعمال الفكرية العامة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٤ مجلدات، الطبعة الأولى ١٩٩٤، الطبعة الثانية ١٩٩٦.

• **تحقيق:**

ـ جول، إسماعيل بك. اليزيدية قديماً وحديثاً. بيروت: المطبعة الأميركانية، ١٩٣٤.

ـ تاريخ ابن الفرات. المجلدات ٧ و٨ و٩ (جزءان). بيروت: المطبعة الأميركانية، ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢ (المجلد ٨ والجزء الثاني من المجلد ٩ بمشاركة الدكتورة نجلا أبو عز الدين).

ـ مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد. تهذيب الأخلاق. بيروت: الجامعة الأميركية، ١٩٦٦.

• **ترجمة:**

ـ نولدكه، ثيودور. أمراء غسان من آل جفنة. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٣ (بمشاركة الأستاذ بندلي جوزي).

الأصل: *(Die ghassanischen Fürsten aus dem Hause Ğafna's).*

ـ الإشراف على ترجمة سارتون، جورج. تاريخ العلوم. القاهرة، ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ (بمشاركة الأساتذة إبراهيم بيومي مدكور ومحمد كامل حسين ومحمد مصطفى زيادة).

الأصل: (Sarton, George. *A History of Science*. Cambridge: Harvard University Press, 1952).

– Miskawayhi, Ahmad ibn-Muhammad. *The Refinement of Character*. Beirut: The American University of Beirut, 1968.

• **تحرير:**

– *Provisional Readings in the Medieval History of the Near East*. Beirut: American Press, 1934.

– *Provisional Readings in the History of the Arabs and Arabic Culture*. Beirut: American Press, 1940.

(بمشاركة الدكتور أسد رستم).

٢) المقالات: علمية وثقافية وتربوية

ومقالات في كتب وأعمال المؤتمرات والحلقات الفكرية

ـ «القديم والجديد». الحسام (دمشق)، ٢٤/١/١٩٣٣.

ـ «الحياة العربية في الشام في العهد الصليبي». صوت الأحرار، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦/٥/١٩٣٤. نشر أيضاً في المورد الصافي، ٢/١٨ (آذار/مارس ١٩٣٤)، ص ١٩٣ ـ ٢٠٨.

ـ «التجارة الإسلامية وأثرها في الحضارة». المقتطف، ٥/٨٧ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٥)، ص ٥٤١ ـ ٥٤٨.

ـ «مآثر العرب في العلوم». توطئة العدد من العروة الوثقى، ٤ (تموز/يوليو ١٩٣٦)، ص ١ ـ ٢.

ـ «النواحي الاجتماعية من التاريخ العربي». الطليعة، ٥/٢ (تموز/يوليو ١٩٣٦)، ص ٤١٦ ـ ٤٢١.

ـ «كيف أفهم التاريخ». الفنون الأدبية. بيروت: مطبعة الاتحاد، ١٩٣٧، ص ٦٥ ـ ٨٦.

ـ «التربية القومية». الحديث (حلب)، السنة ١١ (كانون الثاني/يناير ١٩٣٧)، ص ١٥ ـ ٢٥ (نشر في الوعي القومي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٩١ ـ ١٠١).

ـ «جندي في جيش صلاح الدين». المكشوف، ٣/٨٨ (آذار/مارس ١٩٣٧)، ص ٢، ١٤ ـ ١٦.

ـ «الوعي القومي». الحديث (حلب)، ٨/١٣ (آب/أغسطس ١٩٣٩)، ص ٦٤١ ـ ٦٥٤ (نشر في الوعي القومي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٦٩ ـ ٨٢).

ـ «واجب المفكرين في أيام الأزمات». المعلم الجديد (بغداد)، حزيران/يونيو

١٩٤٠، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٤.

ـ «من ذكريات الدراسة ـ حكاية إضراب». الأمالي، ٢٥/١١/١٩٤٠.

ـ «العناصر الخالدة في المدنية العربية». الأديب، ١ (آذار/مارس ١٩٤٢)، ص ٥ ـ ١٠.

ـ «العمل الاجتماعي في الجهاد القومي الصحيح». الكلية، ٩/٨ ـ ١٠ (٥/٦/١٩٤٤)، ص ٢ ـ ٤.

ـ «على عتبة العام الدراسي». العروة الوثقى، ١٩٤٨ [من دون تاريخ محدد].

ـ «واجبات المفكر العربي في الوقت الحاضر». الأبحاث، ١/١ (آذار/مارس ١٩٤٨)، ص ٣ ـ ١٧ (نشر في أي غد ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٢٧١ ـ ٢٨٦).

ـ «كيف أنظر إلى الأونسكو». رسالة الأونسكو، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨.

ـ «الحضارة العربية». الأبحاث، ٢/١ (آذار/مارس ١٩٤٩)، ص ٣ ـ ٢٢ (مترجم عن الأصل الإنكليزي):

«The Essence of Arab Civilization.» *Middle East Journal*, 3/2 (April 1949), pp. 125-139.

ـ «خذلان المثقفين». الحديث (حلب)، ٣/٢٣ (آذار/مارس ١٩٤٩)، ص ١٨٩ ـ ١٩٨.

ـ «أهمية الإنعاش الاجتماعي في المجتمع والدولة». حلقة الدراسات الاجتماعية ـ الدورة الأولى. القاهرة: جامعة الدول العربية ـ دائرة الشؤون الاجتماعية، ١٩٥٠، ص ٧ ـ ١٥ (نشر معدلاً في هذا العصر المتفجر ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٦٥٩ ـ ٦٧٠).

ـ «التعليم الجامعي في سوريا في نصف قرن». المواهب (الأرجنتين)، ١/٧ (١٩٥١)، ص ٢٤ ـ ٢٨.

ـ «القضية العربية ١٩٥٣». القضية العربية ١٩٥٣. بيروت: منشورات الندوة اللبنانية، ١٩٥٣، ص ٥ ـ ٢٤ (نشر في محاضرات الندوة اللبنانية، ٩/٧ ـ ١٠ (أيار/مايو ١٩٥٣)، ص ٢٢٥ ـ ٢٤٨).

ـ «التربية العربية». الأبحاث، ٦/٢ (حزيران/يونيو ١٩٥٣)، ص ١٩٢ ـ ٢١٣ (نشر في المجتمع العربي. بيروت: هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية، ١٩٥٣، ص ٥٨ ـ ٦٩، وفي أي غد ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٣١٧ ـ ٣٣٢).

ـ «البحث العلمي وأثره في الحياة القومية». المجلة الصيدلية اللبنانية، ٤/١ (١٩٥٣)، ص ١٥٥ ـ ١٥٩ (نشر أيضاً في الحياة، ١٣/١٢/١٩٥٣).

ـ «ما هي فلسفتنا القومية». العروة الوثقى، ١/١٩ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣)، ص ١٤ ـ ١٩.

ـ «مبادئ التكافل الاجتماعي». حلقة الدراسات الاجتماعية، الدورة الثالثة. القاهرة: جامعة الدول العربية ـ إدارة الشؤون الاجتماعية والصحية، ١٩٥٥، ص ٥٨٢ ـ ٥٨٧.

ـ «رسالة الجامعة لعالم عربي يتجدد». فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي يتجدد. بيروت: مطبعة الكشاف، ١٩٥٦، ص ١٥١ ـ ١٦٤.

ـ «العرب والثقافة الحديثة». معارف الكويت: محاضرات الموسم الثقافي الثاني. القاهرة: دائرة المعارف، ١٩٥٦، ص ٢٩٥ ـ ٣١٥.

ـ «دروس من التاريخ». معارف الكويت: محاضرات الموسم الثقافي الثاني. القاهرة: دائرة المعارف، ١٩٥٦، ص ٣١٩ ـ ٣٣٥.

ـ «التحرر الذاتي أولاً». الحرية أولاً، ٦ (تموز/يوليو ١٩٥٦)، ص ٥.

ـ «دروس من النكبة». الثقافة العربية، ١/١ (١٩٥٧)، ص ٧ ـ ١٠، ٦٠ ـ ٦١.

ـ «من معاني الأزمة اللبنانية (١)». العلوم، ٣/٨ (آب/أغسطس ١٩٥٨)، ص ٥ ـ ٨، ٦٣.

ـ «من معاني الأزمة اللبنانية (٢)». العلوم، ٣/٩ (أيلول/سبتمبر ١٩٥٨)، ص ٧ ـ ١١، ٥١.

ـ «التوجيه القومي في الحقل التربوي». الثقافة العربية، ٣/٢ (نيسان ـ حزيران/أبريل ـ يونيو ١٩٥٩)، ص ٣ ـ ٦.

ـ «ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي وغيره عن فترة الحروب الصليبية». الأبحاث، ٢/١٢ (حزيران/يونيو ١٩٥٩)، ص ٢٣٢ ـ ٢٥٩ (نشر في ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي وغيره. بيروت: برنامج الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٥٩، ص ٩٤ ـ ١٢١ و١٩٦ ـ ٢٠٦).

ـ «ما هو الحل العملي للقضاء على الطائفية السياسية في لبنان؟». كتب لمجلة الأحد جواباً لاستفتاء، ٢٩/١١/١٩٥٩.

ـ «التقدير المتبادل لقيم الشرق والغرب الحضارية ـ شروطه الضرورية». الأبحاث،

٤/١٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٩)، ص ٤٨٥ ـ ٤٩٩ (نشر في هذا العصر المتفجر ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٦١٩ ـ ٦٣٢) ومترجم عن الأصل الإنكليزي في:

«Conditions for the Mutual Appreciation of Eastern-Western Cultural Values.» *Eastern-Western Cultural Values-A Symposium.* Washington: Committee of International Relations of the National Education Association of the U.S.A, 1959, pp. 23-32.

- «التراث الحضاري». الأبحاث، ١/١٣ (آذار/مارس ١٩٦٠)، ص ٣ ـ ٢٤ (نشر في محاضرات الموسم الثقافي ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص ١٤٥ ـ ١٧٠، وفي هذا العصر المتفجر ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٥٩٩ ـ ٦١٧).
- «الاختصاص في التعليم الجامعي: من مشكلات التربية الحديثة». العربي، ١٧ (نيسان/أبريل ١٩٦٠)، ص ٨٤ ـ ٨٨.
- «حقائق باقية». الأبحاث، ٢/١٣ (حزيران/يونيو ١٩٦٠)، ص ٢٠٣ ـ ٢١٩.
- «القيم أولاً». الأبحاث، ٤/١٤ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٦١)، ص ٤٧٦ ـ ٤٨٠.
- «نهج لمواجهة العصر المتفجر». الأبحاث، ١/١٥ (آذار/مارس ١٩٦٢)، ص ٣ ـ ٢٤ (نشر في محاضرات الموسم الثقافي ١٩٦١ ـ ١٩٦٢. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص ٣٠١ ـ ٣٢٢، وفي النصر (دمشق)، ١٢/١/١٩٦٢ وفي هذا العصر المتفجر ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٥٨١ ـ ٥٩٨).
- «دور الجامعة في الحياة الوطنية». المعرفة (دمشق)، ٣/١ (أيار/مايو ١٩٦٢)، ص ٦ ـ ٢٣ (نشر في الجامعة ورسالتها. بيروت: منشورات الندوة اللبنانية، ١٩٦٣، ص ٣٦ ـ ٦٨).
- «في مفاهيم الحضارة». مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)، ١/٣٩ (١٩٦٤)، ص ٩٩ ـ ١١٢.
- «التربية والفضيلة». المجلة التربوية (بيروت)، آذار/مارس ١٩٦٤، ص ١ ـ ٤.
- «إميل البستاني الإنسان». لسان الحال، ١٧/٣/١٩٦٤.
- «معضلتنا الأساسية». الجامعة، أيار/مايو ١٩٦٤، ص ٤ ـ ٥.

- «الجامعات أمام مسؤولياتها». الأبحاث، ١/١٨ (آذار/مارس ١٩٦٥)، ص ٣ ـ ٢٠ (نشر في الثقافة العربية، ٣/٨ (آذار/مارس ١٩٦٥)، ص ٢ ـ ١٦).
- «العلم في خدمة قضية فلسطين». العربي (الكويت)، ٨٠ (تموز/يوليو ١٩٦٥)، ص ١٧ ـ ٢٠.
- «علم النكبة». المعرفة، ٤٩/٥ (آذار/مارس ١٩٦٦)، ص ٦٨ ـ ٧٤.
- «التربية هي العطاء»، كلمة أعدت للنشر في مجلة مدرسة البنات الأهلية، ٢٠/٥/١٩٦٦.
- «الجامعة ومستقبل الفكر العربي». الفكر العربي في مائة سنة (بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقدة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦ في الجامعة الأميركية في بيروت)، تحرير فؤاد صروف ونبيه أمين فارس. بيروت، ١٩٦٧، ص ٦٣١ ـ ٦٥٦ (نشر أيضاً في الجامعة وإنسان الغد: محاضرات العيد المئوي للجامعة الأميركية. بيروت، ١٩٦٨، ص ١٥٩ ـ ١٨٢).
- «مختارات من معنى النكبة مجدداً في: هركابي، يهوشفاط. تيارات في السياسة والاجتماع العربي بعد حزيران ١٩٦٧. تل أبيب: دار النشر العربي، [د.ت.]، ص ١٧٥ ـ ١٩٥.
- جواب لاستفتاء بعنوان «ما هو رأيكم بالدرس الأكبر الذي تعلمنا إياه الهزيمة؟». الآداب، ٧ ـ ٨ (تموز ـ آب/يوليو ـ أغسطس ١٩٦٧)، ص ٤ ـ ٥.
- أجوبة عن أسئلة وجهتها مدرسة البشارة الأورثوذكسية. البشرى، ٢/٩ (٢٦/٣/١٩٦٨)، ص ٤ ـ ٥.
- «الطالب ومسؤولياته الوطنية»، الطالب الجامعي في لبنان: مستقبله ومشكلاته. بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٧ ـ ٥١.
- «غياب دولة العقل». الآداب، ١/١٧ (كانون الثاني/يناير ١٩٦٩)، ص ٢ ـ ٣.
- «غاندي وتحرر الشعوب». غاندي: تحية من لبنان. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٠، ص ٨٨ ـ ١٠٦.
- «عبد الناصر المبدع». الآداب، ١/١٩ (كانون الثاني/يناير ١٩٧١)، ص ٣ ـ ٥.
- «الرابطة الدولية للجامعات». نشرة لبنان والأونسكو، ٢ (٤/٥/١٩٧١).
- «المعوقات القيمية للثورة العلمية التكنولوجية في الدول النامية». الرجال والأعمال، ٩٢/٨ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٣)، ص ٥٤ ـ ٥٩.

- «عبرة من عصر أبي الفداء». المعرفة، العدد ١٥٤ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٤)، ص ٢٤ ـ ٤١.
- «المستقبلية المعاصرة وبواعثها». محاضرات الموسم الثقافي لعام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥. أبو ظبي: وزارة الإعلام والثقافة، [د.ت.]، ص ٢٥٩ ـ ٢٧٩.
- «دور الجامعة في العالم العربي». وجهة نظر، ٢/٩ (٢٩/٤/١٩٧٥)، ص ٦ ـ ١١. نشر أيضاً في التربية الجديدة، [د.ت.]، ص ١٥ ـ ١٦.
- «الجامعة اليوم وغداً». من ثمار الفكر: الموسم الثقافي الرابع. الدوحة: جامعة قطر، ١٩٧٨، ص ١٨٥ ـ ١٩٧.
- «التأريخ، من أين وإلى أين». الفكر العربي، ١/٢ (تموز ـ آب/يوليو ـ أغسطس ١٩٧٨)، ص ٤ ـ ١٧ (نشر في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٤٨٧ ـ ١٥٠٣).
- «نظرة في تاريخ العرب والعالم». تاريخ العرب والعالم، ١/١ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٨)، ص ٥ ـ ١٠ (نشر في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٦٠٥ ـ ١٦١٦).
- «الحضارة الإنسانية إلى أين». الفكر العربي، ١/١٠ (آذار ـ نيسان/مارس ـ أبريل ١٩٧٩)، ص ٤٨ ـ ٦٢ (نشر في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٤٢٧ ـ ١٤٤٥).
- «الوحدة العربية، المعوقات والممكنات»، الفكر العربي، العدد ١١ ـ ١٢ (آب/أغسطس ١٩٧٩).
- «فلسطين وعلم النكبة». الموسوعة الفلسطينية، ٢٩/١٠/١٩٧٩.
- «نحو حلول عملية للتغلب على العقبات التي تقف في وجه الوحدة العربية». قضايا عربية، ٧/٧ (تموز/يوليو ١٩٨٠)، ص ٥ ـ ١٦ (نشر في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٥٦٩ ـ ١٥٨٥).
- «المسيحيون العرب والمستقبل». المستقبل العربي، ٤/٢٧ (أيار/مايو ١٩٨١)، ص ٢٤ ـ ٣٣ (نشر أيضاً في المسيحيون العرب: دراسات ومناقشات، تحرير الياس خوري. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١، ص ١٠٩ ـ ١٢٧، وفي مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٤٦٣ ـ ١٤٧٦).

- «مطالب المستقبل العربي». شؤون عربية، العدد ١١ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٢)، ص ٨ ـ ١٨ (نشر أيضاً في العمل (تونس)، ٢٤/١٢/١٩٨١، وفي الصباح (تونس)، ١٩، ٢٢/١٢/١٩٨١، وفي مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٤٤٧ ـ ١٤٦١).
- «إسهام الدكتور أسد رستم في علم مصطلح التاريخ». أسد رستم، الإنسان والمؤرخ. إعداد الياس القطار وجان شرف ولميا رستم شحادة. بيروت ـ جونية: منشورات المكتبة البولسية، ١٩٨٤، ص ١٨٧ ـ ٢٠١.
- «النهج العصري: محتواه وهويته، إيجابياته وسلبياته». المستقبل العربي، ٧/٦٩ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤)، ص ١٠٥ ـ ١٢١ (نشر أيضاً في ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤).
- «العمل العربي المشترك في جامعة الدول العربية». شؤون عربية، العدد ٤١ (آذار/مارس ١٩٨٥)، ص ٨٥ ـ ٨٨ (نشر أيضاً في آراء، العمل العربي المشترك في أربعة عقود، نظرة نقدية ورؤية مستقبلية).
- كلمة في تكريم رشيد سليم الخوري. ديوان الشاعر القروي. بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٧، المجلد الأول، ص ١٤.
- «آفاق العمل العربي». الهلال، تموز/يوليو ١٩٨٩، ص ٨٨ ـ ٩٢.
- «كي نظفر بحقنا في فلسطين». مجلة الدراسات الفلسطينية، ١ (شتاء ١٩٩٠)، ص ٤ ـ ١٠.
- «خطاب حفلة التخرج والاحتفال بالذكرى الـ ١٢٥ لتأسيس الجامعة الأميركية في بيروت». *AUB Bulletin*، ٤/٣٣ (حزيران/يونيو ـ آب/أغسطس ١٩٩١).
- «خاتمة». المثقف العربي: همومه وعطاؤه، إعداد أنيس صايغ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥، ص ٣١٣ ـ ٣١٩.
- «محنة الجامعات». دراسات لبنانية، مهداة إلى جوزف مغيزل. بيروت: دار النهار، ١٩٩٦، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٩.
- «شتان بين من ينطق بعقيدة ومن يعيشها». زعيتر، سري. ذكرى أكرم زعيتر، أمين ذاكرة الأمة. عمّان، ١٩٩٧، ص ٣ ـ ٧.
- «الثورية المطلوبة». شؤون عربية، عدد خاص (آذار/مارس ٢٠٠٠)، ص ١٣ ـ ٢٢.
- «في القومية وفي القومية العربية». الطريق، ٤/٦٠ (تموز ـ آب/يوليو ـ أغسطس

٢٠٠١)، ص ١٥٠ ـ ١٥٩.

ـ «نحو ثقافة عربية أفضل». نحو عالم عربي أفضل. بيروت: جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، لا تاريخ، ص ٣٥ ـ ٥٦.

٣) مقدمات وتوطئات

ـ توطئة لكتاب: شهلا، جورج. الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية. بيروت: دار الكشاف، ١٩٥٥.

ـ «بين يدي الكتاب». نص كلمة أعدت كمقدمة لكتاب: الكزبري، سلمى الحفار. نساء متفوقات في الشرق والغرب. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١.

ـ نص مقدمة أعدت لترجمة محمود زايد لكتاب:

Cochran, Thomas C. and Samuel Hugh Brocknier. *The Social Sciences in Historical Study* (A Report of the Committee on Historiography). New York, 1954.

في: أتكن، هيو ج. (محرر). ترجمة: محمود زايد. دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٣، ط ـ ع (ص ١٦ ـ ٢٤).

ـ «كلمة العدد». البشرى، ١/٧ (١٩٦٤)، ص ٣.

ـ توطئة لـ الكتاب السنوي لاتحاد الطلاب السودانيين في لبنان، ١٩٦٥.

ـ مقدمة لكتاب: الصلح، تقي الدين. في القومية والحكم. بيروت: دار النهار، ١٩٩٩ (الذي أعد ونشر احتفالاً بمرور عشرة أعوام على وفاة تقي الدين الصلح).

ـ مقدمة كتاب أين الرجال الرجال، ١٩٩٩.

٤) مراجعة كتب

– Schmidt, Nathaniel. *Ibn Khaldun Historian, Sociologist, and Philosopher*. Columbia University Press, 1930.

في الكلية، ١٨/٤ (١٩٣٢)، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

– Hitti, P. *History of the Arabs*. London: Macmillan, 1937.

في المكشوف، ١٩٣٧/٨/٤.

ـ الدوري، عبد العزيز. نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت، ١٩٦٠. في الأبحاث، ٢/١٣ (١٩٦٠)، ص ٣١٧ ـ ٣٢٥.

– Wolff, R.L. and H.W. Hazard, eds. *A History of the Crusades*. Philadelphia, vol. 2, 1962.

في الأبحاث، ٣/١٥ (١٩٦٢)، ص ٣٩٥ ـ ٤٠٠.

– Ziadeh, N. *Damascus Under the Mamluks*. Norman, 1964.

في الأبحاث، ٢/١٧ (١٩٦٤)، ص ٢١٧ ـ ٢١٩.

– Issawi, Charles, ed. *The Economic History of the Middle East 1800-1914*. Chicago, 1966.

في الأبحاث، ٣/٢٠ (١٩٦٧)، ص ٣١١ ـ ٣١٤.

٥) الكتابات الصحافية

ـ «الهجرة وما توحيه للزعماء». بيروت، ١٩٤٣/١/٢٨.

ـ «القوى الضائعة». بيروت، ١٩٤٨/٤/٢٣.

ـ «معنى الأزمة». بيروت المساء، ١٩٤٨/٥/١٠.

ـ «واجبات المفكر العربي أيام الأزمات». بيروت المساء، ١٩٤٨/١٢/١.

ـ «محمد قدوة الانقلاب البنّاء». بيروت، ١٩٥٢/١٢/٢.

ـ «البحث العلمي وأثره في الحياة القومية». الحياة، ١٩٥٣/١٢/١٣ (نشر أيضاً في المجلة الصيدلية اللبنانية، ٤/١ (١٩٥٣)، ص ١٥٥ ـ ١٥٩).

ـ «معنى السلام في ذكرى الميلاد». بيروت، ١٩٥٣/١٢/٢٣.

ـ «لا بد من سياسة جديدة تنسجم ورغبة المتخلفين في التحرر». الحياة، ١٩٥٥/٩/٢١.

ـ «اقتراح بإنشاء مركز لبحث قضية فلسطين». بيروت المساء، ١٩٦٠/٨/٣.

ـ «دعوة لإنشاء مؤسسة عربية للبحث العلمي ولشؤون التنمية بمناسبة اجتماع وزراء الخارجية ومؤتمر القمة الخامس». النهار، ١٩٦٧/١٢/٨.

ـ «ما الفرق بين الحضارة والمدنية». النهار، ١٩٦٧/١٢/١٤.

ـ «الحركة الطلابية تحد للمجتمع اللبناني وللطلاب أنفسهم». الجريدة، ١٩٦٩/٢/٣.

ـ «عرض وتحليل موضوعي للقضية الفلسطينية». الدفاع (عمّان)، ١٩، ٢١، ٢٢، ١٩٧٠/١٢/٢٤ (ترجم النص عن الإنكليزية يعقوب السلطي).

- «مادية، وصولية، أرباح». النهار، ٢١/٥/١٩٧٣.
- الكلمة التي ألقيت في الاحتفال الذي أقامته «وجهة نظر» بمناسبة تخرج بعض أعضائها وأصدقائها. النهار، ١٠/٨/١٩٧٦.
- «إنسان جديد لعالم جديد». النهار، ١١/٢/١٩٧٨.
- «فقرة من كتاب نحن والمستقبل». النهار، ٤/٦/١٩٧٨.
- «عطاء فيليب حتي، كلبنان واللبنانيين، رفيع ومتميز في خدمة الثقافة العربية». النهار، ٢٩/١٢/١٩٧٨.
- «ثلاث محاولات حديثة لدراسة الحضارة: شبنجلر وتوينبي وسوروكين». النهار، ١٨ ـ ٢٠/٤/١٩٧٩.
- «مستقبل الجامعة في العالم العربي». الشرق الأوسط، ١٩/١٢/١٩٧٩.
- «رسالة الحضارة الإسلامية». الشرق الأوسط، ٢٢/١٢/١٩٧٩.
- «العلاقات العربية الأميركية: الأخطار والفرص». الشرق الأوسط، ٢٧/١/١٩٨٠ و٣/٢/١٩٨٠.
- «كيف تقيّم الكتابة التاريخية العربية الراهنة». النهار العربي والدولي، ٤/١٥٨ (١٢ ـ ١٨/٥/١٩٨٠).
- «حوار في الفكر السياسي العربي». النهار العربي والدولي، ٦/٢٦٥ (١٩٨٢).
- «عن مفهوم التعددية الثقافية والحضارية في لبنان». الكفاح العربي، ٣٠/٧ ـ ٥/٨/١٩٨٤.
- «الأصل والجوهر وأفكار القلوب». الأنوار، ٣١/١/١٩٨٥.
- «الحيوية العقلية: تحية إلى مروان بحيري». السفير، ٨/٣/١٩٨٦.
- «من الثمانينات إلى التسعينات». الحياة، ٣١/١٢/١٩٨٩.
- «لماذا هذه المحاولة؟». الحياة، ١٢/١/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٥٥ ـ ١٧٥٨).
- «حمى الانتماءات». الحياة، ١٩/١/١٩٩٠.
- «معاني الانتماء». الحياة، ٢٧ ـ ٢٨/١/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٥٩ ـ ١٧٦٣).
- «الانتماء القومي والمتغيرات». الحياة، ٢/٢/١٩٩٠.
- «الانتماء القومي: ما له وما عليه». الحياة، ٩/٢/١٩٩٠ (نشر في الأعمال

الفكرية العامة المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٦٤ ـ ١٧٦٨).
- «القومية وسائر الأيديولوجيات». الحياة، ١٧ ـ ١٨/٢/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٦٩ ـ ١٧٧٢).
- «تعثر القومية العربية (١)». الحياة، ٢٣/٢/١٩٩٠.
- «تعثر القومية العربية (٢)». الحياة، ٢/٣/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٧٣ ـ ١٧٨١).
- «القومية والدين». الحياة، ٩/٣/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٨٢ ـ ١٧٨٧).
- «أسرة الإنسان». الحياة، ١٦/٣/١٩٩٠.
- «لماذا اليوم وغداً». الحياة، ٢٣/٣/١٩٩٠.
- «التاريخ لا ينتظر». الحياة، ٣٠/٣/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٨٨ ـ ١٧٩٢).
- «الإصلاح: دكتيلو وطابع». الحياة، ٦/٤/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٩٣ ـ ١٧٩٧).
- «رفقاً بالديمقراطية: لا تحمّلوها فوق طاقتها». الحياة، ١٣/٤/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٧٩٨ ـ ١٨٠٢).
- «من وحي رمضان والفصح: نحو الإنسان العربي الجديد». الحياة، ٢٠/٤/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٠٣ ـ ١٨٠٧).
- «متى يطلب اليهود الصهيونيون الصفح من الفلسطينيين». الحياة، ٢٨ ـ ٢٩/٤/١٩٩٠.
- «الديمقراطية في الحكم وفي صفوف الشعب». الحياة ٤/٥/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٠٨ ـ ١٨١٢).
- «المعرفة هي القدرة: المعرفة المحققة (١)». الحياة، ١١/٥/١٩٩٠.
- «المعرفة هي القدرة أو المعرفة المتجددة (٢)». الحياة، ١٨/٥/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨١٣ ـ

١٨٢٣).

ـ «حلم مقلق». الحياة، ٢٥/٥/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٢٤ ـ ١٨٢٨).

ـ «العالم العربي في نظر الإيكونومست». الحياة ١/٦/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٢٩ ـ ١٨٣٤).

ـ «حدث علمي جديد: التلسكوب الفضائي». الحياة، ٨/٦/١٩٩٠.

ـ «النجاح هو المحك». الحياة، ١٥/٦/١٩٩٠.

ـ «القدس والعالم». الحياة، ٢٢/٦/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٣٥ ـ ١٨٣٩).

ـ «ماذا سقط في الاتحاد السوفياتي وما الذي يؤمل أن يبقى؟ (١)». الحياة، ٢٩/٦/١٩٩٠.

ـ «ماذا سقط في الاتحاد السوفياتي وما الذي يؤمل أن يبقى؟ (٢)». الحياة، ٦/٧/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٤٠ ـ ١٨٤٩).

ـ «قدسية الحرية، وحرمة الدستور والقضاء». الحياة، ١٣/٧/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٥٠ ـ ١٨٥٤).

ـ «من بطولة الفرد إلى بطولة المجموع». الحياة، ٢٠/٧/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٥٥ ـ ١٨٥٩).

ـ «أما آن الأوان لـ 'صحوة' مسيحية في لبنان». الحياة، ٢٧/٧/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٦٠ ـ ١٨٦٤).

ـ «العبرة في 'قوة من لا قوة لهم'». الحياة، ٣/٨/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٦٥ ـ ١٨٦٩).

ـ «أحقاً انتهى العالم الثالث؟». الحياة، ١٠/٨/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٧٠ ـ ١٨٧٤).

ـ «نحو الدول العربية المتحدة». الحياة، ٢٤/٨/١٩٩٠.

ـ «الجريمة والخطأ». الحياة، ٣١/٨/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة،

المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٧٥ ـ ١٨٧٩).

ـ «عودة إلى 'الدول العربية المتحدة'... نحو الديمقراطية الصحيحة». الحياة، ٧/٩/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٨٠ ـ ١٨٨٥).

ـ «النظام الفيدرالي الأميركي والحرب الأهلية». الحياة، ١٤/٩/١٩٩٠.

ـ «إعادة ترتيب الأولويات العربية وترسيخها». الحياة، ٢١/٩/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٨٦ ـ ١٨٩١).

ـ «خطآن تاريخيان للسوفيات في حق أنفسهم وفي حق العرب». الحياة، ٢٨/٩/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٩٢ ـ ١٨٩٧).

ـ «ليتنا نكون أسوة بدول شرق آسيا (١)». الحياة، ٥/١٠/١٩٩٠.

ـ «ليت تجربة شرق آسيا تكون أسوة للعرب (٢)». الحياة، ١٢/١٠/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٨٩٨ ـ ١٩٠٨).

ـ «صورة العرب في مرآة أنفسهم». الحياة، ١٩/١٠/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٠٩ ـ ١٩١٤).

ـ «عودة أُخرى إلى قضية الاتحاد». الحياة، ٢٦/١٠/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩١٥ ـ ١٩٢٠).

ـ «قليلاً من الوضوح في وسط التخبط الداهم». الحياة، ٢/١١/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٢١ ـ ١٩٢٦).

ـ «الوطن: الأرض والإنسان». الحياة، ٩/١١/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٢٧ ـ ١٩٣٢).

ـ «تساؤلات حول إعداد كفاءاتنا العالية». الحياة، ١٦/١١/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٣٣ ـ ١٩٣٨).

ـ «هل تكون الحضارة الغربية الحديثة الحضارة العالمية المرتجاة». الحياة، ٢٣/١١/١٩٩٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٣٩ ـ ١٩٤٤).

ـ «تنازع البقاء... و'بقاء الأسرع'». الحياة، ١٩٩٠/١١/٣٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠).

ـ «أين فروسية السلام؟ أين عبقرية العرب؟». الحياة، ١٩٩٠/١٢/٧ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٥١ ـ ١٩٥٦).

ـ «بين التهور والجبن». الحياة، ١٩٩٠/١٢/١٤ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢).

ـ «الانتفاضة الفلسطينية: تحية ومناشدة». الحياة، ١٩٩٠/١٢/٢١ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧).

ـ «العام ١٩٩٠: ميزان الأرباح والخسائر». الحياة، ١٩٩٠/١٢/٢٨ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٦٨ ـ ١٩٧٤).

ـ «لبنان الثقافة». الحياة، ١٩٩١/١/٤ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٧٥ ـ ١٩٧٩).

ـ «عبر من الأحداث السوفياتية (١)». الحياة، ١٩٩١/١/١١.

ـ «عبر من الأحداث السوفياتية (٢)». الحياة، ١٩٩١/١/١٨ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٨٠ ـ ١٩٨٩).

ـ «وقفة تأمل ومراجعة». الحياة، ١٩٩١/١/٢٥ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٩٠ ـ ١٩٩٥).

ـ «القومية العربية.. هل انتهى أمرها». الحياة، ١٩٩١/٢/٨.

ـ «المشروع القومي أيضاً: تحية إلى المؤتمر القومي العربي الثاني». الحياة، ١٩٩١/٢/١٥ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ١٩٩٦ ـ ٢٠٠١).

ـ «الخطة الشاملة للثقافة العربية (١)». الحياة، ١٩٩١/٢/٢٢.

ـ «الخطة الشاملة للثقافة العربية (٢)». الحياة، ١٩٩١/٣/١ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٠٢ ـ ٢٠١٢).

ـ «عن 'مركز دراسات الوحدة العربية'». الحياة، ١٩٩١/٣/٨ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠١٣ ـ ٢٠١٨).

ـ «نوع آخر من النضال». الحياة، ١٩٩١/٣/١٥ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠١٩ ـ ٢٠٢٤).

ـ «هل دخلت أميركا 'دور الانحطاط'؟». الحياة، ١٩٩١/٣/٢٢ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٣١ ـ ٢٠٣٦).

ـ «مجتمع الكفاءة ومجتمع الكفاية». الحياة، ١٩٩١/٣/٢٩ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٢٥ ـ ٢٠٣٠).

ـ «الخداع... والانخداع». الحياة، ١٩٩١/٤/٥ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٣٧ ـ ٢٠٤٢).

ـ «في سبيل نصرة معاركنا في الغرب». الحياة، ١٩٩١/٤/١٢ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٤٨ ـ ٢٠٥٣).

ـ «'صك الحقوق'... و'صك الواجبات'». الحياة، ١٩٩١/٤/١٩ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٤٣ ـ ٢٠٤٧).

ـ «التنين الملتهم». الحياة، ١٩٩١/٤/٢٦ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٥٤ ـ ٢٠٥٩).

ـ «العرب والديمقراطية». الحياة، ١٩٩١/٥/٣ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٦٠ ـ ٢٠٦٤).

ـ «المطالب الكبيرة والإنجازات الصغيرة». الحياة، ١٩٩١/٥/١٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٦٥ ـ ٢٠٦٩).

ـ «كفانا هلعاً وضياعاً... وإلى العمل». الحياة، ١٩٩١/٥/١٧ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٧٠ ـ ٢٠٧٤).

ـ «هل نقوى على حماية الجامعة». الحياة، ١٩٩١/٥/٢٤ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٧٥ ـ ٢٠٨٠).

ـ «نحن والتحديات (١)». الحياة، ١٩٩١/٥/٣١.

ـ «نحن والتحديات (٢)». الحياة، ١٩٩١/٦/٧.

ـ «من عِبَر أحداث الهند وإثيوبيا». الحياة، ١٩٩١/٦/١٤ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٨١ ـ ٢٠٨٦).

ـ «'لعنة وطن' أم 'خطايا شعب'». الحياة، ١٩٩١/٦/٢١ (نشر في الأعمال الفكرية

العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٩٣ ـ ٢٠٩٨).

- «معاناة استكشاف الهوية». الحياة، ١٩٩١/٦/٢٨ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٨٧ ـ ٢٠٩٢).
- «أساس إعمار لبنان». الحياة، ١٩٩١/٧/٥ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢٠٩٩ ـ ٢١٠٤).
- «إنقاذ الجامعة اللبنانية». الحياة، ١٩٩١/٧/١٢ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٠٥ ـ ٢١١١).
- «لكي نعكس معنى 'اللبننة'». الحياة، ١٩٩١/٧/١٩ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١١٢ ـ ٢١١٨).
- «معركة التعليم العالي العربي». الحياة، ١٩٩١/٧/٢٦ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١١٩ ـ ٢١٢٤).
- «الرومانسية والواقعية». الحياة، ١٩٩١/٨/٢ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٢٥ ـ ٢١٣٠).
- «أوضاع البحث العلمي في العالم العربي». الحياة، ١٩٩١/٨/١٦ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٣١ ـ ٢١٣٧).
- «سابقة مؤشرة لمؤتمر السلام». الحياة، ١٩٩١/٨/٢٣ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٣٨ ـ ٢١٤٤).
- «حوار حول القومية والنكبة الثالثة». السفير، ١٩٩١/٨/٢٤.
- «الفلتان العالمي». الحياة، ١٩٩١/٩/٦ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٤٥ ـ ٢١٥٠).
- «قليلاً من الاحتشام». الحياة، ١٩٩١/٩/١٣ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٥١ ـ ٢١٥٥).
- «التحديات للمؤتمر الوطني الفلسطيني». الحياة، ١٩٩١/٩/٢٠ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٥٦ ـ ٢١٦١).
- «هل اقتصاد السوق قيمة حضارية». الحياة، ١٩٩١/١٠/٤.
- «عودة إلى النظام العالمي الجديد». الحياة، ١٩٩١/١٠/١٨ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٦٢ ـ ٢١٦٦).

- «التعليم أو العبء المرهق». الحياة، ١٩٩١/١٠/٢٥ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٦٧ ـ ٢١٧١).
- «المحطة... والطريق». الحياة، ١٩٩١/١١/١ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٧٢ ـ ٢١٧٦).
- «دمعة على بناء». الحياة، ١٩٩١/١١/١٥ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٧٧ ـ ٢١٨١).
- «على ماذا نراهن في مفاوضات السلام». الحياة، ١٩٩١/١١/٢٢ (نشر في الأعمال الفكرية العامة، المجلد الرابع (من بعيد ومن قريب)، ص ٢١٨٢ ـ ٢١٨٧).
- «كيف نعاني مآسينا». الحياة، ١٩٩٦/٥/٢.
- «حضور أميركا في الذهن العربي والحضور العربي في أميركا (١)». الحياة، ١٩٩٦/٥/١٥.
- «حضور أميركا في الذهن العربي والحضور العربي في أميركا (٢)». الحياة، ١٩٩٦/٥/١٦.
- «دروس من الهند». الحياة، ١٩٩٦/٥/٢٦.
- «الوحدة القومية: إنشاء أو استعادة». الحياة، ١٩٩٦/٦/٧.
- «تخلفنا وتخلفهم». الحياة، ١٩٩٦/٦/١٢.
- «الحاضر الغائب في مفاوضات السلام». الحياة، ١٩٩٦/٦/١٩.
- «مواجهة التاريخ». الحياة، ١٩٩٦/٦/٢٩.
- «لكي يكون لنا موقع في الصدارة». الحياة، ١٩٩٦/٧/٧.
- «تحدي القدس للفلسطينيين والعرب». الحياة، ١٩٩٦/٧/١٢.
- «غياب الفكر: الانتخابات اللبنانية». الحياة، ١٩٩٦/٨/١٢.
- «الحاجة إلى قوة فكرية عربية ضاربة». الحياة، ١٩٩٦/٨/١٩.
- «غياب الفكر: دعوة إلى الجامعيين». الحياة، ١٩٩٦/٩/٨.
- «الإنسان مع الأرض ـ بل لعله قبلها». الحياة، ١٩٩٦/٩/١٦.
- «صراع العقائد وصراع القيم». الحياة، ١٩٩٦/٩/٢٥.
- «الجامعات والمجتمع المدني». الحياة، ١٩٩٦/٩/٢٦.

- «هل تريد حقاً مواصلة طريق السلام إلى نهايتها». الحياة، ٨/١٠/١٩٩٦.
- «بين القنوط واللامبالاة». الحياة، ٢٢/١٠/١٩٩٦.
- «من القلق المثير إلى الالتزام الثابت». الحياة، ٦/١١/١٩٩٦.
- «صراع القيم». الحياة، ٢٠/١١/١٩٩٦.
- «تناقض غريب ومعيب». الحياة، ٢٧/١١/١٩٩٦.
- «كل مواطن خفير (١)». الحياة، ١٩/١٢/١٩٩٦.
- «كل مواطن خفير (٢)». الحياة، ٢٠/١٢/١٩٩٦.
- «استعداداً للمستقبل القريب والبعيد». الحياة، ١٢/١/١٩٩٧.
- «الخطة الشاملة للثقافة العربية». الحياة، ٢٤/١/١٩٩٧.
- «التربية والأمن القومي». الحياة، ١٦/٢/١٩٩٧.
- «في طبائع العمران البشري في هذا العصر». الحياة، ٧/٣/١٩٩٧.
- «ذكرى أكرم زعيتر». بيروت، النهار، ١٩/٤/١٩٩٧ (نشر أيضاً في زعيتر، سري، ذكرى أكرم زعيتر، أمين ذاكرة الأمة. عمّان، ١٩٩٧، ص ٣ ـ ٧).
- «الهوية تحقيق وإنجاز». الحياة، ٢/٤/١٩٩٨.
- «ماذا عملت بمناسبة الذكرى الخمسينية لنكبة فلسطين؟». الحياة، ١٩/٤/١٩٩٨.
- «قصور الذات العربية وشروط التغيير». ملحق النهار، ٢٥/٤/١٩٩٨.
- «الثقافة والحكم». الحياة، ١/٥/١٩٩٨.
- «حذار أن نقع في المأزق الصهيوني». الحياة، ٧/٥/١٩٩٨.
- «نعم هكذا تتصرف الأمم الحية». الحياة، ١٧/٥/١٩٩٨.
- «البكاء على الأطلال... متى نبرأ منه». الحياة، ٢٥/٥/١٩٩٨.
- «غاندي أم التسلح النووي». الحياة، ١/٦/١٩٩٨.
- «حول مشروع إنشاء متحف لـ 'الحياة والذاكرة الفلسطينية'». الحياة، ١٩/٦/١٩٩٨.
- «ماذا جنينا من الذكرى الـ ٥٠ لنكبتنا بفلسطين». الحياة، ٢٨/٦/١٩٩٨.
- «شهوة المال.. الأزمة المالية الآسيوية». الحياة، ٣/٧/١٩٩٨.
- «التحول عن الفردية إلى الجماعية أهم تحديات العصر». الحياة، ٢٦/٧/١٩٩٨.

٦) مقابلات وندوات

- الناقد (دمشق)، ٢٢/٨/١٩٣٠.
- «حديث طريف للدكتور قسطنطين زريق عن مدينة طرطوس قديماً وحديثاً». مقابلة مع رشيد سنو. المكشوف، ٥/٥/١٩٣٧.
- المكشوف، ٢٤/١/١٩٣٨.
- بيروت، ٨/٣/١٩٤٨.
- حديث إلى الأنباء (الكويت)، ١/١/١٩٦٤.
- مقابلة في الأسبوع العربي، شباط/فبراير ١٩٦٥.
- «في العرب عجز عن فهم معنى الحرب». مقابلة مع رفيق خوري. ملحق النهار، ٣/٦/١٩٦٨.
- «بعد ربع قرن على الاستقلال، لبنان هل يتغير؟». أدار الندوة غسان تويني. النهار، ميلاد ١٩٦٨ ورأس السنة ١٩٦٩ (شارك في الندوة: جواد بولس وكمال صليبي وهشام نشّابة).
- «المثقفون يدبون الصوت». أدار الندوة جبران عكاوي. الصياد، ٢٦/١٤٧١، ٢٣ ـ ٣٠/١/١٩٦٩ (شارك في الندوة: زاهية سلمان وعصام حيدر وحسن صعب ولطفي دياب).
- «الدكتور قسطنطين زريق العائد من مؤتمر الاتحاد العالمي للجامعات في مونتريال». مقابلة مع باسم المعلم. النهار، ١٩/١٠/١٩٧٠.
- «مع الدكتور قسطنطين زريق في حديث عن الشباب». *Alumni News*، شتاء ١٩٧٠، ص ١٢ ـ ١٣.
- «تخلف العرب تلك هي المسألة». مقابلة مع عبد الكريم أبو النصر، ملحق النهار، ٧/١/١٩٧٣.
- «الحرب حقيقة». جواب عن سؤال «الحرب ماذا تتوقعون». مقابلة مع مهى ياسين. ملحق النهار، ١٤/١٠/١٩٧٣.
- «لا تفرّطوا في التراث ففيه قيم خالدة تحتاجون إليها». مقابلة مع صالح الحاجة. الصباح (تونس)، ٢٤/٩/١٩٧٤.
- «تصعيد الروح النضالية شرط من شروط الخروج من التخلف». مقابلة مع صالح الحاجة، الصباح (تونس)، ٢٥/٩/١٩٧٤.

- مقابلة مع ريمون غريب. المستقبل، ٤٠ (٢٦/١١/١٩٧٧)، ص ٣٥ ـ ٤٠.
- «القومية العربية موجودة بالقوة ولا تصبح موجودة بالفعل إلاّ بالتضحية والنضال». مقابلة مع جهاد فاضل. الحوادث، ١٣/١/١٩٧٨، ص ٦٦ ـ ٦٨.
- «لم نشارك بعد في التطور العلمي الطاغي على العالم». مقابلة مع إبراهيم عبده خوري. الجمهور، ٢/٢/١٩٧٨، ص ٥٢ ـ ٥٣.
- «هل يكون العرب في صناعة التاريخ من أبناء الماضي أم من أبناء المستقبل؟». مقابلة مع وضاح شرارة. الفكر العربي، ١/١ (حزيران/يونيو ١٩٧٨)، ص ١١٧ ـ ١٣٧.
- «وجهاً لوجه». مقابلة مع سيمون عواد. المجلة العربية، ٢/١٠ ـ ١١ (تموز ـ آب/يوليو ـ أغسطس ١٩٧٨)، ص ٣٨ ـ ٤٣ (سجل في محطة الإذاعة اللبنانية، ١٦/١٢/١٩٧٧).
- «الحضارة الإنسانية المعاصرة ومآلها». أدار الندوة مطاع صفدي. الفكر العربي، ١٠ (آذار ١٩٧٩)، ص ١٨٢ ـ ٢١٠ (شارك في الندوة: عصام نعمان وجوزف مغيزل ومنح الصلح).
- «الوطن العربي في الثمانينات». أدار الندوة سمير كرم. المستقبل العربي، ٢/١٣ (آذار/مارس ١٩٨٠)، ص ١٣٩ ـ ١٥٧ (شارك في الندوة: أحمد صدقي الدجاني وإسماعيل صبري عبد الله وحامد عمار ومصطفى الجبلي).
- «ليس الفكر القومي بل إحياء الإنسان». مقابلة مع علي حمادة. النهار، ١٦/٣/١٩٨٠.
- مقابلة مع محمد عرفة. الصباح (تونس)، ١٦/١٢/١٩٨١.
- «مطالب المستقبل العربي». مقابلة مع مصطفى عطية. بلادي (تونس)، ٣٩١ (١٤ ـ ٢٠/١٢/١٩٨١).
- «المعرفة الصحيحة عنصر هام في بناء القوة». مقابلة مع عبد السلام لُصيلع. العمل (تونس)، ٢١/١٢/١٩٨١.
- «هموم عربية وتجارب». مقابلة مع علي الدين هلال. المستقبل العربي، ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ (آب ـ أيلول ـ تشرين الأول ١٩٨٢)، ص ٢١٠ ـ ٢٢٤.
- «صراعنا مع الصهيونية يكون بصرع التخلف فينا». مقابلة مع سيمون عواد. الأفكار، ٣٢/١ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٣)، ص ٥٢ ـ ٥٥.

- «يسطو علينا العجز وأهم شيء الخروج منه». مقابلة مع إبراهيم عبده خوري. النهار العربي والدولي، ٣١/١ ـ ٦/٢/١٩٨٣.
- «المثقف العربي ومهامه الراهنة». أدار الندوة خير الدين حسيب. المستقبل العربي، ٥١ (أيار/مايو ١٩٨٣)، ص ١١٠ ـ ١٣٠ (شارك في الندوة: سليم الحص وغسان سلامة ونادر فرجاني).
- «على المفكرين القوميين العرب أن يحاسبوا أنفسهم قبل محاسبة الآخرين». مقابلة مع أحمد فرحات. الكفاح العربي، ٢٥/٢ ـ ٣/٣/١٩٨٥.
- «نحن أمة متخلفة ولا بد من ثورة على الذات». مقابلة مع منى سكرية. السفير، ١٩/٥/١٩٩٤.
- «كيف نؤرخ الحرب اللبنانية». مقابلة مع جوزف باسيل. ملحق النهار، ١٦/٧/١٩٩٤.
- «أي ماض وأي مستقبل». مقابلة مع أحمد عياش. النهار، ٤/٨/١٩٩٤.
- سويد، محمود. العروبة وفلسطين: حوار شامل مع قسطنطين زريق. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦.

تمت مراجعة هذا الكتاب في:

- أبو فخر، صقر. السفير، ٢/٧/١٩٩٦.
- الشرق الأوسط (لندن)، ٢١/٧/١٩٩٦.
- الحياة، ٢٣/٧/١٩٩٦.
- الطريق، العدد ٤ (تموز ـ آب/يوليو ـ أغسطس ١٩٩٦).
- النور، العدد ٦٣ (آب/أغسطس ١٩٩٦).
- المسيرة، ٥/٨/١٩٩٦.
- النهار، ٢٢/٨/١٩٩٦.
- نداء الوطن، ٢٣/٨/١٩٩٦.
- الاتحاد (أبو ظبي)، ٢٤/٨/١٩٩٦.
- الوطن العربي، ٣٠/٨/١٩٩٦.
- الأنوار، ١/٩/١٩٩٦.
- الكفاح العربي، ٢/٩/١٩٩٦.

- الأنوار، ١٩٩٦/٩/٤.
- القبس (الكويت)، ١٩٩٦/٩/٥.
- الحرية، ١٩٩٦/٩/٨.
- الأسبوع العربي، ١٩٩٦/٩/٩.
- «مناقشة كتاب العروبة وفلسطين». الشراع، ١٩٩٦/٩/١٦.

ـ النهار، ١٩٩٦/١٠/٢٦.

ـ «مناقشة كتاب ما العمل». المستقبل العربي، آب/أغسطس ١٩٩٨. نشرت أيضاً في البيان، ٩، ١١، ١٣، ١٩٩٨/٨/١٤ (شارك في الندوة: أحمد صدقي الدجاني والسيد يسين وجلال أمين وطارق البشري وعلاء عبد العزيز ومحمد عودة ومحمود أمين العالم).

ـ «هناك أدلة كثيرة على تجمد الحضارات». مقابلة مع فؤاد نصر الله. اليمامة، ١٥٧٦ (١٩٩٩)، ص ٤٦ ـ ٤٩.

ـ «القومية العربية لم تكتمل بعد». مقابلة مع صقر أبو فخر وحسين حمية وإبراهيم جزيني. الخليج، الملف ٧ (١٩٩٩/١٢/١٠)، ص ٦ ـ ١١.

(ب) بالإنكليزية

1) Academic Articles

– «The Essence of Arab Civilization.» *Middle East Journal,* 3/2 (April 1949), pp. 125-139.

– «The National and International Relations of the Arab States.» in T. Cuyler Young, ed., *Near Eastern Cultures and Society.* Princeton: Princeton University Press, 1951, pp. 206-224.

– «The Effect of New Social Changes and their Effects on the Ways of the Universities in Preparation of Students for Public Life.» *University Education and Public Service (International Association of Universities) Papers-4,* Paris, 1959, pp. 135-148.

– «Conditions for the Mutual Appreciation of Eastern-Western Cultural Values.» *Eastern-Western Cultural Values-A Symposium.* Washington, Committee of International Relations of the National Education Association of the U.S.A,

1959, pp. 23-32 (Arabic Translation in *Al-Abhath,* 12/4 (December 1959), pp. 485-499).

– «DJĀMI'A» (The University Institutions in the Islamic Countries). *Encyclopedia of Islam.* Leiden and London, vol. 2, 1965, pp. 422-427.

– «Universities and the Making of Tomorrow's World.» *Higher Education in Tomorrow's World* (Pamphlet). Algo Henderson, ed. Ann Arbor: The University of Michigan, 1968, pp. 18-30.

– «The Relevance of Traditional Cultures in an Age of Accelerating Change.» in John Burchard, ed., *Thoughts from the Lake of Time* (A Group of Essays in Honor of the Villa Serbelloni and especially of John and Charlotte Marshal). New York: Josiah Macy Jr. Foundation, 1971, pp. 169-178.

– «Cultural Change and Transformation of Arab Society.» *The Arab Future: Critical Issues* (CCAS Studies in Arab Development-2). Washington D.C.: Center for Contemporary Arab Studies, 1979, pp. 9-17.

– «Arab-American Relations, Dangers and Opportunities.» *Arab Studies Quarterly* (ASQ), 2/2 (Spring 1980), pp. 113-126.

– «Arab Development and the Crisis of Our Age.» in Khader, Bicahra. *Monde arabe et développement economique.* Paris: Le Sycomore, 1981, pp. 215-227.

2) General Cultural and Educational Articles

– Text of Chapel Talk. *Outlook,* 17/4/1954.

– «Fares El-Khoury-A Personal Appreciation.» *Al-Kulliyah* [1962].

– «We Would Use Building.» *Al-Kulliyah,* Spring 1963, pp. 14-17.

– «Today and Yesterday, Two Prominent Aspects of the New Meaning of the Disaster.» *Middle East Forum (Al-Kulliyah),* 43/2-3 (1967), pp. 13-20.

– «Nabih Amin Faris.» *Faculty Bulletin,* 11/19 (27/4/1968).

– «Student Revolt.» *Al-Kulliyah,* Summer 1968, pp. 9-12. (This article first appeared as an introduction to selected addresses delivered by the author at AUB between 1953-1966 and published under *More Than Conquerors.* Beirut: American University of Beirut 1968).

– «The Palestine Problem: an Introductory Survey.» *Middle East Forum (Al-Kulliyah),* 46/1 (1970), pp. 27-36, and Published in *World Conference of Christians for Palestine* (Pamphlet). Beirut, May 1970.

– «Participation of AUB Students in Palestinian Struggle.» *Campus* (The AUB Year Book), May 1971, pp. 23-26.

- «The Responsibility of the University and Challenges Facing the Developing World.» *Al-Kulliyah,* Summer 1975, pp. 12-18.
- «The Plight of Universities in Contemporary Times.» *AUB Newsletter,* 17/1 (Winter 1988), pp. 15-16.
- «Aspirations for the AUB in the 21st Century.» *Al-Kulliyah,* Special issue 1992, pp. 22-24. Published also in *American Arab Affairs,* no. 37 (Summer 1991), pp. 52-56.

3) Pamphlets

- *Blessed Foolishness* (Pamphlet). Baccalaureate Address, June 1956.
- *More Than Conquerors* (Pamphlet). Beirut: The American University of Beirut, 1968.
- Welcoming Speech at Conference of Higher Education in Tomorrow's World in the University of Michigan. *Higher Education in Tomorrow's World* (Pamphlet), Algo Henderson, ed. Ann Arbor: The University of Michigan, 1968, pp. 11-13.
- «Inter-University Cooperation.» *Addresses Presented at the 1969 Colloquium on Higher Education for University Administrators in the Middle East* (Pamphlet), 16/7-1/8/1969, pp. 198-207.
- «The Palestine Problem: an Introductory Survey.» *World Conference of Christians for Palestine* (Pamphlet), May 1970, and in *Middle East Forum (Al-Kulliyah),* 46/1 (1970), pp. 27-36.
- «The University and the Creation of the Future.» *Report of the Fifth General Conference of the International Association of Universities.* Paris, 1971, pp. 65-73 (French Edition, Paris, 1971, pp. 69-78). (Published also in *Education and World Affairs* (New York), 1/9 (October 1970), pp. 1, 2, 27, and in *Courier* (Montreal), 31/8/1970, pp. 1-2, and in *Al-Kulliyah,* Autumn 1970, pp. 2-7. Arabic Translation in:

مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٤٧٧ ـ ١٤٨٥).

- «To Shaykh Sa'id Himadeh.» *Shaikh Said Himadeh, a Tribute* (Pamphlet). Beirut, 1982.

4) Prefaces

- Bowles, Franck. *Access to Higher Education.* Paris: UNESCO and the International Association of Universities, 1963 (French Edition, Paris, 1964, pp. 9-21).

- *International University Cooperation-International Association of Universities, Papers-9.* Paris, 1969.
- Jeanne, Henry. *The University and the Needs of the Contemporary Society-International Association of Universities, Papers-10.* Paris, 1970.
- Text of Forward to *'Inaash' Embroidery Over Thirty Years: a Commitment to a Nation in Waiting.* Beirut, [n.d], 5 pages, TS.

5) Book Reviews

- Rosenthal, F. *Ibn Khaldun: The Muqaddimah, An Introduction to History.* Princeton, 1958. in *Middle East Forum,* 1959.
- Halpern, Manfred. *The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa.* Princeton, 1963, and Richard Nolte, ed., *The Modern Middle East,* New York, 1963, in *Political Science Quarterly,* 80/3 (1965), pp. 470-472.

6) Newspaper Articles

- «Le défi des étudiants à la société libanaise et ses conséquences.» *L'Orient Culturel,* 3/2/1969.
- «The University and the Creation of the Future.» Address at the Inaugural Session of the 5th General Conference of the International Association and Universities in Montreal, *Courier,* 31/8/1970. Published also in *Education and World Affairs,* 1/9 (October 1970), pp. 1-2, 27.
- «Tensions Within the University Today.» *Uganda Argus,* 9/10/1970.

7) Interviews

- «Profile: Constantine K. Zurayk.» *Al-Kulliyah,* Winter 1970, pp. 8-10.

ثانياً: الأعمال المخطوطة
(محفوظة في أوراق الدكتور زريق)

(أ) بالعربية

١) مذكرات قسطنطين زريق: سيرة ذاتية لغاية سنة ١٩٤٧ كتبت في الأعوام الأخيرة من حياته.

٢) أعمال الصبا والشباب

- «بين التشاؤم والتفاؤل»، لا تاريخ. ١٠ صفحات، مخطوط (معرب عن الإنكليزية بتصرف).
- «نقدر أن نستغني عن المنسوجات الأجنبية»، لا تاريخ. صفحتان، مخطوط.
- «الخطابة ـ فائدتها في العالم العملي المادي»، ١٩٢٤/١١/٢٩. ٥ صفحات، مخطوط.
- «الشبيبة، ظلمات واسعة، يأس وأمل»، ١٩٢٥/٣/١٠. ٦ صفحات، مخطوط.
- «أهم ما حدث بعد الحرب العظمى»، ١٩٢٥/٥/١٠. ٤ صفحات، مخطوط.
- «عمر بن الخطاب وتأثيره في الإسلام»، ١٩٢٧/١١/٣٠. ٢٨ صفحة، مخطوط.
- «شخصية عمر بن عبد العزيز»، ١٩٢٨/٢/١٠. ١٨ صفحة، مخطوط.
- «حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول»، ١٩٢٨. ١٣ صفحة، مخطوط.

٣) محاضرات وكلمات عامة

- «طريقة المؤرخ هنري بيرين في العلاقة بين الغرب الأوروبي والإسلام في القرن السابع للميلاد ـ الأول للهجرة». محاضرة ألقيت في جامعة دمشق، لا تاريخ. ٣٦ صفحة، مخطوط.
- «نظرة العرب إلى المرأة». هيكل محاضرة، لا تاريخ [أوائل الثلاثينات].
- «الشباب والأديان». خطاب أُلقي في Foyer des Jeunes. بيروت، آذار/مارس ١٩٣٢. ١٤ صفحة، مخطوط.

- «بعض نواحي الحياة الاجتماعية في زمن الصليبيين». خطبة أُلقيت في محفل الرشيد، ١٩٣٢/٣/٢٣. ٦ صفحات، مخطوط.
- «معضلة العصر الكبرى». كلمة أُلقيت في حفلة القديس غريغوريوس السنوية في دمشق، ١٩٣٢/٤/٣. ١٨ صفحة، مخطوط.
- «الينابيع الناضبة في حياتنا». كلمة أُلقيت في حفلة جامعة السيدات في بيروت، ١٩٣٢/٤/٧. ٢٠ صفحة، مخطوط.
- كلمة أُلقيت في الحفلة السنوية لمدرسة البنات الأميركية في صيدا، ١٩٣٢/٦/١٦. ١١ صفحة، مخطوط.
- «الواجب قبل اللذة الشخصية». كلمة أُلقيت في مدرسة البنات الأهلية، ١٩٣٢/١٠/١٥. صفحتان، مخطوط.
- «لو لم أكن ملكاً لآثرت أن أكون معلماً في أحقر قرية عراقية». كلمة أُلقيت في الحفلة الافتتاحية للجمعية العراقية، ١٩٣٢/١١/٣٠. صفحتان، مخطوط.
- «الجرأة المنشودة في الشبيبة». كلمة أُلقيت في جمعية الاجتهاد الروحي (كنيسة بيروت الإنجيلية)، ١٩٣٢/١٢/١٨. ٥ صفحات، مخطوط.
- «واجب جمعية الشابات المسيحيات تجاه حياة بلادنا التهذيبية». كلمة أُلقيت في الاجتماع السنوي للجمعية في بيروت، ١٩٣٣/٣/١١.
- «التجارة الإسلامية وأثرها في الحضارة». نص محاضرة أُلقيت في كلية المقاصد الخيرية، ١٩٣٥/٣/١١. ١٤ صفحة، مطبوع (نشر في المقتطف، ٨٧/٥ (١٩٣٥)، ص ٥٤١ ـ ٥٤٨).
- كلمة عن مشروع إنعاش القرى، نيسان/أبريل ١٩٣٥. ٤ صفحات، مخطوط.
- «الأزمة الروحية». كلمة أُلقيت في حفلة القديس غريغوريوس في دمشق، ١٩٣٥/٤/٧. ٤ صفحات، مخطوط.
- «بعض نظرات في حياتنا الفكرية الحاضرة». هيكل محاضرة، ١٩٣٦/١/٢. ٣ صفحات، مخطوط.
- «رجل العقيدة». كلمة أُلقيت في الحفلة السنوية للمدرسة الأميركية في طرابلس، ١٩٣٦/٦/١٧. ١٤ صفحة، مخطوط.
- خطاب أُلقي في مكتب الكتلة الوطنية في حمص، ١٩٣٦/٦/٢٩. ٥ صفحات، مخطوط.

- «التربية القومية». محاضرة أُلقيت في برمانا، ١٧/٧/١٩٣٦. ١١ صفحة، مخطوط (نشرت في الحديث (حلب)، السنة ١١ (كانون الثاني/يناير ١٩٣٧)، ص ١٥ ـ ٢٥، وفي الوعي القومي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٩١ ـ ١٠١).
- «أزمة المتعلمين ـ واجب المربين في العهد الجديد». نص محاضرة، لا تاريخ [١٩٣٧]. ٥ صفحات، مطبوع.
- «جندي في جيش صلاح الدين». نص محاضرة أُلقيت في كلية طرطوس العلمانية وفي كلية الروضة [دمشق]، ٤/٣/١٩٣٧. ١٤ صفحة، مخطوط (نشر في المكشوف، ٣/٨٨ (آذار/مارس ١٩٣٧)، ص ٢، ١٤ ـ ١٦).
- «أسس ثقافتنا الجديدة». هيكل محاضرة أُلقيت في حماة، ١/٥/١٩٣٧. ٨ صفحات، مخطوط.
- كلمة أُلقيت في الحفلة الختامية للمدارس الأورثوذكسية في دمشق، ٢٠/٧/١٩٣٧. صفحتان، مخطوط.
- الوعي القومي. محاضرة أُلقيت في ردهة الجامعة السورية بدعوة من النادي النسائي، خريف ١٩٣٧. ١٥ صفحة، مطبوع (نشرت في الحديث (حلب)، ١٣/٨ (آب/أغسطس ١٩٣٩)، ص ٦٤١ ـ ٦٥٤، وفي الوعي القومي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٦٩ ـ ٨٢).
- «الشرق والغرب». نص كلمة أُلقيت في كلية البنات الأميركية، ٢١/٢/١٩٣٨. ٣ صفحات، مخطوط.
- «التعليل الاقتصادي للتاريخ». هيكل محاضرة أُلقيت في الجامعة الأدبية في بيروت، ٢٤/٢/١٩٣٨. ٩ صفحات، مخطوط.
- «ميراثنا الروحي». هيكل محاضرة أُلقيت في جمعية الشبيبة الإنجيلية، ٦/٣/١٩٣٨. ٣ صفحات، مخطوط.
- «أزمة المتعلمين». نص محاضرة أُلقيت في سوق الغرب، حزيران/يونيو ١٩٣٨.
- «الثقافة الصحيحة وعناصرها». نص محاضرة، لا تاريخ [١٩٣٩]. ٨ صفحات، مطبوع.
- كلمة في تأبين الملك غازي أُلقيت في صيدا وفي الجامعة الأميركية في بيروت (الجمعية العراقية)، ١٩٣٩. ٥ صفحات، مطبوع.
- «مهمة الأرثوذكسية في الحياة القومية». هيكل كلمة أُلقيت في مدرسة بشمزين

الوطنية، ٩/٧/١٩٣٩. ٧ صفحات، مخطوط.
- «كشف الربع الخالي». نص محاضرة، شتاء ١٩٤١. ١٩ صفحة، مطبوع.
- «إعرفوا بلادكم». هيكل خطاب أُلقي في اجتماع طلبة الجامعة، ١٥/٢/١٩٤١. ٣ صفحات، مطبوع.
- «مشكلة الفقر». كلمة أُلقيت في لجنة رأس بيروت لجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، ٢٤/٥/١٩٤٢. ٥ صفحات، مطبوع.
- «واجب المدارس في أيام الأزمات». كلمة أُلقيت في الجامعة الوطنية في عاليه، ٥/٦/١٩٤٢. ١٠ صفحات، مطبوع.
- «عنوان». هيكل كلمة أُلقيت في مجمع الكلية الثانوية، ١٣/١٢/١٩٤٢. صفحتان، مخطوط.
- «التنظيم». هيكل محاضرة أُلقيت في محفل فخر الدين، ٣٠/١/١٩٤٣، وأُلقيت في النادي الأدبي في دمشق، أيار/مايو ١٩٤٣. صفحتان، مطبوع.
- كلمة أُلقيت في حفلة تأبين حكمت بك جنبلاط بالنيابة عن الرئيس دودج وجمعية الخريجين، ٥/٧/١٩٤٣. ٤ صفحات، مطبوع.
- «دروس من التاريخ». نص محاضرة أُلقيت في احتفال منظمة النجادة، ١٠/٩/١٩٤٣. ٣٢ صفحة، مخطوط.
- «الولادة الثانية». هيكل حديث أُلقي في كلية المقاصد، ٩/١/١٩٤٤. ٣ صفحات، مخطوط.
- «ربيع الأمة». هيكل حديث أُلقي في برمانا، ٥/٤/١٩٤٤.
- «مقاييس الحضارة». هيكل محاضرة أُلقيت في نادي الأبحاث الأدبية، ١٥/٥/١٩٤٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- «الدم والدمع والعرق». هيكل محاضرة أُلقيت في نابا (الكورة ـ لبنان)، ١١/٩/١٩٤٤. ٤ صفحات، مخطوط.
- كلمة القائم بأعمال المفوضية السورية في واشنطن في حفلة نسيب عريضة التذكارية، ١٥/٥/١٩٤٥. ١١ صفحة، مطبوع.
- «المؤتمر الثقافي العربي الأول». هيكل حديث أُلقي في النادي الثقافي العربي، ٥/١١/١٩٤٧. ٧ صفحات، مخطوط.
- «الحرية مقياس التقدم». هيكل كلمة أُلقيت على جامعة نساء لبنان، شباط/فبراير

١٩٤٨. ٥ صفحات، مخطوط.

- «مشكلة ثقافية». نص كلمة أُلقيت في الحفلة الأدبية التي أقامتها الرابطة الثقافية في طرابلس ـ لبنان، ١٨/٤/١٩٤٨. ٧ صفحات، مطبوع.
- كلمة أُلقيت في الحفلة التكريمية التي أقامها وزير المعارف السوري على شرف الرئيس دودج، ٥/٧/١٩٤٨. ٣ صفحات، مطبوع.
- «خذلان المثقفين». نص حديث أُلقي في دار الكتب الوطنية في حلب، ربيع ١٩٤٩. ٧ صفحات، مطبوع (نشر في الحديث (حلب)، ٢٣/٣ (آذار/مارس ١٩٤٩)، ص ١٨٩ ـ ١٩٨).
- «أهمية الإنعاش الاجتماعي في المجتمع والدولة». نص محاضرة أُلقيت في حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية التي أقامتها منظمة الأمم المتحدة في بيروت، ١٥/٨ ـ ٨/٩/١٩٤٩. ٩ صفحات، مطبوع (نشر في حلقة الدراسات الاجتماعية ـ الدورة الأولى. القاهرة: جامعة الدول العربية ـ دائرة الشؤون الاجتماعية، ١٩٥٠، ص ٧ ـ ١٥. ونشر معدلاً في هذا العصر المتفجر ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٦٥٩ ـ ٦٧٠).
- نص كلمة أُلقيت في حفلة اختتام العام الدراسي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ وافتتاح العام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ في الجامعة السورية، ٢١/١٠/١٩٤٩. ٦ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت باسم الحكومة السورية في حفلة تأبين عمر الداعوق، ٢٣/١٢/١٩٤٩. صفحتان، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت باسم الحكومة السورية في حفلة عيد الشهداء، ٦/٥/١٩٥٠. ٤ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في حفلة لكلية الهندسة في جامعة دمشق بمناسبة توزيع الشهادات، حزيران/يونيو ١٩٥٠. ٩ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة رئيس الجامعة في حفلة توزيع الشهادات في الجامعة السورية، تموز/يوليو ١٩٥٠. ١١ صفحة، مطبوع.
- «المجتمع التقدمي». نص محاضرة أُلقيت في افتتاح السلسلة السنوية الثانية للمحاضرات العامة في الجامعة السورية، ١٥/١١/١٩٥٠. ١٥ صفحة، مطبوع.
- «القيم الأصيلة». هيكل محاضرة أُلقيت في النادي العربي في دمشق، ٢٦/٢/١٩٥١. ٥ صفحات، مطبوع.
- «عيد الجلاء». نص كلمة أُلقيت في جامعة دمشق بمناسبة الجلاء، ١٦/٥/

١٩٥١. ٨ صفحات، مطبوع.

- نص كلمة أُلقيت في الحفلة التي أقامتها الجامعة السورية بمناسبة المولد النبوي، كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١. ٧ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في حفلة وضع الحجر الأساسي لبناء مدرسة التمريض والقبالة في دمشق، ٩/٣/١٩٥٢. ٦ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في الحفلة التي أقامتها هيئات الجامعة التدريبية والإدارية في الجامعة السورية، ١٤/٥/١٩٥٢. ٧ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في الحفلة التكريمية للدكتور زريق لدى انتهاء مهمته في الجامعة السورية، ١٥/٥/١٩٥٢. ٤ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في الاحتفال بعيد باكستان الوطني بدعوة من سفير باكستان في بيروت، ١٩/٨/١٩٥٢. صفحتان، مطبوع.
- «مبادئ التكافل الاجتماعي». نص كلمة أُلقيت في الحلقة الثالثة للشؤون الاجتماعية التي نظمتها الأمم المتحدة في دمشق، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢. ٨ صفحات، مطبوع (مع ملخص بالإنكليزية. نشر في حلقة الدراسات الاجتماعية، الدورة الثالثة. القاهرة: جامعة الدول العربية ـ إدارة الشؤون الاجتماعية والصحية، ١٩٥٥، ص ٥٨٢ ـ ٥٨٧).
- «نحو مجتمع عربي أفضل». كلمة أُلقيت في كلية المقاصد [١٩٥٣/١٩٥٤] (نشرت بعنوان «نحو ثقافة عربية أفضل» في أي غد ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، ص ٣٥١ ـ ٣٦٦).
- نص كلمة أُلقيت في حفلة ذكرى بدر دمشقية، ١٣/٣/١٩٥٣. ٣ صفحات، مطبوع.
- «القضية العربية عام ١٩٥٣». نص محاضرة أُلقيت في الندوة اللبنانية، ٢٣/٤/١٩٥٣. ٢١ صفحة، مطبوع (نشرت في محاضرات الندوة اللبنانية، ٧/٩ ـ ١٠ (١٩٥٣)، ص ٢٢٥ ـ ٢٤٨، وفي القضية العربية ١٩٥٣. بيروت: منشورات الندوة اللبنانية، ١٩٥٣، ص ٥ ـ ٢٤).
- «العرق والدم والدموع». نص كلمة أُلقيت في حفلة توزيع الشهادات في الكلية الوطنية في الشويفات، ٢٧/٦/١٩٥٣. ٧ صفحات، مطبوع.
- «البحث العلمي وأثره في الحياة القومية». نص حديث أُلقي في نادي اللايونز. بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٣. ٤ صفحات، مطبوع (نشر في الحياة، ١٣/

١٢/١٩٥٣، وفي المجلة الصيدلية اللبنانية، ٤/١ (١٩٥٣)، ص ١٥٥ ـ ١٥٩).

- «سلمى صائغ المربية». نص كلمة أُلقيت في الحفلة التي أقامتها جمعية أهل القلم وجامعة الهيئات الإنسانية [بيروت]، ١٥/١١/١٩٥٣. ٣ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت باسم الجامعة الأميركية في افتتاح المؤتمر الطبي الرابع للشرق الأوسط في بيروت، ٩/٤/١٩٥٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت باسم مجلس أمناء كلية البشارة الأورثوذكسية في حفلة تدشين الكلية، ٢/٥/١٩٥٤. ٤ صفحات، مطبوع.
- «الغايات والوسائل». نص كلمة أُلقيت في حفل توزيع الشهادات في كلية حلب، ٦/٧/١٩٥٤. ٨ صفحات، مطبوع.
- نص الكلمة الختامية التي أُلقيت على حلقة مشكلات تدريب المعلمين، آب/أغسطس ١٩٥٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في الحفلة السنوية الرابعة لذكرى عبد الحميد كرامي في طرابلس، ٥/١٢/١٩٥٤. ٦ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت نيابة عن الجامعة الأميركية بمناسبة تشييع جثمان الدكتور نعمة نخّو، ٢٨/٢/١٩٥٥. صفحتان، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت باسم الجامعة الأميركية في بيروت في الحفلة الختامية للمؤتمر الطبي الخامس للشرق الأوسط، ٢٢/٤/١٩٥٥. صفحتان، مطبوع (مع ترجمة إنكليزية).
- نص كلمة أُلقيت في الحفلة الختامية لكلية بيروت الجامعية، ٢٤/٦/١٩٥٥. ٥ صفحات، مطبوع.
- «العرب والثقافة الحديثة». نص كلمة أُلقيت في الكويت في ٥/٣/١٩٥٦، وفي الندوة اللبنانية في ١٣/٢/١٩٥٦. ٢٢ صفحة، مطبوع (نشر في معارف الكويت: محاضرات الموسم الثقافي الثاني. القاهرة: دائرة المعارف، ١٩٥٦، ص ٢٩٥ ـ ٣١٥).
- «دروس من التاريخ». نص محاضرة أُلقيت في الكويت، ٧/٣/١٩٥٦. ١٥ صفحة، مطبوع (نشر في معارف الكويت: محاضرات الموسم الثقافي الثاني. القاهرة: دائرة المعارف، ١٩٥٦، ص ٣١٩ ـ ٣٣٥).
- نص كلمة أُلقيت في الاحتفال الشعبي الذي أقامته لجنة «كل مواطن خفير» في مهرجان يوم فلسطين، ١٥/٥/١٩٥٦. ٤ صفحات، مطبوع.

- نص كلمة أُلقيت في الاحتفال السنوي لكلية البنات الأهلية في بيروت، ١٦/٦/١٩٥٦. ٧ صفحات، مخطوط.
- هيكل كلمة أُلقيت في الحفلة الميلادية التي أقامها محفل فخر الدين، ٢٠/١٢/١٩٥٦. ٣ صفحات، مخطوط.
- «فوق نداء الواجب». هيكل كلمة أُلقيت في حفلة إلباس الممرضات قبعة التمريض في مستشفى المقاصد، ١٠/٥/١٩٥٧. ٤ صفحات، مخطوط.
- نص كلمة أُلقيت باسم الجامعة الأميركية في افتتاح المؤتمر الطبي للشرق الأوسط، ١٠/٥/١٩٥٧. صفحتان، مطبوع (مع ترجمة إنكليزية).
- «دروس من النكبة». هيكل حديث أُلقي في النادي الثقافي العربي، ١٦/٥/١٩٥٧. ١٠ صفحات، مخطوط.
- «حول القومية العربية». هيكل حديث إلى الطلاب العرب في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية، ٩/١/١٩٥٨. ٦ صفحات و٤ صفحات لمسوّدتين مخطوطتين.
- نص خطبة أُلقيت في حفلة افتتاح السنة الدراسية الأولى في جامعة بغداد، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٨. ٤ صفحات، مطبوع.
- «خواطر في القومية». هيكل محاضرة أُلقيت في النادي العربي في كلية البنات الأميركية، ٩/١٢/١٩٥٩. صفحتان، مخطوط.
- «التراث الحضاري». نص محاضرة أُلقيت بدعوة وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الإقليم السوري للجمهورية العربية المتحدة في ١٥/١٢/١٩٥٩ في قاعة المحاضرات بجامعة دمشق (نشرت في الأبحاث، ١/١٣ (آذار/مارس ١٩٦٠)، ص ٣ ـ ٢٤، وفي محاضرات الموسم الثقافي ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص ١٤٥ ـ ١٧٠، وفي هذا العصر المتفجر ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٥٩٩ ـ ٦١٧).
- نص كلمة أُلقيت باسم مجلس أمناء كلية البنات الأهلية بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على تسلم السيدة وداد قرطاس الإدارة، ٦/٤/١٩٦٠. ٥ صفحات، مخطوط.
- «الثورية المسيحية». هيكل حديث أُلقي في أعضاء الكنيسة الأنغليكانية العربية، ٥/٥/١٩٦٠. ٥ صفحات، مخطوط.
- «الفرد في المجتمع التكنولوجي». هيكل حديث أُلقي في النادي الثقافي العربي، ١/٦/١٩٦٠. ٦ صفحات، مخطوط.

- نص كلمة أُلقيت في حفل افتتاح معرض الكتاب العربي في بيروت، ٢١/١١/١٩٦٠. ٤ صفحات، مطبوع.
- هيكل كلمة أُلقيت في افتتاح الحملة المالية لجمعية الشابات المسيحيات، شباط/فبراير ١٩٦١. ٤ صفحات، مخطوط.
- «وحدة مشكلات العالم العربي». نص أُعد للمؤتمر الذي دعا إليه المجلس الأعلى للآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة لدراسة أسس التربية في العالم العربي، نيسان/أبريل ١٩٦١. ٢٦ صفحة، مطبوع. (الكلمة لم تلقَ).
- «رسالة الجامعيات اللبنانيات». هيكل كلمة أُلقيت في اجتماع الجامعيات اللبنانيات، ٣/٦/١٩٦١. ٤ صفحات، مخطوط.
- نص كلمة أُعدت للحفلة التذكارية لدرويش المقدادي، ١٤/٧/١٩٦١. ٣ صفحات، مطبوع (أُلقيت بالنيابة).
- هيكل كلمة أُلقيت في حفلة لجمعية أصدقاء الكتاب احتفاء بالفائزين بجوائز الجمعية، ١/١٢/١٩٦١. ٣ صفحات، مخطوط.
- «هذا العصر المتفجر». نص محاضرة أُلقيت في جامعة دمشق بدعوة من وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ٦/١/١٩٦٢. ٣١ صفحة، مطبوع (نشر في النصر (دمشق)، ١٢/١/١٩٦٢، وفي هذا العصر المتفجر ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٥٨١ ـ ٥٩٨).
- «دور الجامعة في الحياة الوطنية». نص محاضرة أُلقيت بدعوة من اتحاد الطلاب الجامعيين في أسبوع الطالب الجامعي في قاعة المحاضرات في وزارة التربية الوطنية، ١٥/٣/١٩٦٢. ٢٤ صفحة، مطبوع (نشرت في المعرفة (دمشق)، ٣/١ (أيار/مايو ١٩٦٢)، ص ٦ ـ ٢٣، وفي الجامعة ورسالتها. بيروت: منشورات الندوة اللبنانية، ١٨/٥ ـ ٦ (١٩٦٣)، ص ٣٦ ـ ٦٨).
- نص كلمة أُلقيت أمام جمعية «كل مواطن خفير» بمناسبة يوم فلسطين، ١٥/٥/١٩٦٢. ٧ صفحات، مطبوع.
- «بين الماضي والمستقبل ـ العمل الاجتماعي في الدور المقبل». هيكل كلمة أُلقيت في الاحتفال السنوي لجمعية الشابات المسيحيات، ٨/٦/١٩٦٢. ٦ صفحات، مخطوط.
- نص كلمة أُلقيت باسم مجلس أمناء مدرسة البشارة الأورثوذكسية تكريماً للأسقف إغناطيوس هزيم، ١٩/٦/١٩٦٢. ٣ صفحات، مطبوع.

- «مبادئ الإنعاش الاجتماعي ومشكلته الأساسية في هذا العصر». هيكل محاضرة أُلقيت في الدورة التدريبية للقادة في حقل رعاية الأسرة والطفل في برمانا، ٥/٩/١٩٦٢. ٣ صفحات، مخطوط.
- هيكل كلمة أُلقيت في المؤتمر الصحافي لافتتاح أسبوع الكتاب، ٢٤/١١/١٩٦٢. ٣ صفحات، مخطوط.
- نص كلمة أُلقيت في افتتاح المعرض الثامن للكتاب العربي، ٢٤/١١/١٩٦٢. ٣ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في العشاء الذي أقامته جمعية أصدقاء الكتاب، ٢٩/١١/١٩٦٢. ٣ صفحات، مطبوع.
- «العقلية المنشودة». هيكل حديث أُلقي في اجتماع الكنيسة الأنغليكانية العربية في بيروت، ٣١/١/١٩٦٣. صفحتان، مخطوط.
- «المعلم في عيده». نص كلمة أُلقيت في المهرجان الذي أقامته نقابة المعلمين في لبنان بمناسبة عيد المعلم، ٩/٣/١٩٦٣. ٥ صفحات، مطبوع.
- «العقلية المنشودة عند الشباب». هيكل حديث أُلقي في اجتماع حركة الشبيبة الأورثوذكسية، ٢٨/٣/١٩٦٣. ٤ صفحات، مخطوط.
- نص كلمة أُلقيت في الاحتفال النهائي لكلية المقاصد، ٢٢/٦/١٩٦٣.
- هيكل حديث أُلقي في المؤتمر الصحافي لافتتاح أسبوع الكتاب، ٢٥/١١/١٩٦٣. ٣ صفحات، مخطوط.
- كلمة الدكتور قسطنطين زريق، رئيس جمعية أصدقاء الكتاب، في حفلة افتتاح المعرض التاسع للكتاب العربي، ٢٥/١١/١٩٦٣. ٣ صفحات، مطبوع.
- «في معركة الحضارة». نص محاضرة أُلقيت في جامعة بيروت العربية، ٢٠/٣/١٩٦٤. ٣٨ صفحة، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت بمناسبة تكريم ذكرى ريما علم الدين، ٢٨/٥/١٩٦٤، ٣ صفحات بالعربية مطبوعة (٣ صفحات بالإنكليزية مطبوعة).
- كلمة الدكتور قسطنطين زريق، رئيس جمعية أصدقاء الكتاب، في حفلة افتتاح المعرض العاشر للكتاب العربي، ٢٣/١١/١٩٦٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في حفلة العشاء التي أقامتها جمعية أصدقاء الكتاب تكريماً للفائزين بجوائزها، ٢٧/١١/١٩٦٤. ٤ صفحات، مطبوع.

- «الجامعات أمام مسؤولياتها». نص محاضرة ألقيت في النادي الثقافي العربي، ١٨/١٢/١٩٦٤. ٢١ صفحة، مطبوع.
- «ذكرى ١٥ أيار». نص كلمة ألقيت في احتفال رابطة الإنعاش الاجتماعي، ١٣/٥/١٩٦٥. ٩ صفحات، مطبوع.
- «أسد رستم: واضع مصطلح التاريخ». نص محاضرة ألقيت في ذكرى الدكتور أسد رستم في قاعة الأونسكو، ٢١/٤/١٩٦٧. ٦ صفحات، مطبوع.
- «الحق والاستحقاق». هيكل كلمة ألقيت في غداء جمعية أصدقاء القدس، ١٥/٥/١٩٦٨. ٥ صفحات، مخطوط.
- «دولة العقل». نص كلمة ألقيت في الحفلة التي أقامتها جمعية أصدقاء الكتاب لتوزيع جوائزها في فندق البريستول، ١٨/١١/١٩٦٨. ٨ صفحات، مطبوع (نشرت بعنوان «غياب دولة العقل»، الآداب، ١٧/١ (كانون الثاني/يناير ١٩٦٩)، ص ٢ ـ ٣).
- نص كلمة ألقيت باسم الاتحاد الدولي للجامعات في المؤتمر الأول لاتحاد الجامعات العربية في الإسكندرية، ٨/٤/١٩٦٩. ٤ صفحات، مخطوط.
- «الطالب ومسؤولياته الوطنية». نص محاضرة ألقيت في الندوة التي عقدتها رابطة الأساتذة الجامعيين في كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية، ٢٢/٤/١٩٦٩. ٢٣ صفحة، مطبوع (نشرت في الطالب الجامعي في لبنان: مستقبله ومشكلاته. بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٧ ـ ٥١).
- نص كلمة الدكتور قسطنطين زريق، رئيس مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ألقيت بمناسبة الاحتفاء بطباعة كتاب انحطاط اليهود في عصرنا الحاضر، ٢/٦/١٩٦٩. ٦ صفحات، مطبوع.
- «من الفنجان إلى الخزان». هيكل خطاب ألقي في حفلة عشاء في نادي اللايونز، بيروت، ٦/١/١٩٧٠. ٩ صفحات، مخطوط.
- «الجامعة وصنع المستقبل». نص خطاب ألقي في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الخامس لرابطة الجامعات الدولية في مونتريال، ٣١/٨ ـ ٥/٩/١٩٧٠. ١٢ صفحة، مطبوع (ألقي أصلاً بالإنكليزية ونشر في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٤٧٧ ـ ١٤٨٥).
- «عبد الناصر المبدع». نص كلمة ألقيت في ذكرى أربعين جمال عبد الناصر في قصر الأونسكو في بيروت، ٨/١١/١٩٧٠. ١٢ صفحة، مطبوع (نشرت في

الآداب، ١٩/١ (كانون الثاني/يناير ١٩٧١)، ص ٣ ـ ٥).
- «موريس الجميّل في مؤسسة الدراسات الفلسطينية». نص كلمة ألقيت باسم مؤسسة الدراسات الفلسطينية في حفلة ذكرى موريس الجميل في قاعة الأونسكو في بيروت، ١٣/١٢/١٩٧٠. ٦ صفحات، مطبوع.
- «التنوع الثقافي والتعدد الجامعي في لبنان، أسبابه». هيكل كلمة ألقيت في الندوة التي نظمتها رابطة الأساتذة الجامعيين بشأن هذا الموضوع، ٢٠/٣/١٩٧١. ٣ صفحات، مخطوط.
- «تأريخ المستقبل». نص محاضرة ألقيت في أبو ظبي بدعوة من مديرية المعارف، ٣/٤/١٩٧١. ٢٤ صفحة، مطبوع.
- نص كلمة الافتتاح في حفلة تدشين مباني إنترناشونال كولدج في المشرف، ٢١/١٠/١٩٧١. ٤ صفحات، مطبوع (مع ترجمة بالإنكليزية).
- «التعليم الجامعي في حاضره ومستقبله». هيكل كلمة ألقيت في اجتماع جمعية «يد المساعدة»، ٧/١/١٩٧٢. ٣ صفحات، مخطوط.
- «المعوقات القيمية للثورة العلمية التكنولوجية في الدول النامية». نص محاضرة ألقيت في المؤتمر الوطني السادس للإنماء، ١٧/١٠/١٩٧٢. ١٣ صفحة، مطبوع (نشرت في الرجال والأعمال، ٩٢/٨، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٣).
- «العلم في المجتمع الحديث». نص محاضرة ألقيت في الكويت، آذار/مارس ١٩٧٤. ٢٧ صفحة، مطبوع.
- نص كلمة ألقيت في افتتاح معرض منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية في صالة العرض التابعة للمجلس الوطني للسياحة برعاية رئيس الجمهورية اللبنانية، سليمان فرنجية، وحضور تقي الدين الصلح رئيس مجلس الوزراء، وذلك بمناسبة مرور عشر سنوات على إنشاء المؤسسة، ٢٥/٤/١٩٧٤. ٤ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة كتبت لتلقى في زيارة مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية لرئيس الجمهورية سليمان فرنجية، ٢٩/٥/١٩٧٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- «وداد قرطاس والأهلية». نص كلمة ألقيت في الاحتفال السنوي للمدرسة الأهلية، ٩/٦/١٩٧٤. ٤ صفحات، مخطوط.
- «عبرة من عصر أبي الفداء». بحث ألقيت أقسام منه في الاحتفال بذكرى أبي الفداء والذي نظمه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في

سورية بمناسبة مرور ٧٠٠ سنة على ولادة أبي الفداء، ٢٣/١١/١٩٧٤. ٢٣ صفحة، مطبوع (نشر في المعرفة، ١٥٤ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٤)، ص ٢٤ ـ ٤١).

- نص كلمة أُلقيت في المؤتمر الصحافي بمناسبة الاجتماع السادس عشر لمجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية في أبو ظبي، ١٣/١٢/١٩٧٤. صفحتان، مطبوع.
- نص كلمة الدكتور قسطنطين زريق، رئيس مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية، في افتتاح الاجتماع السادس عشر لمجلس الأمناء في أبو ظبي، ١٤/١٢/١٩٧٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- «دور الجامعة في العالم العربي». نص حديث أُلقي في ندوة «وجهة نظر»، ٢٦/٢/١٩٧٥. وجهة نظر (بيروت)، ٢/٩ (٢٩/٤/١٩٧٥)، ص ٦ ـ ١١.
- «المستقبلية المعاصرة وبواعثها». نص محاضرة أُلقيت في أبو ظبي، نيسان/أبريل ١٩٧٥. ٢٩ صفحة، مطبوع (نشرت في محاضرات الموسم الثقافي لعام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥. أبو ظبي: وزارة الإعلام والثقافة، ص ٢٥٩ ـ ٢٧٩).
- «رؤية لبنان عام ألفين: الرؤية الروحية». نص كلمة أُلقيت في الحلقة الوطنية التي عقدتها ندوة الدراسات الإنمائية، ١٠/٥/١٩٧٥. ٨ صفحات، مطبوع.
- «نداء إلى الضمير اللبناني وإلى الضمير العربي». أعد بتكليف من بعض المثقفين ليصدر باسمهم في الصحف وسواها من وسائل الإعلام، ثم صرف عنه بسبب انتخاب رئيس الجمهورية في ٨ أيار/مايو وما رافق هذا الانتخاب من أحداث، ٦/٥/١٩٧٦. ٥ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في الاحتفال الذي أقامته «وجهة نظر» بمناسبة تخرّج بعض أعضائها وأصدقائها، ٧/٨/١٩٧٦. ٦ صفحات، مطبوع (نشر في النهار، ١٠/٨/١٩٧٦).
- «دعوة إلى رجال الفكر». نص خطاب أُعد لينشر عقب انتخاب رئيس الجمهورية الجديد الياس سركيس، أيلول/سبتمبر ١٩٧٦. ٥ صفحات، مطبوع (يعلق الدكتور زريق نفسه في الهامش: صرف عنه لعدم توفر رجال الفكر في الجانب الآخر ـ المنطقة الشرقية).
- نص كلمة أُلقيت في حفلة تأبين الدكتور جميل صليبا في دمشق، ٢٠/١٢/١٩٧٦. ٦ صفحات، مطبوع.

- «التوترات داخل الحضارة الإسلامية». نص محاضرة مترجمة عن الإنكليزية أُلقيت في جامعة جورجتاون في واشنطن، آذار/مارس ١٩٧٧. ٣٧ صفحة، مخطوط (نشر في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٥٨٧ ـ ١٦٠٤).
- «الإنماء العربي وأزمة العصر»، نص محاضرة أُلقيت في ندوة «استراتيجية التنمية في العالم العربي» التي عقدت في جامعة لوفان لانوف، ١١ ـ ١٤/١/١٩٧٨. ٢٤ صفحة، مطبوع (مترجم عن الأصل بالإنكليزية. نشر في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٥٥١ ـ ١٥٦٧).
- «حول مفاهيم الحضارة». هيكل محاضرة أُلقيت ضمن إطار الموسم الثقافي الخامس في جامعة قطر، ١٨/٤/١٩٧٨. ٨ صفحات، مخطوط.
- «العلاقة بين التاريخ وعلم الاجتماع». هيكل محاضرة أُلقيت ضمن إطار الموسم الثقافي الخامس في جامعة قطر، ٢٠/٤/١٩٧٨. ٥ صفحات، مخطوط.
- «الجامعة اليوم وغداً». نص محاضرة أُلقيت في جامعة قطر ضمن إطار الموسم الثقافي الخامس، ٢٣/٤/١٩٧٨. ٢٣ صفحة، مطبوع (نشر في من ثمار الفكر (الدوحة: جامعة قطر، ١٩٧٨)، ص ١٨٥ ـ ١٩٧).
- «تأريخ المستقبل». نص محاضرة أُلقيت في النادي الثقافي الإسلامي، ١٥/٥/١٩٧٨. ٢٥ صفحة، مطبوع.
- «التطورات الحديثة في علم التاريخ». هيكل حديث إلى طلاب قسم التاريخ في كلية الآداب في جامعة الكويت، ١٧/٣/١٩٧٩. ٧ صفحات، مخطوط.
- «المسائل الرئيسية التي تتعرض لها الدراسة الحضارية». هيكل حديث إلى طالبات قسم التاريخ في كلية الآداب في جامعة الكويت، ١٩/٣/١٩٧٩. ٧ صفحات، مخطوط.
- «الحضارة الإنسانية المعاصرة ومآلها». نص محاضرة أُلقيت في النادي الجامعي في جامعة الكويت، ٢٠/٣/١٩٧٩. ٣٨ صفحة، مخطوط (نشرت تحت عنوان «الحضارة الإنسانية إلى أين»، الفكر العربي، العدد ٩، ١٩٧٩).
- «ثلاث محاولات حديثة لدراسة الحضارة: شبنجلر وتوينبي وسوروكين»، نص محاضرة أُلقيت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في سلسلة المحاضرات العامة في الجامعة اللبنانية، ١٧/٤/١٩٧٩. ص ١ ـ ٨: مخطوط؛ ص ٩ ـ ٢٤: مطبوع (نشرت في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد

الثالث، ص ١٥٢١ ـ ١٥٣٦، ونشرت في النهار، ١٨ ـ ٢٠/٤/١٩٧٩).

ـ «أزمة النهوض الحضاري». نص محاضرة أُلقيت في نادي اتحاد الكتاب اللبناني في سياق الموسم الثقافي لعام ١٩٧٩، ٣/٥/١٩٧٩. ٢٠ صفحة، مطبوع (نشرت في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٥٣٧ ـ ١٥٥٠).

ـ نص كلمة أُلقيت في رثاء وداد قرطاس في بيت الاجتماع في مدرسة برمانا العالية، ١٠/٥/١٩٧٩. ٥ صفحات، مخطوط.

ـ «يوم الجامعة اللبنانية»، نص كلمة أُلقيت في يوم الجامعة اللبنانية دفاعاً عنها وعن أساتذتها في كلية الحقوق ـ الفرع الأول، ١٤/٥/١٩٧٩. ٤ صفحات، مطبوع.

ـ «بين الحق والاستحقاق»، نص كلمة أُلقيت في حفلة التخرج لكلية الإعلام والتوثيق ـ الفرع الأول، ٣٠/٦/١٩٧٩. ١٠ صفحات، مطبوع.

ـ «مراحل في حياة النادي الثقافي وسيرة الثقافة في لبنان». هيكل كلمة أُلقيت في ندوة، ٢١/١١/١٩٧٩. ٥ صفحات، مخطوط.

ـ كلمة الدكتور قسطنطين زريق رئيس الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الأول للكتّاب اللبنانيين، ٢٤ ـ ٢٧/١/١٩٨٠. ٤ صفحات، مطبوع.

ـ نص كلمة أُلقيت في حفلة عشاء في فندق كارلتون احتفاء بمرور ٣٥ عاماً على تأسيس النادي الثقافي العربي، ٤/٢/١٩٨٠. ٤ صفحات، مطبوع.

ـ نص كلمة باسم لجنة تكريم ذكرى أنطون غطاس كرم في الحفلة التي أقيمت له، ٩/٣/١٩٨٠. ٣ صفحات، مطبوع.

ـ «نشوء فكرة التقدم وتطورها». نص محاضرة أُعدت لتلقى في الموسم الثقافي لكلية الآداب في الجامعة اللبنانية، ١٥/٥/١٩٨٠. ١٨ صفحة، مطبوع (نشرت في مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٥٠٥ ـ ١٥١٩).

ـ «المسيحيون العرب والمستقبل». نص محاضرة أُلقيت ضمن سلسلة محاضرات دار الفن والأدب، نيسان/أبريل ١٩٨١. ١٦ صفحة، مطبوع (نشرت في المستقبل العربي، ٢٧/٤ (أيار ١٩٨١)، ص ٢٤ ـ ٣٣، وفي المسيحيون العرب: دراسات ومناقشات، تحرير الياس خوري. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١، ص ١٠٩ ـ ١٢٧، وفي مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة،

المجلد الثالث، ص ١٤٦٣ ـ ١٤٧٦).

ـ «مطالب المستقبل العربي». نص محاضرة أُلقيت في تونس ضمن الموسم الثقافي الثاني، ١٦/١٢/١٩٨١. ١٦ صفحة، مطبوع (نشرت في شؤون عربية، العدد ١١ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٢)، ص ٨ ـ ١٨، وفي العمل (تونس)، ٢٤/١٢/١٩٨١، وفي الصباح (تونس)، ١٩، ٢٢/١٢/١٩٨١، وفي الأعمال الفكرية العامة ـ مطالب المستقبل العربي، المجلد الثالث، ص ١٤٤٧ ـ ١٤٦١).

ـ «إسهام الدكتور أسد رستم في علم مصطلح التاريخ». نص محاضرة أُلقيت في ٢٨/٥/١٩٨٢. ١٢ صفحة، مطبوع.

ـ «نحو المستقبل العربي». هيكل حديث للطلبة العرب في جامعة جورجتاون، ٨/١٠/١٩٨٣. ٤ صفحات، مخطوط.

ـ «نحو ثقافة وطنية ديمقراطية مقاومة، دور البحث العلمي». نص كلمة أُلقيت في المؤتمر الوطني الثاني لتجمع الهيئات الثقافية والإعلامية لدعم تحرير الجنوب والبقاع الغربي وراشيا، ٢٦ ـ ٢٨/٤/١٩٨٥. ٩ صفحات، مخطوط.

ـ «عبرة أحداث لبنان». نص محاضرة أُعدت لتلقى في مركز البحوث السياسية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة، ٢٤/٥/١٩٨٩. ٢٢ صفحة، مطبوع (لم تلق لظروف صحية).

ـ «القومية العربية». نص محاضرة أُعدت بناء على طلب الدكتور الطاهر لبيب، الأمين العام للجمعية العربية لعلم الاجتماع، ١٦/١١/١٩٨٩. ١٣ صفحة، مطبوع.

ـ «محنة الجامعات». محاضرة أُلقيت في مؤسسة عبد الحميد شومان، لا تاريخ [١٩٩٠]. ١٤ صفحة، مطبوع.

ـ «نحن والتحديات». هيكل كلمة أُلقيت في نادي حزب التجمع بدعوة من لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، ٢٤/٥/١٩٩١. ٩ صفحات، مخطوط.

ـ كلمة أُلقيت في دار الندوة، ١١/٧/١٩٩١. ١٠ صفحات، مخطوط.

ـ نص كلمة أُلقيت في حفلة تقليد الدكتور قسطنطين زريق وسام القديسين بطرس وبولس في قاعة البلمند يوم الاحتفال بتوزيع الشهادات، ٢٦/٧/١٩٩٤. ٦ صفحات، مطبوع.

ـ نص كلمة أُلقيت في حفل تكريم الدكتور قسطنطين زريق. بيروت، ٣/١١/١٩٩٤. ٧ صفحات، مطبوع.

- «محنة الجامعات». نص محاضرة أُلقيت في منتدى عبد الحميد شومان، ٢٤/١٠/١٩٩٥. ١٩ صفحة، مطبوع (نشرت في دراسات لبنانية، مهداة إلى جوزف مغيزل. بيروت: دار النهار، ١٩٩٦، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٩).
- نص كلمة أُعدت تلبية لدعوة الأستاذ الياس خوري، منظّم برنامج «٥٠ سنة نكبة ومقاومة»، ٢٤/٤/١٩٩٨. ١٢ صفحة، مطبوع.
- هيكل كلمة أُلقيت في تكريم ذكرى تقي الدين الصلح، ١٢/٢/١٩٩٩. ٥ صفحات، مخطوط.
- نص كلمة أُلقيت في حفل تسليم الجائزة التقديرية في الثقافة العربية للأستاذ الدكتور قسطنطين زريق في بيروت، ٢٣/٤/١٩٩٩ (نشرت في حفل تسليم الجائزة التقديرية في الثقافة العربية للأستاذ الدكتور قسطنطين زريق (كتيب). بيروت، ١٩٩٩، ص ٥٢ ـ ٥٧).

٤) محاضرات وكلمات أُلقيت في الجامعة الأميركية في بيروت

- «قوس قزح». خطاب أُلقي في منتدى وست هول، ٢٠/٢/١٩٢٦. مخطوط.
- كلمة أُلقيت في الاجتماع الافتتاحي للجمعية العراقية، ٣١/١٠/١٩٣٢. ٥ صفحات، مطبوع.
- «الحياة التهذيبية عند العرب». كلمة أُلقيت في اجتماع جمعية الخريجين، ١٩/٢/١٩٣٢. ٥ صفحات، مخطوط.
- «رجال العقيدة». كلمة أُلقيت في حفلة العروة الوثقى، ٨/١١/١٩٣٤. ٤ صفحات، مخطوط.
- «كيف أفهم التاريخ». نص محاضرة أُلقيت في جمعية خريجي القسم الثانوي في الجامعة الأميركية، ١٢/٤/١٩٣٧ (نشر في الفنون الأدبية. بيروت: مطبعة الاتحاد، ١٩٣٧، ص ٦٥ ـ ٨٦).
- «عصبة الإنعاش القومي ـ أهدافها وغاياتها». خطاب أُلقي في ٦/١١/١٩٣٧. ٦ صفحات، مخطوط.
- كلمة أُلقيت في حفلة شاي أقامها مشروع الإنعاش القومي في الجامعة الأميركية، وكان ضيف الشرف فيها دولة رياض بك الصلح، ٩/١٢/١٩٤٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- «العروة كما عرفتها». هيكل حديث أُلقي في حفلة التعارف للطلبة العرب في

الجامعة الأميركية في بيروت، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٧. ٤ صفحات، مخطوط.
- «مشكلة المرأة العربية». نص محاضرة أُلقيت في جمعية العروة الوثقى في الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩/٤/١٩٤٨. ٦ صفحات، مطبوع.
- «القوى الضائعة». نص كلمة أُلقيت في حفلة جمعية الخريجين في بيروت، ٢٠/٤/١٩٤٨. ٤ صفحات، مطبوع (نشرت في بيروت، ٢٣/٤/١٩٤٨).
- «التحرر الذاتي». هيكل حديث أُلقي في الجامعة الأميركية في بيروت، شتاء ١٩٤٩. صفحتان، مطبوع.
- كلمة أُلقيت في حفلة توزيع الشهادات في الجامعة الأميركية في بيروت، حزيران/يونيو ١٩٤٩. ٥ صفحات، مطبوع.
- «مصادر القوة في المجتمع». هيكل حديث أُلقي في جمعية العروة الوثقى في بيروت، ٢٧/١١/١٩٥٢. ٦ صفحات، مخطوط.
- «محمد قدوة الانقلاب البنّاء». كلمة أُلقيت بالوكالة بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي في الجامعة الأميركية، ٢٩/١١/١٩٥٢ (نشرت في بيروت، ٢/١٢/١٩٥٢).
- «ما هي فلسفتنا القومية». نص كلمة أُلقيت في جمعية العروة الوثقى، ٥/١١/١٩٥٣. ٣ صفحات، مطبوع (نشرت في العروة الوثقى، ص ١٤ ـ ١٩).
- «الفستق». هيكل كلمة أُلقيت في الاجتماع العام لقسم البكالوريا في الكلية الثانوية العامة، لا تاريخ [١٩٥٤]. ٣ صفحات، مخطوط.
- «التغلب على الأنانية». هيكل حديث لطلاب قسم البكالوريا في المدرسة الاستعدادية، ٢٨/١٠/١٩٥٤. ٣ صفحات، مخطوط.
- «أزمة العقل العربي». هيكل كلمة أُلقيت في حفلة التعارف الافتتاحية لجمعية العروة الوثقى، ١١/١١/١٩٥٤. ٤ صفحات، مخطوط.
- نص كلمة أُلقيت في حفلة تدشين مبنى كلية العلوم الهندسية في الجامعة الأميركية في بيروت، ١٦/٤/١٩٥٥. صفحتان، مطبوع (مترجم للإنكليزية).
- نص كلمة أُلقيت في حفل التخرج في الجامعة الأميركية في بيروت [تموز/يوليو] ١٩٥٥. ٤ صفحات، مطبوع (نص الخطاب باللغتين العربية والإنكليزية).
- نص كلمة أُلقيت في الاحتفال بالمولد النبوي في الجامعة الأميركية في بيروت، ٢٧/١٠/١٩٥٥. ٤ صفحات، مطبوع.

- نص كلمة أُلقيت في ذكرى رامز سركيس في الجامعة الأميركية في بيروت، ٣/١٢/١٩٥٥. ٣ صفحات، مطبوع.
- هيكل كلمة أُلقيت على طلاب قسم البكالوريا في المدرسة الاستعدادية، ١٣/٥/١٩٥٦. صفحتان، مخطوط.
- «رسالة الجامعة في عالم عربي يتجدد». هيكل محاضرة أُلقيت على الحلقة الدراسية التي أقامتها الجامعة الأميركية في بيروت، آب/أغسطس ١٩٥٦. ٩ صفحات، مخطوط (نشرت في فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي يتجدد. بيروت: دائرة التربية في الجامعة الأميركية، ١٩٥٦، ص ١٥١ ـ ١٦٤).
- «هياكل للعقل والروح». مختصر خطبة الدكتور قسطنطين زريق في حفلة افتتاح العام الدراسي في الجامعة الأميركية في بيروت، ١٦/١٠/١٩٥٦. ٥ صفحات، مطبوع.
- «بين الأدب والتاريخ». هيكل حديث أُلقي في الجمعية العربية لطلاب الدائرة العربية في الجامعة الأميركية، ٤/٥/١٩٦٠. ٦ صفحات، مخطوط.
- هيكل حديث أُلقي على أعضاء الدورة الصيفية للمفتشين والمعلمين الابتدائيين والثانويين التي نظمتها دائرة التربية في الجامعة الأميركية، ٧/٨/١٩٦١. ٤ صفحات، مخطوط.
- «القيم أولاً». نص كلمة أُلقيت في الجامعة الأميركية بمناسبة تنصيب نورمان بيرنز رئيساً لها في ٢٠/١٠/١٩٦١. ٧ صفحات، مطبوع (نشرت في الأبحاث، ١٤/٤ (١٩٦١)، ص ٤٧٦ ـ ٤٨٠). (ترجمة إنكليزية بعنوان «Priority of Values». ٧ صفحات، مطبوع).
- «مقاييس الحضارة». هيكل محاضرة أُلقيت في ندوة الطلبة السودانيين في الجامعة الأميركية في بيروت، ١٣/١/١٩٦٢. ٥ صفحات، مخطوط.
- «التربية والحضارة». هيكل محاضرتين أُلقيتا على الدورة التدريبية للمعلمين في الجامعة الأميركية، ١٥، ١٦/٨/١٩٦٢. ٧ صفحات، مخطوط.
- «التاريخ والتربية»، هيكل حديثين أُلقيا على طلاب الدورة الصيفية في الإدارة والتفتيش في دائرة التربية، ١٢، ١٣/٨/١٩٦٣. ٨ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت في احتفال تدشين مبنى نايسلي في الجامعة الأميركية، ٢٦/٤/١٩٦٥. ٤ صفحات، مطبوع (مع ترجمة إنكليزية).
- «الجامعة ومستقبل الفكر العربي». نص محاضرة أُلقيت في قاعة المنتدى الكبير

في الجامعة الأميركية ضمن حلقة الدراسات العربية «الفكر العربي في مائة عام»، وفي خلال الاحتفال بالعيد المئوي للجامعة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧، ١٠/١١/١٩٦٦. ٣٧ صفحة، مطبوع (نشرت في الفكر العربي في مائة سنة (بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقدة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦ في الجامعة الأميركية في بيروت)، تحرير فؤاد صروف ونبيه أمين فارس، بيروت، ١٩٦٧، ص ٦٣١ ـ ٦٥٦. نشرت أيضاً في الجامعة وإنسان الغد: محاضرات العيد المئوي للجامعة الأميركية. بيروت، ١٩٦٨، ص ١٥٩ ـ ١٨٢).

- «المشكلات الجامعية في العالم». هيكل محاضرة أُلقيت بدعوة من جمعية طلاب كلية الآداب والعلوم في وست هول، ٧/٣/١٩٦٩. ٦ صفحات، مخطوط.
- «دور الجامعة في العالم العربي». هيكل كلمة ألقيت لجماعة «وجهة نظر» في نادي الخريجين في الجامعة الأميركية، ١٦/٢/١٩٧٤. ٥ صفحات، مخطوط (نشرت في وجهة نظر، ٢/٩ (٢٩/٤/١٩٧٥)، ص ٦ ـ ١١، وفي التربية الجديدة، ص ١٥ ـ ١٦).
- «المؤسسة الجامعية في عالم عربي متطور». نص كلمة أُلقيت في ندوة جمعية الخريجين في الجامعة الأميركية، ١٦/٥/١٩٧٥. ١٥ صفحة، مطبوع (ملحقة بملاحظات الدكتور عقراوي. صفحتان، مخطوط).
- «الدكتور فيليب حتّي». نص كلمة أُلقيت في الحفلة التذكارية التي أقامتها الجامعة الأميركية للدكتور فيليب حتي في المنتدى الكبير، ٢٠/٢/١٩٧٩. ٤ صفحات، مطبوع.
- «نحو حلول عملية للتغلب على العقبات التي تقف في وجه الوحدة العربية». نص كلمة أُلقيت في مؤتمر الحضارة الإسلامية والمجتمع العربي الحديث الذي عقده مركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط في الجامعة الأميركية، ٨/٥/١٩٨١. ٢٦ صفحة، مطبوع (نشر في قضايا عربية، ٧/٧ (تموز/يوليو ١٩٨٠)، ص ٥ ـ ١٦، وفي مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٥٦٩ ـ ١٥٨٥.
- «صعوبة الانتماء العربي في الوقت الحاضر». هيكل حديث لرابطة الطلاب العرب في الجامعة الأميركية، ٢٦/١/١٩٨٢. ٤ صفحات، مخطوط.
- «الأصل والجوهر وأفكار القلوب». نص كلمة أُلقيت في تأبين الدكتور فؤاد صروف في قاعة الاحتفالات الكبرى في الجامعة الأميركية، ٢١/١/١٩٨٥. ٣ صفحات، مطبوع (نشرت في الأنوار، ٣١/١/١٩٨٥).

- نص خطاب أُلقي في حفلة التخرج والاحتفال بالذكرى الـ ١٢٥ لتأسيس الجامعة الأميركية في بيروت، ٢٣/٧/١٩٩١. ٥ صفحات، مطبوع (نشر في *AUB Bulletin*، ٣٣/٤، حزيران/يونيو ـ آب/أغسطس ١٩٩١).
- نص كلمة أُلقيت في حفلة النادي الثقافي العربي لتكريم الدكتور زريق في قاعة عصام فارس في كلية الطب في الجامعة الأميركية، ٦/٥/١٩٩٤. ٨ صفحات، مطبوع. تكلم عن الدكتور زريق في هذه الحفلة كل من:
  - سحاب، فكتور. ٣ صفحات، مخطوط.
  - الحوت، محمود سليم. «تكريم الفكر». ٣ صفحات، مخطوط.
  - الدجاني، برهان. ٥ صفحات، مطبوع.
  - صايغ، أنيس. ٥ صفحات، مطبوع.
  - المقدسي، سمير. ٤ صفحات، مطبوع.
  - قباني، محمد. ٧ صفحات، مطبوع.
  - العطار، نجاح. «الذي وحده الشعب»، ٣ صفحات، مطبوع.
  - إده، ميشال. ٦ صفحات، مطبوع.
- «تحديات المستقبل». هيكل حديث لملتقى المثقفين في نادي خريجي الجامعة الأميركية في بيروت، ٢٨/٧/١٩٩٤. ٤ صفحات، مخطوط.
- كلمة أُلقيت في احتفال التخرج في الجامعة الأميركية في بيروت، آب/أغسطس ١٩٩٤. ٥ صفحات، مطبوع.

٥) تقارير واقتراحات

- «تنظيم الدعاية العربية». تقرير مقدم إلى طالب مشتاق مدير الدعاية والنشر في العراق، ٧/٦/١٩٣٩. ٥ صفحات، مطبوع.
- «تقرير حول المؤتمر العربي الثقافي الأول»، مقدم إلى وزير المعارف في الجمهورية السورية، بيت مري، ٢ ـ ١١/٩/١٩٤٧. ٣ صفحات، مطبوع.
- مسوّدة ورقة سلمت للشيخ فؤاد حبيش كرؤوس أقلام تُقدّم إلى اللواء فؤاد شهاب، أيلول/سبتمبر ١٩٥٨. ٣ صفحات، مخطوط.
- «اقتراح بإنشاء مركز لبحث قضية فلسطين». بيروت المساء، ٣/٨/١٩٦٠.
- نص مشروع قانون معجل مكرر بإنشاء المركز الوطني للأبحاث العلمية في لبنان، سلم إلى شارل سعد رئيس لجنة التربية الوطنية في المجلس النيابي، ٢١/١٢/١٩٦٠. صفحتان، مطبوع.

- «روائع التراث العربي». نص مشروع قدم إلى لجنة الاحتفال بالعيد المئوي للجامعة الأميركية، ١٩٦٤. ٥ صفحات، مطبوع.
- «تقرير حول إنشاء جامعة الكويت»، مقدم إلى رئيس مجلس التخطيط، ١٣/١/١٩٦٥. ١٠ صفحات، مطبوع.
- دعوة إلى إنشاء مؤسسة عربية للبحث العلمي وشؤون التنمية أعدت بمناسبة اجتماع وزراء الخارجية ومؤتمر القمة الخامس. ٤ صفحات، مطبوع (نشرت في النهار، ٨/١٢/١٩٦٧).
- اقتراح بإنشاء مؤسسة عربية خاصة لتشجيع البحث العلمي، قدم إلى فريد سعد في إثر أحاديث متعددة في هذا الموضوع، ٤/١٢/١٩٦٨.
  أ) اقتراح بإنشاء مؤسسة عربية لتشجيع التفكير الريادي والبحث العلمي، ٢٣/٤/١٩٦٩. ٦ صفحات، مطبوع.
  ب) طريقة التنفيذ «مؤسسة عربية لتشجيع الفكر الريادي والبحث العلمي»، ١٥/٥/١٩٦٩. ٣ صفحات، مطبوع.
  ج) مذكرة سلمت للسيدة علياء الصلح مع كتاب طلب مؤازرة من جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب لمؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٠/٧/١٩٧٠. ٥ صفحات، مطبوع.
- ملاحظات على «مشروع إعادة كتابة تاريخ العرب»، مقدم إلى الدكتور محمد خير فارس في جامعة دمشق، ٢٨/١٢/١٩٧٦. ٤ صفحات، مطبوع.
- تقرير عن توصيات مؤتمر وزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية، قدم إلى الدكتور يوسف صايغ بناء على طلبه، ٢٣/١٢/١٩٧٧. ١٤ صفحة، مطبوع.
- تقرير بشأن تقديم برنامج للماجستير في التاريخ الإسلامي، مقدم إلى عميد كلية الدراسات العليا في جامعة الكويت، ٢٥/٣/١٩٧٩. ٢٠ صفحة، مخطوط.

٦) أحاديث إذاعية

- «التراث الثقافي العربي». نص حديثين أُذيعا من محطة الإذاعة الفلسطينية ـ القدس، ١٩٣٨. ١٣ صفحة، مخطوط.
- «رثاء الملك فيصل». نص كلمة أُذيعت من محطة الإذاعة في بغداد، ٧/٤/١٩٣٩. ٣ صفحات، مطبوع.

- «صناعاتنا الفنية وسبل إحيائها». نص حديث أذيع من محطة الإذاعة الفلسطينية ـ القدس، آب/أغسطس ١٩٤٠. ٧ صفحات، مطبوع.
- «العناصر الخالدة في المدنية العربية». نص حديث سجل في محطة إذاعة القدس لإذاعته من لندن، صيف سنة ١٩٤١. ٤ صفحات، مطبوع (نشر في الأديب، العدد ١ (آذار/مارس ١٩٤٢)، ص ٥ ـ ١٠. وأُذيع الحديث معدلاً من محطة إذاعة دمشق سنة ١٩٥١).
- «الشباب طليعة الأمة». نص حديث أُذيع من راديو الشرق (بيروت)، آب/أغسطس ١٩٤٢. ٥ صفحات، مطبوع.
- «النشاط العقلي والروحي وأثره في بناء الأمة». نص حديث أُذيع من راديو الشرق (بيروت)، ١/١٠/١٩٤٢.
- «الإنسان تاريخاً ـ الإنسان ابن التاريخ». نص حديث أُذيع من محطة الإذاعة اللبنانية، ١٤/٥/١٩٤٣. ٣ صفحات، مطبوع.
- «الإنسان تاريخاً ـ الإنسان أبو التاريخ». نص حديث أُذيع من محطة الإذاعة اللبنانية، ٢١/٥/١٩٤٣. ٣ صفحات، مطبوع.
- «المعلمون: داروِن». نص حديث أُذيع من راديو الشرق (بيروت)، ١٥/١٠/١٩٤٣. ٤ صفحات، مطبوع.
- «معنى الأزمة». نص كلمة أُذيعت من محطة الإذاعة اللبنانية، ٢٦/٤/١٩٤٨. ٥ صفحات، مطبوع (نشرت في بيروت المساء، ١٠/٥/١٩٤٨).
- «على عتبة العام الدراسي». حديث أُذيع من راديو الشرق، ٨/١٠/١٩٤٨ (نشر في العروة الوثقى، ١٩٤٨).
- «في القضية النسائية». نص حديث أُذيع من راديو الشرق (بيروت)، شتاء سنة ١٩٤٩. ٤ صفحات، مطبوع.
- مقابلة مع إذاعة الشرق الأدنى، ١/٣/١٩٤٩. ٥ صفحات، مطبوع.
- «الاستقلال واسطة أم غاية». نص حديث أُذيع من محطة إذاعة دمشق بمناسبة ذكرى الجلاء، ١٦/٤/١٩٤٩. ٤ صفحات، مطبوع.
- «على عتبة العام الدراسي». نص كلمة أُذيعت من محطة الإذاعة السورية، ٢٣/١٠/١٩٤٩. ٤ صفحات، مطبوع.
- «نحو عالم جديد». نص حديث أُذيع من محطة الشرق الأدنى، ٢/١٢/١٩٤٩. ٥ صفحات، مطبوع.

- «من مقومات الدولة». حديث أُذيع من محطة الإذاعة السورية، ٢٧/١٢/١٩٤٩.
- «بذلنا ادخار المستقبل». نص كلمة أُذيعت من محطة الإذاعة السورية بمناسبة أسبوع فلسطين، شتاء سنة ١٩٥١. ٦ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة أُذيعت من راديو الأونسكو خلال الدورة السابعة للهيئة العامة، تموز/يوليو ١٩٥١. ٣ صفحات، مطبوع.
- «أهداف التعليم الجامعي». نص حديث أُذيع من محطة إذاعة دمشق، ١٩/٥/١٩٥٢. ٤ صفحات، مطبوع.
- نص حديث أُذيع بمناسبة عيد الشجرة من محطة الإذاعة اللبنانية، ١٦/١٢/١٩٥٢. ٤ صفحات، مطبوع.
- نص مقابلة مع إذاعة الشرق الأدنى، ٢٥/٤/١٩٥٣. ٣ صفحات، مطبوع.
- نص مقابلة مع محطة الإذاعة اللبنانية، آذار/مارس ١٩٥٤. ٤ صفحات، مطبوع.
- «إلى الطلاب». نص كلمة أُلقيت من محطة الإذاعة اللبنانية بمناسبة افتتاح العام الدراسي، ١٣/١٠/١٩٥٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- «نحن والشجرة». نص كلمة أُلقيت من محطة الإذاعة اللبنانية، كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٤. صفحتان، مطبوع.
- نص كلمة أُلقيت من محطة الإذاعة اللبنانية بمناسبة أسبوع الشجرة، ٦/١٢/١٩٥٥. ٣ صفحات، مطبوع.
- «في سبيل ماذا». نص حديث أُذيع من محطة راديو بيروت، ٢٦/٩/١٩٥٨. ٥ صفحات، مخطوط.
- «نحن والشجرة». نص كلمة أُذيعت من محطة الإذاعة اللبنانية، ٩/١٢/١٩٥٨. ٤ صفحات، مطبوع.
- نص كلمة بمناسبة اختتام أسبوع الكتاب أُذيعت من محطة الإذاعة اللبنانية، ٢٦/١١/١٩٦٠. صفحتان، مطبوع.
- «أداء الثمن». نص حديث أُذيع من محطة الإذاعة اللبنانية، ٢٦/٢/١٩٦٢. ٧ صفحات، مطبوع (نشر في هذا العصر المتفجر ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثاني، ص ٦٧٩ ـ ٦٨٤).
- «الجامعة ومهمتها». نص حديث أُذيع من محطة الإذاعة اللبنانية، ٢٦/٣/١٩٦٢. ٥ صفحات، مطبوع.

- «الغايات والوسائل». نص حديث أُذيع من محطة الإذاعة اللبنانية، ٢٣/٤/١٩٦٢. ٧ صفحات، مطبوع.
- «علمتني الحياة». نص حديث سجل في محطة إذاعة الكويت، ٢٣/١١/١٩٦٢. ٦ صفحات، مطبوع.
- «المجتمع العربي بين أمس واليوم». نص حديث سجل في محطة إذاعة الكويت، ٢٣/١١/١٩٦٢. ٧ صفحات، مطبوع.
- «أثر الجامعة في تكوين الشخصية». نص كلمة أُعدت لتذاع من محطة إذاعة الكويت، ٢٣/١١/١٩٦٢. ٥ صفحات، مطبوع.
- «في آفاق المعرفة». نص أُعد للإذاعة الأردنية، ٢٩/٧/١٩٦٣. صفحتان، مطبوع.
- «في ذكرى الميلاد». نص حديث أُلقي من هيئة الإذاعة البريطانية [كانون الأول/ ديسمبر] ١٩٦٣. ٥ صفحات، مطبوع.
- «دور الفكر في الحياة العربية الجديدة». نص كلمة سجلت في محطة إذاعة صوت فلسطين، ٢٣/٣/١٩٦٥. ٣ صفحات، مطبوع.
- نص حديث سجل في الإذاعة البريطانية في ١٨/١١/١٩٦٦ ليلقى ضمن برنامجها للعيد المئوي للجامعة الأميركية في بيروت، ٣/١٢/١٩٦٦. صفحة واحدة، مطبوع.
- نص حديث أُذيع من محطة الإذاعة اللبنانية بمناسبة أسبوع الصليب الأحمر، ٨/٥/١٩٦٧. ٣ صفحات، مطبوع.
- «لبنان والقضية الفلسطينية». حديث سجل للإذاعة اللبنانية، ٦/١١/١٩٧٤. ٣ صفحات، مطبوع.
- «مناقشة كتاب نحن والمستقبل». مقابلة أجراها نديم المقدسي سجلت لإذاعة الـ BBC العربية، ٢٦/١١/١٩٧٧. ٥ صفحات، مطبوع.
- «وجهاً لوجه». مقابلة مع سيمون عواد، سجلت في محطة الإذاعة اللبنانية، ١٦/١٢/١٩٧٧ (نشرت في المجلة العربية، ٢/١٠ ـ ١١ (تموز ـ آب/يوليو ـ أغسطس ١٩٧٨)، ص ٣٨ ـ ٤٣).

٧) تعقيبات ومقالات

- تعقيب على بحث الأستاذ جميل مطر «الجامعة العربية والنظام الإقليمي العربي وتحديات الثمانينات». ٧ صفحات، مطبوع.
- «حول النهضة العربية». نص جواب لاستفتاء قامت به وزارة الثقافة والإرشاد القومي في سورية [د.ت]. ٢٠ صفحة، مطبوع.
- «روح العصر»، ١٩٣١. صفحتان، مخطوط.
- «الجندي المجهول» ١٩٣٩. ٤ صفحات، مخطوط.
- «مبدئي السياسي»، ١٩٤٣. ٤ صفحات، مخطوط.
- «في ذلك العصر المضطرب»، ١٩٤٣. ١٠ صفحات، مخطوط.
- «موقفنا من تاريخنا». ربيع سنة ١٩٤٣. ٢٩ صفحة، مخطوط.
- «لمحة عن القضية العربية». نص كتب بطلب من تحسين بك قدري. كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤. ٦ صفحات، مطبوع.
- «محاضرة في الذكرى الألفية لأبي العلاء»، ١٩٤٤. ١٢ صفحة، مخطوط.
- «عالمية جهادنا»، ١٩٥٦. ٥ صفحات، مخطوط.
- «الغايات والوسائل». نص مقال أرسل للبطريرك ثيودوسيوس للعدد الأول من مجلة النعمة، آب/أغسطس ١٩٦٠ (لم ينشر).
- «في ماهية الحضارة». نص كتب في آذار ـ نيسان/مارس ـ أبريل ١٩٦٣. ٣٠ صفحة، مطبوع.
- ملاحظات بشأن مشروع الهرم الثقافي، ١٠/١٠/١٩٦٩. ٤ صفحات، مطبوع.
- «الرابطة الدولية للجامعات». نص مقال كتب ليصدر في نشرة لبنان والأونسكو، العدد ٢ (٤/٥/١٩٧١). ٧ صفحات، مطبوع.
- «رأيي في لغة تعليم العلوم في المرحلة الجامعية». إجابة لطلب من جامعة البصرة بشأن هذا الموضوع وقد سلمت للسيد أمين ربيز، ١٢/٢/١٩٧٢. ٣ صفحات، مطبوع.
- «إنقاذ لبنان». نص مقال [١٩٧٦]. ٤ صفحات، مطبوع.
- تعليق على موسوعة المورد للأستاذ منير البعلبكي أرسلت إليه للنشر. ٣/٣/١٩٨٠. ٤ صفحات، مطبوع.

- «العالم العربي بين سقوط بغداد (١٢٥٨) وسقوط القسطنطينية (١٤٥٣)». نص كتب بطلب من الدكتور نقولا زيادة لمشروع كتاب أو موسوعة *The Joy of Knowledge* في سويسرا وسلمت له في ٧/٥/١٩٨١. ٥ صفحات، مطبوع.
- «محاولة لتحديد مفهوم الثقافة ودور المثقف في التغيير الاجتماعي». نص مقال كتب لمجلة المواسم بناء على طلب نزيه كباره، ١٨/٣/١٩٨٣. ١٠ صفحات، مطبوع.
- «شهادة صديق». نص مقال أرسل إلى الدكتور ناثر سارة لينشر في الكتاب التذكاري لمتّى عقراوي، ٣١/٨/١٩٨٣. ٦ صفحات، مخطوط.
- نص جواب عن سؤال من مجلة مواقف على مفهوم التعددية الثقافية والحضارية في لبنان. ٤ صفحات، مطبوع (نشر في الكفاح العربي، ٣٠/٧ ـ ٥/٨/١٩٨٤. ولم ينشر في مواقف، العدد ٤٧ ـ ٤٨ (١٩٨٣)، العدد الذي خصص لأجوبة بعض المفكرين عن هذا الاستفتاء).

(ب) بالإنكليزية

1) Juvenilia

- «Oliver Twist.» 30/1/1924. 16 pages, MS.
- «Musaylima and the Origins of his anti-Islamic Movement.» July 1928. 24 pages, MS.
- «The Expedition of Mu'ta.» August 1928. 25 pages, MS.
- «Form and Mater.» Winter 1929. 7 pages, MS.
- «The Two Truths in Medieval Philosophy.» Winter 1929. 12 pages, MS.
- «The University of Alexandria.» Summer 1929. 23 pages, TS.
- «The Hamito-Semitic Family of Languages.» Winter 1930. 11 pages, TS.

2) Lectures and Talks

- «The Principles of Harmony in Life.» Outline of talk in Brummana, February 1932. 3 pages, MS.
- Outline of Address to the Brotherhood Society, 1934. 2 pages, MS.
- «The Arab Contribution to Civilization.» Text of lecture at YMCA in Jerusalem, 1936. 29 pages, TS.
- «Nationalism.» Outline of speech at the Conference of School Principals, 6/6/1936. 3 pages, MS.
- «Our Philosophical Heritage.» Outline of lecture, n.d [1939]. 7 pages, MS.
- «Life of Amin ar-Rihani.» Outline of lecture at the Beirut College for Women Alumni Association, 15/1/1941. 2 pages, TS.
- «The Story of Damascus.» Outline of talk delivered at several Army Camps, Winter 1943. 4 pages, MS.
- «Philosophy in our Tradition.» Outline of lecture, n.d [1944]. 6 pages, MS.
- «Social and Cultural Life in Lebanon.» July 1944. 5 pages, TS.
- «Cultural Cooperation Between America and the Arab World.» Outline of talk given to the Central Cooperation Department of the Department of State. Washington D.C., Spring 1945. 2 pages, MS.
- «The Constitution of the Arab League.» Outline of lecture delivered at Princeton University, May 1945. 4 pages, TS.
- «The Problems of the Arab World.» Text of lecture delivered at the School of International Studies. Princeton University, May 1945. 21 pages, TS.
- Outline of untitled talk to the Canadian Arabs Friendship League. Montreal, October 1945. 3 pages, MS.

- Text of speech at al-Salaam Club in New York at a Reception in Honor of AUB President Bayard Dodge, October 1945. 2 pages, TS.
- Speech at a Banquet given by the Syrian-American Club of Washington, 3/6/1946. 5 pages, TS.
- Outline of speech at the Banquet of Boston Branch of Institute on Arab American Affairs, 12/1/1947. 3 pages, MS.
- «The Arab World and Power Politics.» Outline of a Talk to the Saudi Arabian American Army Mission, 16/7/1948. 6 pages, MS.
- «Arabic Civilization.» Text of lecture delivered before the UNESCO General Conference in Beirut, 29/11/1948. 22 pages, TS. (Published in *Middle East Journal*, 3/2 (1949), pp. 125-139).
- «Nationalism and International Relations of the Islamic Peoples.» Text of lecture [1949]. 23 pages, TS.
- «How to Develop Social Consciousness.» Text of talk delivered at the Rotary Club, Beirut, 26/5/1949. 4 pages, TS.
- «What Makes the Arabs Think as They Do.» Outline of talk to Representatives of American Broadcasting Companies in Aley, August 1949. 3 pages, MS.
- «Educational Progress in Syria.» Outline of lecture delivered to the Conference of Expatriates in Damascus, July 1950. 5 pages, MS.
- «The Middle East in Relation to the World Situation.» Outline of talk delivered to the Council of the World YWCA in Beit Meri, 15/10/1951. 6 pages, MS.
- «Lighthouse.» Outline of talk at Brummana High School, February 1953. 3 pages, MS.
- «Progress of the Middle East.» Outline of talk to the YWCA, 11/2/1953. 4 pages, TS.
- «Biographical Sketch of President Stephen Penrose Pronounced at his Funeral Service.» 10/12/1954. 3 pages, TS. (With Arabic Translation).
- «The A.U.B.» Outline of talk to the Foreign Service Institute, 2/7/1956. 3 pages, TS.
- «Current Political Developments and New Political Patterns in the Arab World.» Outline of talk to Students of the Foreign Service School in Beirut, 22/1/1957. 3 pages, MS.
- «How Arabs have Viewed History.» Outline of talk to a Colloquium in the University of Heidelberg, 24/10/1957. 3 pages, MS.
- Outline of talk to the Alumni Association of North America in Brooklyn, New York, 28/3/1958. 4 pages, MS.
- «The Challenge of Leadership in the Middle East.» Outline of Two lectures at the School of Advanced International Studies in Washington D.C., March-

April/1958. 12 pages, MS.
- «Arab Unions.» Outline of a talk to the Faculty Seminar in the School of Middle Eastern Studies in Columbia University, New York, April 1958. 7 pages, MS.
- «Why Arab Unity?» Text of talk to the Conference of Arab Students in the Eastern States in USA, 4/4/1958. 9 pages, TS.
- «A Man of the Future.» Text of talk at the Memorial Service for Faris S. Malouf in Boston, 10/4/1958. 5 pages, TS.
- «Problems of Universities in the Arab World.» Outline of talk held at the University of Michigan, Department of Near Eastern Studies, 13/5/1958. 8 pages, MS.
- «Our Fundamental Values.» Outline of talk to the YWCA Seminar held in Beirut on «Rethinking of our Tasks.» 6/4/1959. 8 pages, MS.
- «Conscience.» Outline of talk to the Beirut College for Women, Morning Chapel, 25/11/1959. 3 pages, MS.
- «Educational Trends in the Arab World.» Outline of talk at the Friends' Center in Brummana, 11/12/1959. 5 pages, TS and MS.
- «Justice or Love?» Outline of talk to the I.C. Evening Service, 17/1/1960. 2 pages, MS.
- «Fares El-Khoury-A Personal Appreciation.» Text of speech, 26/1/1962. 4 pages, TS. (Published in *Al-Kulliyah*).
- Text of Working Paper for Discussion on the Future of the International Association of Universities' Policy at the 15^{th} Meeting of the IAU Administrative Board in New Delhi, February 1962. 12 pages, TS.
- «The Meaning of Palestine Day.» Text of talk at Beirut College for Women, 16/5/1962. 4 pages, TS.
- «A Note on the Role of Universities in the Development of World Mindedness.» Text prepared for the Development Graduates of International Association of Universities, May 1964. 11 pages, TS.
- «Jawaharlal Nehru.» Talk delivered at the Memorial Service for J. Nehru held at the Indian Embassy in Beirut, 8/6/1964.
- «The Middle East in Perspective.» Outline of talk to the YMCA-YWCA Conference in Beirut, 19/8/1964. 4 pages, TS.
- Text of Statement introduced the Background Paper Prepared by Dr. Borbs at the 4^{th} General Conference of International Association and Universities in Tokyo, 31/8/1965. 9 pages, TS.
- «The University and the World Community.» Outline of address at the 1^{st} Meeting of the Association of State Universities in Minneapolis, 8/11/1965.

19 pages, MS.

- «The Problem of Freedom in Underdeveloped Countries.» Outline of address to the Faculty Seminar, Middle East Institute in Princeton, 13/12/1965. 24 pages, MS.
- «Cultural and Historical Roots of Arab Nationalism.» Outline of talk to the Peace Corps Group in Washington D.C. leaving for Morocco, 6/9/1966. 3 pages, TS.
- «The Philosopher's Stone.» Text of address delivered in San Francisco at the Dinner held to commemorate the 100th Anniversary of the AUB, 3/12/1966. 14 pages, TS.
- «Understanding the Arabs.» Speech delivered at the Meeting of the Arab American Women's Association in New York, 7/12/1966. 8 pages, MS.
- «The Message of Arab Civilization.» Text prepared for a lecture in Cartagena (Columbia) at the Invitation of the Mayor of the City, 29/3/1967. 27 pages, TS.
- «Universities and the Making of Tomorrow's World.» Speech delivered to the Conference on Higher Education in Michigan, April 1967 (Published in *Higher Education in Tomorrow's World* (Pamphlet). Michigan, April 1967, pp. 18-30).
- Text of Welcoming Speech at Conference of «Higher Education in Tomorrow's World» in Michigan, 26-29/4/1967. 4 pages, TS. (Published in *Higher Education in Tomorrow's World* (Pamphlet). Michigan, April 1967, pp. 11-13).
- «The University and the Making of Tomorrow's World.» Text delivered at International Conference on «Higher Education in Tomorrow's World.» 27/4/1967. 25 pages, TS. (Published in *Higher Education in Tomorrow's World* (Pamphlet). Michigan, April 1967).
- «Ideologies of Transitional Societies.» Outline of lecture delivered at Political Science Seminar at Beirut College for Women, 25/7/1967. 8 pages, MS.
- Text of address at the Concluding Ceremony of the Founding Conference of the Association of African Universities in the Presence of H.M. King Hasan II, Rabat, 13/11/1967. 3 pages, TS. (Arabic Translation, 1 page, MS.).
- «The International Association of Universities.» Outline of address to the Faculty of Beirut College for Women, 13/12/1967. 3 pages, MS.
- Text of address to Governor William Scranton at the Embassy of the United States of America in Beirut, 4/12/1968. 3 pages, TS.
- Text of address at Opening Ceremony of the Conference on the Proposal for a Regional Institute of Higher Education and Development in Singapore, 7/2/1969. 4 pages, TS.
- «Remarks: Panel on Educational Development.» Text of speech delivered at the International Association of Universities Sixth Conference on International

Education in Washington D.C., 19-21/2/1969. 6 pages, TS.

- «Place of Arab Civilization in History.» Outline of lecture delivered at MECAS, May 1969. 7 pages, MS.
- «Student Attitudes in Lebanon.» Outline of talk at the German Oriental Institute, 14/5/1969. 6 pages, MS.
- Text of message to the Members of the Administrative Board in the Board's 23rd Meeting from 13-17/6/1969 at Helsinki, 21/5/1969. 4 pages, TS.
- «International Agreements.» Outline of lecture delivered at the Palestine Studies Committee of I.C., 26/11/1969. 6 pages, MS.
- «The Palestine Problem: An Introductory Survey.» Text of lecture delivered at World Conference of Christians for Palestine, 8/5/1970. 9 pages, TS. (Published in *World Conference of Christians for Palestine* (Pamphlet), and in *Middle East Forum (Al-Kulliyah)*, 46/1 (1970), pp. 27-36).
- «The University and the Creation of the Future.» Text of address at the Inaugural Session of the 5th General Conference of the International Association of Universities in Montreal, 30/8/1970. 15 pages, TS. (Published in *Report of the Fifth General Conference of the International Association of Universities*. Paris, 1971, pp. 65-73 (French Edition, Paris, 1971, pp. 69-78). (Published also in *Education and World Affairs* (New York), 1/9 (October 1970), pp. 1, 2, 27, and in *Courier* (Montreal), 31/8/1970, pp. 1-2, and in *Al-Kulliyah*, Autumn 1970, pp. 2-7. Arabic Translation in:

  مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٤٧٧ ـ ١٤٨٥.
- «Tensions Within the University Today.» Text of address at the Inauguration of Makerere University in Kampala (Uganda), 8/10/1970. 18 pages, TS. (Published in *Uganda Argus*, 9/10/1970, pp. 1, 5).
- «Few Universal Aspects of Arab Culture.» Outline of lecture for the Middle East Group on Cultural Relations for the Future, 26/11/1970. 3 pages, MS.
- «Social Role of the University.» Outline of Panel at Beirut College for Women, 27/11/1970. 2 pages, MS.
- «The Arabs in a Changing World.» Outline of a lecture in Faculty Orientation Program at G.U.B, 25/11-17/12/1970. 5 pages, MS.
- «Some Students' Problems.» Outline of talk to the Faculty of Haigazian College, Beirut, 16/2/1971. 8 pages, MS.
- «The Responsibility of the University and Challenges Facing the Developing World.» Text of speech at the 6th Colloquium on University Education, 1/8/1973. 5 pages, MS. (Published in *Al-Kulliyah*, Summer 1975, pp. 12-18).

- «The Process of Modernization.» Text of lecture, 24/2/1977.
- «Tensions in Islamic Civilization.» Text of lecture given at Georgetown University, 8/3/1977. 23 pages, TS. (Published in *Tensions in Islamic Civilization*. Washington D.C.: Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, Seminar Paper no. 3, 1978, 2nd Edition in 1984. Arabic Translation in:

  مطالب المستقبل العربي ـ الأعمال الفكرية العامة، المجلد الثالث، ص ١٥٨٧ ـ ١٦٠٤.
- «Between Self-Delusion and Frustration.» Outline of talk to the Washington Chapter of Association of Arab-American University Graduates (A.A.U.G.), 23/3/1977. 10 pages, MS.
- «Cultural Change and Transformation of Arab Society.» Text of lecture delivered at Georgetown Forum's Conference, April 1977. 17 pages, TS. (Published in *The Arab Future: Critical Issues* (CCAS Studies in Arab Development-2). Washington D.C.: Center for Contemporary Arab Studies, 1979, pp. 9-17).
- «Kamal Jumblat.» Text of Tribute and Memorial Service at Washington D.C., 17/4/1977. 4 pages, MS.
- «Current Trends in the Arab World.» Outline of talk to the Pentagon Middle East Staff, 29/4/1977. 6 pages, MS.
- «The Forgotten Revolution.» Outline of talk at the Arab Women's Union Annual Dinner, 30/4/1977. 7 pages, MS.
- «The Arab Image in the US.» Outline of talk. Utah, 11/8/1977. 8 pages, MS.
- «The Influence of Arab Islamic Civilization on the West.» Lecture delivered at the Doha Club in Qatar by invitation of the Faculty of Education and Doha Club, 23/4/1978. 17 pages, MS.
- «The Concept of Arab Development, the Purposes of Higher Education in the Arab World and the Effect of Higher Education on Arab Development.» Text of lecture delivered at the preparatory Meeting for a Conference on Higher Education and Arab Development in Bellagio, 6-11/11/1978. 19 pages, MS.
- «We Are Smitten Down Yet Not Destroyed.» Text of speech delivered on the Founders' Day at Beirut University College (BUC), 21/11/1978. 18 pages, MS. and 9 pages, TS.
- «Arab Development and the Crisis of Our Age.» Text of lecture delivered at the Seminar on «Arab Development» convened by the University of Louvain la Neuve and the Arab Development Institute at Louvain, 11-15/12/1978. 24 pages, TS. (Published in Khader, Bichara. *Monde arabe et développement*

économique. Paris: le Sycomore, 1981, pp. 215-227).
- «Arab-American Relations, Dangers and Opportunities.» Text of address delivered at the Twelfth Annual Convention of A.A.U.G., 9/11/1979. 31 pages, TS. (Published in *Arab Studies Quarterly* (ASQ), 2/2 (Spring 1980), pp. 113-126).
- «To Shaykh Sa'id Himadeh.» Outline of lecture, 22/5/1982. 8 pages, MS. (Published in *Shaikh Said Himadeh, a Tribute* (Pamphlet). Beirut, May 1982).
- «The Arab World Tomorrow.» Outline of talk organized by School of International Services in Washington D.C., 20/6/1983. 9 pages, MS.
- «Arab Nationalism.» Outline of talk to class in Inter-Arab Politics at Georgetown University, 20/9/1983. 5 pages, MS.
- «Religion and Politics.» Outline of talk to Kennedy's Institute of Jewish-Christian-Muslim Trilogue, 20/9/1983. 9 pages, MS.
- «Arab Nationalism-What Went Wrong?» Outline of talk to the Arab Women's Association in Washington D.C., 21/11/1983. 10 pages, MS.
- Text of Speech at the Funeral Services for Dr. Fuad Sarruf, 21/1/1985. 3 pages, TS.
- «Islamic Fundamentalism since World War II.» Outline of speech given at the Seminar of Middle East and North Africa Division of the World Bank, 7/11/1986. 10 pages, MS.
- «Towards a Unified Lebanon, Sources of Conflict: The Historical Perspective.» Text of lecture delivered at a conference in Washington D.C., 1/12/1990. 14 pages, TS.
- «An Age of Monstrosities.» Outline of Talk to Foreign Agriculture Department Association, 26/2/1991. 5 pages, MS.
- Address at the Banquet of the Association of Arab American University Graduates Convention. Washington D.C., 23/10/1993. 8 pages, TS.

3) Lectures and Talks given at the American University of Beirut

- «How to Study History and the Social Sciences.» Text of Introductory talk delivered before Students, 6/10/1931, 5/10/1932, 25/10/1933. 3 pages, MS.
- «Will this Year in the A.U.B. Change any Religions' Faith?» Text of talk to the Brotherhood Society, October 1931. 6 pages, TS.
- «Arabic Culture and its Significance.» Text of talk, May 1932. 14 pages, MS.
- «This Talking Age.» Outline of talk to the AUB Students' Union, 18/10/1932. 4 pages, MS.
- «Some Students' Problems.» Text of talk to the Faculty Devotional Meeting,

13/12/1932. 3 pages, TS.
- «Report of Preliminary Committee on Public Relations.» Text of lecture, 1936. 7 pages, TS.
- «Our Shortcomings, Individual and Collective.» Outline of lecture at Ainab Retreat, 6/8/1938. 9 pages, MS.
- «The Achievement of Fortune.» Outline of lecture, 13/11/1938. 11 pages, MS.
- «On Books.» Outline of lecture given in the Assembly Hall, 3/6/1939. 3 pages, TS.
- «Living in Cities.» Outline of lecture, 21/1/1940. 3 pages, TS.
- «The Power of Concentration.» Outline of lecture given at Assembly Hall, 16/10/1942. 2 pages, TS.
- «Mission of the History Teacher to the Arabic World.» Outline of lecture given at West Hall, 17/12/1942. 3 pages, MS.
- «Rebuilding our National Life.» Text of talk, 4/2/1943. 15 pages, TS.
- «Our Youth as I see them.» Outline of talk given at the Women's League, March 1948. 4 pages, MS.
- «Some Dominant Trends in the History of the Arab Near East.» Outline of talk to a Group of American Faculty, 16/4/1948. 3 pages, MS.
- «The Challenge.» Outline of talk, 16/5/1948.
- «Forward through the Ages.» Outline of lecture, 19/10/1948. 5 pages, MS.
- «The Desecration of Books.» Outline of lecture, 13/2/1949.
- «Capping Service at AUB.» Outline of lecture [1951-1952]. 4 pages, MS.
- «The Function of the AUB in the Changing Near East.» Text of lecture, 20/4/1952. 16 pages, MS.
- «The Educational Setup in the Arab World.» Outline of talk, 17/12/1952.
- «New Values in the Near East.» Outline of lecture, 10/6/1953. 2 pages, MS.
- «Baccalaureate Sermon.» Text of talk, 28/6/1953. 11 pages, TS.
- «The Meaning of the Progress.» Outline of talk to the Engineering Students at AUB, 2/3/1954. 4 pages, MS.
- «New Values in the Near East.» Outline of lecture at AUB, 9/6/1954. 4 pages, MS.
- «On Foundations.» Outline of talk to Sunday Evening Service at AUB, 24/10/1954. 3 pages, MS.
- Text of talk on the occasion of the beginning of the Second Semester, February 1955. 1 page, TS.
- «Baccalaureate Sermon.» Text of talk, 26/6/1955. 6 pages, TS.
- «The Still Point of the Turning-World.» Outline of lecture to the Devotional Meeting of AUB Faculty, 9/10/1955. 9 pages, MS.

- Text of Convocation address delivered at AUB, 10/10/1955. 3 pages, TS.
- Text of address at the Dedication Ceremony of the Annual Hospital Day at AUB, 5/11/1955. 5 pages, TS.
- «Blessed Foolishness.» Baccalaureate address of the AUB, 24/6/1956. 9 pages, TS. (Published in *Blessed Foolishness* (Pamphlet), June 1956).
- «Charge to Students.»Text of talk, 25/6/1956. 5 pages, TS.
- Text of Convocation address at AUB, 15/10/1956. 5 pages, TS.
- Text of Baccalaureate address given at AUB, 30/6/1957. 12 pages, TS.
- Text of Charge to AUB Graduates, 1/7/1957. 7 pages, TS.
- «Why an American University of Beirut?» Text prepared for AUB Administrators, 24/6/1958. 16 pages, TS.
- Text of untitled address to Faculty Devotional Meeting in AUB, 12/10/1958. 12 pages, TS.
- «The Meaning of Arab Nationalism.» Outline of lecture delivered before the AUB Faculty, 18/2/1959. 7 pages, TS.
- «The Political Situation in the Arab World.» Outline of talk delivered before the wives of AUB Trustees, April 1959. 3 pages, MS.
- «The Uncommon Man.» Outline of talk to Prep Students at AUB, 12/4/1959. 3 pages, MS.
- «Educational Trends in the Arab World.» Text of talk to the AUB Board of Trustees, 22/4/1959. 6 pages, TS.
- «The Use of History for Arab Students.» Outline of talk to the AUB Students' Historical Society, 23/11/1959. 4 pages, MS.
- «Abiding Truths.» Text of talk delivered on the Founders' Day Convention, 28/4/1960. 11 pages, TS.
- Text of Convocation speech, 21/12/1960. 5 pages, TS.
- Text of address at Capping Service of the AUB School of Nursing, 20/2/1961. 5 pages, TS.
- Text of a Tribute to the Late President Penrose at the Dedication Ceremony of Penrose Hall, 27/6/1961. 6 pages, TS.
- «The Meaning of Strength.» Text of AUB Commencement address, 5/6/1964. 10 pages, TS.
- «Some Remarks on Excellence.» Text of talk at the Alumni Club, 7/5/1965. 4 pages, TS.
- «The AUB at the Present Juncture.» Text of speech delivered on the Occasion of AUB's 102nd Anniversary Founder's Day Convocation, 4/12/1967. 7 pages, TS.
- «The Meaning of Progress.» Outline of talk to the Student Assembly of the

Faculty of Agriculture, 13/1/1968. 5 pages, MS.

- «Minute in Memory of Nabih A. Faris.» Text of proposal to the Faculty of Arts and Sciences in its Meeting, 5/3/1968. 3 pages, TS.
- «Nabih Amin Faris.» Text of address on behalf of the Department of History and Archeology at the Memorial Service for Nabih Faris Held at Assembly Hall, 18/4/1968. 6 pages, TS. (Published in *Faculty Bulletin*, 11/19 (27/4/1968), p. 3. Arabic Translation, 3 pages, TS).
- «Is History Bunk?» Outline of talk at a panel organized by the Students' History Society, 18/3/1969. 3 pages, MS.
- «The Significance of May 15^{th}.» Outline of talk to the Student Body in AUB and Beirut College for Women, 15/5/1969. 5 pages, MS.
- «Inter-University Cooperation.» Outline of lecture to the Colloquium on Higher Education for University Administrators at the AUB, 31/7/1969. 5 pages, TS. (The Text of the lecture was addressed to Dr. Cajoleas, Assistant Provost, on 14/11/1969. 18 pages, TS. Published in *Addresses Presented at the 1969 Colloquium on Higher Education for University Administrators in the Middle East* (Pamphlet), 16/7-1/8/1969, pp. 198-207.
- «Problems Facing Universities Today.» Outline of speech delivered at the Annual Dinner of the Alpha Omega Medical Society at AUB, 14/11/1969. 7 pages, TS.
- «The Arabs in a Changing World.» Outline of lecture in AUB Orientation Series, 17/12/1969. 4 pages, MS.
- «True Universal Aspects of Arab Culture.» Outline of speech, 26/11/1970. 3 pages, MS.
- «Partition of Palestine.» Outline of talk to the Engineering Assembly, 6/12/1971. 6 pages, MS.
- «Mission of AUB.» Outline of talk, 15/12/1971. 4 pages, MS.
- «The Crisis of the University.» Outline of talk to the 1^{st} Year Engineering Students, 16/11/1972. 5 pages, MS.
- «The Arab World Today.» Outline of talk to the AUB Board of Trustees, 4/7/1973. 5 pages, MS.
- «Some Facts about the Arab World.» Outline of talk to Guest Medical Students of the AUB Medical Society, 17/7/1973. 3 pages, MS.
- «Arab Nationalism.» Outline of lecture to Cultural Studies, 10/6/1974. 6 pages, MS.
- «Tensions in the Arab World.» Outline of talk to AUB Trustees at their Beirut Meeting, 2/7/1974. 7 pages, MS.
- «The University Today.» Outline of lecture at the Summer School Adminis-

trators' Colloquium, 23/7/1975. 4 pages, TS.

- «The Plight of Universities in Contemporary Times.» Text of address at the Third Annual Convention of the AUB Alumni Association of North America, 7/11/1987. 14 pages, TS. (Published in *AUB Newsletter*, 17/1 (Winter 1988), pp. 15-16).
- «Aspirations for the AUB in the 21^{st} Century.» Text of address to the World Wide Convention of AUB Alumni on occasion of the 125^{th} Anniversary of the University, 23/7/1991. 14 pages, TS. (Published in *American Arab Affairs*, no. 37 (Summer 1991), pp. 52-56, and in *Al-Kulliyah*, Special issue 1992, pp. 22-24).

AUB Chapel Talks:

- «Cynicism.» Outline, January 1932. 15 pages, MS.
- «Muslim Mysticism.» Outline, 30/4/1932. 8 pages, MS.
- «War.» Outline, 4/11/1932. 3 pages, TS.
- «Exploitation of the Lower Classes.» Outline, November 1932. 4 pages, TS.
- «The Aims of the New Social Order.» Outline, November 1932. 3 pages, TS.
- «What does Religion Mean to the Modern Man and Woman?» Outline, 1933. 3 pages, MS.
- «An Abundant Spiritual Life.» Outline, 13-18/12/1933. 11 pages, TS.
- «Some Simple Questions on Life.» Outline, 5-11/3/1934. 17 pages, TS.
- «The Spiritual Aspects of Nationalism.» Outline, 23, 25, 27/5/1935. 11 pages, TS and 11 pages, MS.
- «The Spiritual Regeneration of a Nation.» Outline, 26, 28, 30/5/1935. 16 pages, TS.
- «The Role of Personality in a College Man's Philosophy of Life.» Outline, 9/11/1936. 5 pages, TS.
- «Categories of Men.» Outline, 22, 24, 26/1/1940. 8 pages, TS.
- «Respect for the Spoken Word.» Outline, 29, 31/5/1940. 4 pages, TS.
- «Discipline.» Outline, 4-8/11/1940. 6 pages, TS.
- «Perfection.» Outline, 24-28/2/1941. 8 pages, TS.
- «Our Battles.» Outline, 8, 12/12/1941. 3 pages, TS.
- «Decision.» Outline, 16, 20/3/1942. 4 pages, TS.
- «Education as the Seeking of the Best.» Outline, 17/11/1942. 4 pages, TS.
- «The Moral Aspects of Intellectual War.» Outline, 14, 16/4/1943. 5 pages, TS.
- «How to Overcome Sectarian Prejudices.» Outline, 21/11/1943. 7 pages, MS.
- «The Few.» Outline, 13, 15, 17/11/1944. 9 pages, TS.
- «Living in Crisis.» Outline, 30/4/1948.
- «Decision.» Outline, 3/1/1949. 5 pages, MS.

- «Defense of Education.» Outline, 9, 11, 13/5/1949. 11 pages, MS.
- «Work, Discipline, Unity.» Outline, 27, 29, 31/10/1952. 11 pages, MS.
- «How to Achieve Security in the Present World Situation.» Outline, 5, 7, 9/1/1953. 6 pages, MS.
- «Jalal al-Din al-Rumi.» Outline, 18, 20/2/1953. 4 pages, MS.
- «To Make Sense of Life.» Outline, 21/10/1953. 4 pages, MS.
- «Work.» Text, 2/11/1953. 3 pages, TS.
- «Teaching.» Outline, 4/11/1953. 2 pages, TS.
- «Feu et joie.» Text, 4, 6/1/1954. 6 pages, TS.
- «Living in Crisis.» Outline, 21, 23/2/1954. 3 pages, TS.
- «Ramadan Self-Discipline.» Outline, 2/4/1954. 3 pages, MS.
- Untitled Text, 12/4/1954. 3 pages, TS. (Published in *Outlook*, 17/4/1954).
- «Living in the Company of Books.» Outline, 31/5/1954. 3 pages, MS.
- «The Courage to Be.» Outline, 18, 20/10/1954. 8 pages, MS.
- «The Achievement of Fortune.» Outline, 21, 23/2/1955. 4 pages, TS.
- «Consciousness of Others.» Outline, 12, 13/4/1955. 3 pages, MS.
- «Particulars and Universals.» Outline, 14, 16/11/1955. 7 pages, MS.
- «Time and History.» Outline, 3/1/1956. 4 pages, MS.
- Outline of Talk to Last Chapel Service, 6, 7/6/1956. 3 pages, MS.
- «Development of your Resources.» Outline, 16, 18/10/1956. 4 pages, TS.
- Untitled Outline. 30, 31/10/1956. 2 pages, MS.
- «Being both within and without.» Outline, 7, 8/1/1957. 6 pages, MS.
- «The Uncommon Man.» Outline, 25, 27/2/1957. 8 pages, MS.
- «Profitable Use of Summer Vacation.» Outline, 3/6/1957. 6 pages, MS.
- Untitled Outline. 5, 6/6/1957. 4 pages, MS.
- «Faith and History.» Outline, 15/3/1960. 6 pages, MS.
- «Reflections in Time.» Text, 7/1/1965. 2 pages, TS.

4) Administrative Reports and Memoranda

- «Annual Report 1952-1953.» in *Annual Report 1952-1953*. Beirut: American University of Beirut, pp. 1-19.
- «Annual Report 1954-1955.» in *Annual Report 1954-1955*. Beirut: American University of Beirut, pp. 1-21.
- «The Organization of the University.» Report written for the Organization Committee of the AUB, 13/10/1964. 15 pages, TS.
- «A Reaffirmation of the Objectives of the AUB.» Report Prepared for the Board of Trustees, 4/11/1964. 7 pages, TS.

- Text of Forward to the Report on the Montreal Conference of IAU, August 1971. 4 pages, TS.
- Transcript of Remarks: Text of a Revised Transcript at Executive Session of the AUB Board of Trustees' Meeting, 5/11/1973. 6 pages, TS.
- «Regional Needs and the Role of Arts and Sciences.» Text of Introductory Remarks at the panel on this Subject Held at the Conference on «The Arts and Sciences and the Future,» 4/1/1975. 3 pages, TS.

5) Media Contributions

- Draft Text of a Recorded Talk to BBC Television, 4/1/1965. 2 pages, TS.

6) Miscellaneous Writings

- «The Ideals and Activities of Arab Youth.» Prepared at the request of Hans Kohn, unpublished, 30 pages [1933], TS.
- «Historical Background of the AUB.» Text of Article, 18/7/1966. 3 pages, TS.
- «The Relevance of Traditional Cultures in an Age of Accelerating Change.» Text written for the *Festschrift* in Honor of John Marshal of the Rockefeller Foundation and sent to its Editor, 22/1/1971. 10 pages, TS. (Published in Buachard, John, ed. *Thoughts from the Lakes of Time* (A group of essays in honor of the Villa Serbelloni and especially of John and Charlotte Marshal). New York, 1971, pp. 169-178).
- Text of observations regarding speeches of President Franjie and Mr. Yaser Arafat at the UN General Assembly, 15/11/1974. 2 pages, TS.
- «Issues in Arabo-Islamic Civilization.» Outline of Article, 1978. 4 pages, MS.
- «The Message of Islamic Civilization.» Text written at the request of Mahmoud Zayed, 22/12/1979. 5 pages, TS.
- «The Arab World in Face of the Future.» Outline of article, Autumn 1983. 11 pages, MS.
- «Arab Higher Education: Problems and Demands.» Text of Article [n.d]. 10 pages, MS.
- «Whither Arab Nationalism?» Outline of Article [n.d]. 4 pages, MS.

المؤلف

ولد المؤلف في دمشق ودرس العلوم الاجتماعية والفلسفة والتاريخ في بيروت وألمانيا وبريطانيا، حيث حاز درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد. درّس وشغل منصب أستاذ كرسي وأستاذ ممتاز في الدراسات العربية والإسلامية في جامعات عربية وغربية. كتبه بالعربية: ابن خلدون وتاريخيته؛ الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية؛ التراث بين السلطان والتاريخ؛ العرب والبرابرة؛ العلمانية من منظور مختلف؛ دنيا الدين في حاضر العرب. ترجمت مؤلفاته إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والسويدية والإسبانية والتركية والفارسية والمجرية والصينية والعربية.

الكتاب

يتناول هذا الكتاب حياة وفكر إحدى كبار الشخصيات العربية في القرن العشرين، شخصية قدمت مساهمات رئيسية إلى الفكر القومي العربي وإلى الفكر التاريخي والتربوي عربياً وعالمياً. يفتتح الكتاب فصل يتناول حياة ونشاط الدكتور قسطنطين زريق في سياق التاريخ العربي الحديث، ويتناول على وجه الخصوص نشاطه السياسي القومي العربي ومساهماته في بناء المؤسسات التربوية، إضافة إلى نشاطه العام سفيراً ورئيساً لجامعة دمشق وللرابطة العالمية للجامعات ورئيساً بالوكالة للجامعة الأميركية في بيروت، تلك المؤسسة التي قضى جل حياته في خدمتها. ثم ينتقل الكتاب لتناول مساهمته في إشادة أسس الفكر القومي العربي، ونظريته في الحضارة والتقدم وفي مستقبل المجتمعات العربية، ومساهمته في تدريس ورعاية علم التاريخ. ويختتم الكتاب بفصل يتناول علاقة فكر زريق بالتيارات القومية وغيرها التي اعتملت في الحياة العربية الحديثة، وتقييم تركته الفكرية في سياق التجربة التاريخية للعرب في القرن العشرين.


ISBN 9953-9013-8-4

$ 8.00